مكتبة نوبل ١٩٤٩

وليم فوكنر

أبشالوم، أبشالوم!

فريق متميزون
E-BOOK

ترجمة: سيزار كبيبو

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أبشالوم, أبشالوم!

«وليم فوكنر»

ترجمة: سيزار كبيبو

عن الرواية..

هي رواية للمؤلف الأمريكي ويليام فوكنر، نُشرت لأول مرة في عام 1936. وتقع أحداثها قبل، وخلال، وبعد الحرب الأهلية، هي قصة لثلاث عائلات من الجنوب الأمريكي، وتُركز على حياة توماس سوتبّن.

أبشالوم! أبشالوم! تصف نهوض وسقوط توماس سوتبّن، وهو رجل أبيض وُلد حالة فقر في فيرجينيا الغربية والذي يأتي إلى مسيسيبّي مع أهداف تتميمية في أن يكسب ثروة ويُصبح مؤسسًا لعائلة قوية. تُسرد القصة بشكل كامل على شكل ذكريات من الماضي يرويها في الأغلب كوينتين كومبسون لزميله في الغرفة في جامعة هارفارد، شريفّ، والذي يساهم بشكل متكرر باقتراحاته وتكهناته الخاصة. حكاية روزا كولدفيلد، ووالد كوينتين وجده، مُضمَّنون ومُعاد تفسيرهم من قبل شريفّ وكوينتين، مع انكشاف مجمل أحداث القصة في ترتيبٍ غير متزامن وغالبًا مع تفاصيل مختلفة. نتج عن هذا كشفٌ مُعمَّقٌ لقصة سوتبّين الحقيقية. تَسرد رزوا القصة في البداية لكوينتين كومبسون، والذي كان جده صديقًا لسوتبّين، مع انحرافاتها الطويلة عن الموضوع وذاكرتها المتحيزة. يعطي بعد ذلك والد كوينتين بعض المعلومات لكوينتين. وأخيرًا، يحكي كوينتين القصة لزميله في الغرفة شريفّ، وفي كل إعادة رواية للقصة، يتلقى القارئ تفاصيلًا أكثر بسبب توسع الأطراف في القصة عن طريق إضافة طبقات. يترك الانطباع الأخير القارئ متأكدًا أكثر حول سلوكيات وتحيزات الشخصيات أكثر من حقائق قصة سوتبّين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–1–

طالت جلستهما من الثانية وبضع دقائق ظهراً حتى قرابة مغيب شمس، يوم أيلولي مديد حارق ومرهق لا يخفف غروب الشمس من وطأة قيظه، اجتمعا في المكان الذي ما تزال الآنسة كولدفيلد تدعوه المكتب جرياً على عادة والدها، وهو عبارة عن غرفة معتمة آسنة، جميع ستائرها مسدلة ومثبّتة منذ ثلاثة وأربعين صيفاً، منذ كانت في ريعان الشباب، منذ أن ارتأى أحدهم أن الضوء والهواء المتحرك يرفعان درجة حرارة الغرفة وأن الظلمة دائماً أبرد، وأصبحت (نظراً إلى أن أشعة الشمس تضرب تلك الجهة من المنزل طيلة النهار) مغطاة بشبكة من الشقوق الصفراء المليئة بذرات الغبار التي خُيّل لكونتن أنها بقع طلاء قديم متآكل قامت الستائر مقام الريح وطيّرته. عرّشت شجرة وستاريا مزهرة على إحدى النوافذ، كان هذا ثاني إزهار لها خلال ذلك الصيف، فيما امتدت أغصانها فوق شبكة خشبية، وتوافدت عليها عصافير الدوري على دفعات عشوائية، زقزقت بحناجر جافة ومتعبة ومتشنجة ثم طارت: مقابل كونتن، جلست الآنسة كولدفيلد مُتّشحة بالسواد الأبدي الذي لم يفارقها منذ ثلاثة وأربعين عاماً، سواء حداداً على أخت أو أب أو زوج روحي لم تتزوجه قط ولم يعرف أحد عنه أي شيء. جلست منتصبة الظهر على كرسي مرتفع قاسٍ فاق طول أرجله طول ساقيها، فتدلت ساقاها كخشبتين مستقيمتين، كما لو أن عظامها وكاحليها قُدّت من حديد. لم تشغل ساقاها أياً من مساحة أرض الغرفة، تحركتا في الهواء بغضب رابض وعنين، كما لو أنهما قدما طفل. روت وروت بصوت كئيب ومتعب وذاهل، إلى أن تبرّأ الإصغاء أخيراً من وعده، وأربكت كلماتها صوتها مما أفسح المجال لظهور الكائن الميت منذ زمن بعيد، مصدر إحباطها العاجز المستعصي على الشفاء، كما لو أن الحكاية المشحونة بالغضب أيقظته، فانبثق شارداً ومسالماً وغير مؤذٍ من تحت الغبار الصابر والحالم والظافر.

لم يكن صوتها ينقطع، بل يتلاشى فحسب. سادت كآبة قاتمة، تفوح منها رائحة كفن، تعززها رائحة الوستاريا المزهرة للمرة الثانية على الحائط الخارجي الذي امتصت رطوبته شمس أيلول المتوحشة والصمّاء حتى آخر قطرة، وواظبت طيور الدوري الصاخبة والمتسخة على زيارتها من حين لآخر، ترفرف بحزن مثل صبي خمول ضُرب بهراوة مرنة ومسطحة. غصّت الغرفة برائحة عطنة للحم أنثوي هرم، تحاصره العذرية وأطلّ عليه الوجه الشاحب المنهك من فوق مثلث الدانتيل الباهت المحيط بالمعصمين والعنق، فيما جلست على الكرسي الطويل للغاية الذي أظهرها مثل طفلة مصلوبة، كان صوتها لا يتوقف وإنما يغوص في فترات صمت طويلة وكأنه يغطس في جدول ماء، ثم يطفو مجدداً، كخيط مياه هزيل فوق رمل قاحل، والشبح يتأمل

باستسلام نفسه ويندب قلة حظه، فلو كان محظوظاً لوجد منزلاً يستوطنه عوضاً عن مطاردة صوت. ومن قلب رعدٍ صامت، اقتحم المشهد الساكن الرصين (رجل– حصان– شيطان) وكأنه ألوان مائية قدمتها المدرسة كجائزة، لا تزال تفوح من شعره وثيابه ولحيته رائحة كبريت خفيفة وكريهة، تتبعه حاشيته من الزنوج الجامحين كوحوش لم ينفع تدجينها سوى بجعلها تمشي على قدمين كالبشر، يهيجون ويموجون دون أدنى اكتراث بأي شيء، يتوسطهم المهندس المعماري الفرنسي المتجهم المنهك، ثيابه مهلهلة ويداه مقيدتان بالأصفاد. جلس سائس الخيل جامداً، لحيته كثة وراحة يده مرفوعة، وخلفه احتشد الزنوج الهائجون والمهندس المقيّد، يحملون في مفارقة غير دموية مجارفَ ومعاولَ وفؤوساً على أهبة الاستعداد لهجوم سلمي. وسط الشرود الطويل، بدا كونتن وكأنه يراقبهم وهم يجتاحون فجأة المئة ميل مربع من الأرض المطمئنة والمشدوهة، ويجرّون خلفهم بعنف المنزل والحدائق المشذبة ويسحبونها من «الفراغ» الواجم، ويضربونها أرضاً كما يضربون أوراق اللعب فوق طاولة مستسلمة تحت الكف المفتوح البابوي الجامد، ليشكلوا مزرعة ستبن التي تمتد على مساحة مئة ميل مربع، لتكن مزرعة ستبن كما هو مقدر لها أن تكون لتعود كما الأيام الخوالي فكان النور [1]. ثم سيتصالح السمع مع نفسه وسيبدو أنه يصغي إلى كونتينين اثنين منفصلين– كونتن كمبسن الذي يستعد للدخول إلى جامعة هارفرد في الجنوب، الجنوب القصي الميت منذ عام 1865 والذي تسكنه أشباح ثرثارة وغاضبة ومرتبكة، يصغي، عليه أن يصغي، لشبح يأبى أن يتلاشى، لفترة أطول مما فعله معظم الأشباح الآخرين، يقص عليه حكايا قديمة عنهم، وكونتن كمبسن الذي كان لا يزال صغيراً جداً كي يستحق أن يكون شبحاً ولكن مع ذلك عليه أن يفتدي الجميع، لأنه ولد وترعرع في الجنوب القصي مثلها– تحدث الكونتانان المنفصلان الآن إلى بعضهما البعض وسط صمت مطبق مخيّم بعد اختفاء البشر واللغة، ويدور بينهما الحوار التالي/ يبدو أن هذا الشيطان– اسمه كان ستبن (كولونيل ستبن)– كولونيل ستبن. جاء من اللامكان ودون سابق إنذار ومعه فرقة من الزنوج الغرباء وبنوا مزرعة– (دمّر دون رحمة إحدى المزارع، حسب ما تقوله الآنسة روزا كولدفيلد)– دمّرها عن بكرة أبيها. وتزوج أختها إلين ورُزقا بصبي وبنت (يفتقران إلى النبل، حسب ما قالت الآنسة روزا كولدفيلد)– يفتقران إلى النبل. كان على الولدين أن يكونا تاج فخره ودرعه وعكّازه في شيخوخته– فقط– (لكنهما حطماه أو شيء من هذا القبيل أو هو حطمهما أو شيء من هذا القبيل، ومات)– ومات. دون أسف، لم يأسف أحد عليه سوى الآنسة روزا كولدفيلد– (باستثنائها) أجل، باستثنائها. (وباستثناء كونتن كمبسن) نعم. وباستثناء كونتن كمبسن.

قالت: «لأنك سترحل لتلتحق بجامعة هارفرد، لقد أخبروني بهذا. لذا أظن أنك لن تعود إلى هنا وتستقر مثل أي محامٍ قروي في بلدة صغيرة مثل جفرسون، فالشماليون يعتقدون أنه لم يعد في الجنوب ما يجذب الشباب. ولهذا ربما ستدخل إلى عالم الأدب كما يفعل الكثير من السادة والسيدات الجنوبيين أيضاً الآن، وربما في يوم ما ستتذكر هذا وتكتب عنه. ستكون متزوجاً حينها وأتوقع أن زوجتك سترغب بثوب جديد أو كرسي جديد ويمكنك الكتابة عن هذا وإرساله إلى المجلات لنشره. ربما قد تتذكر بحنو حينها السيدة العجوز التي جعلتك تقضي فترة العصر بأكملها جالساً في البيت، تستمع إليها وهي تتحدث عن أناس وأحداث كنت محظوظاً بما يكفي للنجاة منها لأنك من جيلٍ آخر».

قال كونتن: «نعم سيدتي». قال لنفسه: لكنها لم تعني ذلك. أرادت للحكاية أن تُروى. لم يكن الوقت حينها قد حان لروايتها. لا يزال يحتفظ في جيبه بالورقة التي استلمها باليد من صبي زنجي قبل منتصف النهار، تطلب منه الاتصال بها كي يلتقيا– كان الطلب المغرِي الرسمي الصارم أشبه باستدعاء، استدعاء من عالم آخر على الأغلب، كُتب على ورقة غريبة منسيّة مقتطعة من دفتر ملاحظات مرتب وقديم، كتبت بخط أنيق باهت وبأحرف منمنمة، وبسبب دهشته من طلب سيدة تكبره بثلاث مرات، عرفها منذ نعومة أظفاره لكنه لم يتبادل معها أكثر من مئة كلمة، أو ربما لدهشته من حقيقة أن عمره كان عشرين عاماً فقط، لم يدرك أن خط يدها يشي بشخصية باردة وحقودة لا مكان في قلبها لذرة رحمة. لبّى مذعناً طلبها مباشرة بعد أن فرغ من غدائه، ومشى النصف ميل الذي يفصل منزله عن منزلها، مصارعاً طقس أول أيلول الحار والجاف والمغبرّ، القيظ خانق داخل المنزل أيضاً (بدا المنزل أصغر بكثير من حجمه الحقيقي– مكوناً من طابقين– غير مطلي ومتسخاً بعض الشيء، لكن أجواءه خاصة رغم ذلك، ويتسم بميزة توحي بأنه يكابد بكآبة، وكأنه على غرارها خُلق ليكمل عالماً أصغر بقليل ومن كافة النواحي من العالم الذي وجد نفسه فيه، ليس هذا فحسب بل خُلق ليتناسب حجمه مع حجم هذا العالم أيضاً) حيث تخيّم كآبة الرواق ذي النوافذ المغطاة بألواح خشبية، والهواء خانق أكثر من الخارج، كما لو أنه قبر يحبس داخله تنهيدات ثلاثة وأربعين عاماً خرجت من صدر زمن رتيب مثقل بالقيظ، من صدر الطيف الضئيل الذي يتشح بالسواد ولم تصدر عنه ولا حتى همسة واحدة، من مثلث الدانتيل الباهت على المعصمين والعنق، من الوجه الشاحب الذي ينظر إليه وتعلوه أمارات التأمل والاستجداء والعناد، ويتوق لدعوته للدخول.

فكر بينه وبين نفسه: هذا لأنها تريد للحكاية أن تُروى فيقرؤها أناس لن تراهم مطلقاً ولن تسمع بأسمائهم أبداً ولم يسمعوا باسمها قط ولم يروا وجهها، فيعرفون أخيراً لماذا كتب الله علينا الهزيمة في الحرب: وأن الله استطاع فقط من خلال دماء رجالنا ودموع نسائنا إعاقة هذا الشيطان ومحو اسمه

وإخفاء سلالته من على وجه الأرض. ثم وبعد وهلة أدرك أنها لم ترسل الورقة لهذا الغرض، لماذا أرسلتها له بالذات، فلو اقتصر كل ما تريده على رواية الحكاية، أو كتابتها أو طباعتها، لما احتاجت مساعدة أحد– سيدة كرّست نفسها حتى عندما كان والده (والد كونتن) شاباً بوصفها (على نطاق ضيّق) شاعرة البلدة والمقاطعة الموهوبة، وكوّنت اسماً عبر إغراق صحيفة المقاطعة المتواضعة بقصائد شعرية وغنائية وقصائد مدح ورثاء، مستوحاة من مخزون مرير متصلّب عنيد، قصائد كتبتها سيدة تعرف كل البلدة والمقاطعة أن أباها رفض أداء الخدمة العسكرية لأسباب دينية، وقضى جوعاً في علية منزله، وقد اختبأ (ويقول البعض إنه احتجز نفسه) هناك هرباً من الشرطة العسكرية الكونفدرالية ودأبت ابنته هذه نفسها على إطعامه سراً تحت جنح الظلام، كانت الابنة في الوقت نفسه تعمل على ملفها الأول الذي نقشت فيه أسماء المندحرين الخائبين عقب خسارة القضية، كتبت أسماءهم اسماً اسماً، واسم ابن الأخت الذي خدم لمدة أربع سنوات في فرقة الجيش نفسها التي خدم فيها خطيب أخته، ومن ثم أطلق النار على الخطيب فأرداه قتيلاً أمام بوابات الدار الكبيرة التي جلست فيها الأخت مرتدية ثوب زفافها تنتظر عريسها ليلة زفافهما، ثم لاذ بالفرار، اختفى، لم يعثر أحد على أي أثر له بعدها.

عليه أن ينتظر ثلاث ساعات قبل أن يعرف سبب إرسالها في طلبه، فقد كان كونتن على علم بهذا الجزء من الحكاية، يعرف مطلعها، لأن بدايتها كانت جزءاً من موروث سنواته العشرين، من موروثٍ عرفه عبر تقاسم الهواء نفسه مع والده وسماع أحاديثه عن الرجل الذي كان جزءاً من تاريخ بلدة جفرسون على مدار ثمانين عاماً، موروث الهواء الذي تنفسه الرجل بين عصر هذا اليوم من شهر أيلول في العام 1909 وصباح ذلك الأحد من شهر حزيران في العام 1833 عندما دخل على صهوة جواده إلى البلدة للمرة الأولى قادماً من ماضٍ لا يمكن التكهن به واشترى أرضه بطريقة ما وبنى داره الكبيرة، قصره، من العدم على ما يبدو، وتزوج إلين كولدفيلد ورزق بطفليه– الابن الذي كان السبب في ترمل الابنة قبل أن تصبح عروساً– ثم واصل مصيره المقدّر عليه إلى أن بلغ نهايته المأساوية (النهاية التي ستصفها الآنسة كولدفيلد بأنها عادلة على أقل تقدير). ترعرع كونتن على هذا الموروث: كان من الممكن استبدال الأسماء الصرفة التي لا حصر لها تقريباً. عجّت طفولته بها، أضحى جسده نفسه ردهة فارغة يتردد فيها صدى أسماء رنّانة مهزومة. لم يكن كائناً أو كياناً، بل رابطة شعوب. كان ثكنة مليئة بأشباح عنيدة في طور التعافي، لم تشفَ حتى بعد مرور ثلاثة وأربعين عاماً من إصابتها بالحمّى التي أسهمت في شفاء مرضها [2]، برؤت من الحمّى دون أن تعي أنها صارعت الحمّى وليس المرض، نظرت بتمرد عنيد إلى الحمّى، وبندمٍ حقيقي إلى

المرض، هشة بفعل الحمّى، ولكنها تعافت من المرض غير مدركة أن تعافيها كان هشاً بدوره.

(«ولكن لماذا تخبرني عن الحكاية؟» سأل والده في تلك الأمسية، عقب عودته إلى البيت، بعد أن سمحت له أخيراً بالانصراف لكن ليس قبل أن يقطع لها وعداً بالعودة مجدداً عندما ترسل له العربة. «لماذا تخبرني عن هذا؟ ما شأني بأن قطعة الأرض أو الأرض برمتها أو أي أرض قد سأمت وتعبت منه أخيراً فانقلبت عليه ودمرته؟ ماذا لو دمرت عائلتها أيضاً؟ ستنقلب علينا وتدمرنا جميعاً يوماً ما، سواء كانت أسماؤنا تحمل اسم عائلة ستبن أم كولدفيلد أو لا تحمل أياً من هذين الاسمين».

قال السيد كمبسن: «يا ويلنا، قبل سنوات، حرصنا نحن الجنوبيين على معاملة نسائنا كسيدات. ثم دارت رحى الحرب وحوّلت النساء إلى أشباح. ما الذي بوسعنا فعله غير ذلك، غير أن نعاملهن بنبل، نستمع إليهن وقد تحولن إلى أشباح؟». ثم أردف: «هل تود معرفة السبب الحقيقي لاختيارها لك؟». كانا جالسين على الشرفة بعد العشاء، بانتظار الموعد الذي حدّدته الآنسة كولدفيلد لكونتن للاتصال به. «لأنها ستحتاج إلى شخص يجاريها، رجل، نبيل، ما زال شاباً بالقدر الكافي لفعل ما تريده، وبالطريقة التي تريدها. وقد اختارتك لأن جدك كان الأقرب إلى ستبن، والأميل لأن يعتبره ستبن صديقه الوحيد على الإطلاق في هذه المقاطعة، ربما تعتقد أن ستبن قد أخبر جدك شيئاً ما عنه وعنها، عن تلك الخطوبة التي لم تحدث، ذلك العهد الذي لم يُكتب له أن يزهر. ولربما أخبر جدك عن سبب رفضها في نهاية المطاف الزواج منه. وأن جدك لربما أخبرني فأخبرتك بدوري. ولهذا، بمعنى ما، فإن العلاقة، بصرف النظر عما سيحدث هناك الليلة، ستظل شأناً عائلياً، سيبقى الهيكل العظمي (إن كان هيكلاً عظمياً) في الخزانة ولن يُماط اللثام عن الحقيقة. ربما حسبتْ أنه لولا صداقته لجدك، ما كان ستبن ليحظى بموطئ قدم هنا قط، وأنه لو لم ينجح في تثبيت قدميه هنا، لما كان بوسعه الزواج من إلين. ولهذا ربما تعتبرك مسؤولاً جزئياً، وأنك ورثت مسؤولية ما فعله بها وبعائلتها»).

ومهما كان سبب اختيارها له، سواء كان السبب الذي رجّحه السيد كمبسن أم سبباً آخر، فإن معرفة السبب استغرقت وقتاً طويلاً حسب رأي كونتن. في هذه الأثناء، وكما لو أن ثمّة تناسباً عكسيّاً بين الصوت المتلاشي والشبح المتخيل للرجل الذي لم تستطع مسامحته أو الانتقام لنفسها منه، بدأ الشبح يكتسب صفات أقرب إلى الصلابة والديمومة. كان محاطاً ومطوقاً برائحة جحيمه الكريهة، بهالة عجزه عن الانبعاث، يتأمل (تأمل وفكر، بدا أن لديه أحاسيسَ، كما لو أنه، برغم افتقاره للسكينة– لم يكن للإرهاق أن ينال منه

على أي حال– وعلى الرغم من إصرارها على حرمانه من السكينة، فقد كان لا يزال وبشكل كامل خارج نطاق أذيتها أو ضررها). وقد أضحى الآن مسالماً شارد الذهن وغير مؤذٍ– الشكل العملاق الذي فكّك نفسه وتحلّل، على إيقاع صوت الآنسة كولدفيلد المتواصل، أمام عيني كونتن ليصير الولدين نصف العملاقين، وشكّل ثلاثتهم خلفية ضبابية لهيئة الرابع. كانت هذه الأم، أختها الميتة إلين: نيوبي [3] لكن بمآقٍ جافة، التي تراءت للشيطان على هيئة كابوس، وتحركت بلا روح حتى وهي على قيد الحياة وحزنت دون نواح، تحيط بها هالة الخراب الهادئ الفطري، ليس لأنها عاشت عمراً أطول منهم أو ماتت قبلهم، ولكن لأنها لم تعش على الإطلاق. خُيّل لكونتن أنه يراهم، كان الأربعة مرتبين في عمود تقليدي لأحد أعمدة المجموعات في الجدول الدوري للعناصر الكيميائية، مصفوفين بأناقة رسميّة خالية من أي حياة، يبصرهم الآن بالشكل الذي كانت ستبدو عليه الصورة الباهتة والعتيقة المكبّرة والمعلقة على الجدار وراء وفوق الصوت الذي لم تكن صاحبته مدركة لوجودها، كما لو أن عينيها (عيني الآنسة كولدفيلد) لم تقعا من قبل على هذه الغرفة– صورة يظهر فيها عمود مجموعة بدت حتى بالنسبة إلى كونتن غريبة ومتناقضة وشاذة، عصيّة على الفهم، وليست صحيحة تماماً (ولا حتى بالنسبة لشاب في العشرين من عمره)– مجموعة فارق آخر عضو فيها الحياة قبل خمسة وعشرين عاماً، وأول عضو وافته المنيّة قبل خمسين عاماً، وانبعثت الآن بفعل كآبة الهواء الفاسد المخيّمة على المنزل الميت بين تجهُّم سيدة عجوز وتصلّب قلب حاقد وغيظ سلبي لشاب في العشرين من عمره يقول لنفسه رغم الصوت المحيط به ربما يتطلّب حب أحدهم أن تعرفه حق المعرفة، ولكن إن كنت تكره أحدهم على مدار ثلاثة وأربعين عاماً فإن معرفتك الجيدة ستفوّت عليه فرصة مفاجأتك ولو بعد ثلاثة وأربعين عاماً وستكون خارج نطاق أذيتهم. وربما كان (الصوت، الحديث، الدهشة المرتابة التي تفوق الاحتمال) صرخة مدوية في يوم ما، فكر كونتن بينه وبين نفسه، في زمن بعيد عندما كانت صبيّة– شابة حديدية لا يعرف الندم طريقاً إلى قلبها، ابنة ظروف عمياء وأحداث متوحشة، ولكن هذا ليس حالها في الوقت الحاضر: الآن هي مجرّد جسد هرم، وحيدة ومحبطة ومكبّلة منذ ثلاثة وأربعين عاماً بالإهانة القديمة، مجرد غضب قديم متعطش للانتقام، تلقى طعنة قاضية وقاصمة بموت ستبن:

«لم يكن رجلاً نبيلاً. حتى هذه لم يكنها. جاء إلى هنا وبحوزته حصان ومسدسان واسم لم يسمع به أحد من قبل، ولا أحد يعرف على وجه اليقين إن كان هذا اسمه الحقيقي، والشيء نفسه ينطبق على حقيقة ملكيته لحصانه أو للمسدسين، كان ينشد ملجأ يلوذ فيه ووفرت له مقاطعة يوكناباتوفا هذا. سعى للحصول على كفالة رجال ذائعي الصيت ليحموه من الآخرين، ولاحقاً من غرباء قد يأتون لإلحاق الضرر به بدورهم، وقدمت له

جفرسون هذا ومنحته الحماية. ثم تاق للمنزلة والرفعة، لدرع سيدة فاضلة، تعزّز مكانته لتكون منيعة حتى في وجه الرجال الذين وفّروا له الحماية في ذلك اليوم المُحقق وتلك الساعة المحتومة التي كان عليهم فيها أن يواجهوه بازدراء وهلع وغضب. وكان والدي ووالد إلين هو من حقّق له مراده. ويحي، لا يمكنني الدفاع عن إلين: حمقاء رومانسية عمياء، كان الشباب وعدم الخبرة هما مبرراها الوحيدان إن بحثنا لها عن أعذار؛ الحمقاء الرومانسية العمياء، ثم لاحقاً الأم الحمقاء العمياء حينما لم يعد الشباب أو قلة الخبرة مبررين لها، عندما استلقت على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة في تلك الدار التي قايضتها بكبريائها وسلامها لم يكن هناك أحد إلى جوارها لا الابنة التي كانت تشبه أرملة لم يُكتب لها أن تكون يوماً عروساً، وأصبحت بعد ثلاث سنوات، أرملة بالفعل ولا شيء آخر، ولا الابن الذي أنكر السقف الذي ولد تحته والذي سيعود إليه مرة أخيرة قبل الاختفاء للأبد، بوصفه قاتلاً بل وقاتل أخته بشكلٍ أو بآخر، نذلاً قميئاً وشيطاناً، وعندما اشتعل القتال في فرجينيا– حيث كانت الفرصة الكبرى لمحوه عن وجه الأرض، لكن أنا وإلين عرفنا أنه سيعود، كما عرفنا أن جميع المقاتلين في جيوشنا سيسقطون أمام رصاصة أو قذيفة، وأنا، أنا الطفلة، الطفلة، انتبه، التي تصغر بأربع سنوات ابنة الأخ نفسها التي طلبت مني إلين إنقاذها، التفتت نحوي وقالت: «احميهما، احمي جوديث على الأقل». أجل، كانت حمقاء رومانسية عمياء، لم تمتلك حتى تلك المزرعة ذات الأميال المائة التي أثارت إعجاب والدي ولا تلك الدار الكبيرة، ولم تستعبد الرقيق الذين كانوا تحت أقدامها ليل نهار، الاستعباد الذي تصالحت معه عمتي، ولا أقول أعجبها. كلا: لا شيء لها سوى وجه رجل تدبّر أمره بدهاء ليتمكن من المشي بخيلاء حتى وهو على صهوة جواده– رجل حسب معرفة الجميع حتى الآن (بمن في ذلك الأب الذي كان سيهبه ابنته ليتزوجها) إما بلا ماضٍ أو أن له ماضياً لا يجرؤ على الكشف عنه– رجل دخل البلدة على صهوة حصانه قادماً من مكان مجهول وبحوزته حصان ومسدسان وقطيع من الوحوش البريّة التي اصطادها بيديه العاريتين لأن خوفه كان أقوى من خوفهم حتى في المكان الوثني الذي هرب منه، إضافة إلى ذلك المهندس المعماري الفرنسي الذي بدا وكأن الزنوج طاردوه واصطادوه– رجل هرب إلى هنا واختبأ، أخفى نفسه خلف ستار من الوقار، تمترس خلف أميال الأرض المئة التي سلبها من قبيلة هندية جاهلة، لم يعرف أحد قط الوسيلة التي اتبعها لتحقيق ذلك، وخلف دارٍ بحجم محكمة وظل لثلاث سنوات دون نافذة أو باب أو هياكل أسرّة، ورغم ذلك حملت اسم مزرعة ستبن، كما لو كانت عطيّة أبدية لا تُرد وهبها أحد الملوك لجده الأكبر– تلقى برضا المنزل والمكانة الرفيعة والزوجة والعائلة التي كانت من ضرورات التخفي، إلى جانب ما تبقى من وقار، كما تلقى برضا القلق الحتمي وحتى الوخزات التي توجهها له

النباتات الشائكة والأشواك الرابضة في أكمة طالما أنها تهبه الحماية التي ينشدها.

«كلا: لم يكن رجلاً نبيلاً. وما كان لزواجه من إلين أو من عشرة آلاف إلين ليجعل منه رجلاً نبيلاً. لم يرغب بأن يكون هذا النوع من الرجال، ولا مأخوذاً على أقل تقدير بفكرة أن يكون كذلك. كلا، لا حاجة له بذلك فكل ما احتاجه هو اسم إلين واسم والدنا على وثيقة الزواج (أو على أي شهادة أخرى تمنحه المنزلة الرفيعة) فيتسنى للناس رؤية ما أراد لهم أن يروه أي توقيع والدنا (أو توقيع أي رجل ذائع الصيت) على صك ما لأن أبي كان يعرف من هو والده في ولاية تينيسي ومن هو جده في فرجينيا، وعرف جيراننا والناس حولنا أننا نعرف، وعرفنا أنهم عرفوا أننا نعرف، وعرفنا أنهم صدقونا وصدقوا من نكون ومن أين جئنا حتى لو كنا كاذبين، تماماً كما كان لأحدهم أن يعرف من نظرة واحدة أنه يكذب بشأن أصله وفصله وبشأن سبب مجيئه لرفضه القاطع الكشف عن أي شيء يخصّ ماضيه. ولأنه وجد نفسه مضطراً لكسب الاحترام والمنزلة للاختباء وراءهما شكّل هذا دليلاً دامغاً (في حال احتاج أحدهم إلى دليل إضافي) على أن ما هرب منه لا بدّ وأنه نقيض الوقار وأمراً قاتماً لدرجة تحول دون ذكره. كان شاباً يافعاً، في الخامسة والعشرين من عمره فقط وما من أحد في هذا العمر يتحمل طواعية مشقة وظلف تجهيز أرض بكر وتأسيس مزرعة في بلد جديد فقط من أجل المال، ما كان لشاب دون ماض يهتم ظاهرياً بالحديث عنه ليتحمل ذلك، في المسيسيبي عام 1833، حيث يعجّ النهر بعبّارات تغص بحمقى ثملين يغطيهم الألماس عقدوا العزم على هجر قطنهم وعبيدهم قبل أن تصل العبّارة إلى نيو أورلينز– لم يكن العناء متوقفاً على قضاء ليلة مضنية على صهوة جواده ومسألة أن يجد نفسه مكان من يطلق عليهم اسم الرعاع أو خطر رميه على جرف رملي في مكان ناء، مربوطاً بحبل قنّب. ولم يكن الابن الأصغر في عائلة وأرسله والده من مكان قديم هادئ مثل فرجينيا أو كارولينا وبحوزته فائض من الزنوج لاحتلال أرض جديدة، إذ إن كل من يرى زنوجه يكتشف أنهم ربما جاؤوا من (وهذا ما حدث على الأرجح) مكان أقدم بكثير من فرجينيا أو كارولينا ولم يكن مكاناً هادئاً على أي حال. ولأي شخص أن ينظر لمرة واحدة إلى وجهه ليعرف أنه فضّل النهر وحتمية حبل القنّب، على تحمّل ما تحمله حتى لو ساورته شكوك بأنه قد لا يجد الذهب المدفون بانتظاره في الأرض التي اشتراها.

«كلا. لا أجد أي أعذار لإلين أكثر مما أجد لنفسي. بل وأبرر لنفسي أقل مما أبرر لها، فقد راقبته على مدار عشرين عاماً، أما إلين فقد راقبته لخمس سنوات فقط. ولم يتح لها رؤيته خلالها وإنما سمعت فحسب عما يفعله من طرف ثالث، ولم تسمع أكثر من نصف ما فعله خلال هذه السنوات الخمس، لأن النصف مما فعله في تلك الفترة بقي مجهولاً ولم يعرفه أحد أبداً، أما

النصف الآخر فما كان لرجل أن يردده على مسامع زوجته، فما بالك بأن يقوله لفتاة شابة. جاء إلى هنا وبنى صندوق فرجة استمر لمدة خمس سنوات ودفعت له جفرسون لقاء المتعة التي قدمها من خلال توفير درع يحميه وعدم إخبار نسائهم عما كان يفعله. لكن كان لدي حياتي بأكملها لمراقبته، نظراً إلى أن السموات ولسبب ما ارتأت أنه من غير المناسب الإفصاح عنه، كتبت لحياتي أن تنتهي في عصر أحد أيام شهر نيسان قبل ثلاثة وأربعين عاماً، فحتى هؤلاء الذين استمتعوا لوقت قصير جداً من حياتهم ما كانوا ليعتبروا أن ما عشته يُسمى حياةً. رأيت ما حدث لإلين، أختي. رأيتها منعزلة تقريباً، تراقب هذين الطفلين الملعونين يكبران أمام عينيها ولا حيلة بيدها لإنقاذهما. رأيت الثمن الذي دفعته مقابل تلك الدار وذلك الكبرياء، رأيت الصك الذي ضمنت بموجبه العزة والقناعة والسلام، وكل ما وقّعت عليه عندما دخلت الكنيسة في تلك الليلة، يتهاوى بنداً تلو آخر. رأيت زواج جوديث وقد صار محرّماً دون عذر أو سبب ولا حتى ظلال مبرر. رأيت إلين تلفظ أنفاسها الأخيرة وما من أحد إلى جوارها سواي، أنا الطفلة التي اتكلت عليها وطلبت منها حماية من تبقّى من أبنائها، رأيت هنري يتبرأ من بيته والحقوق التي أخذها عند مولده ومن ثم يعود ليرمي حرفياً الجثمان المدمّى لقرة عين شقيقته على حواف ثوب زفافها، رأيت ذلك الرجل يعود– مصدر الشر ورأسه والذي عاش لفترة أطول من كل ضحاياه– والذي جلب إلى هذه الحياة طفلين ليدمرا حياة بعضهما البعض وحياته، ليس هذا فحسب وإنما حياتي أيضاً، ومع ذلك وافقت على زواجي منه.

«كلا، لا أبرر لنفسي، ولا أتذرع بصغر سني، فما من أحد من سكان الجنوب منذ العام 1861، سواء كان رجلاً أو امرأة أو زنجياً أو بغلاً، عرف ما هو الشباب أو تسنّت له الفرصة لأن يكون شاباً، أو لسماع معنى الشباب من شخص كان شاباً يوماً ما. لا أتذرع بصلة القربى، ففي الحقيقة كنت شابة في سن الزواج في فترة كان فيها معظم معارفي من الشبان قتلى في ساحات معارك خاسرة، ولهذا عشت معه لسنتين تحت السقف نفسه. لا أتذرع بالحاجة المادية، ففي الحقيقة وكوني سيدة يتيمة تعيش في فقر مدقع، فقد ملت وبشكل طبيعي نحو الطعام الحقيقي وليس الحماية، لإطعام ما تبقّى من أهلي: عائلة شقيقتي الراحلة، بالرغم من أنني أتحدى كل من يلوم سيدة يتيمة في العشرين من عمرها، شابة تعوزها الموارد، ترغب بتدبير أمورها، وأيضاً حماية شرف العائلة، والسمعة الحسنة لنسوة لم تشب اسمهن شائبة قط، من خلال القبول بعرض زواج مشرّف قدمه رجل لم تجد مفراً من أن يكون طعامه معيلها. والأهم من ذلك كله، لا أبرر لنفسي: شابة نجت من محرقة أحالت والديها والأمان وكل شيء إلى رماد، ورأت كافة الأشياء التي تعني الحياة بالنسبة إليها تتحول إلى أنقاض تحيط بأقدام بضعة أشخاص لهم

أشكال رجال ولكن بأسماء وقامات أبطال– شابة زُجّ بها لتتواصل على مدار اليوم والساعة مع أحد هؤلاء الرجال الذي وعلى الرغم مما كان عليه في زمن ما، وعلى الرغم مما حسبته أو عرفته عنه، فقد قاتل قتالاً مشرّفاً على مدى أربع سنوات في سبيل تراب وتقاليد الأرض التي ولدت فوقها (ومع أنه قد يكون شيطاناً متنكراً، قد رأته عيناها، حتى لو كان يشبه الأبطال شبهاً طفيفاً، في قامته وهيئته قامة الأبطال أيضاً) وهو أيضاً ناجٍ من المحرقة نفسها التي عانت منها، ولا سلاح معه ليواجه ما يخبئه المستقبل للجنوب سوى يديه العاريتين والسيف الذي على الأقل لم يتنازل عنه أبداً، ووسام الشجاعة الذي منحه إياه قائده الأعلى المهزوم. يا للعجب كان شجاعاً. لم أنكر ذلك قط. ولكن أن توضع قضيتنا وحياتنا وآمالنا المستقبلية وعزتنا الغابرة في كفة واحدة مع رجال من هذا النوع، رجال شجعان وجبابرة لكن يعوزهم التعاطف والشرف، فلا عجب إذاً أن ترجّح السماء الكفة الأخرى من الميزان ونخسر الحرب!».

قال كونتن: «معك حق يا سيدتي».

«ولكن هذا ما كان عليه والدنا، والدي ووالد إلين وآباء كل من عرفهم، من بين الأشخاص الذين اعتادوا معاقرة الكحول ولعب القمار معه ومشاهدته وهو يقاتل هؤلاء الزنوج المتوحشين، من بين الذين استطاع الفوز ببناتهم خلال لعب الورق. هذا حتماً ما كان عليه والدنا. كيف له أن يقترب من صورة الأب، على أي أساس، ما القاسم المشترك الذي يجمعهما سوى الدماثة التي تجمع بين رجلين يلتقيان في الطريق، بين رجل جاء من مكان مجهول أو من مكان لم يجرؤ على التصريح عنه ووالدنا، ما الذي يجمع بين رجل مثل ذلك وبابا– وكيل أعمال ميثودي، تاجر لم يكن غنياً ولم يفعل شيئاً على الإطلاق لتطوير ثروته وتوسيع آفاقه، ولم تسعفه مخيلته للحصول على ما يريده يوماً، رجل لم يملك أرضاً ولا عبيداً غير خادميَن عملا في البيت وحررهما حال حصوله عليهما وشرائهما، رجل لم يشرب خمراً أو يمارس الصيد أو يلعب القمار– ما الذي يجمع بين بابا ورجل حسب معلوماتي المؤكدة لم يقصد كنيسة جفرسون سوى ثلاث مرات في حياته– المرة التي رأى فيها إلين للمرة الأولى، وأثناء التحضير لمراسم زفافهما، وخلال مراسم الزفاف– رجل يمكن لكل من ينظر إليه أن يرى، حتى لو لم تظهر عليه أي أمارات حينها، أنه معتاد على امتلاك المال وجاهز لامتلاكه مجدداً وليس لديه أي وازع حول سبل الحصول عليه– كيف لذلك الرجل أن يكتشف إلين داخل الكنيسة؟ في الكنيسة، انتبه، كما لو أن عائلتنا محكومة بهلاك محتوم أو لعنة مستوطنة والله راقب ما حدث ليتأكد بنفسه من سير الأمور كما هو مقدّر لها حتى آخر لحظة. أجل، حُكم على الجنوب وعلى عائلتنا بالهلاك وحلّت عليهما اللعنة لأن أحد أسلافنا اختار تأسيس سلالته في أرض ملعونة ومحكومة بالهلاك، لم تكن

عائلتنا ملعونة، ولا آباؤنا الأولون، لكن السماء أرغمتهم على زرع بذورها في أرض وزمن ملعونين مسبقاً. ولذلك حتى أنا، طفلة أصغر من أن تعرف أكثر من ذلك، فكرت بأن إلين كانت أختي وهنري وجوديث ولدا أختي، ولكنني لم أكن أزورهم اللهمّ إلا برفقة بابا أو عمتي ولم ألعب مع هنري وجوديث مطلقاً إلا في المنزل (ليس لأنني أصغر جوديث بأربع سنوات وهنري بست سنوات: ألم تكن أنا من التفتت إليها إلين قبل موتها وقالت «احميهما»؟)– حتى أنا اعتدت أن أتساءل عما اقترفه والدي أو والد والدي قبل زواجه من والدتنا حتى يُكتب عليّ وعلى إلين التكفير عنه ولم نكن كافيتين أيضاً؛ ما الجريمة التي استدعت لعن عائلتنا لنكون أدوات فناء ذلك الرجل بل وفنائنا أيضاً».

قال كونتن: «نعم سيدتي».

«نعم»، قال الصوت الهادئ الكئيب القادم من خلف مثلث الدانتيل الباهت الجامد، والآن، ووسط الأطياف المتأملة الدمثة، بدا كونتن يشاهد انبلاج صورة فتاة صغيرة، ترتدي تنانير محتشمة وسراويل ذات كشاكش، بضفائر ناعمة مرتبة في زمن ميت. بدت واقفة، مختبئة خلف وتد السياج الأنيق في فناء أو بستان صغير كئيب لأشخاص من الطبقة الوسطى، تنظر خارجاً إلى عالم الغيلان في شارع تلك القرية الساكنة حيث تسود أجواء أطفال ولدوا في وقت متأخر من حياة ذويهم وحلّت عليهم لعنة تأمل السلوك البشري بأكمله من خلال حماقات الكبار المعقدة وغير الضرورية– أجواء كاساندرية [4]، مقيتة تخيم عليها نبوءة عميقة وصارمة عن سنوات أقدم بكثير من العمر الحقيقي لطفلة لم تكن أبداً شابة. «لأنني ولدت بعد فوات الأوان. ولدت في وقت متأخر باثنين وعشرين عاماً– طفلة سمعت أحاديث الكبار ولهذا صار وجه أختي ووجها طفليها مثل وجوه شخصيات قصص الغيلان التي تُحكى في الفترة بين العشاء والنوم، قبل وقت طويل من بلوغي السن الكافي ليسمح لي باللعب معهما، ومع ذلك التفتت إليّ تلك الأخت أثناء احتضارها، عقب اختفاء أحد طفليها وهلاكه بوصفه قاتلاً فيما حُكم على الطفلة الأخرى أن تكون أرملة قبل أن تصبح عروساً، لتقول «احميهما، على الأقل. احمي على الأقل جوديث». طفلة، لم تمنعها فطرتها الطفولية المكتسبة من تقديم ردٍّ عجزت حكمة الكبار عن تقديمه على ما يبدو: ‹أحميهما؟ ممن ومن ماذا؟ لقد وهبهما الحياة، وهل من أذية أكبر من ذلك. إنهما يحتاجان للحماية من أنفسهما›».

لا بدّ وأن وقتاً طويلاً أكثر مما ينبغي قد مضى، لا بدّ وأن الجلسة استمرت لوقت طويل، ومع ذلك، فإن الخطوط الصفراء للذرات المتخلخلة التي شكلتها أشعة الشمس تشابكت بموازاة الجدار الشفيف للحزن الذي وقف بينهما، بدت الشمس وكأنها بالكاد تتحرك. وبدا (الحديث والبوح) (بالنسبة له،

إلى كونتن) يشاطر الأحلام ميزة التمرد على المنطق والعقل، أحلام يعرف النائم أنها تراوده، أحلام تولد ميتة وتكتمل في غضون ثانية، وبرغم ذلك، فإن الميزة نفسها التي تخوّل الأحلام لدفع النائم (على الأرجح) لتصديق ما يراه– وبالتالي الشعور بالخوف أو الاستمتاع أو الدهشة– تعتمد كلية على إقرار صريح وقبول واضح للزمن الذي مرّ أو في طور المرور وكأنه موسيقا أو حكاية مطبوعة. «نعم، لقد تأخرت ولادتي كثيراً. كنت طفلة ستتذكر تلك الوجوه الثلاثة (ووجهه، أيضاً) كما رأيتهم للمرة الأولى داخل العربة في الصباح الباكر من أحد أيام الآحاد عندما أدركت هذه البلدة أخيراً أنه حوّل الطريق الفاصل بين مزرعة ستبن وبين الكنيسة إلى مضمار سباق. كنت في الثالثة من عمري، ورأيتهم دون شك هناك من قبل، لا بدّ وأنني رأيتهم من قبل. ولكن لا أتذكر ذلك. كنت لأتذكر لو رأيت إلين قبل ذلك اليوم. كانت بمثابة أخت لم تقع عيناي عليها من قبل، اختفت قبل ولادتي في حصن الغول أو الجني، وقد عادت الآن بعد منحها إذن خروج ليوم واحد فقط إلى العالم الذي هجرته، وكنتُ طفلة في الثالثة، استيقظت باكراً خصيصاً من أجل المناسبة، ارتديت ملابسي وسرّحت شعري كما لو كان عيد الميلاد، بل كانت مناسبة أكثر أهمية من عيد الميلاد، بما أن هذا الغول أو الجني قد وافق أخيراً كرمى للزوجة والولدين على المجيء إلى الكنيسة، ليسمح لهم على الأقل بالاقتراب من دائرة الخلاص، ليمنح إلين على الأقل فرصة واحدة للنضال معه من أجل خلاص روح هذين الطفلين في ساحات الوغى حيث تتلقى إلين دعم السماوات ودعم عائلتها وأهلها، نعم، حتى في لحظة تسليم نفسه للخلاص، أو التردد في ذلك، كان شهماً للحظة على الرغم من أن التوبة لم تعرف طريقها إلى قلبه. هذا ما توقعتُه، هذا ما رأيته أثناء وقوفي أمام الكنيسة بين بابا وعمتنا بانتظار وصول العربة التي قطعت اثني عشر ميلاً. وعلى الرغم من أنني لا بدّ أنني قد رأيت إلين والطفلين قبل هذه المرة، إلا أن هذا المشهد هو ما أحتفظ به عن رؤيتي لهم للمرة الأولى والذي سيرافقني إلى مثواي الأخير: لمحة سريعة مثل ذروة إعصار للعربة ولوجه إلين الأبيض من عليائها داخل العربة ولوجهي الصغيرين اللذين كانا نسخة طبق الأصل عن وجهه، وعلى المقعد الأمامي برز وجه وأسنان الزنجي الجامح الذي كان يقود العربة، إضافة إليه، كان وجهه يشبه تماماً وجه الزنجي باستثناء الأسنان (هذا بسبب لحيته دون ريب)– يلفهم هدير عاصفة هوجاء أثارها الحصانان اللذان تقدح عيناهما شرراً وعدوهما السريع والغبار المثار حولهما.

«آه، كان هناك العديد منهم ليحرضوه ويساعدوه، تسابقوا لمساعدته، في تمام العاشرة من صباح يوم الأحد، انطلقت عجلات العربة كالسهم لتصل إلى أمام باب الكنيسة، وبدا الزنجي الجامح بثياب الكنيسة مثل نمر استعراضي يرتدي مئزراً من الكتان وقبعة عالية، فيما تجمدت الدماء في وجه إلين،

أمسكت بالطفلين اللذين لم يذرفا أية دمعة وكانا أكبر من أن يُحملا، جلس كل منهما على المقعد المجاور لمقعدها دون أن يأتيا بأدنى حركة، يكتسي وجهاهما شناعة طفولية لم ندرك كهنها حينها. آه نعم، بادر الكثيرون لمساعدته ودعمه؛ فكيف له أن يخوض سباقاً دون وجود متسابقين آخرين. لم يكن الرأي العام ليمنعه، ولا حتى الرجال الذين لربما ترافقهم زوجاتهم وأطفالهم في العربات التي تجنح نحو القنوات المائية: ما منعه هو الكاهن نفسه، الذي تحدث باسم نساء جفرسون ومقاطعة يوكناباتوفا. لذلك توقف عن المجيء إلى الكنيسة، وأصبحت الآن إلين والولدان فقط يستقلون العربة صباح يوم الأحد، وصرنا نعرف أنه لن يكون هناك سباقٌ على الأقل، إذ لم يستطع أحد الجزم بأنه سباق حقيقي، وعلى ضوء غياب وجهه، كان وجه الزنجي الغامض بشكل مثالي وأسنانه اللامعة بعض الشيء هو سيّد المشهد وصار من المستحيل علينا معرفة إن كان هذا سباقاً أو هروباً، وهل ثمّة فائز، كان الجواب على وجه يبعد اثني عشر ميلاً في مزرعة ستبن، ولا حاجة له لأن يرى أو يحضر. كان الزنجي من يتولى أمر التحدث إلى ذلك الفريق وإلى فريقه أيضاً أثناء اجتيازه لعربة أخرى، يحكي دون كلمات، لا حاجة للكلمات ربما، تحدث بلغة ناموا داخلها في وحل ذلك المستنقع وجلبهم إلى هنا بعد أن انتشلهم من أحد المستنقعات المظلمة التي كانوا فيها: الغبار، الهدير، العربة التي تلتفّ عدة مرات إلى أن تصل إلى باب الكنيسة حيث تقف النساء والأطفال في مجموعات متفرقة يصرخون أمام الكنيسة بينما يكبح الرجال لجام حصان الفريق الآخر. عمد الزنجي إلى إنزال إلين والطفلين على الباب ومتابعة طريقه لإيصال العربة إلى أجمة قريبة حيث يثبّت العربة ويلكز الحصانين ليركضا، حاول أحمق ذات مرة التدخل فاستدار الزنجي نحوه شاهراً عصاه في وجهه بينما برزت بعض أسنانه وقال ‹السيد يقول: هذه مهمتي. استأذن السيد›.

«نعم، سمعت ذلك منهم، تحدثوا عن ذلك بأنفسهم. لم يكن الكاهن من تحدث عن ذلك هذه المرة، وإنما إلين. كان بابا وعمتي يتحدثان وعندما دخلتُ قالت عمتي ‹اذهبي والعبي في الخارج› لكن رغم صعوبة استراق السمع عبر الباب، بوسعي إعادة سرد المحادثة التي جرت بينهما: قالت عمتي: ‹ابنتك، ابنتك التي جاءت من صلبك› فقال بابا: ‹أجل، إنها ابنتي. ستطلب مني بنفسها أن أتدخل عندما تحتاج لتدخلي›. عندما خرجت إلين والولدان من الباب الأمامي هذا الأحد، لم تكن العربة بانتظارهما، وإنما عربة إلين ذات العجلات الأربع التي تجرها الفرس الهرمة الناعمة التي قادتها وصبي الإسطبل الذي اشترته عوضاً عن الزنجي الجامح. ومن أول نظرة، أيقنت جوديث ما معنى هذا فبدأت بالصراخ، ظلت تصرخ وتركل بينما حملوها إلى المنزل ووضعوها في السرير. كلا، لم يكن حاضراً. ولا أدعي أن وجهه الظافر كان متربصاً خلف

ستارة النافذة. ربما كان مدهوشاَ مثلنا فقد أدركنا جميعاَ أننا أمام أكثر من مجرد نوبة غضب طفولية أو حتى سَوْرَة غضب هستيرية: إن وجهه كان في تلك العربة كل الوقت، لقد كانت جوديث، الطفلة ذات الأعوام الست، التي حرّضت وسمحت لذلك الزنجي بأن يحثّ الفريق على الهرب. لم يكن هنري، انتبه، لم يكن الصبي، وهو ما سيكون أمراً شائناً بحدِّ ذاته، وإنما جوديث، الفتاة. وحالما دخلت مع بابا عابرين تلك البوابات في عصر ذلك اليوم وبدأت عربتنا بالاقتراب من المنزل، شعرت بذلك. كانت صرخات الطفلة تتردد في عصر ذلك اليوم الهادئ، ظلت صرخاتها معلّقة في المكان، لا على هيئة صوت وإنما على هيئة يمكن للجلد أن يسمعه ولشعر الرأس أن يسمعه. ولكني أحجمت عن طرح السؤال حالما دخلت، كنت في الرابعة حينها، جلست في العربة إلى جوار بابا تماماً كما وقفت بينه وبين عمتنا أمام الكنيسة في ذلك الأحد عندما ألبسوني ثيابي لآتي إلى الكنيسة وأرى شقيقتي وابن أختي وابنة أختي للمرة الأولى، كنت أنظر إلى المنزل (كنت قد دخلته من قبل أيضاً، بالطبع، ولكن حتى عندما رأيته للمرة الأولى كنت أعرفه مسبقاً تماماً كما عرفت كيف ستبدو إلين وجوديث وهنري قبل رؤيتهم في تلك المرة التي سأتذكرها دائماً على أنها المرة الأولى التي أراهم فيها). لم أسأل، أحجمت أيضاً عن السؤال مجدداً، ولكن بمجرد النظر إلى تلك الدار الكبيرة الوادعة طرحت سؤالاً ‹في أية غرفة تقيم جوديث المريضة يا بابا؟› بفطرة طفلة هادئة مستكينة تقبل ما لا يمكن تفسيره، وعلى الرغم من أنني أعرف الآن أنني كنت أتساءل في ذلك الوقت عما رأته جوديث عندما خرجت من الباب ووجدت العربة ذات العجلات الأربع عوضاً عن العربة المغلقة، وصبي الإسطبل عوضاً عن الرجل الجامح، ما الذي رأته في تلك العربة وبدا بريئاً جداً بالنسبة لنا جميعاً؛ أو الأسوأ من ذلك، ما الذي لم تجده عندما رأت العربة ذات العجلات الأربع فبدأت بالصراخ. نعم، كان عصر يوم أحد هادئ وحار مثل عصر هذا اليوم، وأتذكر الصمت المطبق الذي خيّم على تلك الدار عندما دخلنا والذي استقرأت من خلاله على الفور أنه ليس هناك على الرغم من أنني لم أكن أعرف أنه الآن في مزرعة الكرمة يحتسي الخمر مع ووش جونز. كل ما عرفته حال عبوري وعبور بابا العتبة أنه لم يكن هناك: كما لو كان هناك إدانة شاملة (تلك المعرفة الفطرية نفسها التي مكنتني من إخبار إلين أن جوديث لا تحتاج إلى من يحميها منه) مدركة أنه لم يكن يحتاج للبقاء ومراقبة تبلور انتصاره؛ وأنه وبالمقارنة مع ما كانت ستؤول إليه الأمور، كانت هذه مجرد حادثة تافهة لا تستحق أن نعيرها أدنى اهتمام. نعم، تلك الغرفة الهادئة المعتمة ذات الستائر المسدلة حيث تجلس زنجية إلى جانب السرير تلوح بمروحتها ووجه جوديث الأبيض على الوسادة تحت ثياب معطرة بالكافور، نائمة كما خمّنت حينها: ربما كانت نائمة، أو يمكن القول إنها نائمة: وجه إلين الأبيض الهادئ، وقال بابا ‹اذهبي وابحثي عن هنري واطلبي منه أن يلعب معك

يا روزا› وقفت خارج الغرفة ملتصقة بالباب الهادئ في الحجرة العلوية الهادئة لأنني كنت خائفة من الابتعاد حتى عن الباب لهذا استطعت سماع صمت عصر سبت النور في الدار الذي كان أعلى من دوي الرعد ومن حتى قهقهات النصر.

«قال بابا ‹فكري بالطفلين›

«قالت إلين ‹أفكر؟ ما الذي بوسعي فعله سوى التفكير؟ وما غير التفكير بهما يقضّ مضجعي ويؤرّقني طوال الليل؟› لم يقل بابا أو إلين عودي إلى المنزل. كلا: حدث هذا قبل أن يصبح من الشائع إصلاح أخطائك بأن توليها ظهرك وتهرب. لم يكن هناك سوى هذين الصوتين الهادئين القادمين من خلف الباب يناقشان شيئاً ربما منشوراً في إحدى المجلات، جمدت، أنا الطفلة، في مكاني بالقرب من الباب خائفة من وجودي هنا ومذعورة من مغادرة المكان، وقفت بلا حراك ملتصقة بالباب في محاولة لأن أصير جزءاً من الخشب الداكن فأمسي غير مرئية، مثل حرباء، تنصت إلى الأرواح الحية، إلى الحضور في تلك الدار التي انسل داخلها جزءاً من حياة إلين وأنفاسها تماماً مثل حياته وأنفاسه، يصدر عن زفيرها صوت طويل وحيادي يشي بالنصر واليأس، كما يشي بالنصر والهلع على حدٍ سواء.

«قال بابا: ‹هل تحبين هذا الـــــــــ›

«قالت إلين: ‹بابا› لم تزد بحرف. استطعت رؤية وجهها بالوضوح نفسه الذي رأى بابا فيه وجهها حينها، شاهدت التعابير نفسها التي ارتسمت على وجهها داخل العربة في أول يوم أحد وفي أيام الآحاد الأخرى. ثم جاء أحد الخدم وقال إن عربتنا جاهزة.

«نعم، سمعت ذلك منهما، وليس منه، ولا من أي أحد آخر، وما كان لأحد إنقاذهما، هو نفسه عاجز عن إنقاذهما. لأنه كشف الآن عن السبب الذي قلّل من شأن ذلك النصر ليمرّ مرور الكرام دون أن يلحظه أحد. هو من كشف ذلك لإلين، ولست أنا. لم أكن هناك، التقيته بضع مرات فقط خلال تلك السنوات الست من عمري. رحلت عمتي وتوليت أمر الاعتناء بالمنزل وبأبي. كنت أذهب ربما أنا وبابا لمرة واحدة في السنة لتناول العشاء، أما إلين والولدان فكانوا يزورونا قرابة أربع مرات في السنة ويمضون اليوم بأكمله معنا. لم يكن هو من أخبرني، لم تطأ قدماه قط هذا المنزل بعد زواجه من إلين. كنت فتاة صغيرة حينها، صغيرة بما يكفي لأصدق بأن هذا ناجم عن الفحم المتحجر لضميره، إن لم يكن لندمه العنيد. لكن معرفتي بالأمور صارت أوسع الآن. أعرف أن هذا مردّه ببساطة إلى عدم حاجته إلى بابا بعد أن أعطاه أبي المكانة من خلال تزويجه ابنته، ولهذا ما كان للامتنان ولا

للشكليات أن ترغمه على التمادي بمجاملاته لدرجة تناول وجبة عائلية مع أهل زوجته. ولذلك فقد رأيتهم لمرات قليلة فحسب. لم يعد لدي الوقت الكافي للعب، حتى لو رغبت بذلك. لم أتعلم مطلقاً طقوس اللعب ولا أجد الآن أي سبب لمحاولة تعلمها حتى لو سمح الوقت لي باللعب.

«مضت ست سنوات إذاً، على الرغم من أنه لم يكن ليخفى على إلين ما يجري فمنذ دق المسمار الأخير في الدار وحتى زواجه، كان الفرق الوحيد بين الآن وفترة عزوبيته هو أنهم أصبحوا يربطون الأحصنة والبغال ويسرجونها في الأكمة خلف الإسطبل فيعبرون المرعى دون أن يراهم سكان الدار. كان لا يزال هناك العديد منهم، كما لو أن الله أو الشيطان استغل هذه الرذائل لتكون شاهدة على إطلاق العنان للعنتنا لتبدأ ليس فقط على يد نبلائنا، يد أهلنا، وإنما على يد الحثالة والرعاع الذين لم يتمكنوا من الاقتراب من الدار نفسها تحت أي ظرف، ولا يستطيعون فعل ذلك حتى لو جاؤوا من خلف الدار. نعم، كانت إلين والطفلان وحيدين في تلك الدار على بعد اثني عشرة ميلاً عن البلدة، فيما شكلت الوجوه تحت أنوار المصابيح في الإسطبل مربعاً مجوفاً، تشكل الوجوه البيضاء ثلاثة أضلاع من المربع، فيما تشكل الوجوه السوداء الضلع الرابع، وثمة في المركز اثنان من زنوجه الجامحين يتعاركان، عاريين، يخوضان عراكاً لا يشبه عراك البيض، الذي تحكمه قوانين وأسلحة معينة، وإنما يشبه عراك الزنوج بغية أن يلحق أحدهما بالآخر أقصى أذى ممكن وبأسرع وقت. عرفت إلين ذلك، أو ربما ظنت أنها تعرف، لم يكن هذا بيت القصيد. قبلت بهذا– لم تتصالح معه: قبلت– كما لو أتاحت لها معرفتها تنفس الصعداء والتنفيس عن الغضب حيث يمكنك قبول الأمر بامتنان إلى حد ما فتقول لنفسك الحمد لله أن الأمر ليس أخطر من ذلك، على الأقل أعرف الآن كل ما يجري– حسبت، والفكرة هذه مزروعة في ذهنها، عندما هرعت إلى الإسطبل تلك الليلة بينما كان الرجال الذين تسللوا إلى داخل الإسطبل من خلف الدار قد ولوا الأدبار محتفظين ببعض من الكياسة على الأقل، ولم تر إلين الحيوانين الأسودين اللذين توقعت رؤيتهما وإنما عوضاً عن ذلك رأت حيواناً أبيض وآخر أسود، عاريين حتى الخصر، يحدق كل منهما في عين الآخر وكان من الأجدى للون بشرتهما أن يكون متماثلاً، بل ومغطى بالفرو أيضاً. نعم، لقد ساد هذا الشعور في لحظات محددة، ربما في نهاية السهرة أو العرض، كمشهد ختامي كبير، أو ربما كمجرد تفكر في العواقب المميتة المتعلقة بمسائل الاحتفاظ بالسيادة والسيطرة، كان بنفسه يدخل أحد الزنوج إلى حلبة المصارعة. نعم، هذا ما رأته إلين: زوجها وأب طفليها يقف هناك عارياً يلهث وتغطيه الدماء حتى الخصر والزنجي يتهاوى بوضوح، يخرّ على قدميه والدماء تغطيه أيضاً، الفرق الوحيد بينهما أن دماء الزنجي بدت مثل مادة دهنية أو عرق– خرجت إلين من المنزل راكضة ونزلت الهضبة، حاسرة

الرأس، في الوقت المناسب لسماع الصوت، الصراخ، وسماع ما يجري بينما كانت لا تزال تركض في الظلام وقبل أن يعرف المتفرجون أنها كانت هناك، سمعته قبل حدوثه حتى، قبل أن يقول أحد المتفرجين ‹إنه حصان› ثم ‹إنها امرأة› ثم ‹يا إلهي، إنه طفل› دخلت راكضة، وتراجع المتفرجون ليتيحوا لها رؤية هنري يخرج من بين الزنوج الذين كانوا يمسكون به، وهو يصرخ ويتقيأ– لم يتوقف، ولم ينظر حتى إلى الوجوه التي ابتعدت عنها عندما ركعت على أرضية الإسطبل القذرة لترفع هنري متحاشية النظر إليه وإنما نظرت حيث وقف هو وأسنانه ظاهرة تحت لحيته بينما يمسح زنجي آخر الدماء عن جسده باستخدام كيس من الخيش. قالت إلين ‹أعرف أنكم تستميحونا عذراً أيها النبلاء›. ولكنهم بدؤوا بمغادرة المكان، الزنوج والبيض، تسللوا خارجين مثلما تسللوا عندما دخلوا، ولم تراقبهم إلين ولكنها اكتفت بالركوع على الروث والأوساخ بينما تعلق هنري بها، باكياً، فيما وقف هو في مكانه وكان زنجي ثالث يلكزه بقميصه أو معطفه كما لو أن المعطف عصاً وهو أفعى محتجزة في قفص. قالت إلين ‹أين جوديث يا توماس؟›.

«قال ‹جوديث؟› آه، لم يكن يكذب، فقد أنهكه انتصاره، وبنى من الشرور ما فاق آماله. ‹جوديث. أليست نائمة؟›.

«قالت إلين ‹لا تكذب عليّ يا توماس. أنا أتفهّم إحضار هنري إلى هنا لرؤية ما يجري، ورغبتك بأن يرى هنري هذا، سأحاول استيعاب الأمر، نعم، سأرغم نفسي على استيعابه. ولكن لا أقبل أن تحضر جوديث إلى هنا يا توماس. لا أقبل إحضار ابنتي الصغيرة يا توماس›.

«قال ‹لا أتوقع منك أن تفهمي الأمر لأنك امرأة. لكنني لم أحضر جوديث إلى هنا. لن أحضرها إلى هنا. لا أتوقع منك أن تصدقي هذا. ولكنني أقسم على ذلك›.

«قالت إلين ‹ليتني أستطيع تصديقك، أود تصديقك› ثم بدأت تنادي ‹جوديث!› نادت بصوت هادئ ولطيف مثقل بالقنوط: ‹جوديث حبيبتي، لقد حان وقت النوم›.

«لكنني لم أكن هناك. لم أكن هناك لأرى وجهي ستبن هذه المرة– وجهه المركز على جوديث ووجهه الآخر المركز على الفتاة الزنجية الواقفة إلى جوارها في الحجرة العلوية فيما سمّرت جوديث نظرها على مدخل الساحة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

–2–

إنه صيف شجرة الوستاريا. تشبّع الغسق بها وبرائحة سيجار والده حين جلسا على الشرفة الأمامية بعد العشاء إلى أن يحين موعد ذهاب كونتن، بينما طارت اليراعات وتمايلت بعشوائية عذبة فوق المرج الأخضر الكثيف الفوضوي الممتد تحت الشرفة– من حيث ستحمل رسالة السيد كمبسن من المسيسيبي العبير الفواح والشذى العبق بعد خمسة أشهر، وتعبر ثلوج نيو إنغلاند المترامية والقاسية وتصل إلى غرفة جلوس كونتن في هارفرد. كان يوماً للإصغاء أيضاً، عليه أن يصغي، يستمع في عام 1909 على الرغم من معرفته المسبقة لمعظم ما سيقال لأنه ولد في هذا الهواء نفسه ولا يزال يتنفسه، الهواء الذي حمل أصوات أجراس الكنيسة صباح ذلك الأحد من العام 1833 (وفي أيام الآحاد، سمع رنين أحد الأجراس الثلاث في برج الكنيسة نفسه حيث أحفاد الحمام نفسه تتبختر أو تغني أو تحوم في دوائر صغيرة مثل بقع ألوان سائلة وناعمة تحت سماء صيفية رائقة)– صباح يوم أحد من شهر حزيران وبينما كانت الأجراس تُقرع بسلام دون توقف أو تناغم– يجمعها نوع الصوت وليس اللحن– والسيدات والأطفال، والزنوج العاملون في المنزل يحملون المظلات ومقشات طرد الذباب، بضعة أشخاص (السيدات يتحركن في حلقات يتهادين بين الألبسة الجوخية لصبية صغار وسراويل تنانير [5] الفتيات الصغيرات التي كانت رائجة في تلك الأيام، لم تكن النسوة يمشين وإنما يطفن طوافاً) بينما الرجال الآخرون جالسين وأقدامهم على درابزين شرفة نزل هلستون ينظرون نحو الأعلى، حيث كان الغريب. كان قد قطع نصف الساحة عندما أبصروه، على صهوة حصان ضخم أغبر حرن، رجل ووحش انبثقا من هواء رقيق تحت أشعة شمس الصيف الساطعة في يوم سبت النور، يسير الفرس تعباً على طريقة الفوكستروت [6]، وجه وحصان لم يسبق لأحد أن رآهما، اسم لم يسبق لأحد أن سمع به، ونسب وغاية لن يعرفه بهما بعضهم قط. وهكذا صار اسم الغريب خلال الأسابيع الأربع التالية (كانت جفرسون قرية حينها: مكونة من نزل هلستون والمحكمة وستة حوانيت ومتجر حداد وإسطبل لتأجير الخيول وصالون يرتاده تجار المواشي والباعة الجوالون، وثلاث كنائس وربما ثلاثين مسكناً) يتردد في أماكن العمل والاسترخاء والسكن وكأنه المقطعين الأول والثاني من قصيدة غنائية: ستبن. ستبن. ستبن. ستبن.

لقرابة شهر كامل، كان هذا جلّ ما عرفته البلدة عنه. جاء على ما يبدو إلى البلدة من الجنوب؛ رجل في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً كما عرفت البلدة لاحقاً، بدا مريضاً آنذاك وتعذر تقدير عمره. لم يبدُ مثل مريض قضى فترة نقاهة في السرير وتماثل للشفاء يتحرك بانبهار عابر وخجل في عالم

يرى أن مكانه فيه قاب قوسين أو أدنى، وإنما كرجل خاض تجربة العيش في فرن صَهر انفرادي، تجربة تخطت مشاقها حرارة الفرن، كما يقول مستكشف لم تقتصر معاناته على مواجهة المشاق العادية التي ولّدها سعيه نحو الغاية التي اختارها وإنما بوغت بمضاعفات غير متوقعة للحرارة المرتفعة فصارعها ودفع ثمناً باهظاً، ثمناً معنوياً أكثر منه جسدياً، بمفرده بلا مساعدة من أحد، مشحوذاً بإرادة فطرية عمياء تحركها رغبته بالظفر والكسب لا الصبر والنجاة، لا ينتظر كجائزة عينية سوى دوام المتعة التي في سبيلها قبِل الرهان. رجل ضخم البنية لكنه هزيل الآن لدرجة النحول، أطلق لحية حمراء قصيرة تصلح للتنكر، تعلوها عيناه الشاحبتان الحالمتان والمتيقظتان في آن معاً، عينان قاسيتان في وجه خزفي البشرة، لوّنته حرارة فرن الصهر المتولدة إما من الروح أم البيئة، ليكتسب لوناً أدكن مما لو لوّنته الشمس لوحدها، واخترق تأثير الحرارة السطح الميت المنيع مثل سطح الصلصال اللامع. هذا ما شاهدته أعينهم، قبل سنوات من معرفة البلدة أن ما رأوه هو كل أملاكه آنذاك؛ الحصان القوي المنهك يحمل الملابس على ظهره وجراب بالكاد يتسع للملابس الكتانية الاحتياطية وشفرات الحلاقة، والمسدسان اللذان حكت الآنسة كولدفيلد لكونتن عنهما، اهترأ أخمصا المسدسين وصارا أملسين كحديد المعول وأجاد استخدامهما بإجادة استخدام صنارة الحياكة، التقاه جد كونتن يقود جواده بسهولة ويسر حول شجيرة يصل ارتفاعها إلى عشرين قدماً، يطلق الرصاص من كلا المسدسين واستقرت جميع الرصاصات في ورقتي لعب مثبتتين على الشجرة. دأب على حمل مفتاح غرفته في نزل هلستون أينما ذهب، وعمد كل صباح إلى إطعام الحصان وسرجه وامتطائه قبل بزوغ الفجر نحو وجهة لم توفق البلدة قط في تحديدها، لأنه ربما قدم عرض إبراز مهاراته في استخدام المسدس بعد ثلاثة أيام من وصوله. ولهذا تعيّن عليهم مراقبته لمعرفة النزر اليسير عنه، وما كانت مراقبته متاحة إلّا ليلاً، أثناء تناوله عشائه في قاعة الطعام في نزل هلستون أو أثناء مروره بالردهة للوصول إلى غرفته قبل أن يوصد الباب وراءه، وهو ما كان يفعله حالما يفرغ من طعامه. اشتملت الردهة على حانة أيضاً، وهي المكان الذي من المفترض أن توفر الفرصة لتبادل أطراف الحديث معه بل وحتى استجوابه، بيد أنه لم يقصد الحانة يوماً. لم يحتسِ الكحول مطلقاً، حسب زعمه. لم يقل إنه أقلع عن احتساء الخمر، أو إنه لم يعتد معاقرة الكحول. كل ما قاله إنه لا يكترث لأمر الشراب، وتطلّب الأمر سنوات قبل أن يعرف جد كونتن (كان شاباً أيضاً، وأمامه سنوات قبل أن يصبح الجنرال كمبسن) أن السبب الكامن وراء عدم احتساء ستبن الخمر هو خواء جيوبه وعجزه عن دفع ما يترتب عليه من المبلغ الإجمالي وعن رد الدعوة، كان الجنرال كمبسن أول من أدرك أن ستبن لم يفتقر حينها فقط إلى المالِ للإنفاق على الشراب والاختلاط بالناسِ، بل كان يفتقر إلى الوقت

والرغبة أيضاَ: حيث إنه كان في تلك الفترة عبداَ بشكل كامل للسر الذي يضمره ولصبره الغاضب، إدراكه على ضوء ما اختبره مؤخراً– تلك الحرارة الذهنية أو الجسدية– بضرورة التحرك بسرعة، واستشعاره للوقت الذي يتسرب من بين أصابعه، وهو ما حرّكه على مدار السنوات الخمس التي تلت– حسبما اعتقد الجنرال كمبسن– قرابة الشهور التسع التي سبقت ولادة ابنه.

انتابتهم رغبة للإمساك به، ومطاردته، في الردهة بين مائدة العشاء وبابه المقفل لإعطائه فرصة إخبارهم عمن يكون ومن أين جاء وما كان ينوي فعله، وإلى أين سينتقل تدريجياً وبثبات إلى أن يجد ظهره ما يُتكأ عليه– دعامة أو جدار– ليقف ويخبرهم عن حياته برحابة صدر ولياقة موظف فندق. اقتصر احتكاكه على وكيل هنود تشيكاساو [7] ولهذا لم تعرف البلدة بأمر امتلاكه لمئة ميل مربع من أخصب الأراضي العذراء المحاذية للنهر في المقاطعة قبل ليلة السبت التي أيقظ فيها موظف الدائرة العقارية في المقاطعة وإبراز العقد وشهادة ملكية الأرض والعملة النقدية الذهبية الإسبانية، على الرغم من أن هذه المعرفة جاءت متأخرة جداً لأن ستبن نفسه كان قد رحل، لكن إلى أين؟ ظل هذا بدوره سؤالاً معلقاً بلا جواب. ولكنه بات الآن يمتلك أرضاً بين أراضيهم وبدأت الشكوك تساور بعضهم حول ما عرفه الجنرال كمبسن: أن العملة النقدية الإسبانية التي دفعها لتسجيل شهادة الملكية كانت آخر ما يملك من نقود. وأيقنوا الآن أنه غادر ليحضر المزيد، وتنبأ كثيرون (وقالوا ذلك جهاراً بعد رحيله) بما كانت ستقوله أخت زوجته المستقبلية التي لم تكن قد ولدت حينها إلى كونتن بعد قرابة ثمانين عاماً: إنه اكتشف طريقة فريدة وعملية لإخفاء ما نهبه وأنه عاد إلى المخبأ لملء جيوبه، دون الحاجة لامتطاء حصانه وحمل مسدسيه ليعود إلى النهر ويصعد العبّارة المليئة بالمقامرين والقطن– وتجار الرقيق ليستزيد من المخبأ. كان هذا على الأقل ما يقوله بعضهم للآخر عقب عودته بعد شهرين، عاد أيضاً دون سابق إنذار وبصحبته هذه المرة عربة مغطاة وثمة زنجي يقودها، وجلس إلى جوار الزنجي رجل صغير مستكين حذر ملامحه لاتينية متجهمة ومتعبة، ارتدى معطفاً طويلاً ثنائي الأزرار وصدرية نقشت عليها أزهار، معتمراً قبعة ما كانت لتثير أي انتباه في إحدى جادات باريس، وسيظل مرتدياً كل الملابس نفسها على مدار العامين القادمين– ملابس مسرحية كئيبة فيما تكتسي تقاسيمه تعابير تشي بتصميم قدري ومذهول– بينما فريق عمله غير المباشر المكوّن من عميل أبيض ومجموعة من الزنوج عراة بشكل صارخ، لا يستر أجسادهم سوى طبقة من الوحل الجاف. كان هذا المهندس المعماري الفرنسي. وبعد مرور بضع سنوات، عرفت البلدة بأنه قطع كل هذه المسافة قادماً من جزيرة مارتينيك بناءً على وعد ستبن لا غير وعاش لسنتين مقتاتاً لحمَ طرائد مشوية على نار

المخيم، داخل خيمة مصنوعة من غطاء عربة افترشت التراب كأرضية، قبل أن ترى عيناه أي لون أو شكل لعملة نقدية. ولم ير جفرسون سوى مرة واحدة عندما مرّ بالبلدة عائداً إلى نيو أورلينز بعد سنتين، ما رغب بالمجيء، أو ربما ستبن لم يحضره إلى البلدة في المناسبات القليلة التي شوهد فيها الأخير هناك، ولم تتح له الفرصة ليملي نظره جيداً من جفرسون في ذلك اليوم لأن العربة واصلت مسيرها ولم تتوقف. على ما يبدو كان عبور ستبن في البلدة محض صدفة جغرافية لا أكثر، توقف لفترة بالكاد تكفي شخصاً ما (ليس الجنرال كمبسن) لتفحص ما تحت غطاء العربة والأنبوب الخلفي المليء بالثقوب وتفوح منه رائحة وكر ذئاب.

لكن أسطورة زنوج ستبن الجامحين لم تبدأ فور قدومهم، لأن العربة تابعت طريقها كما لو أن الخشب والحديد الذي صنعت منه، إضافة إلى البغلين اللذين جرّاها، اصطبغت بفعل ارتباطها الكامل به بخصلة المضي قدماً دون كلل أو ملل، نزعة الاستعجال والوقت الهارب، وأخبر ستبن جد كونتن لاحقاً أن بطونهم كانت خاوية عندما عبرت العربة عصر ذلك اليوم جفرسون، ولم يذوقوا الطعام منذ الليلة الماضية لأنهم حاولوا الوصول إلى مزرعة ستبن والقنال لقتل أحد الغزلان قبل حلول الظلام، ليتجنب هو والمهندس المعماري والزنوج التضور جوعاً لليلة أخرى. ولذلك نشأت أسطورة الرجال الجامحين تدريجياً في البلدة، حملها الرجال الذين ذهبوا للوقوف على ما يجري، وتحدثوا عن وقوف ستبن إلى جانب درب ترابي صنعته الحيوانات حاملاً المسدسين وإرساله الزنوج ليعبروا المستنقع مثل مجموعة من كلاب الصيد، الرجال هم من تحدثوا عن عدم ارتداء الزنوج خلال أول صيف وخريف لهم هنا (أو عدم استخدام) أي بطانيات ليتدثروا بها خلال نومهم)، حتى إن صياد الراكون إكيرز ادعى أنه صادف أحدهم نائماً والوحل يغطيه كله مثل تمساح نائم وصرخ في الوقت المناسب تماماً قبل أن يدوسه. لم يعرف الزنوج الإنجليزية وجهل إكيرز وغيره دون شك أن اللغة التي يتواصلون فيها مع ستبن كانت نوعاً من الفرنسية وليست لكنة شيطانية وقاتلة خاصة بهم.

كان هناك إكيرز وغيره كثيرون من المواطنين المسؤولين وملاك الأراضي غير المضطرين للتسلل إلى المخيم ليلاً. في الواقع، وفقاً لما قالته الآنسة كولدفيلد لكونتن شكّل هؤلاء فرقاً تلتقي في نزل هلستون ومن ثم ينطلقون على صهوة جيادهم، ومعهم غالباً غداؤهم. بنى ستبن فرناً لصنع القرميد وثبت المنشار والمسحاج اللذين أحضرهما باستخدام العربة– مخرطة رحوية ذات دعامة طويلة متحركة مصنوعة من الشجيرات الغضة، ورُبطت بها العربة والفريق والزنوج بالتناوب بل وستبن نفسه عند الضرورة، عندما تبطئ الآلة– كما لو أن الزنوج بالفعل رجال متوحشون، كما أخبر الجنرال كمبسن ولده، والد كونتن، فإن ستبن لم يرفع صوته قطِ على الزنوج أثناء عملهم، بل على

العكس، كان يقودهم، يؤثر عليهم نفسياً ويأسرهم من خلال الاقتداء به، والانبهار بقوة تحمله وليس من خلال ترهيبهم ومعاملتهم بوحشية. دون الترجل عن صهوة أحصنتهم (لم يكلف ستبن نفسه عناء إلقاء التحية عليهم، واكتفى بهزّ رأسه، كما لو أنه غير مدرك لوجودهم، وكأنهم ظلال كسولة) اعتادوا تشكيل مجموعات هادئة مثيرة للفضول كما لو أنهم ينشدون الحماية المتبادلة يراقبون انبثاق قصره المنيف، يحملون الألواح الخشبية لوحاً بعد آخر والطوب طوبة بعد أخرى من المستنقع حيث الطين والأخشاب– الرجل الأبيض الملتحي والرجال السود العشرون عراة كما خلقتهم أمهاتهم ترزح أجسادهم تحت الطين الساكن الطاغي. ولكونهم رجالاً، لم يدرك هؤلاء المراقبون أن الملابس التي دخل فيها ستبن للمرة الأولى إلى جفرسون كانت الملابس الوحيدة التي رأوها على جسده، بينما قلة قليلة من نساء المقاطعة رأينه حينها. لو فعلوا، لظن بعضهم أن للآنسة كولدفيلد يداً في هذا أيضاً: – ذلك الاحترام الذي وفقاً للجنرال كمبسن تجسد إلى حدٍّ كبير في ذهن ستبن السري بالاستحواذ على سيدة القصر لتكون سيدة بيته. هكذا عمل يداً بيد مع زنوجه العشرين، يغطيهم الطين ليحميهم من البعوض، وأيضاً، كما أخبرت الآنسة كولدفيلد كونتن، كي لا يتميز أحدهم عن الآخر إلا من خلال لحيته وعينيه، وكان للمهندس المعماري وحده هيئة الكائن البشري بفضل الملابس الفرنسية التي دأب على ارتدائها كما لو أنها قدره المحتوم، ولم يخلعها إلا في اليوم الذي تلا استكمال بناء الدار بالكامل، باستثناء تركيب زجاج النوافذ والحديد التي عجزوا عن صنعها يدوياً وغادر المهندس، عملوا بهدوء وضراوة منقطعة النظير تحت الشمس وقيظ الصيف يغطيهم وحل الشتاء وصقيعه.

استغرق بناء الدار سنتين، عمل سنتين مع فريق عمله المكوّن من العبيد المجلوبين من بلد آخر، الذين لطالما اعتبرهم مواطنوه في بلده صفقة جيدة مميتة أكثر من أي وحش كان ليحضره وينحره في ذلك البلد. عملوا من شروق الشمس إلى مغيبها بينما كانت فرق الخيالة تقود جيادها وتعقلها بهدوء وتراقب، والمهندس في معطفه الرسمي وقبعته الباريسية وتعابيره التي تطفح بالذهول المتجهم والساخط، يتربص ويتوارى في محيط المشهد وكأنه يلعب دورين متبادلين: دور المراقب العادي اللامبالي إلى حدٍّ بعيد ودور الشبح المستنكر الواعي– ذهول، قال الجنرال كمبسن، لم يكن ذاهلاً عن الآخرين وعما كانوا يفعلونه بقدر ما كان ذاهلاً عن نفسه، عن الحقيقة المبهمة وغير المعقولة المتعلقة بوجوده. لكنه كان مهندساً معمارياً بارعاً، عرف كونتن الدار، التي تبعد اثني عشرة ميلاً عن جفرسون، وبستانه المكون من شجر الأرز والبلوط، بعد سبعة وخمسين عاماً من إنهاء بنائها. لم يكن مهندساً فقط، كما قال الجنرال كمبسن، وإنما كان فناناً ذلك لأن الفنان فقط كان

باستطاعته تحمل هاتين السنتين لبناء دار كان بلا شك لا يتوقع رؤيتها مجدداً، بل ولا ينوي إطلاقاً فعل ذلك. ولم يكن، كما قال الجنرال كمبسن، مردّ العذاب إلى إحساسه على مدار سنتين بأن إقامته مؤقتة ولا إلى الغضب من إحساسه هذا، وإنما بسبب ستبن، الفنان فحسب باستطاعته تحمل قساوة ستبن واستعجاله وتدبر أمر كبح جماح حلمه بحصد عظمة كئيبة متجسدة في قلعة وهو ما طمح إليه ستبن على ما يبدو، نظراً إلى أن المكان كما خطط له ستبن كان تقريباً بحجم جفرسون نفسها في ذلك الوقت، وخاض الأجنبي الصغير المتجهم والمنهك بيديه العاريتين معركة ضروساً وهزم غرور ستبن الوحشي والمتعجرف أو توقه للعظمة أو للحماية أو لأي شيء كان (حتى الجنرال كمبسن لم يكن يعرف ماهية توقه بعد) وهكذا صنع من هزيمة ستبن نفسها النصر الذي، من خلال إلحاق الهزيمة بالخصم، ما كان لستبن نفسه أن يحرزه.

إذاً استكمل بناء الدار حينها، وتم الانتهاء من وضع آخر لوح خشب وطوب ووتد خشبي صنعوها بأنفسهم. كانت الدار غير مطلية وخاوية من أي أثاث، تخلو من أي لوح زجاجي أو مقبض باب أو مفصل، وتبعد اثني عشر ميلاً عن البلدة والمسافة نفسها تقريباً عن أي جار، وظلت لمدة ثلاث سنوات تطوّقها حدائقها ومتنزهاتها ودروبها ومساكن العبيد واسطبلاتها وغرف تدخين اللحم، ديك حبش بري يطوف على بعد ميل من المنزل، وغزال ملون يأتي خبباً مثل دخان ويترك نقشاً رقيقاً على الأسرّة القاسية التي لن تعرف الزهور إلا بعد أربع سنوات. ومرت فترة، مرحلة، كانت البلدة والمقاطعة تراقبه خلالها بمزيد من التوجس. ويعزى هذا ربما إلى جهلهم بالخطوة التالية وخاتمة السر الذي ادعى الجنرال كمبسن معرفته ولكن البلدة أو المقاطعة عجزتا عن استيعابه جزئياً أو كلياً، وتطلبت معرفة السر الصبر أو المراقبة عوضاً عن ذلك الحنق الجارف الذي أذاقهم إياه واعتادوه، وصارت النسوة أول من يخمّن نواياه وخطوته التالية. لم يشك أي من الرجال ولا حتى الذين عرفوه منهم بالشكل الكافي لمناداته باسمه، بأنه أراد زوجة له. رفض بعضهم بلا ريب، الأزواج والعازبون، التهليل للفكرة بل وعارضوها، لأن أسلوب حياته على مدى السنوات الثلاث التالية كان مثالياً بالنسبة لهم. عاش هناك، على بعد ثمانية أميال عن أي جار، بعزلة ذكورية وفخامة بارونية داخل ما يمكن تسميته غرفة مسلّحة ممتدة على مسافة نصف هكتار. عاش في قوقعة إسبرطية لأكبر صرح في المقاطعة، بما في ذلك المحكمة، قوقعة لم تطأ عتبتها أية امرأة حسبما شوهد، ولم تدخلها رهافة أي لوح زجاجي أو باب أو فراش، وما من امرأة تعترض إن أحضر كلابه للنوم معه على سرير القش، ولا حاجة له بالكلاب لقتل الطرائد التي تترك آثار أقدامها على باب المطبخ إذ

يتولى البشر هذه المهمة، بشر يوالونه جسداً وروحاً واعتقد (أو قيل) أن بوسعهم التسلل إلى جحر الغزال وجزّ رقبته قبل أن يأتي بأدنى حركة.

بدأ في هذه الفترة بدعوة فرق الرجال التي أخبرت الآنسة كوادفيلد كونتن عنها، إلى مزرعة ستبن ليتدثروا بالبطانيات في الغرف الجرداء لترفه البدائي التقليدي، كانوا يصطادون ثم يلعبون الورق في الليل ويحتسون الخمر، وكان في المناسبات بلا شك يقوم بزج زنوجه في قتال ضد بعضهم البعض ولربما شارك بنفسه بين الفينة والأخرى، ذلك المشهد الذي، وفقاً للآنسة كولدفيلد، عجز ابنه عن تحمل رؤيته بينما راقبته ابنته وقد تجمدت الدماء في عروقها. أصبح ستبن نفسه يعاقر الخمر الآن، على الرغم من وجود آخرين غير جد كونتن ممن لاحظوا اعتداله في الشرب ما عدا المرات التي كان يقوم بنفسه بتقديم الشراب. كان ضيوفه يجلبون معهم الويسكي ولكنه كان يحتسي منها بنوع من التقتير الحريص كما لو كان يحافظ بوعي، كما قال الجنرال كمبسن، على نوع من التوازن الروحي بين كمية الويسكي الذي قبله وكمية لحم الصيد الذي قدمه إلى الصيادين.

عاش على هذا النحو على مدى ثلاث سنوات. وأصبح لديه الآن مزرعة، وخلال سنتين حوّل المستنقعات البكر إلى الدار والحدائق، وحرث وزرع أرضه ببذور القطن التي أعاره إياها الجنرال كمبسن. ثم بدا وكأنه تخلى عن ذلك كله. بدا ميالاً للجلوس في منتصف ما كان على وشك إنهائه، وبقي على هذه الحال لثلاث سنوات لم يظهر خلالها نيته أو رغبته بفعل أي شيء آخر. ليس من المستغرب ربما اعتقاد رجال المقاطعة أن هذه الحياة هي جلّ ما سعى إليه. وبادر الجنرال كمبسن الذي لربما عرفه بالشكل الكافي بإعارته بذور القطن لتكون أول المشوار، كان أكثر من عرفه، والوحيد الذي أخبره ستبن عن ماضيه. كان الجنرال كمبسن أول من عرف بأن العملة النقدية الإسبانية كانت آخر ما يملك كما كان كمبسن (عرفت البلدة لاحقاً) هو من عرض إقراض ستبن النقود لاستكمال البيت وشراء الأثاث، وقد قوبل عرضه بالرفض. ولهذا كان الجنرال كمبسن بلا ريب أول رجل في المقاطعة يسر لنفسه بأن ستبن لم يكن يحتاج لاستدانة النقود لاستكمال الدار، وشراء ما يلزم، لأنه كان ينوي أن يتزوج. ليس الشخص الأول: كانت نساء المقاطعة هن الشخص الأول، وفقاً لما قالته الآنسة كولدفيلد لكونتن بعد خمس وسبعين سنة، وعمدن إلى إخبار بعضهن البعض وأزواجهن أن ستبن لم يكن ليتوقف هنا، وأنه قد تورط بالفعل، وعانى الكثير من الحرمان والمشقة، فقط ليستقر ويعيش الحياة نفسها التي عاشها أثناء بناء الدار وبفارق وحيد ألا وهو وجود سقف ينام تحته عوضاً عن النوم في عربة أرضيتها من التراب. ولربما بحثت النساء بالفعل بين عائلات الرجال الذين يمكن القول عنهم الآن بأنهم أصدقاؤه، عن تلك العروس المحتملة التي قد يكمل مهرها شكل وجوهر ذلك الاحترام الذي

اعتقدت الآنسة كولدفيلد بكل الأحوال بأنه جلّ ما يطمح إليه. ولهذا لم يُدهش سوى بضعة أشخاص عندما رأته البلدة، بعد انتهاء المرحلة الثانية، ومرور ثلاث سنوات على استكمال بناء الدار ومغادرة المهندس، ومجدداً في صباح أحد أيام الأحد ومرة أخرى ودون مقدمات، يعبر الساحة، مشياً على قدميه مرتدياً الثياب نفسها التي ارتداها عندما عبر البلدة قبل خمس سنوات والتي لم يرها أحد منذ ذلك الحين (قام هو أو أحد الزنوج بكي المعطف مستخدمين قطع القرميد الساخنة، كما أخبر الجنرال كمبسن والد كونتن) ودخل إلى الكنيسة الميثودية. أما النساء فبالكاد قلن إنه جرب كافة الاحتمالات القائمة بين عائلات ندمائه الذين كان يصطاد ويقامر بصحبتهم وأنه قصد البلدة الآن بحثاً عن زوجة، تماماً كما يقصد سوق ممفيس لشراء الماشية أو العبيد. ولكن عندما عرفوا اسم الشخص الذي من أجله دخل البلدة والكنيسة ليستثمر في اختياره، أثار تأكيد النساء ويقينهن استغراب الرجال، بل أثار ما هو أبعد من ذلك: ذهولهم.

ظنت البلدة أنها باتت تعرفه. فقد راقبته لسنتين يبني بضراوة شرسة منقطعة النظير قوقعة الدار تلك ويمهد حقوله، ثم راقبته لثلاث سنوات هامداً بشكل كامل، كما لو قطعت عنه الكهرباء وفكت الأسلاك أو المحرك، بينما اقتنعت نساء المقاطعة تدريجياً بأنه كان فقط ينتظر العثور على زوجة تقدم له المهر الكافي لإنهاء الدار. ولهذا عندما دخل إلى الكنيسة الميثودية في صباح ذلك الأحد مرتدياً المعطف المكوي، اعتقد بعض الرجال والنساء أن كل ما عليهم فعله هو البحث بين جماعة المصلين ليتنبؤوا بالاتجاه الذي ستأخذه إليه قدماه، إلى أن أدركوا أنه على ما يبدو قد وضع عينه على والد الآنسة كولدفيلد معتمداً على التروي البارد والقاسي نفسه الذي استند عليه ربما عندما اختار المهندس المعماري الفرنسي. راقبوه بذهول تشوبه الصدمة يضرب حصاره المتعمّد على الرجل الوحيد في البلدة الذي لا يجمعه به أي شيء، وأقل شيء مشترك بينهما هو المال– رجل بدا جلياً أنه عاجز عن تقديم أي شيء له تحت الشمس اللهمّ إلا السمعة الجيدة في بعض الحوانيت الواقعة على تقاطعات الطرق أو التصويت لصالحه إن سعى يوماً لترسيمه بوصفه كاهناً ميثودياً– قائماً على الكنيسة الميثودية، تاجراً متواضع المنصب والظروف ليس هذا فحسب وإنما لديه بالفعل زوجة وعائلة، ناهيك عن أم وأخت يعيلهما، لدعم استمرارية الأعمال التي جلبها إلى جفرسون قبل عشر سنوات في عربة واحدة– رجل معروف باستقامته المطلقة التي لا ترقى إليها الشكوك ولا تشوبها شائبة في بلد وزمن الفرص المخالفة للقانون، رجل لم يعاقر الخمر أو يلعب القمار ولم يمارس حتى الصيد. مأخوذين بدهشتهم، نسوا أن لدى السيد كولدفيلد ابنة في سن الزواج. لم يفكروا مطلقاً بالابنة. لم يفكروا بأي صلة قد تجمع بين الحب وستبن. فكروا بالقسوة عوض التفكير

بالعدالة، وبالخوف عوض الاحترام، ولكن لم يفكروا بالشفقة أو الحب: إلى جانب ذلك، ضاعوا في تكهنات ذاهلة وتاهوا عن معرفة السبيل الذي ينوي ستبن اتباعه أو التخطيط له لاستغلال السيد كولدفيلد في غايات سرية أخرى لا يزال يضمرها. لن يعرفوا أبداً: حتى الآنسة روزا كولدفيلد لم تعرف. لأن ذلك اليوم كان الأخير الذي قصدت فيه فرق الصيد مزرعة ستبن، وسيلتقونه من الآن فصاعداً في البلدة. ولكنه لن يكون متسكعاً يمشي على غير هدى. الرجال الذين ناموا تحت سقفه وطرقوا الكؤوس سوية (حتى إن بعضهم بدأ يناديه ستبن من دون تكلّف وألقاب) شاهدوه يعبر الشارع أمام نزل هلستون مكتفياً بإيماءة شكلية يتيمة رافعاً قبعته ليواصل بعدها سيره إلى حانوت السيد كولدفيلد، وكان هذا كل شيء.

قال السيد كمبسن لكونتن: «ثم في أحد الأيام هجر جفرسون للمرة الثانية. لا بد وأن البلدة اعتادت على ذلك الآن. وبرغم ذلك، تغيّرت مكانته بطريقة غير مفهومة، وكان من الممكن معرفة هذا من خلال ردة فعل البلدة على عودته الثانية. فعندما رجع هذه المرة، كان بمعنى ما عدو الشعب. ربما يُعزى هذا إلى ما جلبه معه هذه المرة: المواد التي جلبها معه هذه المرة، مقارنة بعربة بسيطة متخمة بزنوج متوحشين مثل الذين جلبهم معه من قبل. ولكن أستبعد ذلك. مردّ هذا العداء برأيي إلى شيء أكثر بقليل من مجرد قيمة ثرياته وخشب الماهوجني والسجاد والطنافس. أعتقد أن الازدراء نجم عن إدراك البلدة أنه كان يورطها معه، أنه ومهما كانت الجريمة التي ارتكبها ليحصل على خشب الماهوجني والكريستال، فإنه يقحم البلدة فيها ويورطها معه. وحتى لحظة عودته الثانية في ذلك الأحد ودخوله إلى الكنيسة، فقد اقتصر استغلاله أو أذيته لسكان البلدة على العجوز إيكيموتوب، الذي اشترى منه أرضه– وكانت هذه مسألة بينه وبين ضميره والعم سام والله. ولكن مكانته تغيّرت الآن، فبعد قرابة ثلاثة أشهر من مغادرته، انطلقت أربع عربات من جفرسون نحو النهر حيث انتظرها، وعرفت البلدة أن السيد كولدفيلد تكفل باستئجار العربات وإرسالها. كانت عربات كبيرة، تجرها الثيران، وعندما عادت رأتها البلدة وأيقنت، بصرف النظر عن محتوياتها، أن السيد كولدفيلد وحتى لو رهن كل ما يملك، فلن يستطيع مَلأها، وفاق عدد الرجال هذه المرة عدد النساء ممن تخيلوه أثناء غيابه وقد غطى منديلٌ وجهَه فيما لمعت سبطانتا المسدسين تحت الشمعدانات الموجودة في مقصورة العبّارة، أو ما هو أسوأ: ربما ارتكب جريمة تحت جنح الظلام الساتر لعملية إنزال وسط الوحل مترافقة مع سكين تحزّ عنقاً من الخلف. شاهدوه يعبر، على صهوة فرسه الأغبر إلى جانب العربات الأربع، وتمنع حتى الأشخاص الذين أكلوا طعامه ولعبوا لعبته بل ونادوه باسم «ستبن» دون لقب «السيد» عن مبادرته بالحديث. اكتفوا بانتظار التقارير والشائعات التي تتناقلها البلدة لمعرفة من

أين له ولزنوجه المروضين النوافذ والأبواب وسياخ الشواء وأواني المطبخ والشمعدانات الكريستالية والأثاث والستائر والسجاد، كان أكيرز نفسه الذي صادف الزنجي المغطى بالطين قبل خمس سنوات، هو من دخل إلى حانة نزل هلستون في مساء أحد الأيام وقد جحظت عيناه وتراخى فكه وقال ‹أيها الرجال، لقد سرق هذه المرة العبّارة اللعينة بأكملها!›

«وهكذا وصل الصراع بين مصالح البلدة والمصلحة الشخصية إلى مرحلة حرجة أخيراً. في أحد الأيام، شقت زمرة مكونة من ثمانية أو عشرة أشخاص –وكان مأمور المقاطعة بينهم– طريقها نحو مزرعة ستبن. لم يتكبدوا عناء الرحلة برمتها لأنهم على بعد حوالي ستة أميال من البلدة التقوا ستبن. كان يمتطي فرسه الأغبر ومرتدياً المعطف الطويل ثنائي الأزرار والقبعة المصنوعة من فرو القندس التي يعرفونها جيداً فيما لفّ قدميه بقماش مشمّع، كان معه حقيبة سفر وضعها على الجزء العلوي من سرج الفرس ويحمل حقيبة صوفية على ذراعه. أوقف الفرس الأغبر (كان شهر نيسان حينها، وكان الطريق لا يزال زلقاً) وقف بمشمعه الملطخ بالطين ونقّل نظره من وجه إلى آخر، قال جدك إن عينيه ظهرتا كقطع من طبق مكسور وإن لحيته كانت خشنة كفرشاة الحصان. وقال هذه الكلمات: ‹صباح الخير أيها السادة. هل تبحثون عني؟›

«رشح من دون شك أكثر من هذا حينها، على الرغم من أن أياً من أعضاء لجنة الحراسة على حدّ علمي لم يبح أبداً بما حدث. كل ما سمعته هو كيف رأت البلدة والرجال الموجودون على شرفة نزل هلستون كلاً من ستبن واللجنة يدخلون معاً على جيادهم إلى الساحة، كان ستبن في المقدمة يسبقهم بعض الشيء فيما تزاحم البقية خلفه؛ لف القماش المشمّع قدمي ستبن بأناقة فيما تكور كتفاه داخل معطفه الجوخي المهلهل ومالت قبعة فرو القندس الناعم المهترئة قليلاً نحو الأمام، تحدث إلى الوجهاء من فوق كتفيه فيما عيناه مثبتة وشاحبة ومستهترة وربما ساخرة بل وحتى مزدرية. توقف عند الباب وانسل السائس الزنجي وأخذ رأس الحصان الأغبر وترجّل ستبن، ومعه حقيبة السفر والسلة وصعد الدرجات، وسمعت أنه استدار هناك ونظر إليهم مجدداً حيث تكوموا فوق أحصنتهم، جاهلين بما يتعين عليهم فعله بالضبط. وربما من الجيد أنه أطلق لحيته ولم يبصروا فمه. ثم استدار ونظر إلى الرجال الآخرين الجالسين وأقدامهم على الدرابزين يراقبونه أيضاً، رجال اعتادوا القدوم إلى منزله والنوم على أرض بيته والصيد معه، حيّاهم بقبعته بإيماءة منمقة ومتبجحة (أجل، لقد كان قليل التهذيب. لطالما بدا هكذا، كما قال جدك، في كافة تصرفاته الرسمية مع الناس. كان مثل الملاكم جون إل سولفيان وقد أرغم نفسه بشكل مؤلم ومضجر على تعلم رقصة الشوتيش، ودرب نفسه سرّاً مراراً وتكراراً إلى أن صارت خطواته منسجمة بشكل

تلقائي مع الموسيقا، كما يقال. ولربما أيقن أن جدك أو القاضي بينبو يرقصان بسهولة أكثر، لكنه ظن أنه ما من أحد يستطيع مجاراته في معرفة التوقيت وطريقة الرقص. وإلى جانب ذلك، كانت قوته في وجهه، هناك كمنت قوته، وحسبما قال جدك: فإن كل من رآه قال، في الظرف المناسب وعند الضرورة، هذا الرجل يستطيع فعل أي شيء وسيفعل) ودلف إلى النزل وطلب غرفة.

«وهكذا جلسوا على أحصنتهم وانتظروه. أظن أنهم عرفوا بأنه سيخرج في وقت ما. وأظن أنهم جلسوا هناك وفكروا بالمسدسين. لأنه لم يكن هناك حتى الآن مذكرة بحقه، كما ترى: كان مجرد رأي عام يعاني مرحلة دقيقة من المخاض، والآن دخل رجال آخرون على صهوة جيادهم إلى الساحة وسرعان ما فهموا ما يجري، كان هناك إذاً حشد ينتظر خروجه إلى الشرفة. خرج معتمراً قبعة جديدة ومرتدياً معطفاً جديداً من الجوخ، فعرفوا محتويات حقيبة السفر. بل وعرفوا محتويات السلة لأنها ليست بحوزته الآن أيضاً، على الرغم من أن هذا الأمر حيّرهم في ذلك الوقت أكثر من أي شيء آخر. كما ترى، كانوا منشغلين جداً بتخمين خططه لاستغلال السيد كولدفيلد، وتملكهم منذ عودته غضب جامح لاعتقادهم بأنهم الآن يعرفون غايته ووسيلته المشينة، ولهذا انشغلوا تماماً عن تذكر الآنسة إلين.

«وهكذا وقف من جديد بلا شك ونقّل نظره من وجه إلى وجه مرة ثانية، انتبه حتماً للأوجه الجديدة، نظر إلى الجمهرة بهدوء، بينما اللحية لا تزال تغطي أي حركة قد تنمّ عن فمه. ولكن بدا وكأنه لن ينبس ببنت شفة على الإطلاق في هذه المرة. نزل الدرج ومشى عبر الساحة، وتحركت اللجنة (قال جدك إن عدد أعضاء اللجنة قد ارتفع وأصبح قرابة خمسين شخصاً الآن) أيضاً، تبعته عبر الساحة. قالوا إنه حتى لم يلتفت إلى الوراء. اكتفى بالسير، منتصباً، يرتدي قبعته الجديدة ذات الحواف المطوية إلى الأعلى وحمل في يده الآن شيئاً ما اعتبروه وسيلته التضليلية الأخيرة بل وإهانته اليائسة الأخيرة لهم، قاد أعضاء اللجنة أحصنتهم على طول الشارع بمحاذاته لكن ليس بموازاته تماماً، أما الآخرون الذين لم يكن معهم أحصنة في تلك اللحظة فقد انضموا إلى الحشد ولحقوا باللجنة، بينما وقفت النسوة والأطفال والعبدات على أبواب ونوافذ المنازل وراقبوهم أثناء عبورهم وكأنهم لوحة حية وقاتمة بينما أبى ستبن النظر إلى الخلف، دخل بوابة السيد كولدفيلد واجتاز الممشى القرميدي بخطوات واسعة إلى أن وصل إلى الباب، حاملاً أزهاره التي لفّها بقمع على شكل مخروط مصنوع من الصحف.

«انتظروه مجدداً. كبر الحشد بسرعة، انضم رجال آخرون وبضعة صبية وبعض الزنوج القادمين من المنازل المجاورة، تجمهروا خلف أعضاء اللجنة الثمانية

الأصليين الذين جلسوا يراقبون باب السيد كولدفيلد إلى أن ظهر في الباب. مرّ بعض الوقت قبل أن يظهر دون الأزهار، وعندما عاد إلى البوابة، كان قد أصبح خاطباً وسيصير زوجاً. لكنهم لم يعرفوا بهذا، لأنه حالما وصل إلى البوابة، اعتقلوه. أخذوه مجدداً إلى البلدة، بينما راقبته السيدات والأطفال والعبيد العاملون في المنازل من خلف الستائر والشجيرات في فناءات البيوت وأركانها، فيما امتلأت المطابخ بلا شك بالطعام المطهو الذي سيصبح محترقاً، عبروا مجدداً الساحة حيث ترك بقية الرجال من أصحاب البنية القوية مكاتبهم وحوانيتهم ليلتحقوا بالركب، ولذلك وعندما وصل إلى المحكمة، كان عدد من يتبع ستبن يفوق العدد الذي كان سيلحق به لو كان عبداً هارباً. استدعوه ليمثل بين يدي العدالة، ولكن في تلك اللحظة وصل جدك والسيد كولدفيلد إلى هناك. وقّعوا على كفالته وعاد إلى المنزل في عصر ذلك اليوم بصحبة السيد كولدفيلد، ليعبر الشارع نفسه الذي قطعه في الصباح، ومرّ دون شك بالأوجه ذاتها التي راقبته من خلف الستائر، ليصل إلى مائدة عشاء الخطوبة التي خلت من النبيذ أو الويسكي قبل العشاء وبعده. وسمعت كيف أنه وخلال عبوره لثلاث مرات لذلك الشارع لم تتغير طريقة مشيته قيد أنملة– سار بخطوات واسعة متأنية جعلت المعطف الطويل الجديد يتمايل، والقبعة الجديدة بالميلان ذاته فوق عينيه ولحيته. قال جدك إن المسحة الخزفية التي علت بشرة وجهه قبل خمس سنوات عندما جاء إلى البلدة قد اختفت الآن وإن مسحة صادقة ظهرت على وجهه الذي سفعته الشمس. لم يكن أكثر امتلاءً أيضاً، قال جدك إنه لم يكن كذلك: كان الجلد الذي يغطي عظامه قد أصبح فقط أهدأ، أكثر تأقلماً مع الجو، لم تعد ملابسه واسعة الآن، ظل متخايلاً لكن دون تباهٍ أو عدوانية، على الرغم من أنه وفقاً لجدك لم يكن يوماً عدوانياً، كان حذراً فحسب. والآن وبعد أن صار كل هذا خلف ظهره، وعلى الرغم من أنه وعلى مدار ثلاث سنوات لم يثق سوى بعينيه لأداء مهمة المراقبة، ولا حتى بالجلد المحيط بعظامه. بعد مرور شهرين، تزوج الآنسة إلين.

«إنه شهر حزيران من العام 1838، بعد خمس سنوات تقريباً من صباح يوم الأحد الذي شهد دخوله إلى البلدة على صهوة فرسه الأغبر. تم (الزفاف)، في الكنيسة الميثودية نفسها التي رأى فيها الآنسة إلين للمرة الأولى، حسب قول الآنسة روزا. ودفعت العمة أو ألحّت (دون تزلف: فالتزلف ما كان ليجدي) كي يسمح السيد كولدفيلد للآنسة إلين بوضع مساحيق التجميل على وجهها احتفاءً بالمناسبة. وأسهمت المساحيق في إخفاء آثار الدمع. ولكن قبل انتهاء الزفاف سالت المساحيق مجدداً، لتشكل كتلاً وقنوات. وبدت إلين وقد دخلت الكنيسة في تلك الليلة مبللة كما لو كان ذلك بفعل المطر، حضرت الاحتفال خرجت من الكنيسة لتدخل في البلل مجدداً، في الدمع نفسه، والمطر ذاته. دخلت إلى العربة وودعت (المطر) إلى مزرعة ستبن.

«كان الزفاف سبب دموعها: وليس الزواج من ستبن. أما الدموع التي ذرفت بسبب الزواج، إن افترضنا أنها بكت، فقد ذرفت لاحقاً. لم يريدوه زفافاً كبيراً. يبدو أن السيد كولدفيلد لم يشأ ذلك. بالنسبة للرجلين (لا أتحدث عن إلين، بالطبع، في الواقع، ستلاحظ أن معظم حالات الطلاق حدثت مع نساء تزوجن على يد قضاة صلح يمضغون التبغ في محكمة البلاد أو على يد كهنة أيقظوهم بعد منتصف الليل، يرتدون حمالات سراويل تتدلى من تحت ذيول معاطفهم ولا يرتدون ياقة فيما الشهود إما زوجة أو شقيقة عانس لفت شعرها بالورق ليصبح مجعداً. ولهذا هل من الممكن تصديق أن تلك النسوة يطلبن الطلاق انطلاقاً من إحساس لا علاقة له بعدم الاكتمال وإنما بالإحباط الفعلي والخيانة؟ هذا بصرف النظر عن وجود الأطفال وكل شيء آخر، لا يفارق خيالهن مشهد سيرهن على نغمات الموسيقا فيما الرؤوس تلتفت نحوهن، وسط الزينة والأجواء الرمزية لفقدان العذرية الشعائري لشيء ما عدن يملكنه؟ ولِم لا، فالنسبة لهن فقدان العذرية الفعلي والحقيقي يمكن أن يكون مجرد (وكان) طقس يشبه استبدال الأوراق النقدية بتذكرة قطار) الأهم هو حفل الزفاف للاحتفاء بهذا الاستسلام– بالنسبة للرجلين، كان ستبن هو من أراد (أو أمل: استشفيت هذا من سهوة لجدك في أحد الأيام ولا ريب أنه عرفه من ستبن نفسه عن طريق السهوة ذاتها، نظراً إلى أن ستبن لم يخبر إلين مطلقاً أنه أراد زفافاً بسيطاً، الأمر– إلا أنه في اللحظة الأخيرة رفض تلبية رغبتها ولم يلن على الرغم من إصرارها– الذي يبرر جزئياً دموعها) الزفاف الكبير، حجز الكنيسة بأكملها ورتّب كافة الإجراءات. رغب السيد كولدفيلد كما يبدو بتوظيف الكنيسة بصرف النظر عن دلالتها الروحية، تماماً كما قد يستخدم أو يرغب باستخدام أي غرض آخر، سواء كان ملموساً أم مجرداً، وهو ما أولاه حيِّزاً محدداً من وقته. بدا راغباً باستخدام الكنيسة التي استثمر فيها مقداراً محدداً من التضحية وإنكار الذات دون شك وبالتأكيد جهداً فعلياً ومالاً كرمى لما يمكن تسميته توازن الحاجات لإيفاء الديون الروحية، تماماً كما يستخدم محلاج قطن يحتاجه، لحلج قطن زرعه هو أو أحد أفراد عائلته، لا غير. ربما كان هذا التدبير الصارم والتقتير هو ما مكّنه من إعالة أمه وأخته والزواج وتكوين عائلة اعتماداً على عائدات الحانوت الذي اتسعت عربة واحدة لكافة محتوياته قبل عشر سنوات، أو ربما كان شعوراً فطرياً بحسن تصرف ومرونة (وهو ما افتقرت إليه شقيقته وابنته، بالمناسبة) الصهر المرتقب الذي استخدمه قبل شهرين كوسيلة لإخراجه من السجن. ولم يفتقر إلى الشجاعة المتعلقة بمكانة الصهر الضبابية في البلدة. بصرف النظر عن شكل علاقتهما سابقاً وشكلها مستقبلاً، لو ظن السيد كولدفيلد أن ستبن متورط في أي جريمة، لما حرك ساكناً لإخراج ستبن من السجن. ما كان ليذلّل كل العقبات التي تحول دون إخراجه من الحجز، ولكن أفضل طريقة لتطهير ستبن أخلاقياً بلا ريب حينها في أعين مواطنيه تجلت بحقيقة أن السيد

كولدفيلد وقّع أوراق كفالته– شيء ما كان ليفعله لمجرد حفظ سمعته على الرغم من أن الاعتقال كان نتيجة مباشرة للأعمال القائمة بينه وبين ستبن– تلك العلاقة التي، عندما وصلت إلى مرحلة رفض فيها ضميره المصادقة عليها، انسحب وترك ستبن يأخذ الأرباح كاملة، رافضاً حتى السماح لستبن بتعويضه عن الخسائر التي تكبدها جراء الانسحاب، برغم أنه أذن لابنته بالزواج من هذا الرجل الذي لم يكن ضميره يوافق على تصرفاته. كانت هذه المرة الثانية التي يفعل فيها شيئاً من هذا القبيل.

«كان في الكنيسة عشرة أشخاص فقط خلال مراسم الزفاف، من ضمنهم العروس والعريس، من أصل مئة مدعو، برغم أنهم عندما خرجوا من الكنيسة (وكان هذا ليلاً: جلب ستبن نصف دزينة من زنوجه المتوحشين للانتظار عند الباب يحملون مشاعل من الصنوبر) كان بقية المائة هناك على هيئة صبية وشبان ورجال من روّاد حانة تارفن الواقعة على طرف البلدة– التجار وسائسو الخيل وغيرهم من غير المدعوين. في الواقع، كان رأي الآنسة روزا صائباً أكثر مما اعتقدته: لقد أراد حفل زفاف كبيراً حقاً، لا يرغب بزوجة بلا حسب أو نسب وأطفال مجهولي النسب، أراد الاسمين، الزوجة التي لا يشوب اسمها شائبة وحماً لا يشق له غبار ليوقّع على وثيقة الزواج، براءة الزواج. نعم، براءة الزواج، ممهورة بختم ذهبي وشرائط حمراء أيضاً إن إمكن. ليس من أجله هو. لربما اعتبرت (الآنسة روزا) الختم الذهبي والشرائط تيهاً وخيلاء. ولكن هذه الخيلاء عمّرت تلك الدار، الدار التي بناها في مكان غريب شحيح الموارد لا معين له فيها سوى يديه العاريتين وسط التطفلات الفضولية للناس الذين يستهجنون كل ما هو غامض بالنسبة إليهم. أما عن الكبرياء: لقد اعترفت لك بشجاعته، ربما ستسبغ عليه أيضاً صفة الكبرياء: الكبرياء نفسه الذي رغب بدار كهذه، ولن يرضى بأقل منها، وشقّ طريقه للحصول عليها بأي ثمن ثم عاش في كنفها، وحيداً، على فراش حقير ممدود على الأرض لمدة ثلاث سنوات إلى أن تمكّن من تجهيزها كما يليق– وكانت وثيقة الزواج أحد مكونات ذلك الأثاث. كانت محقة تماماً. لم يطلب مجرد ملاذ، أو زوجة وأطفال بلا نسب، تماماً كما لم يرغب بزفاف بسيط. ولكنه لم يسرّ بذلك إلى إلين أبداً، ولا لغيرها: في الواقع، عندما حلت الأزمة الأنثوية، حينما حاولت إلين والعمة استمالته إلى صفهما لإقناع السيد كولدفيلد بإقامة حفل زفاف كبير، رفض دعمهما. وتذكر دون شك على نحو أفضل مما يتذكره السيد كولدفيلد أنه كان قبل شهرين حبيس السجن؛ أن الرأي العام الذي لفترة ما خلال السنوات الخمس السابقة ابتلعه على الرغم من أن هضمه كان عسيراً، وأظهر أحد الأوجه البشرية الطبيعية العنيفة والمبهمة ثم انقلب عليه وتقيّأه. ولم يخفف عنه قط أن اثنين على الأقل من المواطنين

اللذين كانا ضرسين في الفك المفترس قد لعبا دور الدعائم لإبقاء الفك مفتوحاً بلا حول أو قوة ليخرج منه سالماً.

«إلين والعمة أيضاً تتذكران ما جرى. العمة تتذكر. كونها امرأة، كانت حتماً إحدى عضوات تحالف نساء جفرسون اللواتي وفي اليوم التالي لرؤيته في البلدة قبل خمس سنوات، أجمعن على عدم مسامحته أبداً كونه بلا ماضٍ، وتشبثن بموقفهن. وبما أن الزواج صار الآن مسألة محسومة، لربما نظرت إليه بوصفه الفرصة الوحيدة لإعادته مجدداً إلى بلعوم الرأي العام الذي حاول أخيراً لفظه، ليس فقط من أجل ضمان سلامة مستقبل ابنة أخيها كونها زوجته وإنما لتبرير إخراج أخيها له من السجن ولتبرير موقفها في الموافقة على الزواج ومباركته رغم عجزها عن إبطاله– هذا، كما أخبرتك الآنسة روزا، كرمى لذلك المنزل الكبير والمكانة والمنزلة اللتين أدركت النساء قبل الرجال بوقت طويل أنه لا بدّ وسيحصدهما. مرد هذا ربما لكون النسوة أقل تعقيداً من ذلك ويعتبرن إقامة حفل زفاف ولو كان بسيطاً أفضل من عدم إقامة زفاف، وزفاف كبير يحضره أنذال أفضل من زفاف صغير يحضره قديس.

«وهكذا استغلت العمة حتى دموع إلين؛ وأمسى ستبن، الذي عرف ربما بما سيجري، مع اقتراب اللحظة المنشودة أكثر شحوباً. لم يكن قلقاً: حذراً وحسب، كما هو حاله بالتأكيد منذ اليوم الذي أدار فيه ظهره لكل ما عرفه – الأوجه والأعراف– (كان عمره أربعة عشر عاماً فقط حينها، كما أخبر جدك. بعمر هنري نفسه عندما وجدوه تلك الليلة في الإسطبل كما أخبرتك الآنسة روزا، وعجز هنري عن احتمال ما رآه) وانطلق في عالم لم يعرف عنه أي شيء ولو حتى نظرياً، سوى المعرفة الجغرافية المتوسطة لفتى عادي بعمر الرابعة عشرة، وقد رسم هدفاً معيناً في ذهنه، هدف لا يضعه معظم الرجال نصب أعينهم قبل أن تبطؤ حركة دمائهم في عمر الثلاثين فما فوق، لأن الصورة التي تمثل السلام والخمول أو على الأقل ذروة الزهو، وليست مرارة الإهانة السابقة، تمثّلت على هيئة ابن لم تُزرع بذوره بعد، ولن تزرع إلا بعد سنوات. ذلك التأهب نفسه الذي تعين عليه ارتداؤه ليل نهار دون أن يستبدله أو يخلعه، مثل الملابس التي من دون شك ولفترة معينة على الأقل نام فيها وارتداها على مدار اليوم، وفي بلد غريب ووسط أناس يتوجب عليه تعلم لغتهم وكان هذا سبب ارتكابه لذلك الخطأ الذي لو رضخ له لما كان هناك خطأ أساساً، ونظراً إلى أنه رفض تقبله أو قبول أن يقف في طريقه، أصبح هلاكه؛– تلك العناية التي لا يرقد لها جفن والتي عرفت بالتأكيد أنه من غير المسموح له أن يرتكب سوى خطأ واحدٍ؛ تلك اليقظة التي تخطط للأحداث وتأخذ بعين الاعتبار المفاجآت التي قد تطرأ، تفكر بالظروف من جهة وبالطبيعة البشرية من جهة ثانية، أحكامه غير المعصومة والطين الفاني من جهة والقوى

البشرية بل والطبيعية أيضاً من جهة أخرى، ما سيستبقيه وما سيتخلى عنه، المساومة على أحلامه وطموحاته مثلما يتعين عليك المساومة على حصان تجوب على صهوته أرجاء البلاد، فوق لوح خشبي، تتحكم به فقط من خلال قدرتك على منع الحيوان من إدراك أنك في الحقيقة عاجز عن التحكم به، وأنه في الواقع الأقوى.

«كان يتخذ موقع الفضولي الآن. كان الانعزالي. وليس إلين. لديها عمتها لتساندها، ولديها أيضاً حقيقة أن النساء لا يستجدين ولا يدعين الوحدة مطلقاً إلى أن ترغمهن ظروف مبهمة وقاهرة على التخلي عن أي أمل في الحصول على الأبّهة التي يرغبن فيها في تلك اللحظة بالذات. لم يساندها السيد كولدفيلد. كان الرأي العام في صفه، ليس هذا فحسب وإنما دعم نفوره الخاص من حفلات الزفاف الكبيرة رأيه دون تنافر أو تناقض، كما كان لإلين عمتها من جهة ورغبتها في إقامة زفاف كبير تدعمانها من دون تنافر أو تناقض. فاقت رغبة ستبن بإقامة حفل زفاف كبير رغبة إلين، ولسبب أعمق من سببها، وبرغم ذلك فإن نظرته أخذت بعين الاعتبار ردة فعل البلدة وكان أكثر حذراً من السيد كولدفيلد حيال ذلك. وبينما كانت إلين تستخدم دموعها لإرغام والدها وأيضاً لإقناع ستبن لوضع ثقله في الميزان لترجح كفتها، كان أمامه عدو واحد– السيد كولدفيلد. ولكنه أحجم عن مساعدتها، وبقي حيادياً، أصبح لديه ثلاثة أصوات، إن احتسبنا العمة. ثم (رجحت كفة الدموع؛ كتبت إلين والعمة مئة دعوة– وأحضر ستبن أحد الزنوج الجامحين لإيصال الدعوات إلى باب بيت المدعوين كي يسلمها باليد– كما أرسل دزينة من الدعوات الشخصية لحضور التحضيرات التجريبية النهائية لمراسم الزفاف) وعندما وصلوا إلى الكنيسة من أجل التحضيرات في الليلة التي سبقت الزفاف ووجدوا الكنيسة نفسها خاوية وثمة حفنة من الرجال القادمين من ضواحي البلدة (ومنهم اثنان من قبيلة تشيكاساو التي ينتمي إليها العجوز إيكيموتب) يقفون في الظل على باب الكنيسة، انهمرت دموعها مدراراً مجدداً. تابعت إلين التحضيرات التجريبية للزفاف، ولكن بعد ذلك أخذتها العمة إلى المنزل وهي في حالة أقرب ما تكون إلى الهستيريا، ولكن اقتصرت ردة فعلها خلال اليوم التالي على نوبات نحيب هادئة ومتقطعة. وسرت أقاويل حول إلغاء الزفاف. لا أعرف مصدر الأقاويل، ربما ستبن. ولكن أعرف من استخدم حق النقض ضد ذلك. كان كما لو أن العمة انحنت للعاصفة مؤقتاً، لفترة وجيزة كافية كي يتناسى سكان البلدة ستبن ويصير حفل الزفاف حديث الناس. أمضت اليوم التالي بأكمله تدور من بيت إلى بيت، تحمل قائمة المدعوين، ترتدي ثياب المنزل وشالاً تتبعها اثنتان من زنوج كولدفيلد، ربما للحماية، ربما لتهدئتها وامتصاص غضبها مثل ورقة قنب لتهدئة نوبة غضب حادة وشرسة جراء توجيه إهانة للأنوثة، أجل، جاءت إلى منزلنا، على الرغم من أن جدك لم

يرغب مطلقاً بشيء أكثر من حضور الزفاف: ولا بدَّ أن العمة لم تخامرها أي شكوك حول رغبة أبي بالحضور لأنه ساعد ستبن على الخروج من السجن، على الرغم من أنها استخلصت جميع الاستنباطات حينها، فقد جاءت إلى منزلنا أيضاً. والدي وجدتك كانا زوجين حديثين وأمي كانت غريبة في جفرسون ولا أعرف بما فكرت فيه باستثناء أنها أبت التحدث عما حدث: حول السيدة المجنونة التي لم تسبق لها رؤيتها، والتي اندفعت إلى داخل المنزل، ليس لدعوتها إلى حفل الزفاف وإنما لتتحداها وتهددها إن لم تحضر، ثم لتخرج بالطريقة نفسها التي دخلت فيها. لم تدرك أمي للوهلة الأولى عن أي زفاف تتحدث، وعندما عاد أبي إلى المنزل وجد أمي في نوبة هيستيرية، وحتى بعد مرور عشرين سنة لم تتمكن أمي من التحدث عما جرى. لم يكن الأمر طريفاً البتة بالنسبة إليها. واعتاد والدي إغاظتها والتحدث عن الأمر، ولكن وحتى بعد عشرين عاماً من ذلك اليوم، وحالما يبدأ بإغاظتها كنت أراها ترفع يدها (ربما كان قمع الخياطة على إصبعها) كما لحماية نفسها وقد علت وجهها النظرة نفسها، النظرة التي ولا بدّ ارتسمت على محياها عندما غادرت عمة إلين.

«جالت البلدة صباح ذلك اليوم. لم تستغرق مهمتها وقتاً طويلاً واستكملتها بنجاح؛ ومع حلول الليل ضجّت البلدة بأسرها بما جرى بل وتخطتها، لتخترق الإسطبلات المخصصة لاستئجار الخيول وحانة دروفرز التي كان من المفترض أن تزود الضيوف الحاضرين بالخمر، وسرى ما حدث ليس بوصفه دعوة لحضور الزفاف وإنما كتهديد ووعيد مبطنين. لم تعِ إلين بالطبع ما حدث، تماماً مثل عمتها، وما كانت لتصدق ما سيحدث حتى لو كانت عرّافة، بوسعها رؤية الأحداث قبل وقوعها. ولم تعتبر العمة نفسها معزولة جراء الإهانة التي وجهتها، لم تحسب ببساطة أن نواياها وأفعالها خلال اليوم سيكون لها أي عواقب سوى تلك الأمور التي تنازلت عنها آنذاك المتجسدة بإزهاق ماء وجه آل كولدفيلد بل والتواضع الأنثوي برمته أيضاً. كان بوسع ستبن كما أظن إخبارها، لكنه أيقن أن العمة لن تصدقه. ربما لم يكلف نفسه عناء المحاولة أصلاً: اكتفى بفعل الشيء الوحيد الذي استطاع فعله، وهو إرسال أوامر إلى مزرعة ستبن لجلب ستة أو سبعة زنوج إضافيين من زنوجه، رجال أكفّاء يُعتمد عليهم، الوحيدون الذين بوسعه الاتكال عليهم، وسلّحهم بمشاعل الصنوبر التي كانوا يحملونها على الباب عند قدوم العربة وانتهاء حفل الزفاف. وفي هذه اللحظة جفت الدموع، لأن الشارع الآن أمام الكنيسة غصّ بالعربات المغلقة والمفتوحة، على الرغم من أن ستبن وحده وربما السيد كولدفيلد لاحظوا أن العربات عوض التوقف أمام الباب ليترجل ركابها، توقفت في الشارع ولم يترجل أحد منها، وتحوّل الرصيف الضيق أمام باب الكنيسة إلى مسرح مضاء بالمشاعل التي يتصاعد منها الدخان وحملها الزنوج فوق

رؤوسهم، والأضواء التي تمايلت ولمعت فوق صفي الوجوه التي من خلالها سيمر من يود الدخول إلى الكنيسة. لم يكن هناك صيحات بعد، لا تهكم، ومن الواضح أن الشكوك لم تساور إلين أو العمة بوجود خطب ما.

«عندما توقفت إلين عن النحيب وذرف الدموع دخلت الكنيسة. وكانت خالية إلا من جدك وجدتك وربما نصف دزينة ممن قدموا من باب الولاء لعائلة كولدفيلد أو ربما ليكونوا قريبين فلا يفوتهم شيء مما تنبأت البلدة بحدوثه، كما توحي العربات المنتظرة، وكما تنبأ ستبن. ظلت الكنيسة خالية حتى بعد بدء المراسم وانتهائها. لأن كبرياء إلين، أو على الأقل غرورها فرض سيادة الكبرياء والثبات، إلى جانب أنه لم يحدث شيء بعد. كان الحشد في الخارج هادئاً حتى الآن، ربما بداعٍ من الاحترام للكنيسة، وبداعٍ من موهبة الأنجلو ساكسونيين وتوقهم للقبول الكامل الغامض للعصي الفتاكة والحجارة القاتلة. بدت وكأنها خرجت من الكنيسة كما دخلتها دون إنذار مسبق. ربما كانت لا تزال تتحرك تحت وطأة ذلك الكبرياء الذي حال دون رؤية الناس لدموعها داخل الكنيسة. عبرت الناس، ربما على عجلة من أمرها نحو العزلة التي توفرها لها العربة حيث تستطيع البكاء، أول إشارة أوحت لها بما يجري كان صوتاً صارخاً يقول ‹انظروا! ألن ترموها الآن!› ومن ثم انهالت مختلف أنواع الأوساخ عليها، أو ربما كانت الإشارة الضوء المتغير نفسه عندما التفتت ورأت أحد الزنوج، وقد ارتفع مشعله متأهباً للوثوب على الحشد والأوجه، عندما تحدث ستبن إليه بلسان كان جزء كبير من المقاطعة حتى الآن لا يعرف أنها لغة متحضرة. كان هذا ما رأته، ما رآه الآخرون داخل العربات المتوقفة على طول الشارع– تكورت العروس محتمية بزنده بينما واراها خلفه ووقف، بلا حراك حتى بعد أن أصابه شيء ما (لم يرموا شيئاً قد يتسبب في أذية حقيقية: كانت فقط كتل من التراب ومخلفات الخضار) أصابت إحداها القبعة التي اعتمرها، وثالثة أصابت صدره تماماً– وقف هناك دون حراك، وعلت وجهه تعابير أقرب للابتسام حيث ظهرت أسنانه من خلال لحيته، يكبح جماح زنوجه بتلك الكلمة فقط (كان بين الحشد من يحمل مسدساً بالتأكيد؛ وحتماً سكاكين: وما كان الزنجي ليعيش عشر ثوانٍ لو أتى بأدنى حركة) وتحلقت حول الفريق الذي حضر الزفاف الوجوه والأفواه المفتوحة وعكست العيون ضوء المشاعل وبدت على وشك التقدم والتمايل والانتقال والاختفاء في الوهج الذي يتصاعد منه دخان الصنوبر المحترق. دخل إلى العربة، حامياً السيدتين بجسده، آمراً بكلمة أخرى الزنوج للحاق به. لكنهم توقفوا عن رميهم. كانت هذه الفورة العفوية الأولى، رغم أنهم جاؤوا مسلحين ومستعدين لرمي ما يحملونه. في الحقيقة، بدا ذلك ما خطر على بالهم حينما تبعته لجنة الحراسة إلى بوابة السيد كولدفيلد في ذلك اليوم قبل شهرين. لأن الرجال الذين شكلوا الغوغاء والتجار وسائقي الحيوانات وسائقي الشاحنات

قفلوا عائدين واختفوا في المنطقة التي ظهروا منها من أجل هذه المناسبة كالجرذان، تفرقوا وتشرذموا في مختلف أنحاء البلاد– الوجوه التي لم تتمكن حتى إلين من تذكرها، بدت وكأنها جاءت لقضاء ليلة واحدة أو لتناول وجبة أو الاكتفاء باحتساء الشراب في حانات أخرى تبعد عشرين أو ثلاثين أو مئة ميل عن طرق لا أسماء لها غادروها بدروها؛ وهؤلاء الذين جاؤوا في عربات مفتوحة ومغلقة لرؤية العطلة الرومانية، قادوا عرباتهم إلى مزرعة ستبن للزيارة (والرجال) للصيد وأكل طعامه مجدداً والاجتماع في المناسبات ليلاً في إسطبله ريثما يختار زنجيين من زنوجه ليصارعا بعضهما البعض كما يختار المرء الديوك أو قد يدخل حلبة المصارعة بنفسه. مرت الليلة على سلام، لكنها ليلة لا تُنسى. لم ينس تلك الليلة، أعتقد أن إلين نسيت، لأنها مسحت الذكرى مع الدموع. أجل، إنها تبكي مجدداً الآن، حقاً، تبكي أنهاراً على ذلك الزواج».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو أنه بالفعل هجرها، فلن تخبر أحداً بذلك حسب اعتقادي قال كونتن.

آه زفر السيد كمبسن مجدداً. بعد موت السيد كولدفيلد عام 1864، انتقلت الآنسة روزا للعيش مع جوديث في مزرعة ستبن. كانت في العشرين من عمرها حينها، أي أصغر بأربع سنوات من ابنة أختها التي، نزولاً عند وصية شقيقتها قبيل وفاتها، عقدت العزم على إنقاذها من الهلاك الذي كان ستبن على وشك أن يلحقه بالعائلة، أما الوسيلة التي اعتمدتها لتحقيق ذلك، فبدت عبر الزواج منه. ولدت (الآنسة روزا) في العام 1845، بعد سبع سنوات من زواج شقيقتها الذي أثمر عن ولدين، حينما كان والداها في منتصف العمر (لا بدّ وأن والدتها كانت في الأربعين من عمرها على الأقل وقد لقيت حتفها على فراش الولادة ولم تغفر الآنسة روزا لوالدها قط موت أمها) ولدت في الوقت الذي كانت فيه العائلة– على فرض أن الآنسة روزا جسدت رأي والديها بصهرهم– تنشد السلام والسكينة ولا تنتظر أو لا تتمنى أصلاً ولادة طفل جديد. لكنها ولدت، ودفعت أمها حياتها ثمناً لمجيئها إلى هذا العالم ولم يتسنَ لها أبداً نسيان ذلك، ترعرعت على يد العمة العانس نفسها التي حاولت فرض العريس على أختها الكبرى، ليس هذا فحسب، وإنما حاولت أيضاً فرض الزفاف على البلدة التي لم ترغب بأي زفاف، وكبرت وسط ذلك المجتمع النسائي الماسوني المغلق حيث كلّفت حياتها التضحية بحياة والدتها، كانت الكدر الحي المتحرك لوالدها، لم ينحصر الأمر في هذا، بل كانت حياتها الاتهام الحي المنتقل الكامل لكافة الأعراف الذكورية (التي حكمت على العمة أن تظل بتولاً وهي في الخامسة والثلاثين) الموجودة فوق هذه البسيطة. وهكذا عاشت على مدار السنوات الست عشرة الأولى من حياتها في منزل كئيب صغير يُطبق على الأنفاس تحت سقف واحد مع والدها الذي كرهته لسبب مجهول– ذلك الرجل الغريب الصامت الذي ما كان له رفاق أو أصدقاء سوى ضميره، وما اهتم لشيء سوى سمعته ورأي الناس باستقامته– الرجل الذي عمد لاحقاً إلى حبس نفسه في العلية وتضور جوعاً حتى الموت عوض الاعتناء بأرضه وصدّ الجيش الغازي– ومع العمة التي ظلت مصممة حتى بعد مرور عشر سنوات على الانتقام لفشل زفاف إلين من خلال إفناء البلدة والعِرق البشري وكافة المخلوقات– إفناء الأخ وأبناء الأخ والأصهار ونفسها والجميع– يحركها غضب أعمى لا عقلاني لأفعى تغيّر جلدها باستمرار وعلّمت الآنسة روزا الاعتناء بأختها قبل أن تتلاشى ويزول أثرها في العائلة والمنزل بل وفي الحياة برمتها، لتحبس في قلعة تشبه قلعة ذي اللحية الزرقاء [8] وتتحول إلى قناع مشدود للماضي مكبّل بحزن سلبي يائس يرنو إلى عالم تستحيل استعادته، مسجونة داخل قهقات تهكمية يطلقها رجل (له وجه الرجل

نفسه الذي رآه السيد كولدفيلد وكان يراه منذ ذلك اليوم عندما افترق عن صهره، صهره المستقبلي الشريك الزائف أو بالأحرى الصفعة، الذي توقف ضميره لأجله عن العمل وتنازل له عن حصته من الشحنة) والذي دخل حياتها وحياة العائلة قبل ولادتها كأنه إعصار مباغت، وألحق أضراراً لا تُحصى ولا يمكن إصلاحها وتابع طريقه– في بيت هواؤه هواء قبور كئيب تنفخه الاستقامة المتزمتة ونزعة الانتقام الأنثوي الحانقة التي اختبرتها الآنسة روزا في طفولتها (ذلك الغياب المقيم والقديم والأزلي للشباب، غياب مجبول على استراق السمع خلف الأبواب الموصدة تماماً كما كانت تفعل كاسندرا، غياب رابض في حفر مظلمة تفوح منها روائح الكنيسة المشيخية الكريهة للترقب الانتقامي الجنائزي بينما كانت تنتظر طفولة استغلتها الطبيعة لإرباكها وخيانتها كي تتغلب على براعم الاستنكار المحقق المتعلق بأي شيء قد يتسرب من جدران المنزل بواسطة أي شخص، ولا سيما والدها، استنكار وهبته لها عمتها تماماً كما وهبتها ملابسها).

ربما رأت في موت والدها، في عوزها بعد وفاته ورحيله الذي جعل منها يتيمة بل وصعلوكة، في حاجتها للاعتماد على أقربائها من الدرجة الثانية لتأمين الطعام والمأوى والحماية– أي ابنة أختها نفسها التي كُلفت الآنسة روز بحمايتها–؛ ربما رأت أن القَدَر يمنحها الفرصة لمشاهدة موت طلب أختها بعينيها. ربما رأت نفسها أداةً للقصاص: إن لم يكن بوصفها أداة فعالة قوية بالشكل الكافي لمجابهته، فعلى الأقل بوصفها رمزاً سلبياً يستنهض الذكرى الحتمية دون دماء أو أبعاد والانبعاث من حجر التضحية لسرير الزواج. فحتى الفترة التي عاد فيها من فرجينيا في العام 1866 وعرف أنها تعيش مع جوديث وكليتي– (أجل، كانت كليتي ابنته أيضاً: كليتيمنيسترا [9]. هو من أطلق عليها هذا الاسم. هو من أسماهم كلهم: كل ذريته وكل ذرية زنوجه المتوحشين بعد أن بدأت البلاد بابتلاعهم. ألم تخبرك الآنسة روزا أن اثنين من الزنوج الذين كانوا داخل العربة في ذلك اليوم كانوا من النساء؟

كلا، يا سيدي قال كونتن.

أجل، اثنان منهم. لم يحضرهما من قبيل الصدفة أو الهفوة. خطط لذلك، استشرف حتماً القادم ورأى المستقبل وما سيجري حتى بعد سنتي بناء تلك الدار، السنتين اللتين تظاهر خلالهما بحسن النيّة أمام جيرانه إلى أن سمحوا له بدمج قطيعه الجامح مع قطيعهم المدجن، ولم يقف الاختلاف في اللغة بين تلك التي تحدث فيها زنوجه وتلك التي تحدث فيها زنوجهم عائقاً أمامه سوى لأسابيع أو ربما لأيام معدودة. أحضر السيدتين عن سابق إصرار وتصميم؛ ربما اختارهما بالعناية والدهاء نفسه الذي اختار فيهما المواشي الأخرى –الأحصنة والبغال والبقر– التي جلبها فيما بعد. وعاش هناك زهاء خمس سنوات قبل أن

يبادر بقول كلمة واحدة لأي سيدة بيضاء في المقاطعة، تماماً كما خلا منزله من قطعة أثاث واحدة وللسبب ذاته: لم يكن يملك في ذلك الوقت أي شيء ليقايضه بأي سيدة بيضاء أو بأي قطعة أثاث. أجل، أسماها كليتي كما أسماهم جميعاً، الصبي الذي ولد قبل كليتي وقبل هنري وحتى قبل جوديث، بالجسارة والاندفاع التهكمي نفسه، سمّى بملء فمه ما جاء من صلبه من أسنان التنين المثيرة للسخرية والتي أنجبت في حالتين استثنائيتين فتاتين. ملتُ دائماً إلى الاعتقاد أنه رغب بتسميتها كاساندرا، مدفوعاً برغبة صرفة لتحقيق مآربه الخاصه ليس فقط لترك ذرية وإنما لتعيين العرّاف الرسمي لكارثته الشخصية، لكن خطأ عفوياً ارتكبه رجل علّم نفسه بنفسه القراءة دفعه ليطلق عليها الاسم الخطأ)... وعندما عاد إلى الوطن في العام 1866، لم تكن قد رأته لأكثر من مئة مرة في حياتها كلها. وجلّ ما رأته حينها كان ذلك الوجه العملاق القميء الذي رأته في طفولتها لمرة واحدة ومن ثم تكررت رؤيته من فترة إلى أخرى وفي المناسبات التي لم تكن تهمها أو تتذكرها، مثل قناع في الملهاة الإغريقية ينتقل من مشهد إلى آخر ومن ممثل إلى آخر وخلفه تجري الأحداث والمناسبات خبط عشواء دون تسلسل أو تعاقب زمني مما جعلها عاجزة بالفعل عن تحديد عدد المرات المتباعدة التي رأته فيها، لأن عمتها علّمتها ألا تنظر إليه سواءً في صحوها أو منامها إلا بوصفه زوج أختها فحسب. في تلك المناسبات الصارمة الكئيبة وحتى الرسمية عندما كانت تذهب بصحبة عمتها إلى مزرعة ستبن لقضاء اليوم وكانت العمة تأمرها بالذهاب واللعب مع ابن أختها وابنة أختها تماماً كما كانت تأمرها بعزف إحدى المقطوعات الموسيقية على البيانو، لم تكن تراه حتى على مائدة العشاء لأن العمة تعمدت ترتيب موعد الزيارات أثناء غيابه؛ ولربما كانت الآنسة روزا لتتجنب لقاءه في حال وجوده. وخلال المناسبات الأربع أو الخمس في السنة عندما كانت إلين تحضر الأولاد لقضاء اليوم في منزل والدها، كانت العمة (تلك السيدة القوية الانتقامية المثابرة التي بدت أقوى وأكثر انتقامية بمرتين من السيد كولدفيلد وكانت في الواقع والدة الآنسة روزا ووالدها في آن معاً) تضفي على تلك الزيارات الأجواء نفسها التي تسودها المؤامرة والتحالف الكئيب المتأهب للمعارك ضد خصمين، الخصم الأول– السيد كولدفيلد– بصرف النظر عن قدرته على خوض معركته أم لا، أغرق جنوده منذ زمن بعيد وفكك مدفعيته والقلعة المنيعة لاستقامته السلبية: بينما الخصم الآخر– ستبن– الذي كان باستطاعته زجهم في أتون الحرب ودحرهم ولكنه لم يدرك حقيقة أنه عدو محاصر. لم يكن حتى يتناول وجبة الغداء في المنزل. ربما بسبب الحساسية بينه وبين حميه، وظل السبب الحقيقي لهذا التهرب إضافة إلى بدايات الشراكة التي جمعتهما لغزاً محيراً للعمة ولإلين وحتى للآنسة روزا، كان لستبن أن يبوح بالسبب لرجل واحد فقط– غير أنه تعهد بالكتمان طالما السيد كولدفيلد على قيد الحياة– ومراعاةً لاسم السيد كولدفيلد الذي

بناه بمنتهى الحرص ليكون مضرب مثل عن قمة الأخلاق– بيد أن السيد كولدفيلد نفسه حسب قول جدك لم يكشف عن ذلك للسبب نفسه. ولربما مردّ هذا إلى السبب الذي أخبرتك عنه الآنسة روزا بناءً على ما قالته العمة: أنه وبعد نهب حميه وأخذ كل ممتلكات السيد كولدفيلد وكل ما رغب به ستبن أو احتاجه، فإنه (ستبن) لم يعد يملك الشجاعة لمواجهة حميه ولا الدماثة واللباقة والكياسة لحضور اللقاءات العائلية الاحتفالية حتى ولو لأربع مرات في السنة. أو ربما مردّ ذلك إلى المبرر الذي قدمه ستبن نفسه ورفضت العمة تصديقه لسبب واحد: أنه لم يعتد الذهاب إلى البلدة كل يوم وإن ذهب فقد كان يفضل قضاء الوقت (أصبح يرتاد الحانة الآن) مع الرجال الذين دأب على لقائهم ظهر كل يوم في نزل هلستون.

ذلك كان الوجه الذي، عندما رأته للمرة الأولى، كانت تفصلها عنه مائدة الطعام– وجه خصم غافل أصلاً عن حقيقة أنه محاصر. كانت في العاشرة وعلى ضوء هروب العمة (تولت الآنسة روزا مهام العناية بمنزل والدها تماماً كما دأبت العمة على فعله حتى ليلة هروبها عبر النافذة واختفائها) لم يكن هناك من يحثّها على اللعب مع ابنة أختها أو ابن أختها في تلك الأيام الرسمية والجنائزية، لم تجد حتى حاجة إلى الخروج وتنفس الهواء نفسه الذي كان يتنفسه، الهواء الذي ظل على الرغم من غيابه جاثماً ومعلقاً فيما أسمته النصر التهكمي المتربّص. صارت تقصد مزرعة ستبن مرة واحدة في السنة، تقطع ووالدها الأميال الاثني عشر مرتديين ثياب الآحاد على متن تلك العربة الكبيرة المهترئة خلف الفريق القوي التعيس، لقضاء يوم كامل في المزرعة. صار السيد كولدفيلد الآن هو من يصرّ على مثل هذه الزيارات، لم يعتد الذهاب معهم عندما كانت العمة هناك، تحجج بأنها زيارات بدافع الواجب، لكن حتى العمة لم تصدق حججه، ربما لأنها مجرد حجج واهية فيما السبب الحقيقي: أن السيد كولدفيلد أراد رؤية حفيديه، فيما كان قلقه يزداد بشكل مطرد من اليوم الذي سيخبرهما فيه والدهما– سيخبر ابنه على الأقل– عن العمل السابق الذي جرى بين الأب والجد رغم أن السيد كولدفيلد لم يكن متأكداً من أن صهره لم يخبرهما بعد. وعلى الرغم من رحيل العمة، فقد نجحت في ترك إرثها وابتعاث اللمسة القديمة التي تباغت الزوار كغارة كئيبة في كل زيارة من هذه الزيارات، غارة أعنف من ذي قبل ضد خصم غافل عن أنه طرفٌ في حرب. وبرحيل العمة، وجدت إلين نفسها في حِلٍّ من التحالف الثلاثي الذي حاولت تشكيله الآنسة روزا دون علم منها ليصير تحالفاً ثنائياً. والآن أمست وحيدة تماماً أمامه على الجهة المقابلة من مائدة العشاء دون معين أو مساعدة ولا حتى من إلين (دخلت إلين خلال هذه الفترة في طور تحول كامل سيستمر على مدى سنواتها الخمس القادمة التي ستكون ختام إعادة ولادتها الفعلية)؛ تواجه على الجهة الأخرى من المائدة الخصم الغافل

عن حقيقة أنه موجود ليس بوصفه مضيفاً وصهراً وإنما بوصفه الطرف الثاني في الهدنة. لم ينظر إليها سوى مرتين ربما مقارنة بعدد المرات التي نظر فيها إلى –عائلته وولديه– الطفلة النحيلة الصغيرة التي لن تصل قدماها، حتى بعد اكتمال نموها، أبداً لتلامس أرض الغرفة حتى وإن جلست على كراسيها الخاصة، ولا على الكراسي التي سترثها –ولا الكراسي والأغراض– التي ستراكمها كإضافات تتمّم صورة الشخصية المتفردة، كما جرت العادة، على عكس إلين التي، على الرغم من عظامها الرقيقة أيضاً، فقد تمتعت بالصفة التي يقال عنها بأنها صاحبة جسد مكتنز (وكان هذا ليصير حقيقة لو لم تتدهور حالتها وتعيش في زمن عَزَّ فيه حتى على الرجال إيجاد ما يسدون به رمقهم ولو عاشت آخر أيامها دون متاعب، لو لم يحدث هذا لكانت بحق صاحبة جسد مكتنز. لم تكن بدينة، وإنما مكتنزة ومكتملة، الشعر الأبيض، والعينان تحتفظان بشبابهما، وتحتفظ حتى بنضارة طفيفة تعلو ما صار جلداً مترهلاً وما عاد وجنتين، اليدان صغيرتان مكتنزتان خاليتان من أي علامات مزينتان بالخواتم تنتظران الطعام بهدوء، مطويتان على غطاء المائدة الحريري المطرز أمام أكواب من ماركة هافيلاند تحت الثريات التي أحضرها إلى البلدة قبل سنوات وسنوات في عربات مغلقة، مما أثار دهشة وحنق مواطنيه المتحفظين)، ومقابل جوديث التي تفوق إلين طولاً، ومقابل هنري الذي لم يكن حينها يضاهي جوديث في الطول رغم أن عمره ستة عشر عاماً فيما كانت هي في الرابعة عشرة، لكنه مع ذلك قطع وعداً بأن يقف يوماً ما في وجه والده كندٍّ له؛– هذا المخلوق، هذا الوجه الذي قلّما يتكلم على مائدة الطعام، عيناه (حسب وصفك) مثل قطعتي فحم ضُغطتا حتى صارتا عجينة رقيقة، شعره مصفف بعناية ويشبه في الظل بشكل غريب شعر الفئران، شعرٌ قلما تراه أشعة الشمس، مقابل وجهي جوديث وهنري اللذين يبدو عليهما تأثير الشمس بشكلٍ واضح: كان لجوديث شعر والدتها نفسه وعينا والدها بينما كان شعر هنريٍ في الوسط بين شعر والده الأحمر وشعر إلين الأسود، عيناه بلون البندق الداكن اللامع؛– جسدها ضئيل تحيط به هالة من الغرابة المتناقضة المثيرة للفضول يبدو مثل زي تنكري استعارته في اللحظة الأخيرة لحضور حفلة تنكرية قسرية: هالة مخلوق قرر بمحض إرادته التقوقع ولا يزال يرزح تحت فترة تدريب إجبارية كي يتعلّم، دون رغبة منه، التنفس– هذه الخادمة المكبّلة برابطة اللحم والدم التوّاقة للانعتاق من خلال كتابة شعر طالبة في المدرسة حول الجندي الذي قتل في أرض المعركة– الوجه الأصغر بين الحضور، يراقبه عبر المائدة بانتباه حذر وفضولي وشديد كما لو أن معرفتها لبواطن الأمور (سير الأحداث) ساعدتها على التقاط الإشارات معرفة راكمتها واكتسبتها عبر التنصت من وراء الأبواب المغلقة، ليس لما يُقال وإنما الإنصات لارتفاع درجة الحرارة قبل الإصابة بحمّى الكارثة هذا الإنصات الذي يصنع العرّافين ويحقق نبوءتهم أحياناً حول الفاجعة القادمة التي ستمحو على

ما يبدو ذكرى الوجه العملاق القميء الذي عرفته في طفولتها فتقرر الزواج منه، إنصات يحولها إلى شخص متلقٍ وغير فعال، عاجز عن التمييز أو إبداء الرأي أو التكذيب.

ربما كانت تلك المرة الأخيرة التي تراه فيها. إذ توقفوا عن الذهاب إلى هناك. السيد كولدفيلد أقلع عن الذهاب. لم يتفقوا على موعد للزيارة. وفي صباح أحد الأيام عند موعد الفطور جاء مرتدياً معطفه الأسود الثقيل والمرتب الذي ارتداه عندما تزوج واثنتين وخمسين مرة في كل سنة منذ زواجه إلى حين زواج إلين وثلاث وخمسين مرة في السنة بعد أن تركتهم العمة ثم ارتداه للأبد يوم صعوده إلى العلية وإقفال الباب بالمسامير خلفه ورمي المطرقة من النافذة والموت هناك. ثم نأت الآنسة روزا بنفسها وظهرت مجدداً في فستان حريري ضخم أسود أو بني اختارته العمة لها قبل سنوات واعتادت ارتداءه أيام الآحاد أو في المناسبات حتى بعد اهترائه، إلى أن جاء اليوم الذي أعلن فيه والدها أن العمة رحلت دون رجعة وسمح للآنسة روزا باستخدام الملابس التي تركتها العمة وراءها في المنزل ليلة فرارها. ثم كانا يدلفان إلى العربة ويغادران، واعتاد السيد كولدفيلد خصم قيمة وجبة الغداء من أجر الزنجيين إذ لم يكن عليهما تحضيرها (هذا ما اعتقدته البلدة) وتغريمهما بثمن بقايا الطعام النيء الذي سيزدردانه. ثم تخلّفا عن الذهاب في إحدى السنوات. لا شك وأن السيد كولدفيلد تخلّف عن حضور الفطور مرتدياً معطفه الأسود، وتلته الكثير من الأيام التي تخلّف فيها أيضاً عن الذهاب، وهكذا توقفت زياراته. ربما شعر بعد أن كبر حفيداه بأن ضميره استراح مع ذهاب هنري إلى جامعة الولاية في أكسفورد وذهاب جوديث إلى أبعد من ذلك:– إلى تلك المرحلة الانتقالية بين الطفولة والصبا حيث صار من الأصعب التواصل مع الجد الذي لم تره سوى مرات قليلة في حياتها ولا تكترث لأمره كثيراً على أي حال في تلك المرحلة التي تبدو فيها الشابات مرئيات ولكن عبر زجاج يحول دون وصول أي شيء إليهن، ولا حتى الصوت؛ حيث يسبحن (هذه الفتاة الطائشة التي كان باستطاعتها –وفعلت– الهرب والتسلق، وركوب الخيل والقتال مع وإلى جوار أخيها) في توهج لؤلئي لا ظلال له يتقاسمنه فيما بينهن؛ في ضبابية معلّقة، غريبات ولا يمكن التكهن بتصرفاتهن، حتى أشكالهن مائعة وهشّة وخالية من أي جوهر؛ غير توّاقات إلى أي شيء يكتفين بالانتظار، طفيليات وقويات وساكنات، يرسمن لأنفسهن دون عناء ملامح هيئتهن الجديدة، شكل ظهورهن وأثدائهن وصدورهن وخواصرهن وأفخاذهن.

وبدأت الآن المرحلة التي انتهت بالفاجعة التي وجهت الضربة القاصمة للآنسة روزا ودفعتها للموافقة على الزواج من رجل كانت تعتبره منذ طفولتها غولاً. لم يكن تحولاً جذرياً في الشخصية: الشخصية لم تتغير. حتى سلوكها لم يتغير بأي شكل من الأشكال. حتى لو لم يمت تشارلز بون، كانت في كافة الأحوال

عاجلاً أم آجلاً ستنتقل للعيش في مزرعة ستبن بعد موت والدها، وستبقى هناك خلال ما تبقى من حياتها، كما توقعت دون شك حين ذهابها. ولكن لو عاش بون وتزوج من جوديث وبقي هنري دون أن يتوارى عن الأنظار، لكانت انتقلت (لو انتقلت) للعيش هناك فقط عندما كانت جاهزة، ولعاشت (لو عاشت) مع عائلة شقيقتها المتوفاة فقط بوصفها الخالة التي كانت عليها. لم تكن شخصيتها: على رغم السنوات الست ربما التي مرت منذ رأته بالفعل والسنوات الأربع حتماً التي أمضتها تطعم والدها سراً في الليل بينما كان يختبئ في العلية خشية قائد الشرطة العسكرية الكونفدرالية، وتكتب في الوقت نفسه شعراً بطولياً حول الرجال أنفسهم الذين كان يختبئ منهم وكانوا ليردونه قتيلاً أو يشنقونه من دون محاكمة إن أمسكوا به– ومن بينهم وللمصادفة غول طفولتها الذي صار مضرب مثل (جلب معه إلى المنزل شهادة ثناء على البسالة مكتوبة بخط يد القائد العسكري لي)– الوجه الذي حملته معها إلى هناك لتعيش بقية حياتها كان الوجه نفسه الذي راقبته من خلاله على مائدة العشاء فيما هو لا يتذكر عدد المرات التي رأى فيها هذا الوجه ولا متى ولا أين، ليس بسبب قدرته على نسيانه ولكن ربما لأنه وجه عادة ما تنساه بعد عشر دقائق من إشاحة النظر عنه، ومن خلف الوجه نفسه الذي كانت المرأة نفسها والطفلة ذاتها تراقبه من خلاله بالانتباه الكئيب والبارد نفسه.

وعلى الرغم من أنها لم تر ستبن مرة ثانية إلا بعد مرور سنوات، إلا أنها باتت الآن ترى أختها وابنة أختها أكثر من أي وقت مضى. كانت إلين الآن في أوج ما كانت تسميه الخالة خيانتها. لم تبدُ فقط منصاعة ومتصالحة مع حياتها وزواجها، وإنما أيضاً فخورة بهما. أينعت، كما لو أن القدر اختصر الصيف الهندي العادي الذي من المفترض أن يبدأ وينتهي تدريجياً على مدار ست أو ثماني سنوات، إلى ثلاث أو أربع سنوات، إما كتعويض عما سيأتي أو لتصفية الحسابات ودفع الشيك الذي وقعته زوجة الطبيعة باسمه. كانت في أواخر الثلاثين من عمرها، مكتنزة وجهها لا تشوبه أي شائبة. وكأن كل العلامات التي تركت أثرها عليه إلى وقت اختفاء العمة قد اختفت، استُئصلت على الأقل، من المنطقة بين العمود الفقري والجلد، بين محصلة الخبرات والظرف الذي يحفظها، استأصلتها السنوات التي تتخلل الجلد اللدن الرائق. صارت عربتها وهالتها الآن مَلَكية بعض الشيء– دأبت على زيارة البلدة بصحبة جوديث بشكل متكرر، تزوران السيدات ذاتهن، وقد أمست بعضهن الآن جدات، ممن حاولت العمة إرغامهن على حضور الزفاف قبل عشرين عاماً، تزوران البلدة للإغراءات القليلة التي للبلدة أن تقدمها كالتسوق– كما لو أنها نجحت على الأقل في نزع فتيل التراث المتزمت بل والواقع نفسه؛ وأحرقت الزوج الغاضب والولدين الغامضين حتى صاروا أخيلة؛ هاربة أخيراً إلى عالم الوهم

الصرف حيث تكون آمنة وبمنأى عن أي أذى، تنقلت، عاشت متخبطة بين مجموعة من السلوكيات التي تناقض نشأتها ومنبتها وصورتها بوصفها سيدة دار كبيرة، زوجة الأغنى، والدة الأطفال الأوفر حظاً. وعندما كانت تتسوق (صار هناك اثني عشرة حانوتاً في جفرسون الآن) لم تكن تتزحزح من مكانها أو حتى تترجل من العربة، خيّرة ومحسنة وواثقة من نفسها تقول كلاماً خالياً من أي معنى على الإطلاق، تتحدث بطلاقة، تنطق جملها الخالية من أي معنى بما يتوافق مع سياق الدور الذي كتبته لنفسها، لدوقة تجوب المكان لتوزع الحساء والدواء بين فلاحين متطوعين بلا أرض– سيدة لو كان لديها الجَلَد لتحمل الحزن والمشاق، لصارت نجمة حقيقية تلعب دور زعيمة قبيلة تحلّ وتربط وهي جالسة قرب النار في ركن العجائز لتحمي كبرياء ومصير عائلتها، بدل اللجوء في الرمق الأخير إلى أصغر فرد في العائلة لتطلب منه حماية الآخرين.

دأبت السيدتان على زيارة البلدة والمنزل مرتين وأحياناً ثلاث مرات في الأسبوع– السيدة الحمقاء طليقة اللسان التي لا تشوبها شائبة، المختفية منذ ست سنوات عن العالم– السيدة التي تخلت عن المنزل والأقارب وسط طوفان من الدموع وأنجبت ولدين في منطقة موبوءة ضبابية تشبه المناطق الساخطة المجاورة لنهر ستيكس [10] ومن ثم ارتقت مثل فراشة المستنقعات، دون أن يعيقها ثقل معدتها والأعضاء المتخمة بالمعاناة والتجارب، لتدخل إلى الفراغ الساطع السرمدي للشمس الأسيرة– والفتاة الصغيرة تحلم، ولا تعيش، في انفصال تام عن الواقع مع استحالة التواصل معها في حالة أشبه بالصمم. بالنسبة لهما، لا شك وأن الآنسة روزا لم تعد تعني لهما أي شيء الآن: ليست الطفلة التي كانت أداة العمة المختفية وضحيتها ومحط عنايتها واهتمامها الانتقاميين اللذين لا يتعبان، وليست حتى السيدة التي يدلّ عليها مكتبها كمربية منزل، وبالتأكيد ليست الخالة الفعلية التي كانت عليها. ومن الصعب تحديد أي من السيدتين، الأخت أم ابنة الأخت، كانت بالنسبة إلى الآنسة روزا بدورها الأبعد عن أن تكون حقيقية– الراشدة التي هربت من الواقع إلى منطقة عمياء سكانها من الدمى، أم الشابة التي كانت تمشي وهي نائمة في وضعية إيقاف تام عن النشاط البدني بما يشبه الحالة الجنينية وبعيدة كل البعد عن نقيض الواقع بقدر بعد إلين عنها، تعرّج على المنزل مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وفي إحدى المرات، وخلال الصيف عندما كانت جوديث في السابعة عشرة، عرجت في طريقها البري إلى ممفيس لشراء ملابس لجوديث؛ أجل: جهاز العرس. كان ذلك الصيف الذي تلا أولى سنوات هنري في الجامعة، بعد أن أحضر تشارلز بون إلى البيت معه لقضاء عيد الميلاد ومن ثم أحضره مرة ثانية لقضاء أسبوع أو أكثر خلال العطلة الصيفية قبل أن يذهب بون إلى النهر ليستقل العبّارة ويعود

أدراجه إلى مسقط رأسه في نيو أورلينز؛ الصيف الذي رحل فيه ستبن نفسه، من أجل قضاء بعض الأعمال، حسب قول إلين، التي تحدثت، وبلا شك من دون وعي منها، تماماً كما كان وجودها حينها، فقد كانت لا تعرف أين ذهب زوجها وغير مدركة حتى بأنها لم تكن فضولية لمعرفة السبب، وما من أحد سوى جدك وربما كليتي عرف أن ستبن قصد نيو أولينز بدوره. كانتا تدخلان إلى المنزل الصغير الضيق والكئيب والمعتم حيث لا تزال العمة، حتى بعد مضي أربع سنوات، واقفة خلف أي باب ويدها على المقبض، يمتلئ المنزل بجلبة إلين المجلجلة لعشر أو خمس عشرة دقيقة ومن ثم تغادر، آخذة معها الابنة الحالمة مسلوبة الإرداة التي لم تنبس بكلمة واحدة؛ فيما الآنسة روزا التي كانت في الحقيقة ابنة الخالة ومن الأجدى أن تكون بحكم العمر شقيقتها وبحكم التجربة والأمل والفرصة ابنة أختها، تتجاهل الأم لتلحق بالابنة المغادرة والحصينة بتوق قصير النظر وعاجز عن البوح خالٍ من الغيرة ولو بمثقال ذرة، تسقط على جوديث كافة الأحلام والأوهام الفاشلة عن شبابها اليائس المحكوم عليه بالفشل، لتقدم لجوديث الهدية الوحيدة (الهدية بالضرورة تُقدم إلى تجهيزات العروس وليس إلى العروس؛ كان هذا قول إلين الذي تتخلله صرخات بهيجة متكررة) التي تخولها سلطتها تقديمها: عرضت تعليم جوديث كيفية الاعتناء بالمنزل والتخطيط لوجبات الطعام والتنظيف، وتلقّت من جوديث مقابل العرض نظرة محدّقة وفارغة لا يمكن سبر أغوارها، وتمتمة غير مسموعة «ماذا؟ ماذا قلتِ؟» بينما إلين واصلت صيحاتها الهازئة. ثم غادرتا– آخذتان معهما العربة والصُّرر وتسلية إلين الطاووسية وأحلام ابنة الأخ المنيعة. وبعد انتهاء التسوق، في طريق عودتهما إلى البلدة، توقفت العربة أمام منزل السيد كولدفيلد، وخرجت إحدى الزنجيات لتقول إن الآنسة روزا خارج المنزل.

في ذلك الصيف رأت هنري من جديد أيضاً. لم تكن قد رأته منذ الصيف الماضي على الرغم من أنه جاء إلى المنزل في عيد الميلاد بصحبة صديقه في الجامعة، وكانت قد سمعت عن حفلات الرقص والحفلات المقامة في مزرعة ستبن أثناء العطل ولكنها أحجمت ووالدها عن الحضور. وعندما توقف هنري مع بون أثناء طريق عودتهما إلى الجامعة في اليوم الذي تلا يوم رأس السنة ليلقي التحية على خالته، لم تكن في الحقيقة في المنزل. ولهذا لم تره إلا في الصيف التالي، بعد مرور سنة كاملة. كانت في البلدة، تتسوق؛ واقفة في الشارع تتحدث إلى جدتك عندما مرّ من جانبها. لم يرها؛ عبر وهو يمتطي مهرة جديدة أعطاه إياها والده، صار يرتدي معطفاً وقبعة كالرجال الآن؛ قالت جدتك إنه أصبح بطول والده وإنه كان يختال على صهوة المهرة مثله تماماً على الرغم من أن عظامه كانت أخف وزناً من عظام ستبن، كما لو أن عظامه كانت قادرة على حمل خيلائه ولكنها كانت أخف وأسرع من أن تحمل

تباهيه. كان ستبن يؤدي دوره أيضاً. أفسد إلين بطرق عديدة وليس بطريقة واحدة. أضحى الآن أكبر مالك أراضٍ وزارع قطن في المقاطعة، حظوة اكتسبها باستخدام الأساليب نفسها التي بنى فيها داره– بجهود العقل الأحادي المواظب نفسه والاستهتار الكامل بالمنظور الذي سترى البلدة من خلاله أفعاله المكشوفة ومنظور البلدة لأفعاله الضرورية التي لا تستطيع رؤيتها. هكذا كان الحال، ظن بعض مواطنيه أن ثمّة زنجياً مختبئاً في كومة الحطب في مكان ما يراقب سير العمل، فيما اعتقد البعض أن المزرعة كانت مجرد ستار لتغطية حرفة حقيقية شيطانية، وآخرون حسبوا أنه وجد طريقة ما للتلاعب بسوق القطن نفسه لتدرّ عليه بالات قطنه ربحاً أكبر مما تدرّه بالات الشرفاء، وهناك من خامره شك على ما يبدو أن الزنوج المتوحشين الذين جلبهم إلى هناك امتلكوا قوى قادرة على إنتاج القطن بطرق سحرية تجعل الأرض تنتج قطناً أكثر من أي أرض غير ممسوسة. لم يكن محبوباً (ومن الواضح أنه لم ينشد أن يكون محبوباً، على أية حال) وإنما مهاب الجانب، وبدا هذا مسلياً في نظره، بل وأسعده ذلك. ولكنه حظي بالقبول؛ صار لديه على ما يبدو أموالٌ طائلة الآن مما يجعل من المستحيل رفضه، أو حتى إزعاجه بشكل جدي. ونجح في تحقيق المهمة– أضحت مزرعته تُدار بسلاسة (أصبح لديه مراقب الآن؛ هو ابن المأمور نفسه الذي اعتقله على بوابة منزل عروسه في يوم الخطبة) بعد مرور عشر سنوات على الزفاف، وصار يمثل دوره أيضاً– دور متعجرف أفسدته الراحة والرفاهية، وأضفتا عليه لمسة صار على إثرها مغروراً معتداً بنفسه. أجل، أفسد إلين لتصبح عاصية ومرتدة، وعلى الرغم، من أنه وعلى غرارها، لم يكن واعياً أن ثماره ناتجة عن براعم قسرية أيضاً وأنه أثناء تأدية دوره أمام الجمهور، كان القدر والمصير والثواب والسخرية يقفون خلفه في الكواليس– كمدير المسرح، أو أي شخص آخر، يشرعون في تفكيك المسرح والاستعداد للعرض التالي.– قالت جدتك: «هناك جرت—». ولكن سبق للآنسة روزا أن رأته، واقفاً إلى جوار جدتك، رأسها بالكاد يصل إلى كتف جدتك، نحيلة، وترتدي أحد الفساتين التي تركتها العمة في المنزل وقامت الآنسة روزا بتقصيرها لتلائمها على الرغم من أن أحداً لم يعلّمها قط الحياكة، تماماً كما افترضت طريقة التدبير المنزلي وعرضت تعليم جوديث القيام بالشيء ذاته، والتي لم يعلّمها أحد مطلقاً كيف تطهو أو كيف تفعل أي شيء سوى التنصت من خلف الأبواب الموصدة، تقف وشال يلف رأسها كما لو أنها في الخمسين من عمرها وليس في الخامسة عشرة، تنظر إلى ابن أختها وتقول «لماذا... لقد حلق ذقنه».

ثم توقفت عن رؤية حتى إلين. وإلين أيضاً توقفت عن المجيء إلى المنزل، وتوقفت عن طقس العربة الأسبوعي والانتقال من حانوت إلى حانوت حيث، ومن دون الخروج من العربة، تأمر إلين التاجر والبائع بإحضار قطع القماش

والأشياء التافهة والحلي الرديئة التي يحملونها ويعرفون أكثر منها أنها لن تشتري أياً منها وإنما ستكتفي بلمسها بإصبعها تتفحصها وتبعثرها ومن ثم ترفضها، يرافق ذلك كله سيل من الثرثرة المشاكسة المرحة. لم تعاملهم بازدراء، ولا بفوقية إن صحّ التعبير، وإنما بنوع من الفرض الدمث الذي لا يخلو من الطفولية والاستغلال لصبر الرجال والتجار والباعة وأخلاقهم الحميدة وقلة حيلتهم، بعدها تأتي إلى المنزل لملئها أيضاً بجلبة الغرور الخاوية من أي معنى، وبالنصيحة المستحيلة المفتقرة إلى أي أساس حول الآنسة روزا ووالدها والمنزل، حول ملابس الآنسة روزا وترتيب الأثاث والطعام وكيفية إعداده، بل وتوقيت تناوله. لأن اللحظة الحاسمة أوشكت (كان العام 1860، وحتى السيد كولدفيلد اعترف ربما بأن الحرب كانت حتمية) واستشعر مصير عائلة ستبن التي كانت على مدار عشرين عاماً مثل بحيرة تستمد مياهها من الينابيع الساكنة وتمتد في وادٍ هادئ وتتمدد بشكل غير ملحوظ تقريباً، يطفو أفراد العائلة الأربعة في حالة معلّقة، استشعر أولى الحركات الجوفية المفضية إلى المصب، إلى الخليج الذي سيكون فاجعة الأرض أيضاً، والسباحون المسالمون الأربعة يستديرون فجأة ليواجه كل واحد منهم الآخر، دون فزع أو قلق وإنما بحذر، مدركين مدى قتامة ما يجري، لكن لم يصل أي منهم بعد إلى المرحلة التي ينظر فيها إلى رفاقه في الكارثة ويقول لنفسه متى سأتخلّى عن محاولة إنقاذهم وأهتم بإنقاذ نفسي فقط؟ غير مدركين بعد أن تلك اللحظة باتت قاب قوسين أو أدنى. ولهذا لم تلتقِ الآنسة روزا أياً منهما، لم ترَ (ولم يكتب لها مطلقاً أن تراه حياً) تشارلز بون أبداً؛ تشارلز بون من نيو أورلينز، صديق هنري الذي لم يكن يكبر هنري ببضع سنوات فحسب، وإنما في الواقع أكبر من أن يكون في الجامعة وحتماً لا ينتمي إلى المكان الذي كان فيه– جامعة صغيرة وجديدة في إحدى مناطق المسيسيبي النائية، بل وفي منطقة برية، تبعد ثلاثمئة ميل عن تلك المدينة المادية والأجنبية التي كانت موطنه– شاب شديد الأناقة والثقة بنفسه بشكل يفوق أقرانه، وسيم وثري بشكل واضح يكتنفه الغموض الذي يلفّ عادة الأوصياء القانونيين وأولياء الأمور أكثر مما يكتنف أي والدين– شخص في المسيسيبي النائية في ذلك الحين بدا دون ريب مثل عنقاء، مفعم بالشباب لم يعرف مرحلة الطفولة، ولد من دون امرأة منيعاً ضد الزمن، اختفى دون ترك أي عظام أو أثر في أي مكان– رجل معروف بتصرفاته الهادئة ومزاجه الرفيع النبيل الذي إذا ما قورن مع غرور ستبن وتعجرفه بدا الأخير بدائياً ومخاتلاً وهنري مراهقاً أبلهَ. لم تره الآنسة روزا مطلقاً؛ كوّنت عنه مجرد صورة، مجرد تصوّر. لم يكن ما أخبرتها به إلين: إلين في أوج فرحها تعيش أسعد أيامها الصيفية يحيط بها سحر إضافي ناجم عن استسلام الصبا الطوعي العطوف والرقيق لخليفتها في الدم والجنس، ذلك السلوك والتصرف اللذان يلازمان الأمهات خلال فترة خطوبة بناتهن عندما يمكن للأمهات لو شئن أن يصبحن عروسات زفاف

بناتهن. لدى الاستماع إلى إلين، يمكن للغريب أن يحسب أن الزواج، الذي تشير الأحداث المتلاحقة أن الشابين وذويهم لم يتحدثوا عنه، قد أقيم بالفعل. لم تأتِ إلين ولو لمرة واحدة على ذكر الحب بين جوديث وبون. لم تلمح للموضوع. الحب، عندما يكونان هما المقصودان، كان مجرد موضوع منتهٍ شبع موتاً كما تموت مسألة العذرية بعد ولادة أول حفيد. تحدثت عن بون كما لو أنه ثلاثة أشياء في شيء واحد أو ربما شيء واحد يمكن لها ولعائلتها أن تجد له ثلاثة استخدامات متناغمة: ملابس ترتديها جوديث كملابس لركوب الخيل أو كفستان سهرة، قطعة من الأثاث ستكمل وتزين منزلها وتعزز منزلتها، مرشد وقدوة لتصويب سلوكيات هنري القروية وحديثه وملابسه. بدت وكأنها تعيش زمناً دائرياً. افترضت أن السنوات المنصرمة التي لم تشهد أي شهر عسل أو أي تغيير، والتي بعدها بدت الأوجه الخمسة (الآن) وكأنها نبتة سرمدية لا حياة فيها مثل صور شخصية مرسومة ومعلّقة في الفراغ، التُقِطت في ذروتها المنذرة وجُرِّدت من كل الأفكار والتجارب، أصحابها عاشوا وماتوا منذ زمن بعيد وطوى النسيان الآن أفراحهم وأتراحهم ونسيتهم حتى خشبات المسرح التي وقفوا عليها يختالون ويتبخترون ويضحكون ويبكون. هذا، بينما الآنسة روزا، دون إصغاء، تخيّلت المشهد من الكلمة الأولى، ربما من الاسم، تشارلز بون؛ العانس الملعونة مدى الحياة في عمر السادسة عشرة، تجلس تحت البريق الساطع للوهم كما لو كان دعامة كهربائية ملونة في الملاهي وهي هناك للمرة الأولى في حياتها والدعامة مغطاة بلمعان سطحي لغبار مبهرج تندفع فجأة نحوها، تتوقف لدقيقة ثم تكمل طريقها. لم تغار من جوديث. لم تكن شفقة على الذات أيضاً، جلست مرتدية أحد تلك الفساتين المنزلية رديئة الصنع (ملابسها لا تواكب صيحات الموضة أحياناً لكنها جديدة عادة، اعتادت إلين تقديمها لها بين حين وآخر كانت دائماً مصنوعة من الحرير، بالطبع) التي خلّفتها العمة وراءها عندما هربت مع تاجر الأحصنة والبغال، ربما على أمل أو مجرد رغبة ساذجة بأنها لن ترتدي مثلها مجدداً، ترمش بانتظام شاخصة بنظرها نحو أختها بينما إلين تتكلم. ربما كان مجرد يأس وراحة بالٍ مسالمين ناتجين عن الإنكار الأخير والكامل للذات، الآن وجوديث على وشك تحويل الإحباط إلى قصة خرافية. بدت قصة خرافية عندما روتها إلين لاحقاً على جدتك، ولكنها قصة خرافية ألَّفتها ومثَّلتها عضوات النادي النسائي الأنيقات. ولكن بالنسبة إلى الآنسة روزا لا بدّ وأنها كانت أصلية، وليست منطقية فحسب وإنما مبررة: ولهذا السبب فإن تعليقها أشعل صيحات إلين المرحة مجدداً (روت ذلك أيضاً، على سبيل النكتة الطفولية). قالت الآنسة روزا «نحن نستحقه» قالت إلين «نستحقه؟ هو؟» ربما صرخت أيضاً. «بالطبع نستحقه، إن فكرت بالموضوع بهذه الطريقة. أتمنى حتماً وأتوقع منك أن تشعري بأن آل كولدفيلد مؤهلون لتشريف أي زواج نبيل ولا سيما إن كان زواجاً مبعثاً للفخر من شخص يُعتزّ به».

من الطبيعي ألا يكون هناك أي ردّ على هذا السؤال. حسب رواية إلين على الأقل، لم تحاول الآنسة روزا اختلاق أي جواب. اكتفت بملاحقة إلين بنظرها وهي تغادر ثم جلست وبدأت بصنع هدية جوديث الثانية التي تخوّلها سلطتها تقديمها. لديها الآن هديتان، وورثت هذه الهدية على غرار الهدية الأخرى من عمتها التي علمتها كيف تعتني بالمنزل وتستخدم الملابس لتسلّق النافذة لتهرب تحت جنح الظلام، على الرغم من أن الهدية الثانية تطورت لاحقاً (ربما بأثر رجعي) نظراً إلى حقيقة أن العمة عندما غادرت، لم تكن الآنسة روزا قد كبرت بعد بالشكل الكافي لاستخدام الملابس التي خلّفتها العمة وراءها ولم تفكر بتقصيرها. وبدأت سراً بصنع ملابس جهاز عرس جوديث. وحصلت على الأقمشة من حانوت والدها. لم تفلح في الحصول عليها من أي مكان آخر. أخبرتني جدتك أنه في ذلك الوقت لم تستطع الآنسة روزا حقيقة عدّ النقود أو استبدالها، رغم معرفتها تسلسل القطع النقدية نظرياً ولكن وكما يبدو لم تر أو تلمس يوماً أي نقود ولم تتعامل بها أو تعرف قيمتها قط؛ وأنها اعتادت الذهاب إلى البلدة في أيام معينة من الأسبوع ومعها سلة وتقوم بالتسوق في حوانيت معينة اختارها السيد كولدفيلد مسبقاً، دون أن يكون بحوزتها ولو قطعة نقدية واحدة أو مبلغٌ من المال لتساوم به على السعر أو لتناوله لأي كان، ودأب السيد كولدفيلد في وقت لاحق من اليوم على تعقب الأماكن التي قصدتها من خلال الديون المدوَّنة على الورق أو على الجدران وصناديق الدفع ليقوم بتسديدها. ولهذا تعيّن عليها الحصول على القماش من متجر والدها. ونظراً إلى أنه نقل كل بضائعه إلى جفرسون في عربة واحدة، وذلك عندما توجّب عليه إعالة أمه وأخته وزوجته وطفلتين وليس طفلة واحدة كما هو الحال عليه الآن إضافة إلى لامبالاته التامّة بارتفاع سعر البضائع مما جعل ضميره يصرخ فانسحب من تلك الصفقة القديمة التي ورّطه فيها صهره مقابل التخلي عن أرباحه، ليس هذا فحسب وإنما أيضاً مقابل التضحية برأس المال الأساس الذي استثمره، وبضائعه التي بدأت كمجموعة من المواد البدائية المنتشرة على رفوف حانوته والتي على ما يبدو لم تسد رمقه أو رمق ابنته، وظلت على حالها دون أن تشهد أي ازدياد أو تنوع. لكن لا خيار أمامها سوى الذهاب إلى هذه الحوانيت للحصول على المواد اللازمة لصناعة الملابس الداخلية للشابة تحضيراً للزفاف الذي رسمت صورته في مخيلتها– ويمكنك أن تتخيل أيضاً الصورة التي رسمتها الآنسة روزا لهذه الملابس، ناهيك عن فكرتها عما ستبدو عليه حال إنجازها دون مساعدة أحد. لم يعرف أحد كيف تمكنت من الحصول على المواد من متجر والدها. فهو لم يعطها لها. واقتصرت مسؤوليته كما تصورها على تزويد حفيدته بالملابس عندما تهترئ ملابسها أو تشعر بالبرد، ولا تندرج ثياب الزفاف ضمن مسؤولياته. ولذلك أعتقد أنها سرقتها. لا بد وأنها سرقتها. لا بد وأنها أخذتها دون أن يشعر (كان حانوتاً صغيراً ووحده من يعمل فيه ويمكن رؤية أي نقطة فيه من أي مكان

داخله) مدفوعة بجرأة لا أخلاقية ونزعة النساء اللصوصية، أو على الأرجح، أو كما يحلو لي الاعتقاد، بالاعتماد على حيلة معجونة بشفافية جريئة ويائسة لاختلاق براءة نجحت بساطتها الشديدة في خداعه.

لم تعد ترى إلين. بدت إلين وكأنها قد أدّت رسالتها، قضت فترات الظهر والعصر الصيفية السعيدة الساطعة الخالية من أي هدف واختفت، لم تغادر جفرسون ربما، لكنها خرجت من حياة شقيقتها على أي حال، ولم ترها بعدها إلا مرة واحدة وهي تحتضر على فراش الموت في غرفة معتمة في البيت الذي قال فيه الحظ المهلك كلمته وقوّض الأساس الأسود الذي قام عليه ونسف ركنيه الذكوريين الأساسيين، الزوج والابن؛ أحدهما في خضم المعارك ومخاطرها، والآخر كما يبدو طواه النسيان. هنري اختفى ببساطة. سمعت بهذا أيضاً عندما كانت تمضي أيامها (ولياليها، حين توجب عليها الانتظار إلى أن يخلد والدها إلى النوم) تحيك برتابة وقلة مهارة ملابس جهاز عرس ابنة أخيها وإخفاؤها ليس فقط عن أعين والدها وإنما عن أعين الزنجيتين كي لا تخبرا السيد كولدفيلد. استخرجت الدانتيل من الحبال والخيوط الشائكة الكثيفة وحاكتها لتصير ملابس بينما ترد الأخبار شحيحة عن انتخاب لينكولن وسقوط حصن سمتر [11]، تسمع بشكل متقطع ناقوس هلاك أرضها الأم بين غرزتين مضجرتين وغير متقنيتن في ملابس لن ترتديها أبداً ولن تبرح مكانها قط، جهزتها لرجل كُتب عليها ألا تراه حياً. اختفى هنري ببساطة: لم تسمع سوى ما تناقلته البلدة– أنه في عيد الميلاد التالي جاء هنري وبون إلى المنزل مجدداً وأمضيا العطلة، الشاب الوسيم والثري من نيو أورلينز الذي ظلت أم خطيبته تردد أخبار خطوبة ابنتها على مسامع البلدة لستة أشهر. عادا ثانية وصارت البلدة تنتظر إعلان اليوم المنشود. ثم حدث شيء ما. لم يعرف أحد كهنه: هل حدث خطب ما بين هنري وبون من جهة وجوديث من جهة ثانية، أو بين الشباب الثلاث من جهة وذويهم من جهة ثانية. ولكن على أية حال، عندما حلّ عيد الميلاد، كان هنري وبون قد رحلا. وما من عين رأت إلين (بدا وكأنها انزوت في الغرفة المعتمة ولم تغادرها إلا حين وفاتها بعد سنتين) ولم يستطع أحد أن يستنبط ما حدث من وجه جوديث أو من وجه ستبن أو من تصرفاتهما وسلوكهما، وتكفل الزنوج بقص ما حدث: حكوا أن شجاراً دار عشية الميلاد بين، ليس بون وهنري أو بون وستبن، وإنما بين الابن والأب، وأن هنري تبرّأ رسمياً من والده وتنكر لحقوقه العائلية المكتسبة والسقف الذي أبصر النور تحته لأول مرة، وأنه هو وبون غادرا تحت جنح الظلام، وأن الأم خرّت على ركبتيها، وشكّت البلدة في أن ما صدم الأم لم يكن الزواج وإنما تكشف حقيقة ما: وكانت هذه ضربة الفأس الرحيم التي سبقت جزّ العنق. وما عرفت إلين بهذا قط.

هذا ما تناهى على مسامع الآنسة روزا. لم يعرف أحد ما دار في خلدها. اعتقدت البلدة أن تصرفات هنري كانت ناجمة فقط عن فورة الشباب، ناهيك عن فورة ستبن، وأن الزمن كفيل ببلسمة الجراح. ولا ريب بأن طريقة تعامل ستبن وجوديث فيما بينهما وسلوكهما مع البلدة لعبت دوراً بما حدث. كانت البلدة تراهما معاً في العربة من حين إلى آخر وكأن شيئاً لم يحدث بينهما على الأقل، وهذه حتماً لن تكون الحال لو أن الشجار كان بين بون والوالد، أو لو أن المشكلة كانت بين هنري ووالده لأن البلدة عرفت بأن العلاقة التي تجمع بين هنري وجوديث كانت أكثر من مجرد ولاء تقليدي بين الأخ وأخته؛ علاقة مريبة: شيء من قبيل الخصومة الشرسة غير الشخصية بين طالبين عسكريين في فوج النخبة أكلا من الطبق نفسه وناما تحت البطانية ذاتها وشاهدا الدمار عينه وواجه كل منهما الموت في سبيل الآخر، ليس محبة ببعضهما البعض وإنما في سبيل بقاء الجبهة التي يحارب عليها الفوج موحدة. هذا كل ما عرفته الآنسة روزا. لم تتمكن من معرفة أكثر مما عرفته البلدة لأن الأشخاص الذين يعرفون (ستبن وجوديث: وليس إلين، إذ لم يعلمها أحد بأي شيء أصلاً وحتى لو أخبروها لكانت قد نسيت، وفشلت في الاستيعاب؛ إلين الفراشة، التي سُحب من تحتها دون سابق إنذار الهواء الدافئ، مخلّفاً يديها المكتنزتين مطويتين فوق غطاء السرير في الغرفة المعتمة وعينيها فوقهما خاليتين من الألم ولكنهما طافحتان بعدم فهم مرتبك) ما كانوا ليخبروها عن أي شيء غير الذي قالوه لسكان جفرسون أو لأي مكان آخر. ربما زارتهم، لمرة واحدة لا غير، لم تسأل بالطبع، لم تسأل حتى جوديث، ربما لإدراكها بأنهم لن يخبروها أو ربما لأنها تنتظر شيئاً ما. ربما أخبرت السيد كولدفيلد أنه لا يوجد أي خطب، ومن الواضح أنها نفسها صدقت ذلك لأنها واصلت حياكة الملابس من أجل زفاف جوديث. كانت لا تزال تواظب على ذلك عندما انفصلت المسيسيبي وعندما بدأ أول زي للكونفيدرالية بالظهور في جفرسون حيث الكولونيل سارتوريس وستبن ينشآن الفوج الذي غادر عام 1861، وكان ستبن، الشخص الثاني في القيادة، يقود حصانه على يمين الكولونيل سارتوريس، على الحصان الضخم الأسود الذي أطلق عليه اسم سكوت، تحت ألوان راية الفوج التي صمّمها هو وسارتوريس والتي حاكتها نساء عائلة سارتوريس من الفساتين الحريرية. كان مكتنزاً لم يكن هذا حاله عندما وطأت قدمه للمرة الأولى جفرسون في يوم الأحد ذاك من العام 1833، لكن وزنه زاد بعد زواجه من إلين. لم يكن مهيب الطلعة بعد، رغم أنه سيبلغ قرابة الخامسة والخمسين من العمر. الدهون والكرش جاءا لاحقاً. أصبح لديه فجأة دهونٌ وكرشٌ، كلهم دفعة واحدة، بعد السنة التي تلت ما حدث أياً كان بخصوص خطوبته من الآنسة روزا وتركت سقف بيته لتعود إلى البلدة وتعيش بمفردها في بيت والدها، ولم تتحدث إليه ثانية باستثناء عندما وجهت حديثها إليه في إحدى المرات بعد إعلامها بوفاته. أضحى بديناً فجأة،

وهو ما أسماه الزنجي ووش جونز الهيئة الجميلة لرجل وصل أوجه وحافظ على هذه الهيئة بعد تخليه عن أملاكه، واستدق الخيط الفاصل بين الشكل الذي عهده عليه الناس وشكله الأصلي وصار رفيعاً ورخواً للغاية، فعلق بالأرض، وتشابك، كالبالون بلا حياة أو استقرار، كبّله جموحه الذي خانه.

لم تر الفوج يغادر لأن والدها ألزمها بالمكوث في المنزل، رفض السماح لها بالمشاركة أو الحضور مع النساء والفتيات الأخريات في احتفال مغادرة الفوج، لسبب لا علاقة له بوجود صهره فيه. لم يكن مطلقاً رجلاً نزقاً. وقبل الإعلان الفعلي عن الحرب وانفصال المسيسيبي، كانت تصرفاته وخطاباته المعارضة هادئة بل وحتى منطقية ومفهومة تماماً. ولكن بعد أن صار تغيير مجرى الأحداث مستحيلاً بدا وكأنه تغيّر بين ليلة وضحاها، تماماً كما غيّرت ابنته إلين طباعها قبل بضع سنوات. وحالما بدأت القوات بالظهور في جفرسون أغلق حانوته وأبقاه مغلقاً طوال فترة انتشار الجنود والتدريبات، ظل مغلقاً خلال هذه الفترة، وحتى بعدها، بعد رحيل الفوج، وفي المرات التي كانت تقضي فيها بعض القوات العابرة ليلتها في البلدة، كان يرفض بيعها أي سلع مهما أغروه بالأسعار، لم يرفض بيعها للقوات العسكرية فحسب، هذا ما قيل، بل وللعائلات، ليس فقط عائلات الجنود وإنما أيضاً للرجال أو النساء الذين دعموا الانفصال والحرب ولو لفظياً أو من خلال إبداء الرأي. لم يرفض فقط السماح لشقيقته بالعودة إلى المنزل أثناء فترة انخراط زوجها تاجر الأحصنة في الجيش، بل رفض أيضاً السماح للآنسة روزا بالنظر عبر النافذة إلى الجنود العابرين. أغلق متجره بشكل نهائي وصار يمكث في البيت طوال اليوم. عاش والآنسة روزا في القسم الخلفي من المنزل، الباب الأمامي موصد والنوافذ الأمامية مقفلة ومثبتة بالمسامير، قال الجيران إنه كان يمضي اليوم خلف إحدى أرق الستائر المفتوحة مثل حارس أثناء نوبته، لم يكن سلاحه بندقية يحملها وإنما إنجيل كبير سجل فيه بحزن بخط يده الأنيق كخط يد كاهن تواريخ ولادته وولادة أخته وزواجه وولادة إلين وزواجها وولادة حفيديه والآنسة روزا، وموت زوجته (لم يدوّن تاريخ زواج العمة؛ كانت الآنسة روزا هي من سجلت ذلك، إضافة إلى تاريخ موت إلين، في اليوم الذي سجلت فيه تاريخ موت السيد كولدفيلد وتشارلز بون وحتى موت ستبن)، ظل على هذه الحال إلى حين انتهاء انسحاب القوات: وقام عندئذ بفتح الإنجيل ورتّل بصوت أجش جهوري غطى على أصوات الخطوات العسكرية، آيات عن التصوف الانتقامي العنيف سبق ووضع تحتها خطاً بدقة حارس حقيقي يرتّب مشط خراطيشه على طول عتبة النافذة. ثم في صباح أحد الأيام علم باقتحام حانوته ونهبه، حتماً على يد مجموعة من القوات الغريبة المرابطة في العراء على تخوم البلدة، وشارك مواطنوه بلا ريب في الجريمة، ولو حتى شفهياً. صعد في تلك الليلة إلى العلية ومعه مطرقته وحفنة من المسامير وأغلق

الباب خلفه بالمسامير ورمى المطرقة من النافذة. لم يكن جباناً. كان رجلاً ذا قوة أخلاقية منيعة، جاء إلى بلد جديد ومعه بضع بضائع وأعال خمسة أشخاص منه ووفّر لهم الراحة والأمان على الأقل. فعل ذلك معتمداً على تجارة ضيّقة، ولنكن دقيقين: لم يكن ليفعل ذلك دون التجارة الصغيرة الضيّقة أو الغش؛ وكما قال جدك، إن رجلاً، في بلد مثل المسيسيبي، يقتصر غشه على سرقة قبعات القش وخيوط ربط الأحصنة واللحم المملح فإن عائلته هي من ستسجنه بتهمة الهوس بالسرقة. لكنه لم يكن جباناً، على الرغم من معارضة ضميره، كما قال جدك، لا على فكرة سفك دماء البشر وإزهاق الأرواح، بقدر معارضته لفكرة الهدر: إتلاف وتآكل وإهمال الموارد في سبيل أي قضية مهما كانت.

تمحورت حياة الآنسة روزا حول المحافظة على حياتها وحياة والدها. إلى أن حلّت ليلة سرقة الحانوت، عاشا خارج الحياة. دأبت على الذهاب إلى الحانوت بعد حلول الظلام ومعها سلة لتحضر ما يكفي من الطعام ليوم أو يومين. ونظراً لعدم تجديد البضائع خلال الفترة السابقة، صارت محتوياته تقلّ بشكل ملحوظ حتى قبل تعرضه للسرقة؛ وسرعان ما بدأت، هي التي لم تتعلم قط القيام بأي شيء عملي لأن عمتها غرست في ذهنها الاعتقاد بأنها لم تكن فقط حساسة وهشة وإنما أيضاً غالية، تطهو الطعام الذي بدأ ينضب وأصبح الحصول عليه مع مرور الوقت أصعب وأصعب وتراجعت مكوناته يوماً إثر يوم، نقلت الطعام إلى والدها ليلاً باستخدام بكرة بئر وحبل مربوط بنافذة العلية. واظبت على فعل ذلك لمدة ثلاث سنوات، قدمت إلى الشخص الذي كرهته طعاماً سراً أثناء الليل بالكاد يكفي شخصاً واحداً. ربما لم تعرف قبل ذلك أنها كرهته وربما لا تعرف حتى الآن، ومع ذلك فإن أولى القصائد المكتوبة للجنود الجنوبيين في الملف الذي رآه جدك في العام 1885 وتضمن ألف قصيدة أو يزيد، يعود تاريخها إلى السنة الأولى من الحبس الاختياري لوالدها عند الساعة الثانية صباحاً.

ثم مات. في صباح أحد الأيام لم تخرج اليد لسحب السلة. كانت المسامير القديمة لا تزال مغروزة بالباب وقام الجيران بمساعدتها لكسره باستخدام الفؤوس ووجدوه، وجدوا الشخص الذي رأى مصدر رزقه الوحيد يُنهب على يد المدافعين عن قضيته، حتى لو كان قد أنكرها وأنكرهم، إلى جوار سريره المصنوع من القش ثمّة طعام متروك منذ ثلاثة أيام دون أن يمسسه كما لو أنه أمضى الأيام الثلاث يجري توازناً ذهنياً لحساباته الدنيوية، توصل إلى النتيجة وعزّزها بالبراهين ثم انقلب على مشهده الحالي لرفضه البارد والعنيد الموسوم بالحماقة والغضب والظلم واللامبالاة الميتة. الآن أصبحت الآنسة روزا يتيمة، ليس هذا فحسب وإنما معوزة أيضاً. أضحى الحانوت مجرد قوقعة، مبنى مهجور عافته حتى الفئران بعد أن خلا من أي شيء، حتى من

النوايا الطيبة بعد أن أقصى نفسه بشكل لا رجعة فيه عن الجيران والبلدة والأرض المتأهبة للمعارك، عن الجميع من خلال سلوكه. وحتى الزنجيتان اللتان حررهما حالما امتلكهما (وكان ثمن حريتهما على شكل ديون فرضها عليهما بالمناسبة، وليس من خلال شرائهما)، وكتب ورقتي حريتهما اللتين لم تستطيعا قراءتها وخصّص لهما أجراً أسبوعياً احتفظ به كاملاً دون زيادة أو نقصان لاستكمال قيمة الديون حيث إن قيمتهما التي قدرها وفقاً للقيمة السوقية الحالية لم تكن كافية لسداد الدين بالكامل– وكرد للجميل، كانت الزنجيتان من أوائل زنوج جفرسون الذين هجروا أماكن عملهم وانضموا إلى قوات اليانكي– رحلن. أي عندما لقي حتفه، لم يكن يملك أي شيء، لا مدخرات ولا غيرها. ودون شك فإن السعادة الوحيدة التي عاشها يوماً لم تكن في الكنز الهزيل الذي حصل عليه من خلال تقشفه والذي وفره قبل أن يتقاطع طريقه مع طريق صهره:– لم تكن سعادته في المال وإنما بما يمثله من توازن معنوي لاطمئنانه بوجود مخزن للنقود سيتمكن من خلاله دفع كمبيالاته كثمرة لإنكار الذات والصلابة. وتمثل الأذى الأكبر الذي ألحقته به تجارته مع ستبن في موضع آخر غير خسارة النقود، أي في حقيقة ضرورة التضحية بمدخراته، رمز الصلابة والتعفف والحرص على عدم المساس بالقدرة الروحية على سداد الديون التي حسب أنه أسسها وحوّطها. بدا وكأن عليه دفع الكمبيالة نفسها مرتين بسبب هفوة تافهة متعلقة بالتاريخ والتوقيع.

كانت الآنسة روزا إذاً يتيمة ومحتاجة، ولا أقارب لها فوق سطح البسيطة سوى جوديث والعمة التي لم يُسمع عنها أي شيء منذ سنتين عندما كانت تحاول عبور خطوط اليانكي للوصول إلى ولاية إلينوي لتكون قريبة من سجن مدينة روك أيلاند حيث كان زوجها، الذي عرض مواهبه في تأمين الأحصنة والبغال البديلة إلى فيلق الفرسان الكونفيدرالي وألقي القبض عليه. سنتان مرّتا الآن على موت إلين– الفراشة، الفراشة التي بوغتت بعاصفة واصطدمت بجدار وظلت معلقة عليه وقلبها يخفق بنبضات واهنة، دون أي تمسك عنيد بالحياة، لا ألم محدد يعتصرها فهي أوهن بكثير من أن تُضرب بقسوة، ولا ذكرى عابرة للخواء البهي الذي سبق العاصفة، ينتابها ذهول محيّر ومبهم لا غير– لا تغيرات تذكر طرأت على القوقعة الساطعة التافهة على الرغم من الطعام الرديء الذي تناولته على مدار العام، بعد أن غادر جميع زنوج ستبن أيضاً للالتحاق بقوات اليانكي؛ الدم الجامح الذي جلبوه إلى البلاد وحاول مزجه ودمجه مع المروَّضين هناك، بالعناية نفسها وللغرض ذاته الذي دفعه للجمع بين ذلك الفحل وفحله. وبالنجاح نفسه: كما لو أن مجرد حضوره أرغم تلك الدار على قبول الحياة البشرية والمحافظة عليها؛ كما لو أن للمنازل مشاعر وأحاسيس، وشخصية لم تستمدها من الناس الذين يتنفسون أو تنفسوا بين جدرانهم بقدر ما ورثتها من الخشب والقرميد أو ولدت من

الخشب والقرميد على يد الرجل أو الرجال الذين صنعوه أو بنوه؛ في هذا الإصرار الذي لا يقبل الجدل على الفراغ والهجر؛ والمقاومة المنيعة لأي ساكن باستثناء عندما تحظى بمصادقة وحماية شخص متجبر لا يرحم. خسرت بعض الوزن بالطبع، ولكنها تماماً مثل الفراشة عندما تدخل طور الذوبان في طريقها إلى التحلل والاندثار: مساحة الجناح والجسد تتقلص بعض الشيء، وتتقارب نقوش البقع أكثر، دون تجاعيد ظاهرة، الوجه الناعم نفسه كوجه الفتيات الشابات على الوسادة (على الرغم من أن الآنسة روزا اكتشفت الآن أن إلين على ما يبدو كانت تصبغ شعرها منذ سنوات)، الذراعان المكتنزتان الناعمتان نفسهما تقريباً (وقد خلتا الآن من أي خاتم) على اللحاف، لا شيء يشي بالحياة سوى مسحة من الارتباك في العينين الداكنتين المتسائلتين المستسلمتين للموت القادم تسألان شقيقتها التي تبلغ السابعة والعشرين من عمرها (لا أثر حتى الآن لهنري، تنكر طوعاً لحقوقه العائلية المكتسبة؛ ولم يكن قد عاد بعد للعب دوره الأخير في هلاك عائلته –وهذا حسب ما قاله جدك– لإنقاذ إلين أيضاً، ليس لأن ذلك سيكون الضربة المحطمة والختامية وإنما لأنه سيكون بلا طائل لأن الفراشة المعلقة، الباقية على قيد الحياة برغم ذلك، عاجزة تماماً عن الشعور بأي رياح أو عنف) حماية الطفلة المتبقية. وهكذا فإن الشيء الطبيعي بالنسبة لها كان بالخروج من البيت والعيش مع جوديث، الشيء الطبيعي بالنسبة إليها أو إلى أي سيدة جنوبية أو سيدة نبيلة. لم يطلب منها أحد أن تكون ذلك؛ لم يتوقع أحد منها أن تنتظر لتكون ذلك. إذ إن هذا ما تكون عليه السيدة الجنوبية. ليس لحقيقة إفلاسها وانعدام أي أمل بأن تمتلك قرشاً واحداً ومعرفتها بأن كل من يعرفها يعرف ذلك، ومع ذلك فإن الانتقال ومعها مظلة ومرحاض خاص متنقل وثلاثة سراويل قصيرة إلى منزلكم لتسكن في غرفة فرشتها زوجتك بالكتان المطرز يدوياً وتتولى مسؤولية جميع الخدم المدركين تماماً أنها لن تقدم لهم أي إكرامية أبداً لأنهم يعرفون أيضاً بقدر معرفة البيض أنها لن تملك قط ما تقدمه لهم سوى الدخول إلى المطبخ لتصرف الطاهي وتعدل الطعام الذي ستأكله ليناسب ذوقها؛ لم يكن هذا، ليس هذا ما تعتمد عليه لإبقاء الجسد والروح متماسكين: كما لو أنها تقتات على الدم نفسه مثل مصاصي الدماء، دون نهم، وبالتأكيد دون تخمة، وإنما بتلك السكينة نفسها والخمول البليد عينه الذي تدعيه الأزهار لنفسها، لأن هذا يملأ أوردتها أيضاً، بغذاء من الدم القديم الذي عبر البحار والقارات المجهولة وتحدّى الصعاب الجامحة والظروف والفواجع المتربصة، بتجاهل مهادن لأي متاعب مرهقة ناجمة عن الراحة وحتى السلام الذي تتحقق المحافظة عليه من خلال ما يسمى المنبع المعاصر المتحول الذي يتدبر الأمور لإبقاء الموارد والطعام كافياً وصحياً.

هذا ما كان متوقعاً منها أن تفعله. لكنها لم تفعل. على الرغم من أن جوديث كانت يتيمة أيضاً، إلا أن لجوديث فدادين أرض مهجورة باستطاعتها الاستفادة منها، ناهيك عن أن وجود كليتي يساعدها، يسليها، ووش جونز لتأمين الطعام لها كما فعل مع إلين قبل وفاتها. لكن الآنسة روزا لم تذهب إلى هناك فوراً. ربما ما كانت لتذهب أبداً. على الرغم من أن إلين طلبت منها حماية جوديث، وربما شعرت بأن جوديث لا تحتاج إلى حماية بعد، فلو كان الحب المؤجل يمدّها بإرادة الوجود، والتحمل كل هذه الفترة، فإن ذلك الحب نفسه، على الرغم من أنه مؤجل، يجب وسوف يحفظ بون إلى أن تدفع الحماقة البشر إلى حالة من الجمود ليُرغموا على عقد تسوية بعد إنهاك قواهم تماماً فيعود من حيث جاء ويجلب هنري معه– هنري، الضحية أيضاً، ضحية الحماقة نفسها وسوء الحظ ذاته. لا بد وأنها رأت جوديث بين الفينة والأخرى وربما حثتها جوديث على الانتقال إلى مزرعة ستبن للعيش هناك، ولكني أعتقد أن هذا هو السبب الكامن وراء عدم ذهابها، على الرغم من أنها لم تعرف أين كان بون وهنري ولم يخطر على بال جوديث كما يبدو أبداً أن تخبرها. جوديث عرفت. ربما عرفت منذ زمن؛ حتى إلين ربما عرفت، لكن بالنسبة إلى إلين في ذلك الوقت لم يكن الغياب حالة نوعية، غياب ناجم عن الخزي أو النسيان لا فرق، لهذا ربما لم يخطر على بال إلين أيضاً إخبار شقيقتها، أنه بالنسبة لشخص آخر فإن عدم حسم المعركة وحتمية النسيان قد يكونان شيئين مختلفين. أو ربما لم تخبر جوديث مطلقاً أمها أيضاً. ربما لم تعرف إلين قبل موتها أن هنري وبون كانا جنديين في الفرقة التي نظمها زملاؤهما في الجامعة. لم تعرف الآنسة روزا أيضاً إطلاقاً. الإشارة الأولى التي وردتها خلال أربع سنوات أن ابن أختها كان لا يزال على قيد الحياة جاءت في عصر أحد الأيام عندما توقف ووش جونز، وهو على صهوة بغل ستبن الوحيد المتبقي، أمام المنزل وبدأ بالصياح منادياً اسمها. سبق لها ورأته لكنها لم تميزه– رجل هزيل وطويل مصاب بالملاريا، عيناه ووجهه شاحبان، من المرجح أن عمره بين الخامسة والعشرين والستين عاماً، جلس على سرج البغل في الطريق أمام البوابة، وهو يصيح «مرحباً. مرحباً». توقف لفترة ثم عاود الكرة إلى أن خرجت ووقفت عند الباب؛ عندها أخفض صوته بعض الشيء، قليلاً فقط. قال «هل أنت روزي كولدفيلد؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–4–

لم يكن الليل قد أرخى سدوله بالقدر الكافي بالنسبة إلى كونتن لينطلق، لم تكن العتمة مطبقة بما يناسب الآنسة كولدفيلد على الأقل، دون أن تشفع له الأميال الاثنتي عشرة التي عليه قطعها ذهاباً ومثلها إياباً. أدرك كونتن ذلك. كاد يراها، تنتظر في إحدى الغرف المعتمة الآسنة الغارقة في العزلة المطبقة للمنزل الكئيب الصغير. لا أنوار مضاءة لأنها ستخرج من المنزل بعد فترة وجيزة، ولربما الشخص المريض عقلياً من سلالته أو أقربائه أو حتى سلالتها أو أقربائها الذي أخبرها ذات مرة أن الضوء والتيار الهوائي يرفعان درجة حرارة المكان قد أخبرها أيضاً أن تكلفة الكهرباء لا تُحتسب بناءً على الوقت الفعلي لتشغيل النور وإنما على أساس مقاومة المصباح لتغيير حالته التشغيلية عند انتزاع المفتاح الكهربائي: وأن هذا ما يسجله العداد. لا بد وأنها ارتدت القلنسوة السوداء ذات الترتر الخرزي الأسود –عرف ذلك– وشالاً، قابعة في ظلمة جنائزية متزايدة؛ لا شك أنها تضع في يدها أو على حجرها حقيبة اليد التي تضمّ كافة المفاتيح، مفاتيح المدخل وخزانة الملابس وخزانة الأطباق، مفاتيح المنزل الذي ستغادره بعد دقائق لقرابة ست ساعات؛ ومظلة شمسية ومظلة مطرية أيضاً، فكر بمناعتها ضد الطقس والفصول إذ على الرغم من أنه لم يسبق له قبل عصر اليوم وأن بادلها أكثر من مئة كلمة في حياته، لم يكن يعرف أنه لم يسبق لها وغادرت المنزل بعد غروب الشمس باستثناء أيام الآحاد والأربعاء لحضور الصلاة، طوال السنوات الثلاث والأربعين ربما. أجل، كانت المظلة معها. خرجت حاملة المظلة المطرية عندما نادى عليها وظلّت تحملها بعناد دون أن تطلق تنهيدة واحدة طيلة الأمسية الجافة التي لم تشهد تشكّل ولو حتى قطرة ندى واحدة، وحتى اللحظة لا علائم على حلول الظلام سوى حركات اليراعات العشوائية الناعمة والمتكاملة– حركة عشوائية متكاملة تزداد حدة في الظلام عقب مرور ستين يوماً بلا قطرة مطر واثنين وأربعين يوماً بلا قطرة ندى– وتحت الشرفة حيث نهض عن كرسيه عندما خرج السيد كمبسن من المنزل حاملاً الرسالة، وأشعل ضوء الرواق عندما مر. قال السيد كمبسن: «ربما يتعين عليك الدخول إلى المنزل لقراءتها».

قال كونتن: «قد أستطيع قراءتها هنا».

قال السيد كمبسن: «قد تكون محقاً. ربما حتى النهار، ناهيك عن هذا –مشيراً إلى المصباح الوحيد الملطخ بالحشرات طيلة فترة الصيف الطويل شحيح الضوء حتى عندما يكون نظيفاً– الذي اضطر الإنسان لاختراعه لتلبية احتياجاته بعد تحرره من عبء كسب قوته بعرق جبينه، وعاد (أو تطور) ليصبح حيواناً نشِطاً في الليل، يعطيان ضوءاً أكثر مما تحتاج الرسالة لقراءتها،

الرسائل. أجل، الرسائل: منذ ذلك اليوم والزمن، الزمن الميت؛ الناس هم الناس ضحايا مثلنا، لكن ضحايا ظروف مختلفة، ظروف أبسط، ولهذا، عدد مقابل عدد أهم، يفوقه بطولة ولهذا تكون هيئاتهم أكثر بطولية أيضاً، ليست مقزّمة أو معقدة وإنما بارزة بسيطة، لها أن يطرق الحب باب قلبها لمرة واحدة أو الموت لمرة واحدة بدل أن تكون مخلوقات مشرذمة ومتفرقة توضع أحشاؤها دون تمييز في حقيبة، تُجمع أحشاء المؤلف والضحية أيضاً من ألف جريمة قتل وألف جماع وألف طلاق. ربما أنت على حق. ربما لا تحتاج قراءتها لنور أقوى». لكنه لم يعط كونتن الرسالة فوراً. جلس مجدداً، جلس كونتن بدوره، وأخذ السيجار الموضوع على درابزين الشرفة، واتقدت الجمرة مجدداً، وتصاعد الدخان الذي له لون زهرة الوستاريا من جديد ليغطي وجه كونتن بينما رفع السيد كمبسن قدميه مرة أخرى ووضعها على الدرابزين، الرسالة في يده وبدا لون يده بدكانة لون يد زنجي مقارنة بلون سرواله الكتاني. «هنري أحب بون. أنكر حقوقه العائلية المكتسبة والأمان المادي كرمى له، كرمى لهذا الرجل الذي نوى على الأقل الزواج من امرأتين إن لم نقل إنه وغد على كافة الأصعدة، والذي ستجد جوديث فوق جثمانه بعد أربع سنوات صورة المرأة الأخرى والطفل. وغد إلى درجة أنه هو (هنري) كذب على والده بشأن الاعتراف، رغم يقينه أن والده لم يستطع ولم يرغب بالاعتراف دون وجود قرائن وبراهين. ومع ذلك كذب، كان هنري بنفسه من سدّد الضربة بيده، على الرغم من معرفته بصحة ما أخبره به والده بشأن المرأة والطفل. لا بدّ وأنه حدّث نفسه، قال لنفسه عندما أغلق باب المكتبة للمرة الأخيرة عشية عيد الميلاد تلك ولا بد وأنه كرر ذلك أثناء عبوره جنباً إلى جنب مع بون العتمة الحالكة لفجر عيد الميلاد، مبتعدين عن الدار حيث أبصر النور لأول مرة ولن يبصرها بعدها سوى لمرة واحدة حين سيكون الدم الطازج للرجل الذي يقود حصانه إلى جنبه الآن يضرّج يديه: سأصدق. أصدق. أصدق. حتى لو كان الأمر كذلك، حتى لو كان ما أخبرني عنه والدي صحيحاً والذي، رغماً عن أنفي، لا أستطيع منع نفسي من تصديق صحته. سأظل مصدقاً. إذ ما الأمر الآخر الذي أمل أن يجده في نيو أورلينز غير الحقيقة، غير ما أخبره به والده، ما أنكره ونبذه، مجبراً، على الرغم من إيمانه بصحته؟ لكن من يدري لماذا الإنسان، برغم معاناته، يتعلق، تاركاً كل الطيبين الآخرين، بذراع أو قدم يعرف حق المعرفة وجوب ابتعاده عنها؟ لأنه أحب بون. يمكنني تخيله مع ستبن في المكتبة عشية عيد الميلاد، الأب والأخ، قعقعة الأصوات وارتداداتها مثل صوت الرعد وصداه، أصوات متتالية بشكل مباشر؛ الاعتراف والكذب، القرار الفوري والقطعي للاختيار بين الأب والصديق، بين (هذا ما يتعين على هنري تصديقه) الشرف والحب وبين الدم والمصلحة، على الرغم من أنه عرف لحظة نطق الكذبة أنه أدرك مدى صدقها. وهذا سبب مرور أربع سنوات، كانت فترة تجريبية. لا بدّ وأنه عرف عدم جدواها، ورغم ذلك، عشية

عيد الميلاد، لم يتحدث عما عرفه ورآه بعينيه في نيو أورلينز. ربما عرف بون حق المعرفة حينها، بون الذي لم يتغير ومن غير المرجح أن يتغير لاحقاً؛ وهو (هنري) الذي لم يستطع القول لصديقه لاحقاً، قمت بذلك لأني أحبك؛ افعل هذا لأنك تحبني. لم يستطع قول ذلك كما ترى، هذا الرجل، هذا الشباب الذي لم يبلغ العشرين ربيعاً بعد، الذي أدار ظهره لكل ما عرفه، ليتقاسم السرّاء والضرّاء مع الصديق الوحيد الذي، رغم أنهما سارا إلى جوار بعضهما في تلك الليلة، لا بد وأنه عرف، كما عرف بصحة ما أخبره به والده، أنه ملعون ومصيره القتل. لا بد وأنه عرف ذلك تماماً كما عرف أن أمله بلا طائل، عجز عن تحديد ماهية الأمل الذي يترقبه وسببه؛ ما التغيير الذي يأمله ويحلم به سواء تغيير يتعلق ببون أو بالظروف، ما الحلم الذي يستطيع في يوم ما أن يستفيق منه ليجد أنه كان مجرد حلم، حلم رجل مصاب بالحمّى يحلم بأن يكون الذراع أو الرجل الغالية قوية وسليمة والأعضاء السليمة فقط هي المصابة.

«كانت فترة هنري التجريبية؛ احتجز هنري الثلاثة في ذلك السجن الذي أذعنت له حتى جوديث في مرحلة معينة. لم تعرف بما حدث في المكتبة تلك الليلة. لا أعتقد أنها عرفت قط، أو ساورتها الشكوك قبل عصر ذلك اليوم بعد أربع سنوات عندما رأتهما مجدداً، حين أحضروا جثمان بون إلى المنزل ووجدت في معطفه الصورة التي لم تكن لوجهها، ولا لوجه طفلها؛ عندما استيقظت في الصباح التالي كانوا قد رحلوا ولم يبق معها سوى الرسالة، الرسالة القصيرة التي كتبها هنري لأنه أبى بلا ريب السماح لبون بأن يكتبها– هذا الإعلان عن الهدنة، الفترة التجريبية، وأذعنت جوديث في تلك المرحلة، جوديث التي رفضت الإذعان بالسرعة نفسها للتحذير الذي وجّهه والدها عندما أنكره هنري لكنها أطاعت هنري في هذه المسألة– ليس لأنه القريب الذكر، الأخ، وإنما بسبب العلاقة بينهما– تلك الشخصية المنقسمة في جسدين تعرضا معاً وفي الوقت نفسه تقريباً لإغواء الرجل الذي لم تكن قد رأته جوديث بعد– كانت هي وهنري يعرفان أنها ستراقب الفترة التجريبية، وستكون أكثر ميلاً له (لهنري) خلال الفترة الفاصلة، فقط إلى أن يصلا إلى المرحلة التي يدركان فيها بشكل متبادل ولكن غير معلن ومحدد وكلاهما مدرك بلا شك أنه عند بلوغ تلك المرحلة فإنها، وبالهدوء نفسه، وبالتعنت ذاته الرافض للقبول أو الأخذ بسبب أي ضعف تقليدي ناجم عن الجنس، أو تذكر الهدنة ومواجهته كندٍّ له، لم تطلب أو حتى ترغب بأن يكون بون حاضراً لدعمها، بل ودون شك رفضت أن تسمح له بالتدخل، حتى لو صارع هنري مثل رجل أولاً قبل الموافقة إلى اللجوء إلى المرأة، المحبوبة، العروس. وبون: هنري لم يكن أمامه خيار سوى عدم إخبار بون عما قاله له والده تماماً كما لم يكن أمامه خيار العودة إلى والده وإخباره عن إنكار بون، إذ أي من

الخيارين يفضي إلى الخيار الآخر، وأدرك أن إنكار بون سيكون بمثابة كذبة، وفكّر في أنه لم يستطع تحمل وطأة كذبة بون، فكيف له أن يحمّل جوديث أو والده وطأتها. كما أن هنري لم يحتج لإخبار بون عما حدث. لا بد وأن بون عرف بزيارة ستبن إلى نيو أورلينز حالما عاد (بون) إلى المنزل في الصيف الأول. لا بدّ وأنه عرف بأن ستبن يعرف الآن سره– هذا إن افترضنا أن بون، قبل أن يرى ردة فعل ستبن على الأمر، وجد ضرورة في إبقاء الأمر سرّاً، وليس بمثابة اعتراض مشروع على الزواج من سيدة بيضاء– وضع تورط فيه ربما كل أقرانه ممن استطاعوا تحمل تكاليف الزواج ولم يخطر له إخبار عروسه أو زوجته أو عائلتها عنه تماماً، كما لم يخطر على باله إخبارهم أسرار المنظمة الأخوية التي انتسب إليها قبل الزواج. في الواقع، ردة فعل عائلة العروس على اكتشاف الأمر كان بلا شك المرة الأولى والأخيرة التي تنجح فيها عائلة ستبن بإدهاشه. أجده شخصاً مثيراً للفضول. جاء إلى ذلك المنزل الريفي المتزمت المعزول تماماً كما جاء ستبن نفسه إلى جفرسون: تماماً دون خلفية أو ماضٍ أو طفولة– رجل يبدو أكبر قليلاً من عمره الحقيقي ومحاصر ومحاط بنوعٍ من بريق السكوثيين [12]، الذي بدا وأنه أغرى بسهولة الأخ والأخت القرويين دون أي جهد أو رغبة محددة لفعل ذلك، وسبّب الكثير من الضوضاء والبلبلة لحظة أدرك فيها أن ستبن سيمنع الزواج إن استطاع، بدا (بون) منسحباً يلعب دور المتفرج الإيجابي والتهكمي بعض الشيء والغامض بشكل كامل. وبدا مترفعاً، بشكل مبهم، خالياً من أي هدف تقريباً، وراء وفوق جميع الإنذارات الأخيرة والتأكيدات والتصديات والتحديات والإنكارات الصريحة والمنطقية رغم أنها (بالنسبة إليه) عصية على الفهم، التي لا تخلو من اللامبالاة التهكمية البليدة مثل لامبالاة قنصل روماني شاب يجري جولته اليومية العظيمة وسط الحشود البربرية التي دحرها جده، غارقاً في ظلمة بيت صاخب وطفولي يشبه تماماً قلعة طينية مميتة في غابة موبوءة مهووسة بالأرواح. كما لو وجد الأمر برمته، ليس مبهماً بالطبع، وإنما غير ضروري؛ ولذلك أدرك فوراً أن ستبن عرف بموضوع العشيقة والطفل ووجد في تصرف ستبن ورَدّة فعل هنري تخبطاً أخلاقياً ممسوساً بالشعوذة لا يرتقي إلى درجة تسمح بأن نسميه تفكيراً، تأمّل ما يجري باهتمام محايد يشبه عالِماً يراقب عضلات ضفدع مخدَّر؛– يراقبهما، يتأملهما من خلف حاجز الرقي والكياسة مما أظهر هنري وستبن بالمقارنة معه وكأنهما من سكان الكهوف. لم يقتصر رقيه على مظهره فحسب، إذ بدا راقياً في طريقة سيره وتحدثه وارتداء ملابسه وكيف يمدّ يده نحو إلين ليرافقها إلى غرفة الطعام أو إلى العربة (وربما، من المحتمل) أو يقبّل يدها وهو ما تمنت إلين لو أن هنري يفعله، بل كان راقياً أيضاً بشخصيته؛ رباطة جأشه الصلبة التي تبدو قدرية ولا فكاك منها وهو يراقبهما أثناء انتظاره لخطوتهما التالية، كما لو أنه عرف

طوال الوقت أن المناسبة ستأتي وعندها سينتظر وسيكون الانتظار كل ما يحتاج فعله؛ وأنه أغوى هنري وجوديث معاً وعلقا بشباكه وصارا يجزعان ألا يتزوج جوديث عندما يرغب بذلك. لم يكن مدفوعاً بتبصر غبي نصفه غريزي ونصفه إيمان بالحظ، نصفه ارتكاس عضلي لأحاسيس وأعصاب مقامر يترقب استشفاف ما يمكن استشفافه مما يراه، وإنما مدفوعاً بتشاؤم معين متراكم متصلّب تخلص منذ أجيال من جميع تفاهات وثرثرة الناس الفارغة (أجل، ومنهم ستبن وهنري وآل كولدفيلد أيضاً) الذين لم يتخلصوا بعد من البربرية، والذين لن يتخلصوا قبل ألفي عام من نير الثقافة والذكاء اللاتينيين واللذين لم يعرفا أبداً مدى خطورتهما.

«لأنه أحب جوديث». وكان ليضيف بعدها حتماً –على طريقته– بما أنها، كما عرف حماه المستقبلي لاحقاً، لم تكن المرة الأولى التي يلعب فيها هذا الدور؛ يقطع عهوداً بما يحلو له أمام جوديث، ناهيك عن العهود التي قطعها في حفل الزفاف الأول، وتمييزه (كان كاثوليكياً من نمط متفرد) بين المرأة البيضاء والأخرى. أنت سترى الرسالة، لا أقصد الرسالة الأولى التي كتبها لها وإنما الرسالة الأولى على الأقل، الرسالة الوحيدة التي رأتها، بحسب معرفة جدتك حينها: وهكذا، اعتقدنا، بعد أن فارقت الحياة، الرسالة الوحيدة التي احتفظت بها ما لم تتلف الآنسة روزا وكليتي بالطبع الرسائل الأخرى بعد موتها: وسبب الاحتفاظ بهذه الرسالة لا يعزى إلى إبقاء جوديث لها بعيداً عن الأعين وإنما لأنها جلبتها بنفسها وأعطتها إلى جدتك بعد وفاة بون، وربما في اليوم نفسه الذي أتلفت فيه الرسائل الأخرى التي كتبها لها (على فرض أنها هي من أتلفها بالطبع) أي عندما وجدت في معطف بون صورة الطفل والعشيقة التي كان جدها الأكبر الثامن أسود البشرة. كان حبيبها الأول والأخير. لا بد وأنها رأته بالعينين نفسهما التي رآهما به هنري. ويصعب الجزم بأي العينين بدا أجمل– بعيني الشخص الذي كان يحدوه الأمل، ولو بشكل غير واعٍ، بتقمّص صورته من خلال تملكه؛ أم بعيني الآخر المدرك للغربة، ولو في اللاوعي، العارف بالحاجز العصي على الاختراق الذي أوجده التشابه بين الجنسين بدافع اليأس المفرط؛ –هذا الرجل الذي ربما رآه هنري للمرة الأولى يقفز فوق أجمة ما في الجامعة على صهوة أحد الحصانين اللذين احتفظ بهما هناك، أو ربما يسير في أرجاء الحرم الجامعي مرتدياً المعطف والقبعة المتفرنسين، أو ربما (أميل إلى هذا الاعتقاد) تعرّف عليه بشكل رسمي من خلال أحدهم وكان يجلس مرتاحاً، يرتدي ملابس منقشة بالأزهار ذات لمسة أنثوية في نافذة مشمسة في حجرته– هذا الرجل وسيم وأنيق بل ويشبه الهرة أيضاً وأكبر من أن يكون في الجامعة، أكبر ليس من حيث السن وإنما من حيث الخبرة، إذ تفوح منه رائحة ملموسة تشي بخبرته، بالتخمة: من الأفعال المرتكبة والإشباع المفرط والمسرّات الملتهبة وحتى المنسية. لا بد وأنه بدا بالنسبة

إلى هنري بل ولغير الخريجين في تلك الكلية الريفية الجديدة والصغيرة، مثيراً للحسد، ليس هذا فحسب لأنك تحسد فقط الشخص الذي تعتقد أنه، باستثناء عندما يتعلق الأمر بأمرٍ مؤسف، لا يتفوق عليك من أي ناحية؛ فتنحي اللوم على الحظ، وتقول إنّ الحظ حالفه قبلك، وسيأتي دورك ويكون الحظ إلى صفك يوماً ما؛– ليس للحسد وإنما لليأس: ذلك اليأس المستحيل والصادم والمريع والمطبق للشباب الذي يأخذ أحياناً شكل الإهانة وأحياناً شكل الإهانة الجسدية للكائن البشري المُهان أو، في الحالات المتطرفة مثل حالة هنري، إهانة معنوية وجسدية موجهة نحو جميع من يحطّ من شأن الكائن المُهان، كما حدث عند إنكار هنري العنيف لوالده وحقوقه العائلية المكتسبة عندما منع ستبن الزواج. أجل، لقد أحبّ بون، الذي أغراه بالتأكيد كما أغرى جوديث– الصبي ريفي المولد والنشأة، وكما أغرى خمسة أو ستة طلاب آخرين ضئيلي الحجم من أبناء المزارعين الآخرين الذين سمح لهم بون بأن يصبحوا أصدقاءه المقرّبين، وقلّدوا تصرفاته وطريقته في ارتداء الملابس (كلٌّ حسب قدرته) وأسلوب حياته الخاص، ونظروا إلى بون كما لو كان بطلاً خرج من إحدى قصص ألف ليلة وليلة وتعثر بتعويذة (أو بالأحرى، التعويذة تعثرت به) أو بحجر اختبار الذهب لا ليمنحه الحكمة أو النفوذ أو الثروة، وإنما القدرة وفرصة العبور من مشهد متعة نادرة تفوق الخيال إلى مشهد آخر من دون فواصل زمنية أو توقف أو إشباع؛ وحقيقة أنه، استرخى أمامهم بملابس غريبة ذات لمسة أنثوية تظهر عشقه للملذات، أظهر التخمة ورفع منسوب الدهشة بل والغضب المرير اليائس؛– هنري، الريفي، المهرج تقريباً، المستسلم للسلوك الغريزي والعنيف عوضاً عن التفكير والاستنتاج والذي ربما كان واعياً أن كبرياءه الريفي المفرط المرتبط بعذرية شقيقته كان خصلة مزيفة إذ يجب أن تحمل البكارة في طياتها عجزاً عن البقاء على حالها كي تكون غالية، وموجودة، وبالتالي يجب أن تعتمد على فضّها، غيابها، كي تكون موجودة في المقام الأول. في الحقيقة، ربما هذا هو سفاح القربى الخالص والمثالي: الأخ يدرك ضرورة فضّ بكارة شقيقته ليصبح لها وجود، وفضّ العذرية يتمثل في شخص الصهر، الرجل الذي سيكون لو أتيح له ذلك، سيصبح، العشيق والزوج؛ الذي سيقوم بدوره بتخريبه، يختاره ليكون من يخرّبه، لو استطاع أن يكون، يصبح، الأخت، العشيقة والعروس. ربما هذا ما جرى، ليس في ذهن هنري وإنما في روحه. لأنه لم يتصرف قط بناءً على العقل. يشعر فيتصرف على الفور بناءً على شعوره. عرف الوفاء وقلّده، عرف الكبرياء والغيرة؛ أحبّ وحزن وقتل، وظل حزيناً وأعتقد أنه لا يزال يحب بون، الرجل الذي أخضعه لفترة تجريبية استمرّت أربع سنوات، منحه مهلة أربع سنوات للتخلي عن الزواج الآخر واكتشاف طريقة للفكاك منه، مدركاً في أعماقه أن السنوات الأربع من الأمل والانتظار لن تفضي إلى أية نتيجة.

«أجل، هنري من أغرى جوديث وليس بون، كان ذلك من خلال الدور الذي لعبه كشاهد على المسار الهادئ المريب للمغازلة بين بون وجوديث– الخطوبة، إن صحت تسميتها بالخطوبة، التي طالت لمدة سنة كاملة تخللتها زيارتان قام بهما خلال العطلة بوصفه ضيف شقيقها وقضى بون خلالهما جلّ وقته مع هنري، إما في ركوب الخيل أو الصيد أو في التصرف كشخص أنيق وكسول تربى في بيئة ملتبسة ولا يعرف من تاريخه وماضيه سوى اسم المدينة التي انحدر منها، وكرمى له تجمّلت إلين وأطلقت دون قصد فراشاتها الصيفية الهندية؛ أما هو، الرجل الحي، فقد كان لصاً، كما ترى. لم يُتح له الوقت الكافي أو المستقطع كي يغازل جوديث خلال تلك الأيام التي قضاها مع هنري. لا يمكنك تخيل أنه انفرد بجوديث ولو لمرة واحدة. إن حاولتَ تخيل اختلائهما ببعضهما البعض فلن ينالك سوى تصور ضبابي إذ إنهما في الواقع منفصلان بلا شك وكل منهما في مكان مختلف– ظِلان هائمان، يجولان بسكينة تامة لا تخترق جسديهما أي شرارة، في الحديقة الصيفية– الخيالان المطمئنان نفسهما المراقِبان للذات يطوفان بهدوء وحذرٍ حياديين، فوق وخلف سحب منذرة بعاصفة رعدية لا يمكن تفسيرها مشبعة بالمحظورات والممنوعات والاعتراضات التي أحالت ستبن الصلب كالصخر وهنري العنيف متقلب المزاج إلى متأملين ومراقبين؛– هنري الذي لم يسبق ووطأت قدماه ممفيس بتاتاً، ولم يغادر مسقط رأسه قبل شهر أيلول من تلك السنة عندما التحق بالجامعة مرتدياً ملابسه الريفية ممتطياً صهوة جواده الأغبر ومعه مروضو الأحصنة الزنوج؛ ستة أو سبعة مروضين بالعمر نفسه والأوضاع نفسها، لا فرق بينهم وبين العبيد الزنوج الذين يعيلونهم إلا في أمور بسيطة مثل الطعام والملابس والمهام الموكلة إليهم؛ يتصببون العرق ذاته، الاختلاف الوحيد أنه عرق ناتج عن الكد في الحقول من جهة فيما هو في الجهة الثانية عرق ناتج عن التقشف والمسرّات المتواضعة المتاحة لهم في الأوقات التي لا يتعين عليهم فيها التعرق في الحقول: الصيد وركوب الخيل العنيفان والشاقان؛ المسرّات نفسها: من جهة، المقامرة على السكاكين المتآكلة والمجوهرات النحاسية ولفائف التبغ والأزرار والملابس لأنها الأسرع والأسهل منالاً؛ أما على الجهة الثانية فالمقامرة على النقود والأحصنة، البنادق والساعات، وللسبب عينه؛ والحفلات ذاتها: الموسيقى المكررة للآلات الموسيقية نفسها، الكمنجات والغيتارات بدائية الصنع، الأولى تُقام في الدار الكبيرة حيث الشموع والملابس الحريرية والشمبانيا، والثانية تقام في الأكواخ القذرة حيث يتصاعد الدخان من عقد الصنوبر والملابس القطنية البيضاء والماء المحلّى بالدبس؛ لقد كان هنري من أغوى جوديث لتعشق بون، لأن بون لم يكن قد رآها في ذلك الوقت. ربما لم يعر حديث هنري المتلعثم أثناء سرده الموجز والمتحفظ عن أوضاعه وتاريخه الاهتمام الكافي ليتذكر أن لدى هنري أخت، هذا الرجل البليد الذي يكبرهم بما يكفي ليجد صعوبة في العثور

على أصحاب بين الشبان، الأطفال، الذين يعيش معهم الآن؛ هذا الرجل يلعب دوراً لا يلائمه في ذلك الوقت وهو يدرك ذلك؛ يقبل بالدور لسبب وجيه يعينه على التحمل، سبب خطير للغاية وسري جداً على أقل تقدير يستحيل كشفه أمام معارفه الحاليين، هذا الرجل الذي أظهر لاحقاً البلادة نفسها وعدم الاكتراث، اللامبالاة ذاتها التي تحصن بها عندما تناقلت الألسنة خبر تلك الخطوبة التي، على حدّ علم جفرسون، لم تتم رسمياً على الإطلاق، والتي لم يؤكدها بون أو ينفيها، مستبقياً نفسه في خلفية المشهد، حيادياً ومستسلماً كما لو أنه ليس الشخص المعني أو كأنه يتصرّف بالنيابة عن صديق غائب، كما لو أنه لم يسمع قط بالشخص المعني ولا يكترث لأمره قيد أنملة. لم تظهر أي بوادر توحي بأن علاقة عاطفية جمعتهما. بدا أنه أظهر بعض اللياقة المترددة إزاء جوديث بامتناعه عن محاولة تدميرها، إضافة إلى إحجامه عن الإصرار على الزواج سواء قبل أو بعد منع ستبن له– صدر هذا التصرف– انتبه، عن رجل نال لقب المقدام بين النساء أثناء دراسته الجامعية، قبل وقت طويل من عثور ستبن على دليل ملموس. لا خطوبة إذاً، ولا علاقة عاطفية حتى، رأى جوديث ورأته ثلاث مرات خلال سنتين، على مدار ما مجموعه اثني عشر يوماً، مع احتساب الوقت الذي قضاه مع إلين؛ افترقا دون وداع. وأكثر من ذلك، وبعد أربع سنوات، كان يتعين على هنري قتل بون لمنعهما من الزواج. لذلك لا بدّ وأن هنري هو من أغرى جوديث، وليس بون: أغواها وأغوى نفسه برغم المسافات الفاصلة بين أكسفورد ومزرعة ستبن، بين نفسها والرجل الذي لم تره بعد، كما لو أنه لجأ إلى ذلك التخاطر الذي أتاح لكل منهما منذ طفولتهما التنبؤ بسلوك الآخر كعصفورين يطيران عن الغصن في اللحظة عينها؛ ذلك التماهي الذي لا يشبه الخديعة التقليدية القائلة بالألفة بين التوائم وإنما الألفة الناشئة بين شخصين، وجدا نفسيهما وحيدين عند ولادتهما على جزيرة معزولة، شخصين لا أهمية لجنسهما أو عمرهما أو تراثهما المتعلق بالعرق أو اللغة، والجزيرة هنا هي مزرعة ستبن؛ المعزولة، حيث طيف الأب الذي عقدت معه البلدة بل وعائلة أمهما أيضاً صلحاً مفترضاً لم يرتق يوماً ليصبح قبولاً ودمجاً يجعله واحداً منهم.

«أترى؟ إليك ما حدث معهم: هذه الفتاة، تلتقي هذه الشابة الريفية رجلاً بمعدل وسطي يقارب الساعة الواحدة يومياً على مدار اثني عشر يوماً خلال مجمل حياته في سنة ونصف تقريباً، ومع ذلك رغبت بالزواج منه لدرجة إرغام شقيقها على ارتكاب جريمة قتل كحل أخير لا ثاني له، حتى لو لم تكن جريمة قتل متعمّد، لمنع الزواج، وبعد مرور أربع سنوات ظلت خلالها تتساءل إن كان لا يزال على قيد الحياة؛ هذا الأب الذي لم ير ذلك الرجل سوى مرة واحدة، ومع ذلك وجد سبباً كافياً لقطع ستمائة ميل للاستقصاء عنه واكتشاف كل ما أوحت له به فراسته، أو على الأقل اكتشاف ما يكفي لمنع الزواج؛ هذا الأخ

الذي يبدو في نظره شرف الأخت والابنة وسعادتهما، إن فرضنا وجود العلاقة الغريبة والمريبة بينهما، أغلى مما هما في نظر الأب مما جعله غيوراً عليهما أكثر من الأب، لكنه مع ذلك ساند الزواج بضراوة لدرجة تبرؤه من الأب وصلة الدم والدار ليصبح لمدة أربع سنوات تابعاً ومتكلاً على الخطيب المرفوض لمدة أربع سنوات كاملة قبل أن يقتله للسبب ذاته الذي دفعه قبل أربع سنوات لهجر الدار ومساندة الزواج؛ وهذا العاشق الذي أصبح كما يبدو رغم مشيئته ورغبته متورطاً في خطوبة لم يسعَ وراءها ولم يتجنبها، تلقى أمر طرده بالروح المستسلمة والساخرة نفسها، لكنه تاق بشدة بعد أربع سنوات كما يبدو لإتمام الزواج الذي ظل حتى ذلك الوقت غير مكترث به على الإطلاق كما لو أنه يود إرغام الأخ الذي ساند الزواج على قتله لمنع الزواج. نعم، لنفترض أن، هنري الساذج، ولنضع جانباً الأب كثير الترحال، ووجود العشيقة التي كان جدها الثامن زنجياً والابن الذي كان جده السادس عشر زنجياً، لنفرض بسبب حفل الزواج غير المتكافئ– الحفل الذي اعتُبر إلى حدٍّ كبير جزءاً من المسلّمات الاجتماعية الشائعة التي يتعين على الشاب الثري في نيو أورلينز التقيد بها كما يتقيد بارتداء خفي الرقص– كان سبباً كافياً لإبطال الزواج، والمحافظة على الشرف حتى في أعين الأطياف المبجّلة لأسلافنا الذين ولدوا في الجنوب وصاروا في عمر الصبا في العام ألف وثمانمئة وستين أو ألف وثمانمئة وواحد وستين. هذا غير معقول. لا يفسر شيئاً. أو ربما هذا كل شيء: لم يقدّموا أي تفسير ولا يجدر بنا أن نعرف. ثمّة بعض الروايات الشفوية؛ ننبش من الحقائب والصناديق والأدراج القديمة رسائل غير مذيلة بأي تحية أو توقيع، لم يعد الرجال والنساء الذين عاشوا وتنفسوا فيها أكثر من مجرد حرفين أولين من الاسم أو الكنية بلا أي معنى وكأنهما مكتوبان باللغة السنسكريتية أو لغة التشوكتاو؛ نرى أناساً باهتين، أناساً نرقد في سبات في دمائهم وبذورهم الحية وننتظر، في ترهل الزمن الذي صار له الآن صفات بطولية، يؤدون أدوارهم بشيء من الشغف والعنف البسيطين، منيعين ضد الزمن وعصيين عن الفهم. نعم، جوديث وبون وهنري وستبن: جميعهم. إنهم هناك، ومع ذلك ثمّة شيء مفقود؛ إنهم مثل معادلة كيميائية نُبشت بعناية مع الرسائل من ذلك الصدر المنسي، الورق قديم وباهت ومهترئ، الأحرف ممحية، وبالكاد مقروءة، لكنها مليئة بالمعاني رغم ذلك، مألوفة من حيث الشكل والإحساس، الاسم وحضور القوى الهشة والمرهفة؛ تجمعهم معاً وفقاً للنسب والمقادير المطلوبة، ولكن لا يحدث أي تفاعل؛ تعيد القراءة، بتأنٍ ورويّة، تتمعن، تتحقق من أنك لم تنسَ شيئاً، لم تخطئ في الحساب؛ تجمعهم معاً ثانية ولكن لا يحدث أي تفاعل أيضاً: مجرد كلمات ورموز وأشكال مبهمة وساكنة بشكل غامض، مقابل ذلك المشهد الصارم للصدف المرعبة الفتّاكة للعلاقات الإنسانية.

«جاءا من الجامعة لقضاء أول عطلة عيد الميلاد. رأته جوديث وإلين وستبن للمرة الأولى– جوديث، الرجل الذي رأته خلال ما مجموعه اثني عشر يوماً لكنها مع ذلك ستتذكره طوال السنوات الأربع اللاحقة (لم يراسلها إطلاقاً خلال تلك الفترة. منعه هنري: لأنها كانت فترة تجريبية، كما تعلم) عندما استلمت رسالة منه يقول فيها انتظرنا بما فيه الكفاية، باشرت فوراً بمساعدة كليتي حياكة فستان الزفاف والطرحة مستعينتين ببقايا الأقمشة والخرق؛ إلين، الغامضة، القطعة الفنية المصنوعة على طراز فن الباروك، التحفة الفنية المخنثة التي حاولت بشرَهٍ طفولي إضفاء هذا الفن أيضاً على أثاث وديكور منزلها؛ ستبن، الرجل الذي، بعد رؤيته لمرة واحدة وقبل الحديث عن أي خطوبة اللهمّ إلا في رأس زوجته، وجد فيه تهديداً محتملاً لتاج انتصاراته (التي حققها أخيراً) على مشقاته وطموحاته القديمة، تهديد بدا جدياً بما يكفي ليبرر قطعه لستمائة ميل لإثبات مدى خطورته؛ نحن نتحدث عن رجل يفضّل تحدي أحدهم وإطلاق النار عليه لمجرد أنه لا يروق له أو لأنه يهابه عوض قطع عشرة أميال للتقصي عنه. أترى، كدتَ تصدق أن رحلة ستبن إلى نيو أورلينز كانت محض صدفة، مجرد دسيسة غير منطقية يحيكها الشؤم الذي اختار تلك الأرض أو العائلة دون غيرها من عائلات المقاطعة تماماً كما يختار فتى صغير عش نمل بعينه ليصب عليه الماء المغلي، لسبب مجهول لا يعرفه هو نفسه. مكثا أسبوعين وقفلا راجعين إلى الجامعة، عرّجا على البيت لرؤية الآنسة روزا لكنها لم تكن في المنزل؛ وقضيا الفصل الدراسي الطويل الذي يسبق العطلة الصيفية يتحدثان ويركبان الخيل ويقرآن (كان بون يدرس القانون. كيف لا ودراسة القانون ملجؤه اليتيم الذي يعينه على تحمل الإقامة في الجامعة، بصرف النظر عن السبب الذي دفعه للبقاء؛– هذا، هو المكان المثالي لكسله التسويفي المماطل: هذا التنقيب في أفكار القاضيين بلاكستون [13] وكوك [14] التي أكل الدهر عليها وشرب، في جامعة لا يزال عدد طلابها أقل من مئة طالب، بينما ضمت كلية الحقوق ربما ستة طلاب إلى جانب هنري– نعم، أقنع هنري بانتهاك القانون أيضاً؛ طرأ التغير على هنري في منتصف الفصل الدراسي– ولم يسلم بدوره من التغيير) بينما قلّده هنري في طريقة تحدثه وارتداء ملابسه، على نحو كاريكاتوري ربما، أما بون، وعلى الرغم من أنه التقى جوديث، فقد حافظ على كسله مثل هر وكان هنري هو من فرض عليه دور خطيب شقيقته الموعود خلال الفصل الدراسي بأكمله فيما فرض هنري وزملاؤه على بون دور لوثاريو [15]، وانهمكت إلين وجوديث في هذه الأثناء بالتسوق ودأبتا على الذهاب إلى البلدة مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً واعتادتا على زيارة الآنسة روزا مرة واحدة في الأسبوع أثناء ذهابهما على متن العربة إلى ممفيس، تتقدمهما عربة لأخذ المنهوبات وزنجياً إضافياً جالساً على الصندوق إلى جوار الحوذي، تتوقف العربة كل بضعة أميال ليقوم

الحوذي بإشعال نار وإعادة تسخين القرميد الذي تضع إلين وجوديث عليه أقدامهما، تتسوقان وتشتريان جهاز العرس الذي لم تسبقه أي خطوبة رسمية إلا في ذهن إلين؛ وستبن، الذي رأى بون مرة واحدة وكان في نيو أورلينز يتقصى عنه عندما دخل بون إلى الدار للمرة الثانية: من يعرف ما الذي كان يدور في خلده، ما الذي ينتظره، أية لحظة، أي يوم، للذهاب إلى نيو أورلينز وكشف النقاب عما بدا عارفاً له كل الوقت؟ لم يجد من يخبره ويسرّ له بمخاوفه وشكوكه. لم يثق بأحد سواء كان رجلاً أو امرأة، لم يحبه لا رجل ولا امرأة، إلين عاجزة عن الحب وجوديث تشبهه إلى حدٍّ كبير ولا بد وأنه أدرك من نظرة واحدة أن بون، على الرغم من أن الابنة لا تزال في مأمن من خطره، قد نجح في إفساد الابن. كان ناجحاً جداً، كما ترى؛ كان تقوقعه ناجماً عن الازدراء والشك اللذين نتجا عن النجاح الذي حصده بفضل قوته وليس لأن الحظ وحده حالفه.

«ثم حل شهر حزيران وانتهى العام الدراسي وعاد هنري وبون إلى مزرعة ستبن، قضى بون يوماً أو يومين قبل أن يمتطي صهوة جواده ويتجه إلى النهر ليستقل العبّارة قاصداً مسقط رأسه، نحو نيو أورلينز حيث سبقه ستبن خفية عن الجميع، وخاصة إلين. مكث يومين، وكانت هذه فرصته الوحيدة للتوصل إلى تفاهم مع جوديث، بل وحتى الوقوع في حبها. كانت فرصته اليتيمة، فرصته الأخيرة، على الرغم من جهله وجهل جوديث لذلك، لأن ستبن، على الرغم من أن غيابه عن المنزل لم يتعدَ الأسبوعين، غير أنه اكتشف دون شك أمر العشيقة التي جدها الثامن زنجي والطفل. كانت إذاً الفرصة الأولى والأخيرة التي سنحت لبون وجوديث ليلتقيا دون عزول، حيث أفسحت إلين لهما المجال. يمكنني تخيلها تهندس تلك العلاقة العاطفية، توفر لجوديث وبون الفرص للقاء وتبادل العهود بخفر وصبر في كل مكان وهو ما حاولا دون جدوى تجنبه والهروب منه، جوديث من خلال هواجسها القلقة والهادئة رغم ذلك، وبون من خلال نفوره التهكمي المفاجئ والذي بدا التجلي الطبيعي لشخصيته المنيعة والغامضة. نعم، غامضة: أسطورة، خيال: شيء أثاراه وخلقاه بأنفسهما دون تدخل أحد؛ شيء يذكِّر بالرائحة الكريهة لدم ستبن وشخصيته، كما لو أنه لم يوجد قط بوصفه بشراً. لكن مع ذلك ثمّة الجثة التي رأتها الآنسة روزا، التي دفنتها جوديث في أرض العائلة بالقرب من والدتها. وهذه: حقيقة حدوث الخطوبة غير المعلنة أو المُصرَّح بها، تثبت بشكل واضح فرضية أنهما أحبا بعضهما البعض، فلو أن ما حدث مجرد رومانسية لكانت تبخرت خلال هذين اليومين، فالرومانسية تذوي مع تلاشي حلاوة المشاعر وانعدام الفرص. ثم ركب بون جواده وانطلق نحو النهر ليستقل العبّارة. والآن هذا: من يعلم، فلو ذهب هنري معه في ذلك الصيف بدل الانتظار إلى الصيف التالي، لما قضى بون نحبه بهذه الطريقة؛ لو أن هنري فقط ذهب إلى نيو

أورلينز واكتشف أمر العشيقة والطفل؛ لتصرف هنري، قبل فوات الأوان، عند اكتشافه الحقيقة تماماً كما تصرف ستبن، كما يُفترض تماماً لأخ غيور أن يتصرف، فمن يدري ربما لم تكن حقيقة وجود العشيقة والطفل، وفرضية تعدد الزوجات، التي كذّبها هنري، هي السبب وإنما حقيقة أن والده هو من أخبره، أباه هو من تنبأ بالأمر، الأب الذي يعتبر العدو الطبيعي لأي ابن وصهر فيما الأم حليفته، تماماً كما سيصبح الأب بعد الزفاف حليف الصهر الفعلي وتصير أم زوجته خصمه الفتاك. لكن هنري لم يذهب هذه المرة. رافق بون إلى النهر ثم عاد أدراجه؛ وبعد فترة عاد ستبن إلى المنزل أيضاً، ظل المكان الذي جاء منه وسبب رحلته مجهولين حتى عيد الميلاد التالي، ومرّ ذلك الصيف، الصيف الأخير، الصيف الأخير من السلام والرضا، ودافع هنري، حتماً دون نية مبيّتة، عن قضية بون أفضل مما كان لبون نفسه أن يفعل، بون البليد المؤمن بالقضاء والقدر لن يكلف نفسه أبداً عناء الدفاع عن نفسه، فيما جوديث تصغي بهدوء، بسكينة مبهمة كانت تُسمى قبل سنة ونيّف استلاب إرادة غامض وحالم وعبثي يستولي على فتاة شابة لكنها صارت تُسمى الآن استكانة امرأة ناضجة– سيدة ناضجة عاشقة. عندئذٍ وصلت الرسائل، قرأها هنري كلها دون أن تمسه أية غيرة، وكأنه خضع لتحولٍ تام، وتحول جسده إلى جسد الرجل الذي سيصبح عشيق أخته. التزم ستبن الصمت حتى الآن ولم يبح بما عرفه في نيو أورلينز واكتفى بالانتظار، ولم يثر شكوك هنري أو جوديث، ينتظر ما لا يعرفه أحد، ربما على أمل أن بون سيعلم، كما من المفروض أن يفعل، أن ستبن اكتشف سرّه، وسيدرك وصول اللعبة إلى خواتيمها ولن يعود حتى إلى الجامعة في السنة المقبلة. ولكن بون عاد. والتقى مع هنري مرة ثانية في الجامعة؛ ونقل مروض خيول هنري أسبوعياً الرسائل المتبادلة بين هنري وبون؛ وظل ستبن متمسكاً بحبل الانتظار، لم يستطع أحد بالتأكيد تحديد ما الذي ينتظره الآن، من غير المعقول أنه ينتظر عيد الميلاد، لتأتي المصيبة على قدميها إليه– هذا الرجل الذي يقال إنه لا يخرج فقط لملاقاة مصائبه، بل يندفع أحياناً لصنعها. لكنه على غير عادته انتظر هذه المرة وجاءت المصائب إليه: عيد الميلاد، وجاء هنري وبون مجدداً إلى مزرعة ستبن وأقنعت إلين البلدة أن الخطوبة قائمة؛ في الرابع والعشرين من كانون الأول 1860، تربّص أطفال الزنوج خلف الدار الكبيرة، حاملين أغصان الهدال والإيلكس الشوكي للتمويه، ينادون على البيض صارخين «هدية عيد الميلاد»، رجل المدينة الثري جاء طالباً ودَّ جوديث، ولم يحدّد ستبن موقفه بعد، لم يثر شكوك أحد سوى هنري، ربما هنري هو من فتح الموضوع وأشعل فتيل الأزمة في تلك الليلة، وكانت إلين في أوج انهماكها بتحضير الطعام خلال حياتها المزيفة والفارغة التي ستتغير مع بزوغ فجر اليوم التالي وتتزلزل الأرض تحت قدميها، وتتركها مصعوقة ومشوشة في الغرفة الموصدة حيث ستلقى حتفها بعد عامين؛– عشية عيد الميلاد،

الانفجار، ولن يعرف أحد أبداً لماذا حدث ذلك بين هنري ووالده أو على الأقل ما الذي جرى وظلت الأخبار حكراً على ما تناقلته همسات الزنوج من كوخ إلى آخر تفيد بأن هنري وبون رحلا تحت جنح الظلام وأن هنري تخلّى رسمياً عن بيته وحقوقه العائلية.

«قصدا نيو أورلينز. قادا حصانيهما في يوم عيد الميلاد القارس ذاك إلى أن وصلا إلى النهر ثم استقلا العبّارة، جرياً على عادته، تولى هنري زمام القيادة، التوجيه، حتى آخر لحظة، ثم وللمرة الأولى على مدار علاقتهما بأكملها تولى بون القيادة وتبعه هنري. ما كان يجب أن يذهب. جعل من نفسه صعلوكاً بمحض إرادته رغم قدرته على اللجوء إلى جده لأنه كان ربما أفضل خيّال في الجامعة، من دون استثناء بون نفسه، ربما امتلك مالاً أكثر بقليل مما جمعه على عجل وحمله معه على حصانه وأكثر بقليل من المقتنيات القيّمة التي ارتداها عندما ترك البيت مع بون. كلا، لم يتعين عليه الذهاب، وها هو يتولى القيادة هذه المرة أيضاً، وبون يمتطي حصانه إلى جواره محاولاً أن يستشفّ منه ما جرى. أدرك بون بالطبع ما اكتشفه ستبن في نيو أورلينز، لكنه احتاج معرفة المعلومات التي أخبرها ستبن لهنري وهل أخبره كل شيء، وأحجم هنري عن إخباره، جرت المهرة الجديدة التي أيقن حتمية التخلي عنها، والتضحية بها أيضاً، إضافة إلى التضحية بما تبقى من حياته، وبالميراث، خبباً فيما أدار ظهره بحزم لا رجعة عنه إلى الدار، وإلى مسقط رأسه وكل ما ألفه من طفولته وصباه والتي تخلى عنها كرمى لذلك الصديق الذي، وبالرغم من التضحية التي قدمها للتو بدافع من الحب والوفاء، عجز عن مصارحته وكشف كل أوراقه أمامه. فقد أدرك صحة ما أخبره به ستبن. لا بد وأنه عرف ذلك في اللحظة التي كذب فيها على والده. لذلك لم يجرؤ على الطلب من بون إنكار الأمر؛ لم يجرؤ، أتفهم ما الذي جرى؟ استطاع مواجهة الفقر والحرمان من الميراث لكن لم يستطع تحمل رؤية بون يكذب. ومع ذلك ذهب إلى نيو أورلينز. ذهب مباشرة إلى هناك، إلى المكان الوحيد، المكان نفسه، حيث لا يمكنه سوى الجزم بالفرضية التي اعتبرها، لأنها صادرة عن والده، محض كذب ورياء وافتراء. قصد المكان لتحقيق تلك الغاية؛ ذهب لإثبات ذلك. فيما يحاول بون الذي يقود حصانه إلى جواره، اكتشاف ما أخبره به ستبن،– بون الذي واظب على مدى عام ونصف مراقبة تقليد هنري له في طريقة ارتداء ملابسه وطريقة كلامه، الذي رأى لمدة سنة ونصف نفسه محور ذلك التنسك الكامل والإخلاص الذي نجده عند الشباب فقط نحو بعضهم البعض، وتفتقر النساء إليه؛ والذي رأى أخته على مدى عام كامل تخضع للسحر نفسه الذي خضع له الأخ من قبلها، دون أدنى رغبة من جهة الغاوي لإغوائهما، دون بذل أي جهد يُذكر، كما لو أن الأخ هو من سحر أخته، أغراها من خلال صورة من ينوب عنه، صورة تنفست وسارت على قدمين عبر جسد بون. لكن لا يمكن

إغفال وجود الرسالة التي أرسلت بعد أربع سنوات، وكتبت على ورقة وجدت بين أنقاض منزل مدمّر في كاليفورنيا، إلى جانب ملمّع أفران يُباع في حوانيت اليانكيين المستولى عليها؛ بعد أربع سنوات انقطع فيها تماماً عن إرسال أي شيء باستثناء الرسائل التي دأب هنري على إيصالها وفحواها بأنه (بون) لا يزال على قيد الحياة. ولهذا سواء عرف هنري حينها بأمر المرأة الأخرى أم لا، فلا بد وأنه عرف الآن بأمرها. أدرك بون ذلك. يمكنني تخيلهما يمتطيان حصانيهما، هنري ما يزال تحت سطوة فورة ضارية ناجمة عن تبعات الولاء الراسخ، وأتخيل بون، الأكثر حكمة ودهاءً حتى لو كان هذا الدهاء حصيلة خبرة أوسع والسنوات القليلة التي يكبره بها، يستقرئ من خلال هنري دون معرفة الأخير، ما الذي قاله ستبن له بالضبط. هنري يعرف الآن دون أدنى شك. ولا أصدق أن هذا لمجرد المحافظة على هنري كحليف قد يحتاجه في محنة ما مستقبلاً. بون لم يحب جوديث فقط على طريقته بل وأحب هنري أيضاً وأؤمن بأنه عشقه على طريقته. وربما وعلى ضوء إيمانه بالقضاء والقدر يمكن القول إنه رغب بهنري بقدر رغبته بلقاء مصيره، ولم تجسد الأخت بالنسبة إليه سوى الظل، جسد المرأة الذي من خلاله سيضاجع الحب الذي لا يبتغي في الحقيقة سوى الصبا:– هذا التفكير الدون جواني، الذي يستمتع بالإغواء أكثر من الجماع، تعلم عشق من يؤذيهم؛ ربما لا يقتصر عشقه على حب جوديث أو هنري: ربما يطال أيضاً الحياة، والوجود، اللذين تجسدا فيهما. من يدري ما الصورة الوادعة التي رآها في تلك المستنقعات الريفية الراكدة؛ ما البلسم والملاذ الذي قدمه هذا النبع الريفي البسيط المقيّد بالغرانيت لمسافر هائم على وجهه قطع كل تلك المسافات في عمر مبكر جداً.

«ويمكنني تخيل كيف باح بون لهنري بالحقيقة، كيف قالها له. يمكنني تخيل هنري في نيو أورلينز، التي زارها قبل أن يزور ممفيس، واقتصرت تجاربه الدنيوية على زيارات عابرة إلى البيوت والمزارع المحيطة، التي بدورها لم تختبر من الأسفار إلا النزر اليسير، ولم ينقطع خلال هذه الزيارات العابرة عن ممارسة الروتين ذاته الذي دأب عليه في المنزل– ممارسات الصيد ومصارعة الديوك نفسها، وخوض سباقات الخيول للهواة في مضمار وعر صُنع منزلياً كيفما اتفق، أحصنة ذات سلالة ونسب جيدين بما يكفي ولكن لم تُدرَّب لخوض السباقات ولم تختبر لأكثر من ثلاثين دقيقة بعيداً عن قضبان عربة بدولابين أو ربما حتى عربة مغلقة؛ الرقصات نفسها مع مجموعة لا تتجاوز الثمانية أشخاص مكونة من عذارى ريفيات متبدلات ومتشابهات، على وقع موسيقا تشبه تماماً تلك التي يسمعها في المنزل، الشمبانيا نفسها، يقدمها كبار الخدم الزنوج كما يقدمون عصير الليمون، بأفضل طريقة بدائية ممكنة وبأناقة إيمائية هزلية (ومثلهم الندماء الذين يعاقرون الشمبانيا كما يعاقرون الويكسي دون ثلج أثناء تبادل أنخاب وكلمات منمّقة وبليدة). يمكنني تخيله

مثقلاً بتراثه المحافظ– ذلك التراث الأنجلوسكسوني الغريب– وبتصوف مترع بالزهو والفخار وتلك القدرة على الشعور بالخزي والعار بسبب الجهل وقلة الخبرة، في تلك المدينة الأجنبية الحافلة بالتناقضات، الأجواء ذاتها القاتلة والباعثة على الاسترخاء في الوقت عينه، التي تجمع الطابع الأنثوي والفولاذي معاً– هذا الريفي الكئيب المفتقر لحس الدعابة نتاج تراث غرانيتي حيث صُممت المنازل، ناهيك عن الملابس والأعراف، لتحاكي يهوه غيوراً وسادياً، وجد نفسه فجأة في مكان خلق قاطنوه إلهاً جباراً قهاراً وصنعوا جوقته الهرمية المساندة من القديسين الوسيمين والملائكة الجميلين يشبهون تماماً منازلهم وزخارفهم وحيواتهم الشهوانية. أجل، بوسعي تخيل كيف مهّد بون للموضوع، كيف مهّد للصدمة: بالاتكال على الخبرة، الحساب، تهيئة دماغ هنري المتزمت كما يهيئ حقلاً صخرياً ضيقاً ويزرعه ويعتني به ليجني المحصول الذي يبتغيه. سيكون حفل الزفاف، أياً كان نوعه، هو ما سيستوقف هنري: عرف بون ذلك. لن يستوقفه أمر العشيقة أو حتى الطفل، ولا حتى العشيقة الزنجية وسيستوقفه على نحو أقل أمر الطفل بسبب ذلك الموضوع، لأن هنري وجوديث ترعرعا مع أخت نصف شقيقة زنجية، لن تسترعي العشيقة انتباه هنري، وحتماً لن يهتم شاب بظروف هنري لأمر العشيقة الزنجية، شاب ترعرع وعاش في بيئة تقسم الجنس الآخر إلى ثلاث فئات، تفصل (اثنين منهما) هوة لا يمكن جسرها إلا مرة واحدة وبطريقة واحدة لا غير– السيدات، النساء، الإناث– العذراوت اللواتي سيتزوجهن النبلاء في يوم ما، المحظيات اللواتي يقصدهن الرجال خلال قضاء إجازاتهم في المدن، والعبدات من الفتيات والنساء اللواتي تتكل عليهن الفئة الأولى ولهن يعود الفضل في حالات معينة دون شك في الحفاظ على عذرية الفئة الأولى:– ليس هذا ما سيستوقف هنري، الشاب قوي البنية، ضحية البتولية القاسية المتمنعة عن المضاجعة وصيد الحسناوات لإطفاء شبق الدم المشتعل الذي يجري في عروق فتى شاب، أُرغِم وأقرانه على تجزية الوقت مع فتيات ينتمين للطبقة الاجتماعية نفسها بعيدات المنال ومحظورات ومع نسوة من الطبقة الثانية عصيات أيضاً لكن هذه المرة بسبب بُعد المسافات والافتقار إلى المال، ولهذا فإن العبدات والخادمات فقط اللواتي عرفت الأناقة والنظافة طريقها إليهن على يد محظيات بيض أو ربما فتيات متعرقات يعملن في الحقول يمتطيهن الشاب وأثناء ذلك يومئ للمشرف المراقب قائلاً أرسل لي جونو أو ميسيلينا أو كلوري ثم يضاجعهن في الغابة يقذف وينتظر. كلا: ما سيلفت انتباهه هو حفل الزفاف، الحفل الذي وإن كان سيُقام على شرفه وشرف زنجية حتماً، لكنه يظل حفلاً رغم ذلك؛ هذا بالتأكيد ما فكر به بون. يمكنني تخيله إذاً، تخيل أسلوبه عندما صارحه: الطريقة التي التقط فيها الفيلم النيجاتيف السابق الصادق لروح وعقل هنري الريفيين ثم أخضعه لمرحلِة التحميض عبر تعريضه بجرعات صغيرة على محيطه الضيق، شيئاً

فشيئاً لاكتمال تحميض الصورة وإظهارها بالطريقة التي يريدها ويقبلها ويرغب بأن تظل ماثلة في الأذهان على هذا النحو. بوسعي رؤيته يفسد هنري تدريجياً ويستدرجه إلى عالم الأناقة، دون مقدمات، دون سابق إنذار، جاءت فرضية النظرية بعد برهانها، تكشف الجانب السطحي تدريجياً أمام عيني هنري– فن العمارة غريب بعض الشيء، على الطراز القوطي مفرط الزخرفة دون أن يخلو من لمسة أنثوية ولذلك بدا بالنسبة إلى هنري مترفاً وشهوانياً وآثماً؛ استنتاج يدل على ثروة طائلة جُنيت دون كد أو تعب تعادل أحمال العبّارة عوضاً عن الخطوات الصغيرة الضجرة لأشخاص يعملون في حقول القطن؛ بريق ولمعان عجلات عربات لا تحصى، تحمل نسوة جامدات يجلسن إلى جوار الرجال وكأنهن جالسات فوق عروش ملكية، يعبرن بلمح البصر، يبدون مثل لوحات شخصية ملونة يلبسن كتاناً أنعم قليلاً مما اعتاد هنري على رؤيته، وألماساً أكثر سطوعاً، وجوخاً أضيق بقليل مما ألفه، ويعتمرن قبعات تحف على نحو أقسى وجوهاً مختالة لم يسبق له أن رأى مثيلاً لها في تكبرها: والمراد، الرجل الذي كان له مريداً وتخلّى كرمى له عن رابطة الدم وصلة الرحم، بل وأيضاً عن الكلأ والمأوى والملبس، وحاول تقليده في طريقة لبسه ومشيته وكلامه، وتقليد طريقة تعامله مع النساء وتماهى مع أفكاره عن الشرف والكبرياء أيضاً، يراقبه ويجري حساباته المبهمة والباردة مثل هر، يراقب الصورة تتحلل وتستقر فتحين لحظة إخبار هنري، ‹لكن هذا ليس كل شيء. هذه متع بسيطة، مسرّات سطحية. يمكن أن يتمتع بها أي شخص›: وهنري، ‹تقصد، هذا ليس كل شيء؟ وثمّة شيء آخر، أهم من هذا، أكثر خصوصية؟› وبون، ‹أجل. هذا لا يتعدى كونه مجرد متعة بسيطة. هذا يمكن أن يحدث لأي منا›: حوار دون كلمات، خطاب، يُقال ويُنسى دون أن يحجب خطاً واحداً في الصورة، يعرّفه على الجو العام، ينتقل إلى شيء آخر، الفيلم المصور النيجاتيف جاهز ونظيف مجدداً: الفيلم رهن إشارته، يحكمه الخنوع الناجم عن التعصب إزاء كل ما هو محسوس وليس إزاء كل ما هو منطقي، إزاء الحقائق، الرجل، القلب المضنى والمختنق النابض بين ضلوعه يقول سأصدق! سأصدق! سأصدق! سواء كان ما يقوله الحقيقة أم لا، سأصدق! بانتظار الصورة التالية التي يخطط لها المراد، المفسد: تلك الصورة التالية، تعقب تأكيد وقبول ما سيقوله المراد مجدداً، ربما من خلال الكلمات الآن، بينما ما يزال يراقب الوجه الرصين المتأمل المتحصن بأمان وراء معرفته وثقته في ذلك الإرث المتزمت الذي يتعين عليه أن يُظهر رفضه عوض دهشته أو حتى يأسه ولا شيء على الإطلاق يعكس الاستهجان أكثر من الدهشة أو اليأس: ‹ولكن حتى هذا يشي بالكثير›: وهنري، ‹أتقصد، أن الأمر أهم من هذا، ثمّة ما هو أهم؟› لأنه (بون) سيقود مجرى الحديث الآن، بخمول وغموض تقريباً، يُقحم بنفسه في الفيلم الصورة التي أرادها؛ يمكنني تخيله وهو يقوم بذلك– متكلاً على الحسابات، وعِلى نكئ

الجراح واللامبالاة الباردة، يُفصح بإيجاز، إيجاز يكاد لا يوضح شيئاً، كلمات متفرقة، الفيلم غافل يجهل الصورة التي ستظهر عند اكتمالها، صورة عصية على أن تُرى لكنها راسخة رغم ذلك:– فخ، حصان سباق يقف أمام باب رهباني موصد على نحوٍ مثير للفضول في حي عفن بعض الشيء، بل وحتى مشؤوم، وبون يذكر اسم المالك بطريقة طبيعية– هذا، وجه جديد حذق للإفساد قائم على زرع فكرة في دماغ هنري مفادها بأن رجلاً واحداً دون غيره يتحدث إلى رجل آخر، وأن هنري عرف أن بون صدق أن هنري فهم من خلال الكلمات المتفرقة ما يرمي إليه بون، ويتوجب على هنري المتزمت ألا يظهر أي ردّ فعل على الإطلاق وألا يبدو عليه أي تعبير لا الاستغراب ولا عدم الفهم؛– يرتدي قناعاً مخاتلاً، وجه جامد فارغ، دائخ نعس تحت تأثير أشعة الشمس الصباحية الحارّة، يوحي صوته الواهن المبهم بالملذات السرية البذيئة التي تفوق الخيال. ومع غياب إدراكه لما رآه خُيّل لهنري أن المتراس الفارغ المتقشر المتداعي لم يمط اللثام أو يكشف ما يفهمه العقل، مثقفاً يُحسن التقدير والحذف، وإنما وجه ضربة مباشرة وحقيقية إلى أساس جوهري أعمى وطائش تستند عليه أحلام يقظة وآمال كل الشباب– صف من الأوجه مثل أكشاك الأزهار، التأليه الأسمى للملكية الشخصية، للحم البشري الهجين الجامع بين عِرقين لإتمام تلك الصفقة– ممر من الأوجه الشبيهة بالأزهار الملعونة والمأساوية المسورة بين رتل من القهرمانات الكئيبات المسنات والأشكال الأنيقة للحى الشبان المفترسة للشبان المشذبة (حالياً) على شكل عثنون: فهم هنري ذلك بسرعة، كشف النقاب عنه بسرعة ثم نفضه من رأسه، صوت المراد ما يزال دمثاً لطيفاً مبهماً، مسلّماً بحقيقة أن رجلاً بعينه يتحدث إلى رجل آخر عن موضوع يفهمانه، متكلاً ومستنداً على ذعر الريفي المتزمت من المفاجأة الكاشفة أو الجهل، عرف هنري أكثر من هنري نفسه، ولم تبدُ على هنري أياً من هذه التعابير، ما زال يكتم أولى صرخات الرعب والحزن، سأصدق، سأصدق، سأصدق! أجل، ذلك الموجز، قبل أن يمتلك هنري متسعاً من الوقت لإدراك ما رآه، ورويداً رويداً: حلّت الآن اللحظة التي ينتظرها بون:– جدار، لا يمكن تسلقه، بوابة ثقيلة موصدة، الشباب الريفي الرصين المتأمل ينتظر، ينظر، دون أن يسأل عن السبب بعد؟ أو ماذا؟ البوابة الراسخة ثابتة في مكان العوارض الحديدية المتقاطعة ويعبران معاً، طَرَق بون على بوابة صغيرة متاخمة وخرج رجل أسمر يشبه أحد المخلوقات الخشبية المنحوتة القديمة في لوحة تتحدث عن الثورة الفرنسية، خرج من اللوحة، قلقاً، بل ومذعوراً، أبهره ضوء النهار ثم نظر إلى هنري وتحدث إلى بون بالفرنسية التي لا يفهمها هنري فيما لمعت أسنان بون للحظة قبل أن يجيب بالفرنسية: ‹معه؟ أميركي؟ إنه ضيف؛ سأسمح له باختيار الأسلحة ولا أريد القتال بالفؤوس. لا، لا؛ لا أريد هذا. أعطني المفتاح فحسب›. والآن لا شيء بحوزته سوى المفتاح؛ صارت البوابات الصلبة خلفهما

عوض أن تكون أمامهما، لا يرشح عن الجدران العالية السميكة للمدينة الواطئة أي مشهد أو برهان وبالكاد يتناهى أي صوت، متاهات الدفلى والياسمين المعرّش، الحشف والميموزا تشكل الجدران فيما قطعة من الأرض الجرداء ممشطة بقوقعة ناعمة، جُمع عشبها ونُظفت تماماً، ولا تظهر حالياً سوى البقع البنية الحديثة، والصوت– المراد، المرشد تنحى جانباً ليراقب الوجه الريفي الشاحب– يسرد بطريقة اعتيادية وبهيجة: ‹الطريقة المعتادة هي الوقوف ظهراً لظهر، المسدس في يدك اليمنى وزاوية الثوب الآخر في يدك اليسرى. ثم عند الإشارة تبدأ بالسير وعندما تشعر أن الثوب مشدود تستدير وتطلق النار. لكن يحدث بين الفينة والأخرى، أن يكون الدم حاراً على نحوٍ استثنائي أو عندما تكون الدماء الجارية في العروق ما زالت دماء فلاح، يفضل السكاكين وارتداء ثوب واحد. يواجه أحدهما الآخر داخل الثوب نفسه، كما ترى، كل منهما يقبض على معصم الآخر بيده اليسرى. ولكن هذه لم تكن طريقتي يوماً›؛– صوت عادي، ثرثرة، كما ترى، منتظراً سؤال الريفي البطيء، الذي يعرفه مسبقاً الآن قبل طرحه: ‹لماذا أنت— هم يتصارعون؟›

16

«أجل، لا بدّ وأن هنري أصبح يعرف الآن، أو يُخيّل إليه أنه يعرف الآن؛ ولن يفكر بعد الآن ربما باحتمال تباطؤ الأحداث على الرغم من أنها لن تتباطأ، هذا آخر شيء قد يحدث، الضربة القاصمة، الضربة، اللمسة، الطبيب الجرّاح الفطن يشكّل شيئاً فقدت أعصاب المريض الإحساس به، غافل عن أن الصدمات القوية الأولى كانت عشوائية وجلفة. كل هذا بسبب إقامة الحفل. عرف بون أن الحفل هو ما سيعترض هنري عليه، ما سيصعب عليه تقبله واستيعابه. آه لقد كان فطناً، هذا الرجل الذي أصبح هنري بعد مرور أسابيع يدرك أن ما يعرفه عنه ليس إلا النزر اليسير، هذا الغريب غائص وذاهل الآن في التحضيرات الرسمية والشعائرية للزيارة، نزق مثل النساء منشغل بمدى ملائمة المعطف الجديد الذي صنعه خصيصاً من أجل هنري، ليرغم هنري على قبول هذه المناسبة، معتمداً على الوسائل نفسها التي بنى من خلالها هنري انطباعه الكامل عن الزيارة حتى قبل مغادرتهما المنزل، قبل أن يرى هنري السيدة: وهنري، الريفي، المذهول، يدفعه المد العالي نحو النقطة التي سيجد فيها نفسه أمام خيارين إما خيانة نفسه وخيانة أفكاره وكل ما تربى عليه، أو إنكار صديقه الذي من أجله تخلى عن بيته وأهله وكل شيء؛ المذهول، واليائس (في ذلك الوقت)، الذي أراد التصديق ولم يجد إلى ذلك سبيلاً، وقد أدخله صديقه، المراد، عبر إحدى هذه البوابات الغامضة والخالية من أي حياة إلى حدٍّ يثير الفضول، والتي أمامها رأى الحصان أو الفخ، ودخل إلى مكان يرفضه تماماً عقله الريفي المتزمت وأخلاقه المتعنتة وتبخرت كل معاني الشرف– مكان وجِد لغاية واحدة وهي الشهوة، أحاسيس منفلتة من أي عقال

أو وازع، والفتى الريفي المتمسك بأعرافه البسيطة الراكدة التي تُقسم من خلالها النساء إلى سيدات مجتمع أو عاهرات أو عبدات يؤلههن عرقين ملعونين ويقعن ضحية هذين العرقين في الوقت ذاته– سيدة بوجه مثل ماغنوليا متفجعة، السيدة السرمدية، المعذبة حتى الأزل؛ الطفلة، الصبي، نائماً في الحرير والدانتيل ليكون عبداً كاملاً له، أنجبه، وامتلك جسده وروحه وله حرية بيعهما (إن شاء) كما يبيع عجلاً أو جرواً أو خروفاً؛ المراد يراقب مجدداً، ربما حتى المقامر يراوده الآن سؤال هل فزت أم خسرت؟ وعند عودتهما إلى غرفة بون، عاجزين عن نطق حرف واحد، وحجب الدهاء العصا التي تتكئ عليها تلك الشخصية المتزمتة المحظور عليها إظهار الدهشة أو اليأس، وعليه أن يتكئ الآن (ولا بد) على الانحراف نفسه، الحب؛ لم يستطع التحديد، ‹حسناً؟ ما رأيك؟› لم يسعه سوى الانتظار، على ضوء التصرفات التي لا يمكن التنبؤ بها إطلاقاً لرجل عاش وفقاً لما تقوله الغريزة وليس العقل، إلى أن كسر هنري الصمت، ‹لكن امرأة مشتراة. عاهرة›: وبون، الذي تمسك بنبرة لطيفة حتى الآن، ‹ليست عاهرة. لا تقل ذلك. في الواقع، إياك أن تدعو أياً منهن في نيو أورلينز بهذا الاسم: وإلا فقد تجبر على دفع دمك مقابل شراء حقك بإطلاق هذا النعت من قرابة ألف رجل›، وأردف ربما بالنبرة اللطيفة نفسها، وقد شابها الآن شيء من الشفقة: تلك الشفقة الذهنية التشاؤمية والتهكمية التي يبديها المتعلم إزاء أي ظلم بشري أو حماقة أو معاناة: ‹لسن عاهرات. ولسن عاهرات بسببنا نحن، الألف رجل. نحن– الألف، الرجال البيض– من صنعنهن، خلقنهن وأنتجنهن؛ حتى إننا سنّينا القوانين التي تحدّد أن نوعاً معيناً من الدماء يطغى على سبعة أثمان نوع آخر [17]. أعترف بذلك. ولكن ذلك العِرق الأبيض نفسه جعلهن عبدات أيضاً، عاملات، طاهيات، وحتى عاملات في الحقول، لولا هؤلاء الرجال الألف، هؤلاء القلة من أمثالي المفتقرين إلى أي مبادئ أو شرف حتى، لما كنت ستقول ما قلته. لا نستطيع، ربما لا نرغب أصلاً، بإنقاذهن جميعاً؛ إن أنقذنا ألفاً منهن لا يشكل هذا سوى نسبة واحد بالألف. لكننا ننقذ تلك الواحدة. الرب يرعى كل طير [18]، لكننا لا ندعي أننا الرب. ربما لا نرغب أساساً بأن نكون الرب، فما من إنسان يرغب بأكثر من طير واحد. وربما عندما يتأمل الرب هذه الإنجازات كما رأيت الليلة، لن يختار أياً منا ليكون إلهاً، الآن وقد أصبح عجوزاً. على الرغم من أن الرب كان شاباً في مرحلة ما، حتماً كان شاباً يوماً ما، ولا ريب أن شخصاً عاش عمراً طويلاً كما عاش الرب، ورأى آثاماً فاحشة يندَى لها الجبين تخلو من الرحمة أو القيود أو الحشمة كما يحتم عليه دوره أن يرى، ليتأمل في نهاية المطاف، على الرغم من أن نسبة الحالات لا تصل واحد بالألف ألف، مبادئ الشرف والحشمة والنبل المطبقة بشكل مثالي على الغريزة البشرية الطبيعية التي تصرون على تسميتها أنتم الأنجلوسكسونيون

الشهوة وتعودون أيام السبت أثناء القداديس إلى الكهوف البدائية، السقوط مما تسمونه النعيم الغائم الضبابي الذي تغيّبه كلمات مخففة مبررة تتحدى السماء، العودة إلى النعيم من خلال صرخات الخزي المُثقل بالذل وجلد الذات لتخفيف غضب السماء، فيما لا تلقي السماء في الحالتين– التحدي أو الخزي– بالاً ولا تجد حتى، بعد المرات الأولى أو الثانية أو الثالثة، فيها أي تسلية. ولهذا ربما، وقد صار الرب عجوزاً، لم يعد مهتماً بالشكل الذي نمارس فيه ما تسميه الشهوة. من المحتمل أنه لا يكلفنا بإنقاذ الطائر، لكننا ننقذ الطائر طمعاً بثوابه. لكننا ننقذ تلك السيدة، التي لولانا لَبِيعَت إلى أي مغتصب يملك ثمنها، لا تُباع لليلة واحدة فقط مثل عاهرة بيضاء، وإنما يُباع جسدها وروحها له إلى الأبد ليستغلها دون خوف من أي عقاب قد يطاله كما لو أنه يستغل حيواناً، عِجلة أو مهرة، ثم يهملها أو يبيعها أو حتى يقتلها عندما يقضي وطره منها أو يختل التوازن بين الاحتفاظ بها وسعرها. أجل: طائر أهمله الرب نفسه فسقط. على الرغم من أن الرجال، البيض، قد خلقوها، فإن الرب لم يمنع ذلك. زرع البذور التي صيّرتها زهرة– الدم الأبيض يصنع شكل ولون ما يسميه الرجل الأبيض الجمال الأنثوي، المبادئ الأنثوية الموجودة، مثالية بما يليق بملكة، في الأربيّة الاستوائية الحارّة للعالم قبل زمن طويل من هبوط تلك البيضاء التي أنجبتنا من الغابات وفقدانها شعرها وتخلصها من أي شائبة– مبدأ مناسب وطيّع وغريزي تتخلله ملذات الجلد الغريبة والدفينة والبذيئة (وهي تختصر كل الملذات: فلا ملذات غيرها) هربت شقيقاتها البيضاوات كالفطر البارحة منها مدفوعات بهلع أخلاقي غاضب– مبدأ، يتعين على شقيقاتها البيضاوات تجريبه لجني مكاسب مادية منه مثل شخص يصرّ على نصب طاولة حساب أو ميزان أو خزنة في متجر أو شركة لقاء نسبة محددة من الأرباح، ملكات، مضجعة حكيمة وكلية القوة، من فوق سرير مغطى بالحرير لا تراه الشمس يمثل عرشها. كلا لسن عاهرات. ولا حتى محظيات:– مخلوقات انتُشِلن من طفولتهن، انتُقين ورُبين بعناية تفوق العناية بأي فتاة بيضاء، أي راهبة، بل وأي مهرة هجينة، تحت رعاية شخص يصل الليل بالنهار ليمنحهن اهتماماً كافياً يفوق ما تمنحه الأم لأولادها. من أجل رفع سعرهن، بالطبع، لكنه سعر يُقدم ويُقبل ويُرفض عبر نظام أكثر رسمية من أي نظام تُباع تحت مظلته الفتيات البيض لأن قيمتهن تزداد لكونهن سلعاً وسعرهن يفوق سعر الفتيات البيض، يُربين ويُدربن لتلبية غاية وهدف النساء الوحيد: من أجل الحب، ليكن جميلات، للمداعبة، وبالكاد يشاهدن وجه رجل قبل جلبهن إلى الحفلة الراقصة وعرضهن ليختارهن أحد الرجال الذي بدوره، لا يستطيع ولا يرغب وإنما عليه، أن يوفر لها الأجواء المناسبة لتحب وتداعب وتبرز جمالها، وعليه عادة المخاطرة بحياته أو على الأقل بدمه للحصول على ذلك الامتياز. كلا، لسن عاهرات. أعتقد أحياناً أنهن السيدات الوحيدات الحقيقيات العفيفات، ناهيك عن كونهن عذراوات، في أمريكا، ويبقين صادقات

ووفيات لذلك الرجل ليس فقط حتى وفاته أو بعد تحريرهن، بل حتى موتهن. وأين ستجد عاهرة أو سيدة تضمن أن تكون بذلك الصدق والوفاء؟› وهنري، ‹لكنك تزوجتها. تزوجتها›. وبون– سيكون حديثه أسرع الآن، رغم احتفاظه بنبرته اللطيفة، وصبره، رغم أن الحديد، الفولاذ– المقامر لم يرم بعد ورقته الرابحة الأخيرة: ‹آه. ذلك الحفل. فهمت. هذا ما هو عليه الأمر، إذاً. كليشيه، شعار فارغ مثل لعبة أطفال، يتشدق به ناس أوجدوه ليناسب الظرف العام وليستخدموه مطيّة تحقق مآربهم: عجوز شمطاء تتمتم في زنزانة تضيئها حفنة من الشعر المحترق، ثرثرة بلغة لم تعد تفهمها حتى الفتيات أنفسهن، ولا حتى العجوز نفسها، لغو لا علاقة له بالناحية الاقتصادية لحياتها أو لحياة أي ذريّة محتملة لأننا ببساطة أذعنا، ذقنا مرّ المهزلة، استغلته لإثبات استحالة فرض إقامة الحفل وضمان عدم حدوثه؛ دون نقل أي حقوق جديدة لأي كان، أو إنكار الحقوق القديمة– شعائر تافهة على غرار صبية الجامعة القابعين في غرف سرية ليلاً، حتى بالنسبة إلى الرموز المهجورة والمنسية؟– تسمي ذلك زواجاً، عندما تشتمل إحدى ليالي شهر العسل والممارسات العادية مع عاهرة مؤجّرة على الهيمنة نفسها على (مؤقتاً) غرفة خاصة، تخلع الملابس عينها بالترتيب ذاته، الالتحام نفسه فوق سرير واحد؟ لماذا لا نسمي ذلك زواجاً أيضاً›. وهنري: ‹آه أعرف. أعرف. أنت تقول لي إن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة ولا يساوي خمسة. ولكن ما تزال مسألة الزواج عالقة. لنفترض أنني قطعت عهداً مع رجل لا يتحدث لغتي، قُرأ عليه العهد بلغته وأنا وافقت عليه: هل أنا في حلٍّ من عهدي له لأنني لا أعرف اللغة التي عاهدني فيها بنية صافية؟ كلا: على العكس، عهدي يزداد صلابة›. وبون– طرح ورقته الرابحة الآن، بصوت رقيق: ‹هل نسيت أن هذه المرأة، هذا الطفل، زنجيان؟ أنت هنري ستبن من مزرعة ستبن في المسيسيبي؟ أنت، تتحدث عن الزواج، عن زفاف، هنا؟› وأطلق هنري– اليائس الآن، الصرخة المريرة الأخيرة للحيلولة دون الهزيمة الحتمية» ‹أجل. أعرف. أعرف ذلك. لكن الزواج ما زال قائماً. هذا ليس أمراً صائباً. وحتى حقيقة أنك أنت من تزوجت لا تجعل منه أمراً صائباً. حتى وإن كنت أنت من تزوج›.

«هذا إذاً ما حدث. لا بد وأن هذا كل ما حدث؛ ما حدث عصر ذلك اليوم بعد أربع سنوات كان يجب أن يحدث في اليوم التالي، السنوات الأربع، الفاصل الزمني بينهما، مجرد نهاية مخيبة للأحداث: التخفيف من كارثية النهاية وتأجيلها نضج وجهز، هيّأته الحرب، الضلال الدموي الغبي في المصير العظيم (والمستحيل) للولايات المتحدة، ربما حرّضه تطيّر العائلة الذي تخلله، أثناء كافة الظروف، ذلك العوز الغريب للتوفيق بين القضية والتأثير الذي دائماً ما يكون أحد مزايا القدر عندما يتقزم القدر ليصير مجرد استخدام للكائنات البشرية كأدوات ومواد. على أي حال، انتظر هنري أربع سنوات، محتجزاً

ثلاثتهم في تلك الحالة المعلّقة، ذلك الأسر، منتظراً على أمل، أن يهجر بون المرأة ويحلّ الزواج الذي لم يعترف به (هنري)، والذي عرف حتماً حالما رأى المرأة والطفل أن بون لن يحله. في الحقيقة، مع مرور الوقت واعتياد هنري على فكرة الحفل الذي لا يرقى إلى كونه حفل زفاف، تجسدت مشكلة هنري– وليس الحفلان وإنما السيدتان؛ وليس حقيقة أن نوايا بون تلخصت في الجمع بين زوجتين؛ وإنما في توريط شقيقته (شقيقة هنري) لتكون شريكاً ثانوياً في الحرملك. على أي حال، انتظر عاقداً الآمال لمدة أربع سنوات. وفي ذلك الربيع، اتجها شمالاً، نحو المسيسيبي مجدداً. كانت معركة بول ران [19] قد وقعت وثمّة سريّة تنشط في الجامعة لحشد الطلبة. انخرط هنري وبون. ربما راسل هنري جوديث ليخبرها عن موقعهم وما يعتزمون فعله. انخرطا معاً، كما ترى، راقب هنري بون وغضّ الأخير نظره، الفترة الاختبارية، التحمل: أحدهما لم يجرؤ على جعل الثاني يغيب عن نظره، ليس بدافع الخوف من زواج بون وجوديث وحينها يتعين على هنري قضاء ما تبقى من حياته مع حقيقة أنه كان سعيداً بأنه خُدع شر خداع، مع غبطة الجبان عند الاستسلام حتى قبل أن يُقهر؛ بينما الآخر وللسبب عينه أيضاً، ولأنه لم يقدر على الحصول على جوديث دون هنري لأن الشك لم يراوده قط بأنه يستطيع الزواج من جوديث وقتما يشاء، رغم أنف الأخ والأب معاً، لأن جوديث وكما أسلفت سابقاً، لم تكن من يعشق بون ولا مصدر قلق هنري. كانت مجرد هيئة فارغة، وعاء خاوٍ كافح كلاهما أن يحفظ من خلاله، ليس أوهامه التي يتخيلها عن نفسه ولا عن الآخر وإنما الصورة التي خطط كلاهما لرسمها في مخيلة الآخر– الرجل والشاب، الفاتن والمفتون، عرفا بعضهما البعض حق المعرفة، أغوى وانغوى، كل منهما ضحية الآخر، فاتح أذاقته قوته طعم الهزيمة، مهزوم حطمه ضعفه، قبل دخول جوديث في حياتهما المشتركة حتى عندما كانت لا تعني أكثر من مجرد اسم علم لفتاة. ومن يعرف؟ إنها الحرب الآن؛ من يعرف لكن ما لم تفكر به الفاجعة وضحاياها أو ما لم يأملونه أن الحرب ستسوي المسألة، تحرر أحدهما دون مصالحة، إذ لم تكن المرة الأولى التي ينظر فيها الشاب إلى الفاجعة على أنها تجسيد مباشر للعناية الإلهية للوصول إلى غاية يتيمة وحل مشكلة شخصية لم يستطع الشاب وحده حلها.

«وقالت جوديث: هل من طريقة لتفسير ما حدث لها غير هذه الطريقة؟ بالتأكيد لم يستطع بون زعزعة تسليمها بالقضاء والقدر خلال اثني عشر يوماً، ونأى بنفسه عن محاولة فضّ بكارتها وعن تحريضها على تحدي والدها أيضاً. كلا: يمكن وصفها بأي صفة سوى أنها قدرية تسلم بالقضاء والقدر، حيث إنها نسخة طبق الأصل عن ستبن تحمل قسوة ستبن وتؤمن أن من حق المرء الحصول على ما يشاء طالما أنه يمتلك القوة الكافية، ومن بين الولدين كان هنري نسخة طبق الأصل عن كولدفيلد يحمل فوضوية الأخلاقيات والقواعد

المتعلقة بالخطأ والصواب؛ جوديث التي عندما علا صراخ هنري وتقيأ، نظرت إلى الأسفل من الغرفة العلوية في تلك الليلة لترى ستبن يصارع نصف عارٍ أحد زنوجه الذي كان نصف عارٍ بدوره وراقبت المشهد بالاهتمام البارد المتحفظ نفسه الذي راقب فيه ستبن هنري يصارع صبياً زنجياً بعمره ووزنه. لم تعرف سبب اعتراض والدها على الزواج. هنري لم يخبرها، فيما أحجمتْ عن سؤال والدها. فحتى لو عرفت السبب ما كان لهذا أن يغيّر أي شيء بالنسبة لها. تصرفت كما كان لستبن أن يتصرف مع أي شخص حاول الإساءة إليه: كانت لتتزوج بون على أي حال. ويمكنني تخيلها تقتل المرأة الأخرى لو اقتضى الأمر. ولكنها حتماً لم تتحرَ عما جرى ثم قاست صراعاً أخلاقياً بين ما تريده وأفكارها عما يتعين فعله. لكنها انتظرت. انتظرت أربع سنوات، دون أن تسمع كلمة واحدة منه سوى كلمات قليلة رددها هنري حول أنه (بون) لا يزال على قيد الحياة، لأن هنري لم يسمح لبون بأن يراسلها. ما كان ليسمح له بذلك. وما كان لبون أن يحاول. كانت فترة تجريبية، امتحان للصبر؛ قبل ثلاثتهم خوضه؛ وأستبعد احتمال وجود وعد قطعه أو اقترحه هنري وبون. لكن جوديث، التي لم تعرف ما حدث ولا السبب.– هل فكرت كيف أننا غالباً عندما نحاول إعادة ترتيب الدوافع التي تقف خلف سلوك الرجال والنساء، كيف نجد أنفسنا ويا للدهشة بين الحين والآخر أمام اعتقاد واحد، الاعتقاد الوحيد المحتمل، بأنها دوافع تحركها الفضائل القديمة؟ فاللص الذي يسرق لا يفعل ذلك بدافع الجشع وإنما بدافع الحب، القاتل الذي يقتل لا يرتكب ذلك بدافع الشهوة وإنما بدافع الشفقة؟ جوديث، التي منحت ثقة متوارية عندما طرق الحب باب قلبها، وقدمت الحب المتواري عندما وجدت من يبث فيها الأنفاس والكبرياء، ذلك الكبرياء الحقيقي، وليس الكبرياء المزيف الذي يحوّل ما استعصى فهمه من فوره إلى احتقار وغضب يفرغه بأعمال استفزازية وتحقيرية، وإنما كبرياء حقيقي يمكن أن يقول لنفسه دون ذم أنا مغرمة، لن أقبل أي بديل؛ شيء ما حدث بينه وبين أبي؛ إن كان أبي محقاً، فلن أراه مجدداً، وإن كان مخطئاً فسيعود أو سيرسل في طلبي؛ إن طرقت السعادة بابي فسأفتح لها، وإن كان الألم هو الطارق فبوسعي احتماله. لأنها انتظرت؛ لم تبذل أي جهد للقيام بأي شيء سوى الانتظار؛ علاقتها مع والدها لم تتبدل قيد أنملة؛ ولمن يراهما أن يظن بأن بون لا وجود له إطلاقاً– الوجهان الهادئان الخاليان من أي تعبير يشاهدان معاً داخل العربة في البلدة خلال الأشهر القليلة التالية بعد مرافقة إلين إلى سريرها، بين يوم عيد الميلاد واليوم الذي التحق فيه ستبن بفوج سارتوريس. لم يتحدثا، لم يتبادلا الأخبار، أي إن ستبن لم يبح بما عرفه عن بون؛ وجوديث لم تفصح عن معرفتها بمكان بون وهنري الآن. لا ضرورة ليتحدثا. كانا متشابهين جداً. وكأنهما يتحولان إلى شخصين بين الفينة والأخرى، شخصان بدا أنهما يعرفان بعضهما حق المعرفة أو يشبهان بعضهما كل الشبه لدرجة أن سطوة التواصل والحاجة إليه من خلال الكلام قد

ضمرت بسبب قلة الاستعمال ويفهمان بعضهما دون الحاجة إلى وسيط كالأذن أو العقل، وما عادا يفهمان ما يقوله أحدهما للآخر عبر الكلمات. ولهذا لم تخبره عن مكان هنري وبون وهو لم يكتشف ذلك إلّا بعد مغادرتهما السريّة العسكرية التي تنظم طلاب الجامعة، لأن بون وهنري انخرطا في الجيش ثم تواريا عن الأنظار. لا بد وأنهما اختبآ؛ حتماً توقفا في أكسفورد لمدة كافية للانخراط في الجيش قبل أن يكملا طريقهما، فما من شخص عرفهما في أكسفورد أو في جفرسون كان على علم بأنهما كانا عضوين في السريّة في ذلك الوقت، وإلا لكان من المستحيل تقريباً إخفاء ذلك. لأن الناس صاروا الآن– آباء وأمهات وشقيقات وأقرباء وحبيبات هؤلاء الشبان– يتقاطرون إلى أكسفورد من مناطق أبعد من جفرسون– عائلات معهم طعام ومعدات للنوم وخدم، تقيم بشكل مؤقت بين عائلات وبيوت أكسفورد نفسها، لمشاهدة تمثيلية مفعمة بالشجاعة لموكب الأبناء والأشقاء يسيرون بخطوات عسكرية إلى الأمام والخلف، لإبهارهم جميعاً، أغنياء وفقراء على حدٍّ سواء، أرستقراطيون وطبقة عاملة، بمشاهدة ما قد يكون أكثر مشهد مؤثر لحشد بشري على طول التجربة الإنسانية وعرضها، مؤثر أكثر بكثير من مشهد عذارى سيُقدمن كأضحيات في سبيل رب وثني، ليكن اسمه بريابس [20]– مشهد الشباب، العظام الخفيفة الرشيقة، اللحم والدم الباسلان المغرّر بهما تكسوهما ثياب لامعة وبراقة مزينة بالنحاس والريش، يمشون بخطوات عسكرية نحو ساحة الوغى. وتصدح الموسيقا ليلاً– كمان وتريانتو وسط الشموع المشتعلة، الستائر المتحركة على النوافذ الطويلة المسدلة على عتمة نيسان، تأرجح أقمشة القرينول القطنية الفوضوي داخل ثنية الكم الرمادي السادة الدائرية للزي العسكري للجندي أو داخل الرتبة الذهبية المخططة، لأي جيش في حرب حتى وإن لم تكن حرباً يخوضها نبلاء، حيث يخاطب الجندي والكولونيل بعضهما البعض دون ألقاب لا يعني هذا كما يخاطب مزارع مزارعاً آخر بعد أن يوقف المحراث للحظة في الحقل أو أمام صندوق الحساب في حانوت مثقل بأقمشة قطنية ثقيلة والجبن والزيوت، وإنما كما ينادي رجل رجلاً آخر من فوق أكتاف النساء المنمّقة المغطاة بالمساحيق، من فوق كأسين مرفوعين من نبيذ عنب سكبرننغ الأحمر أو الشمبانيا المشتراة؛– الموسيقا، الفالس الليلي الأخير المكرر على مر الأيام والسريّة تنتظر لتتحرك، البريق التافه الشجاع يلفه الليل الحالك لا يمكن وصفه بأنه كارثي ولكنه يشكل خلفية المشهد فحسب، النبع السرمدي الأخير العطر للشباب؛ وجوديث ليست هناك وهنري الرومانسي ليس هناك وبون المسلّم بالقضاء والقدر، مختبئ في مكان ما، المراقِب والمراقَب: وأوقات الفجر المعطّرة بالأزهار غارقة بزعيق الأبواق في كل يوم من أيام نيسان وأيار وحزيران، والزعيق يخترق مئة نافذة حيث تقبع مئة أرملة بتول لم تُزف

بعد يحلمن دون أن يتأملن في أحلامهن أمام ربطات شعر أسود وبني وأصفر وجوديث ليست إحداهن: وجال خمسة من أعضاء السريّة، معهم عرسان وخدم، مرتدين زيهم الرمادي الجديد النظيف، على متن عربة زراعية في أرجاء الولاية حاملين الراية، ألوان السريّة، قطع من الحرير المطوية دون حياكة، يجوبون المنازل لتغرز حبيبة كل رجل من رجال السريّة بضع غرزات، وهنري وبون لم يكونا جزءاً من هذا أيضاً، لأنهما لم ينضما إلى السريّة إلا بعد مغادرتها، ولا ريب أنهما انبثقا من مكانهما الخفي حيث اختبآ، انبثقا من أجمة دون لفت أي انتباه أثناء توقف العربة لبرهة على جانب الطريق، ليندمجا مع جنود السريّة العابرة؛ الاثنان– الشاب والرجل، الشاب المحروم مرتين حتى الآن من حقوقه العائلية، الذي كان حتماً– وسط الشموع والكمان، القبلات والدموع اليائسة– جزءاً من جوقة حماية الراية التي جالت الولاية حاملة راية غير محاكة؛ والرجل الذي لم يكن هذا مكانه الصحيح أساساً، وأكبر بكثير من أن يكون هناك، أكبر في العمر والتجربة: ذلك اليتيم عقلياً وروحياً الذي قُدِّر له على ما يبدو أن يكون في الأعراف [21] في منتصف الطريق بين مكانه الجسدي والمكان الذي ينشد عقله وروحه أن يكونا– لم يتخرج من الجامعة، أُرغم بسبب ما تراكم عليه خلال سنتين كاملتين على حضور حصص قانون أكاديمية إضافية إلى جانب ستة من زملائه؛ وأُرغم في الحرب، على يد القوة ذاتها على عزلة ضباط الصف. قُلِّد منصب الملازم قبل خوض السريّة اشتباكها الأول. ولا أعتقد أنه رغب بذلك؛ وأتخيل أنه حاول تجنبه، رفضه. ولكن حدث ما حدث، يتمٌ جديد وليد الوضع نفسه الذي كتب عليه الهلاك– الاثنان ضابط ورجل الآن لكن لا يزالان مراقِب ومراقَب، ينتظران شيئاً لا يعرفان كنهه، كلمة القدر، المصير، الحكم القطعي للقاضي أو الحكم بينهما فما من حلول وسطى ولا حلول غير قطعية مرضية– الضابط الملازم الذي مُنح امتيازاً صغيراً مفوضاً يتجلى في قدرته على قول أنت اذهب هناك، على الأقل لمن يتخلّف عن الفصيل الذي يقوده؛ الجندي الذي حمل ذلك الضابط، بعد تلقيه طلقاً نارياً في الكتف، على ظهره حينما تقهقر الفوج تحت سيل طلقات بنادق اليانكي في معركة إنزال بيتسبرغ [22]، حمله إلى بر الأمان فقط كي يراقبه لسنتين إضافيتين، وكتب لجوديث في هذه الأثناء ليخبرها أنهما على قيد الحياة، فقط لا غير.

«وجوديث. كانت تعيش لوحدها حينها. ربما عاشت لوحدها منذ عيد الميلاد في العام الماضي ومنذ سنة أخرى قبل ذلك وأيضاً ثلاث سنوات ومن ثم قبل أربع سنوات، فعلى الرغم من التحاق ستبن بفوج سارتوريس والزنوج– القطيع الجامح الذي بواسطته بنى مزرعة ستبن– لاحقوا طليعة قوات اليانكي التي عبرت جفرسون وعاشت كل شيء ما عدا العزلة، حيث إلين في السرير داخل الغرفة الموصدة، تحتاج إلى عناية منتظمة مثل الأطفال أثناء انتظارها

للموت وهي في حالة من عدم الفهم الذاهل والسلبي؛ وحرصت (جوديث) وكليتي على إبقاء حديقة المطبخ على أفضل حال ليظلوا على قيد الحياة؛ ووش جونز، الذي كان يعيش في مخيم صيد مهجور ومتعفن في أسفل النهر بناه ستبن بعد دخول أول امرأة –إلين– إلى بيته ومغادرة آخر صيادي الغزلان والدببة، حيث بات الآن من المسموح لووش وابنته والحفيدة الرضيعة بالعيش، لتولي مهام البستنة الشاقة لتوفير السمك بين الحين والآخر لكل من إلين وجوديث ومن ثم جوديث، وصار من المسموح له حتى دخول المنزل بعد رحيل ستبن إذ كان من المحظور عليه الاقتراب من المنزل بعد عريشة عنب السكبرننغ خلف المطبخ حيث كان يشرب مع ستبن في عصر أيام الآحاد من غالون كبير ومن دلو المياه العذبة التي يجلبها ووش من نبع يبعد قرابة الميل عن الدار، ستبن جالس على الأرجوحة المصنوعة من الأضلاع الخشبية للبراميل متحدثاً بينما ووش جالساً القرفصاء أمام إحدى الدعامات، يضحك ويقهقه؛– لم تكن في عزلة وحتماً لم تعاني من الضجر: الوجه العصي على الفهم الساكن نفسه، غير أن علامات التقدم في السن باتت أوضح، وصارت أنحل قليلاً، شاهدها سكان البلدة بصحبة والدها داخل العربة بعد أسبوع من الأخبار التي وردت حول ترك خطيبها وشقيقها للمنزل تحت جنح الظلام واختفائهما، لم يعرف أحد لماذا فعلا ذلك وما هي وجهتهما، وما من أحد طرح هذه الأسئلة، كما لا يطرح أحد أي سؤال عندما تأتي إلى البلدة الآن، مرتدية الفستان الذي أعادت حياكته كما تعيد كل النسوة الجنوبيات الآن إعادة حياكة فساتينهن القديمة، في العربة ذاتها غير أن بغلاً واحداً فقط يقودها الآن، بغل حراثة، وسرعان ما اختفى بغل الحراثة والسائس ولم يعد هناك من يقودها، ويضع اللجام على البغل ويخرجه، للانضمام إلى النساء الأخريات– كان هناك جرحى في جفرسون حينها– في المستشفى الميداني حيث (البتول المؤدبة، المثالية على نحو تقليدي وسامٍ) نظفوا وجهزوا الجثامين المضرّجة بدمائها لغرباء مصابين قضوا نحبهم وصنعوا الضمادات من الستائر وأغطية الأسرّة والكتان الموجود في المنازل التي ولدوا فيها؛– لم يسألها أحد عن شقيقها وحبيبها لانشغالهم بأحاديث عن الأبناء والأشقاء والأزواج بعيون طافحة بالدمع والحزن تفيض باليقين والمعرفة؛ انتظرت أيضاً، مثل هنري وبون، جاهلة بما تنتظره، لكن بخلاف هنري وبون، لم تعرف لماذا عليها أن تنتظر. ثم ماتت إلين، فراشة الصيف المنسية بعد سنتين من اعتزالها الحياة– القوقعة الجوفاء، الظل العصي على التغيير أو التحلل بسبب خفته: لم يكن هناك جثة لدفنها: مجرد شكل خارجي، ذكرى، دُفنت في عصر يوم هادئ من دون قرع الأجراس أو تسجيتها على منصة النعش إلى بستان أرز، لترقد في مفارقة خفيفة كريشة الطائر تحت نصب تذكاري رخامي بلغت تكلفته ألف جنيه جلبه ستبن (الذي صار الكولونيل ستبن الآن بعد خلع سارتوريس خلال الانتخابات السنوية لضباط الفوج التي جرت قبل عام) في عربة الفوج الزراعية من

مدينة تشارلستون في جنوب كارولاينا ونصبه فوق تجويف عشبي باهت قالت له جوديث إنه قبر إلين. ومن ثم توفي جدها، جوعاً حتى الموت في علّيته التي حبس نفسه داخلها وأوصد بابها بيديه بالمسامير، ودعت جوديث بالتأكيد الآنسة روزا للإقامة في مزرعة ستبن ورفضت الآنسة روزا، وانتظرت أيضاً على ما يبدو هذه الرسالة، الرسالة الأولى المباشرة من بون على مدى أربع سنوات والتي، بعد أسبوع من دفنه أيضاً إلى جوار شاهدة قبر والدتها، أحضرتها إلى البلدة بنفسها، بواسطة عربة ذات مقعدين يجرها البغل الذي تعلمت هي وكليتي كيفية إمساكه وتركيب اللجام عليه، وأعطت لجدتك، الرسالة طواعية، وتوقفت (جوديث) عن زيارة الجميع، لم يعد لديها أي أصدقاء، بلا أدنى إدراك منها لسبب اختيار جدتك لإعطائها الرسالة تماماً مثل جدتك التي لم تعرف سبب اختيارها دون غيرها؛ لم تكن نحيلة الآن وإنما هزيلة، ويمكن رؤية جمجمة ستبن الآن من خلال لحم آل كولدفيلد المتآكل الوجه الذي نسي الشباب طريقه إليه من زمن بعيد لكنه احتفظ بقدرته على إخفاء أي مشاعر، وبمنتهى السكينة والهدوء: دون حداد، ولا حتى حزن، وقالت جدتك: ‹أنا، تطلبين مني أنا أن أحتفظ بالرسالة؟›

«قالت جوديث: ‹أجل، أو اتلفيها. كما تشائين. اقرئيها لو أحببتِ أو لا تفعلي. الإنسان يخلّف وراءه أثراً طفيفاً. تأتي إلى الحياة وتحاول ترك بصمتك لسبب تجهله وتثابر على المحاولة وتبصر النور للمرة الأولى في اللحظة نفسها التي يبصر فيها آخرون النور، ويندمج الجميع، يحاولون، فما من مناص إلا أن تحاول، خيوط تحرك ذراعيك وساقيك وتحرك أذرعهم وسيقانهم الخيوط عينها والآخرون كلهم يحاولون لسبب لا يدركون كنهه أيضاً سوى أن الخيوط كلها متشابكة مع الآخرين خمسة أو ستة أشخاص يسعون جميعاً لنسج سجادة باستخدام النول نفسه لكن كل واحد فيهم يحاول نسج تصاميمه الخاصة؛ لا يمكن لذلك أن يكون بذي أهمية، أنت تدركين ذلك، ولا أهمية أيضاً لمحاولات مَن صنعوا النول ترتيب الأمور بطريقة أفضل، لكن لا بدّ وأن يكون هناك أهمية ما لأنك تواظبين على المحاولة أو عليك المواظبة على فعل ذلك ثم وفجأة ينتهي كل شيء ولا يتبقى سوى شاهدة حجرية وبضعة حروف منقوشة توحي بأن هناك من مرّ في هذه الحياة وهناك من أحيا ذكراه ونقش اسمه على الرخام وخصص بعض الوقت لبناء الضريح، تمرّ الأيام فتبلله قطرات المطر وتسفعه أشعة الشمس ويعجزون بعد فترة عن تذكر الاسم والتكهن بما تشير إليه الحروف المنقوشة، وهذا أيضاً بغير ذي أهمية. وهكذا ربما لو أتيح لك اللجوء إلى أحدهم، وبقدر ما يكونون غرباء بقدر ما يكون هذا أفضل، وتعطيهم شيئاً ما– قصاصة من الورق– شيئاً ما، أي شيء، لا يعنيهم الأمر في شيء ولا يهتمون لقراءته أو الاحتفاظ به، ولا يتكبدون حتى عناء رميه أو إتلافه، ولولا حدوث ما حدث لما كانوا سيلتفتون للأمر برمته، ولن

يتذكروه ولن يتذكروا حتى الأيادي التي تناقلت القصاصة، ولا انتقالها من عقل إلى آخر، وستكون محض خربشة لا أكثر ولا أقل، شيء، شيء قد يترك علامة على شيء ما وجِد ذات يوم لأن الموت مصيره، بينما الشاهدة الحجرية لا يمكن أن توجد لأن الموت أو الفناء لا يمكن أن يطالها ومن المحال أن يقال إنها وجِدت....› وقالت جدتك باكية وهي تراقبها، تراقب الوجه المنيع والساكن كحجر:

«‹كلا! كلا! لا تفكري بهذا! فكري بـ ———› الوجه يراقبها، يستوعب، لا يزال هادئاً، خالياً من أي مرارة:

«‹آه. أنا؟ كلا، لا أفكر بالانتحار. ثمّة من يتوجب عليه الاعتناء بكليتي وأبي أيضاً في القريب العاجل، لأنه سيطالب بما يسدّ رمقه عند العودة إلى المنزل لأن الحرب لن تستمر أطول من ذلك لأنهم بدؤوا بإطلاق النار على بعضهم البعض الآن. كلا. ليس ذلك. النساء لا ينتحرن بدافع الحب. ولا أعتقد أن الرجال يفعلون ذلك بدافع الحب أيضاً. وليس الآن، على أي حال. لأنه لن يكون هناك أي ملاذ تلجئين إليه حينها، أي ملاذ مهما كان، ولا أي ملاذ. سيكون هناك من سبقوك إليه. الملاذات متخمة. ستجدين المسارح ودور الأوبرا تغصّ بروادها، إن كان ما تنشدينه هو النسيان والإلهاء والتسلية؛ الأسرّة ترزح تحت ثقل من يستلقون عليها إن كان ما تصبين إليه هو الاستلقاء والنوم والنوم والنوم›——» تحرك السيد كمبسن. همّ بالوقوف، أخذ كونتن الرسالة منه وعلى ضوء المصباح الخافت المغطى بالحشرات فتحها بحذر، كما لو أن الورقة، المربع المجفف، لم تكن مجرد ورقة وإنما رماداً نقياً لشكلها وجوهرها السابقين: وفي هذه الأثناء واصل السيد كمبسن حديثه لكن كونتن لم يكن يعره أي آذانٍ صاغية: «الآن يمكنك أن تفهم لماذا قلت إنه أحبها. لأن هناك رسائل أخرى، رسائل كثيرة، رسائل غزل منمّقة ومكررة وكاذبة وبليدة، أرسلت باليد لتقطع الأربعين ميلاً بين أكسفورد وجفرسون بعد عيد الميلاد الأول– دماثة حضرية مثقلة بإشارات إطرائية فارغة وناعمة (هو لا يعني أي شيء منها بالتأكيد) موجهة للعذراء الريفية– وتلك العذراء الريفية، تتمتع بفطنة النساء الاستشرافية الصبورة والهادئة والعميقة العصية على التفسير والتي يغدو أمامها الموقف المبتذل للهمام الحضري مجرد هذر فتى حقير مزهو بنفسه، تستلم الرسائل دون فهمها، وحتى دون تكبد مشقة الاحتفاظ بها، بسبب ما تضمنته من تراكيب واستعارات أنيقة تدور حول نقطة واحدة منمّقة إلى حد يبعث على الضجر، إلى أن تصل الرسالة التالية. بيد أن احتفاظها بهذه الرسالة التي دون ريب وصلتها على حين غرة بعد انقطاع دام أربع سنوات، واعتبار أنه من الأجدى إعطاءها إلى شخص غريب قد يحتفظ بها وقد لا يفعل، قد يقرأها أو لا يقرأها وفقاً لأهوائه، لحفر ذلك النقش، لوشم ذلك الأثر الأبدي على الوجه المصمت للنسيان، النسيان المحتوم علينا جميعاً،

الذي تحدثتْ عنه——»؛ استمع كونتن دون إصغاء أثناء قراءة النص المكتوب بخط رفيع دقيق وكأن ظلاً كتبه من خلال إسقاط خياله على الورقة ولم تكتبه يد سرت فيها الحياة يوماً ما وتشكل الظل على الورق قبل ثانية من رؤيته لها وقد يتلاشى ويختفي في أية لحظة من اللحظات التي ينظر فيها إلى الرسالة: اللسان الميت يتحدث بعد أربع سنوات ثم بعد قرابة خمسين عاماً، لسان نبيل ساخر لعوب مغرق في التشاؤم، غير مُذيَّلة بأي تاريخ أو تحية أو توقيع:

ستلاحظين أنني لم أوجه أية إهانة لأي منا حتى من خلال الادعاء بأن هذا صوت شخص مهزوم، ناهيكِ عن كونه شخصاً ميتاً. في الحقيقة، لو كنتُ فيلسوفاً لاستنتجت واستنبطت رأياً ملائماً مثيراً للفضول حول أزمنة وتباشير المستقبل من خلال هذه الرسالة التي تحملينها الآن بين يديكِ– قصاصة من ورق الرسائل الفاخر، كما تلاحظين من العلامة المائية الموجودة، فرنسي الصنع يعود تاريخه إلى سبعين عاماً مضى، تم إنقاذها (سرقتها لو أحببتِ) من القصر المهدم لأحد الأرستقراطيين المنكوبين؛ وكُتبت بأفضل أنواع طلاء الأفران المُصنَّع قبل اثني عشرة شهراً على الأقل في نيو إنغلاند. أجل. طلاء أفران. لقد استولينا عليه: تلك قصة لوحدها. تخيّلينا، حشوداً من الفزاعات المتجانسة، ولن أقول الجائعة لأنه وبالنسبة إلى امرأة، إلى سيدة أو حتى أنثى، موجودة تحت خط ماسون– ديكسون [23] في هذه السنة المباركة 1865، تبدو هذه الكلمة مجرد حشو، مثل قول إننا نتنفس. ولن أقول حشوداً حافية القدمين أو ترتدي أسمالاً بالية، فقد كنا كذلك لفترة كافية لجعلنا نعتاد على ذلك، لكن، لله الحمد (وهذا يعيد إيماني ليس بالطبيعة البشرية ربما وإنما على الأقل بالإنسان) وبأنه لا يتأقلم مع ظلف العيش والعوز: العقل فقط يتأقلم، الروح السافرة النهمة للجيف هي من تتأقلم؛ الجسد نفسه، ولله الحمد، لا يشفى قط من الإحساس القديم الرقيق بالصابون والكتان النظيف وشيء يفصل بين أخمص القدم والأرض يميز قدم الإنسان عن حوافر الحيوانات. ولهذا فلنقل إن ما نحتاجه هو الذخيرة. وتخيّلينا، فزاعات تتأبط تلك الخطط المدبّرة لتثبيط الفزاعات والتي لا مفر من نجاحها وقد نجحت بالفعل، لعدم وجود أي مجال على الإطلاق لأي بديل آخر أمام الإنسان أو السماء، لن يجد مكاناً يتسع له فوق الأرض أو تحتها لإخفاقه في إيجاد فرصة للاستراحة أو لالتقاط أنفاسه أو لدفنه وإنزاله في قبره؛ ونحن (الفزاعات) ننفذ الخطة بحماسة كبيرة، إن لم نقل بجلبة؛ تخيلي، أنا أقول، الفريسة والجائزة، العربات العشر المتخمة لموردي المؤن العزّل، فزاعات تترجل من صندوق جميل بعد صندوق جميل بعد صندوق جميل ونُقش فوق كل صندوق الحرفان الأولان من كلمتي الولايات المتحدة ومنذ أربع سنوات وحتى الآن باتت هذه الصناديق تمثل لنا رمزاً للغنائم التي نجنيها من المهزومين، رمز أرغفة الخبز والسمك الذي باركه الجبين الساطع، الهالة النورانية المشعة

لإكليل الشوك؛ والفزاعات تنقض على الصناديق وتنهال عليها بالأحجار والحراب وحتى بأيديها العارية وتفتحها أخيراً لتجد– ماذا؟ طلاء أفران. غالونات وغالونات وغالونات من أفضل أنواع طلاء الأفران، لا يزيد عمر أي صندوق منها عن عام واحد ومع ذلك يواصلون حتماً سعيهم لاستباق الجنرال شيرمان [24] لإصدار أوامر ميدانية تأخرت كثيراً لطلاء الأفران قبل إطلاق النار على المنزل. كيف ضحكنا. أجل، ضحكنا، لأنني تعلمت هذا على الأقل أثناء هذه السنوات الأربع: بأن الأمر يتطلّب بالفعل معدة فارغة لتضحك، وأنه فقط عندما تكون جائعاً أو مذعوراً تستخلص بعض الأمور الجوهرية الأساسية من الضحك تماماً كما تستخلص المعدة الفارغة الجوهر الأساس من الكحول. ولكن كان لدينا على الأقل طلاء أفران. الكثير منها. الكثير الكثير، لكن لا أحتاج إلى الكثير منه لقول ما عليّ قوله، كما تلاحظين. وهكذا فإن الخلاصة والنبوءة التي فكرت بها، رغم أنني لست فيلسوفاً، هي التالي:

لقد انتظرنا وقتاً كافياً. وستلمسين بنفسك حقيقة أنني لا أهينك أيضاً حين أقول إنني انتظرت بما فيه الكفاية. ولهذا، ونظراً إلى أنني لا أهينك من خلال قولي بأنني انتظرت، ودون أن أضيف، توقعي حضوري. إذ إنني لا أستطيع تحديد الوقت الذي سأحضر فيه. لأن ما كان هو شيء واحد، والآن أزيح عن طريقنا لأنه ميت، مات في العام 1861، ولهذا ما يكون –(ها هم قد بدؤوا إطلاق النار مجدداً. وذكر هذا حشو أيضاً، مثل التنفس أو الحاجة إلى الذخيرة. لأنني أفكر أحياناً بأن وقف إطلاق النار لم يتوقف على الإطلاق. لم يتوقف بالتأكيد؛ ليس هذا ما أرمي إليه، قصدي أنه لم يعد هناك المزيد من إطلاق النار، زأر ذاك الوابل من الرصاص قبل أربع سنوات عندما سمع أزيزه لأول مرة ثم سكت، تسمّر فوق بندقية مشرّعة إثر فوهة بندقية مشرّعة، جمّده السلوك الصقيعي لدهشته المذعورة ولم يتكرر الأزيز بعدها ولا نسمع الآن سوى الصدى المدوي المذعور المرتجف أمام بندقية رماها الحارس المنهك أو أمام تهاوي الجسد الخائر نفسه، المختنق المحتاج للهواء القابع فوق الأرض حيث سُمع الوابل للمرة الأولى وحيث يتعين عليه أن يبقى لأنه ما من مكان تحت السماء يستقبله. إذاً، إنه الفجر مجدداً وعليّ أن أتوقف. التوقف عمّاذا؟ ستسألين نفسك. لماذا، تفكرين، تتذكرين– لاحظي أنني لم أقل، تأملين–؛ بأن تختفي الحدود أو الأمكنة مجدداً لفترة من الزمن، رفاق بلا عقل ولا منطق ونزيل سجن الجسد، الذي لا يزال وحتى بعد مرور أربع سنوات، وبدافع من الإخلاص الكئيب المعاند المحبب إلى قلبي أيما تحبب، يرتعش ويرتبك بوضوح أمام فيض ذكريات واستعادات لسلام ورضا قديمين ونهر من الأسماء ذاتها التي لا أدرك أنني أتذكر رائحتها وأصواتها، جسد يتجاهل وجود أشلاء ذراع أو ساق والخطر الذي تشكله هذه الأشلاء كما لو أنه موعود بوعد سري قاطع ومأخوذ بيقين الخلود. —— لكن لأختم.) لا يمكنني تحديد موعد

قدومي. لأن ما يكون هو شيء آخر مجدداً لأنه لم يكن حياً حينها. ولأنك تمسكين من خلال هذه القصاصة بأوج الجنوب القديم الذي مات، والكلمات التي تقرئينها كُتبت عن أفضل حُلّة للشمال الجديد (كل صندوق ادعى بأنه، الأفضل) الذي هزم وعليه، شاء أم أبى، أن ينجو، وأؤمن الآن أنك وأنا، ويا للغرابة، مشمولان بمن لعنوا بالبقاء على قيد الحياة.

«وكان هذا كل شيء» قال السيد كمبسن. «استلمت الرسالة وباشرت وكليتي بتحضير ثوب الزفاف والإكليل مستعينتين بمخلفات الأقمشة– مخلفات كتانية مجهّزة لتكون بطانات فساتين، لكنها لم تُستخدم للغرض المقرر لها. لم تعرف موعد قدومه لجهله هو نفسه لموعد مجيئه: وربما أخبر هنري، وأطلع هنري على الرسالة قبل إرسالها، أو لا؛ ربما لم يفعل شيئاً سوى المراقبة والانتظار، أحدهما يقول لهنري لقد انتظرت بما فيه الكفاية وهنري يقول للآخر هل ستتخلى عنهما؟ هل تتخلى؟ والآخر يقول لن أتخلى. قد منحت المصادفة منذ أربع سنوات وحتى الآن الفرصة للتخلي عني، ولكن يبدو أنني ملعون بمواصلة العيش، أنا وهي ملعونان بالتنفس:– التحدي والإنذار الأخير الذي وجِّه بالقرب من النار التي أشعلوها للمبيت، الإنذار الأخير الذي وجِّه أمام البوابة التي باتجاهها مشى الاثنان جنباً إلى جنب على صهوة جواديهما: أحدهما هادئ وثابت، دون أي مقاومة، المؤمن بالقضاء والقدر حتى آخر رمق؛ الآخر المستعصي على التوبة المعجون بحزن ويأس مقيمين لا شفاء منهما—» (بدا لكونتن أن بوسعه رؤيتهما، يواجهان بعضهما البعض عند البوابة. داخل البوابة ما كان يوماً حديقة غنّاء وأضحت الآن خرابة مهجورة، عشوائية يسودها دمار عارم، ويسري فيها هواء حالم بعيد ومذعور مثل وجه غير حليق لرجل استفاق للتو من تأثير المخدر، ثم الدار الكبيرة حيث انتظرت فتاة شابة ترتدي فستان زفافها المصنوع من خرق الأقمشة المسروقة، يسري في البيت أيضاً هواء الخراب المتكاثر، لم يطله الغزو وإنما عزلة موحشة ونُسي في المياه الآسنة للفاجعة– هيكل عظمي ستر نفسه بقطعٍ قليلة من الأثاث والسجاد؛ والكتان والفضة، لمساعدة الرجال الممزقين المفزوعين على الموت، مدركين أثناء احتضارهم أن التضحيات والعذابات التي ذاقوها كانت كلها بلا جدوى. واجها بعضهما البعض على الحصانين المنهكين، رجلان، شابان، لم يريا شيئاً بعد من العالم، ولم تمتلئ رئتاهما بما يكفي من الهواء، سيصيران كهلين لكن عينيهما طاعنتان في السن منذ الآن، شعرهما أشعث ووجهاهما مرهقان ذابلان كما لو أنهما قُدّا بيدِ ناسك بخيل من البرونز، ذاويان شاحبان كالرماد مثل ألوان ورق الشجر الميت، بهت التطريز على زي الضابط بينهما، والآخر يرتدي سروالاً ذا طيات، المسدس داخل السرج غير مصوّب إلى أي جهة، الوجهان هادئان، لم يعلُ صوتهما: إياك أن تتخطى ظل هذه السارية، فرع الشجرة هذا، يا تشارلز؛ سأتخطاه يا هنري)

«—— ثم وضع ووش جونز ذلك السرج أمام بوابة الآنسة روزا، صرخ منادياً باسمها عبر الشارع المشمس والهادئ والمسالم، قائلاً ‹هل أنتِ روزي كولدفيلد؟ من الأفضل أن تخرجي. هنري أطلق النار على ذلك الفرنسي اللعين. أرداه قتيلاً كما لو كان بقرة››

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–5–

حتماً أخبروك كيف طلبت من المدعو جونز أن يأخذ البغل الذي لم يكن بغله إلى الحظيرة ويعقله إلى عربتنا بينما أرتدي قبعتي وأقفل باب المنزل. لم أحتج لفعل أكثر من ذلك لأنه كما أخبروك بالتأكيد أنه لم يكن هناك أي داعٍ لحزم حقيبتي أو كيس ثيابي لأن كل ملابسي حينها، الملابس التي لحسن حظي ورثتها من لطافة عمتي أو عجلتها أو بُعد نظرها اهترأت منذ زمن بعيد، ولم أكن أملك وقتها سوى تلك التي كانت إلين تتذكر منحي إياها بين حينٍ وآخر، وكان قد مرت سنتان على وفاة إلين؛ لهذا لم أحتج سوى لإغلاق باب المنزل وشغل مكاني في العربة وقطع تلك الأميال الاثنتي عشرة التي لم أقطعها منذ رحيل إلين، جلست إلى جانب ذلك المتوحش الذي حُظر عليه قبل وفاة إلين الدخول إلى المنزل من بابه الأمامي– السليل المتوحش لأسلاف متوحشين والذي حلت حفيدته مكاني، ليس فقط في منزل أختي بل وفي سريرها الذي (كما أخبروك) أملتُ بأن أنام عليه– ذلك المتوحش (أداة متوحشة للعدالة الموجِّهة لدفة الأحداث الإنسانية التي، تبدأ من الفرد، وتتابع بسلاسة، بلا جروح ولا مخالب: ولكنها، تستمد وقودها من استهزاء رجل أو امرأة، تواصل مسيرها مثل الفولاذ الناري وتتحكم بمصير الاثنين، عدالتها هشة وظلمها جبّار، تقهر الغالب والضحية البريئة دون تفريق بينهما، لا ترحم من يهدّد الصواب والحقيقة المتعارف عليهما) المتوحش الذي لم يدر فقط دفة الأشكال والأطياف المختلفة لقدر توماس ستبن الشيطاني بل وكان أيضاً جد اللحم الأنثوي الذي سيدفن فيه ستبن اسمه وسلالته– ذلك المتوحش الذي ظن أنه أدى دوره المحتوم بصراخه في الشارع أمام بيتي متحدثاً عن دماء ومسدسات، الذي حسب أن أي معلومة إضافية قد يطلعني عليها ستكون هزيلة وسخيفة وفي غير مكانها ومن أولوياته الآن أن يبصق بقايا التبغ في فمه، وعجز على طول الاثني عشر ميلاً عن إخباري بما حدث.

وأخبروك كيف قطعت تلك الأميال الاثني عشر مجدداً بعد سنتين من وفاة إلين (أو بعد أربع سنوات من اختفاء هنري أو تسعة عشر عاماً منذ رأيت النور للمرة الأولى وشهقت شهقتي الأولى؟) غافلة تماماً عما حدث، لم أعرف شيئاً سوى هذا: سُمع صوت طلق ناري، ضعيف وبعيد ويصعب تحديد مصدره أو مكانه، سمعت الطلق الناري سيدتان، سيدتان وحيدتان في المنزل العفن الذي لم تطأه قدم رجل منذ سنتين– طلق ناري، تخمين مصعوق للسيدة المنكبة على القماش والإبر، ثم صوت قدمين، في الرواق ثم على الدرج، هرولة، صوت قدمي رجل مستعجل: لم يتسنَّ لجوديث الوقت سوى بأن تلتقط الفستان غير المكتمل وترفعه أمامها لحظة فتح الباب ورؤية أخيها، القاتل المتوحش الذي لم تره منذ أربع سنوات وظنت (إن كان ما يزال حياً

يرزق) أنه على بعد ألف ميل عنها: الطفلان الملعونان اللذان حلّت عليهما في تلك اللحظة أولى ضربات تاريخهما الشيطاني، تبادلا النظرات بينهما فستان الزفاف المرفوع غير المكتمل. قدتُ العربة على طول الأميال الاثني عشر، إلى جوار حيوان تجرأ على الوقوف في الشارع أمام منزلي صائحاً بهدوء كسر العزلة العتيدة المنصتة أن ابن أختي قتل للتو خطيب شقيقته، ولم يكلف نفسه عناء إرغام البغل على العودة إلى الطريق الصحيح لأنه ‹ليس بغلي ولا بغله ولأنه لم يذق لقمة هانئة واحدة منذ نفاد الذرة في شباط›؛ عاد البغل أخيراً إلى الطريق ووصلنا إلى البوابة الصحيحة، أوقف البغل وقال وهو يبصق ويشير بالسوط ‹حدث هناك›– صرخت ‹ما الذي حدث هناك أيها الأحمق؟› وقال: ‹حدث› ثم أخذت السوط منه ووضعته في يدي وضربت البغل.

بيد أنهم لم يخبروك كيف استلمت زمام القيادة، مررت بقبر إلين المهدم الذي غطته الأعشاب والأزهار الميتة ووصلت إلى الدار، القوقعة، (وكما أظن) سرير الزوجية تابوت الشرنقة والشباب والحزن، ووجدت أنني لم أصل متأخرة كما حسبت، وإنما مبكرة جداً. لم ينل الخراب أو الهدم من الرواق ذي الأعمدة والجدران المتقشرة المنتصبة، لا أثر لأي طلق ناري ولا لكعب حذاء عسكري حديدي، انتصبت الأعمدة كما لو أنها متأهبة لحدث جلل أكثر خطورة: لخراب لا يبقي على شيء ولا يذر، كما لو أنها منتصبة في مواجهة لهب حديدي، محرقة لا تكتفي من اللهب والحقد، نيرانها مستعرة محشورة لا تقوى على التهام الهيكل العظمي الحصين والمنيع ولا على تجاوزه، في اللحظات الأخيرة للأزمة؛ الغارة؛ كان هناك درجة واحدة، لوح خشبي يتيم لم يطله العفن اهتزّ تحت دعستي (أو كاد لو لم أجتزه بسرعة وخفة) ركضت ودلفت إلى المدخل الذي هجره السجاد منذ زمن بعيد والسرير والطاولة اللذين لم يفترشهما الكتان منذ فترة طويلة، وتراءى لي وجه ستبن وأدركت عندما صرخت ‹هنري! هنري! ما الذي فعلته؟ ما الذي يحاول ذلك الأحمق قوله؟ إنني لم أصل بعد فوات الأوان كما اعتقدتُ وإنما قبل الأوان بكثير. لأن الوجه الذي تراءى لي لم يكن وجه هنري. كان وجهاً يشبه وجه ستبن إلى حدٍّ بعيد، لكن لم يكن وجهه؛ لمحت وجه ستبن الأسمر بلون القهوة على نور المصباح الخافت يقف على الدرج ليعيق تقدمي: خرجت راكضة إلى أصيل عصر ذلك اليوم وبدا النور ساطعاً في الخارج، غرقت في الصمت المدوي لذلك المنزل الكئيب، لم أستطع رؤية أي شيء في البداية: ثم تدريجياً رأيت الوجه، وجه ستبن لم يقترب، ولم ينبثق من الظلام، كان هناك بالفعل، وجه حجري ومصمت سابقاً للزمن والمنزل والهلاك وكل شيء، منتظراً (آه نعم، لقد أحسن الاختيار؛ لقد أجاد الاختيار، أنجب من يشبهه ليكون سيربروس البارد حارساً لجحيمه)– الوجه الذي لا جنس له ولا عمر ولم يكن له يوماً أياً

منهما: وجه أبي الهول نفسه الذي حملته منذ ولادتها، الذي نظرت من خلاله إلى الأسفل من حيث وقفت في الطابق الثاني تلك الليلة إلى جوار جوديث والذي لم يتغير قيد أنملة حتى بعد أن صارت الآن في الرابعة والسبعين، يحدق بي دون أن يتغير، لم يطله أي تغيير على الإطلاق، كما لو أنها عرفت اللحظة التي سأدلف فيها إلى المنزل، انتظرت هناك ريثما أقطع الأميال الاثني عشر خلف ذلك البغل المتبختر وراقبتني أقترب أكثر فأكثر وأعبر الباب أخيراً كما لو أنها عرفت (ويحي، ربما كان ذلك محتوماً، إذ توجد تلك العدالة التي لا يفرّق فيها كرش مولوخ [26] النهم بين اللحم الغضّ واللحم القاسي) إنني سأدخل– الوجه جمّدني وأماتني (ليس جسدياً: جسدي واصل اقترابه، هرولته: لكن أنا، نفسي، ذلك الوجود العميق لكينونتي، والذي تغدو فيه حركة الأطراف مجرد تخبط أخرق بطيء مثل مجموعة من الآلات الموسيقية النافلة التي تعزف كالهواة ألحاناً حادة ناشزة غير منسجمة مع زمن اللحن نفسه) في تلك الردهة الفارغة ذات الدرجات العارية (اختفت تلك السجادة أيضاً) صعدت الدرجات لألج الردهة العلوية المعتمة حيث تردد صدى صوتٍ لم يكن هذا صدى صوتي وإنما صدى الجمود الضائع الرابض في المنازل والجدران المغلقة التي يشيدها البشر، لا لتكون مأوى وملاذاً يقيهم من البرد، وإنما للاحتماء داخلها من أنظار العالم الفضولي والمنزلقات المظلمة التي تسوقها أوهام الشباب الأزلية، أوهام الكبرياء والأمل والطموح (آه، والحب أيضاً). ناديت ‹جوديث! جوديث!›

لا مُجيب. لم أنتظر أي مُجيب؛ ربما لم أنتظر حينها أي جواب حتى من جوديث، مثل أي طفل، يستنجد بأبويه قبل استيعابه التام للذعر المتربّص، رغم معرفته بأنهما (قبل أن يقوّض الذعر تقييمه لمدى خطورة الوضع) ليسا هنا ليسمعانه. لم أكن أنادي على شخصٍ بعينه، على شيء محدد، ولكني (حاولت عبر الصراخ) أن أنادي من خلال شيء ما، من خلال تلك القوة، تلك العداوة الشرسة الرابضة والراسخة كالصخر التي أوقفتني– ذلك الحضور، ذلك الوجه المألوف الحنطي، ذلك الجسد (القدمان العاريتان الحنطيتان الثابتتان الجامدتان فوق الأرضية العارية، الدرج الملتف وراءها تماماً) يماثل حجم جسدي، سمّرت نظرها علي (لم تزح نظرها عني لأنها لم تكن تنظر إلي وإنما من خلالي، وعلى ما يبدو كانت شاردة في مستطيل الباب المفتوح الساكن الذي اقتحمتُه) مدّت جسدها وكأنها ترنو لشيء ما– لم تكن ترنو نحو روح، أو نَفْس، وإنما وبانتباه شديد وإصغاء ذاهل نحو شيء عجزت أنا نفسي عن سماعه وليس من المُقدَّر عليّ سماعه– إدراك وإذعان متوجس لشيء غيبي مبهم موروث من عِرق أقدم وأنقى من عِرقي، شيء ولد واستُحضر وتشكل في الأثير بيننا واعتقدتُ أنني جئت لأجده (أو بالأحرى، عليّ إيجاده، ولولا تنفسي ووقوفي هناك، لأنكرت أنني ولدت أصلاً): – غرفة النوم العفنة

الموصدة منذ زمن، السرير دون ملاءة (أريكة العرس والحب والحزن) الجثمان الشاحب المضرّج بالدماء ملتفاً بزيه العسكري الرمادي المرقّع المهترئ مسجّى على الفراش العاري الذي استحال إلى الأحمر القاني، الأرملة العذراء المنحنية الراكعة إلى جواره– وأنا (جسدي) لم يكن قد توقف بعد (أجل، احتجت فعلاً إلى يد، إلى لمسة، لأتوقف)؛ أنا، الحمقاء المتسمرة ذاتياً التي لا تزال تعتقد أن ما يجب أن يكون سيكون، لا مناص من أن يكون، وإلا لما كنت لأستحق عقلي أو حياتي، وهرولت، هجمت على ذلك الوجه الحنطي المقفر، تلك النسخة المطابقة له الباردة المتزمتة اللامبالية (كلا، لم تكن لامبالية: يمكن وصفها بأي نعت سوى أنها غير مبالية: نبيُّه الخاص الذي يجسد بدمه الأسود الخانع شر الشيطان المطلق) التي أنجبها وفرضها لتكون عينه في غيابه، كما لو أنك تشاهد طائراً ليلياً جامحاً تائهاً يصفق بجناحيه أمام مصباح نحاسي قاتل. قالت: ‹انتظري. لا تصعدي إلى هناك›. لم أتوقف رغم ذلك؛ كان لا بد ليدها أن تمتد لتوقفني؛ واصلت الركض، لأقطع الأقدام الأخيرة المتبقية وحدّقنا ببعضنا البعض ليس كوجهين وإنما كنقيضين كاملين وهو ما كنا عليه في الحقيقة، لم ترفع أي منا صوتها، كما لو أننا نتبادل أطراف الحديث دون الحاجة للكلام أو الإصغاء. قلت ‹ماذا؟›

‹لا تصعدي إلى هناك يا روزا›. قالت بنبرة آمرة: بذلك الهدوء والثبات اللذين يوحيان مجدداً بأنها ليست من يتحدث وإنما الدار نفسها من قال تلك الكلمات– الدار التي بناها، بناها باستخدام قيحه وعرقه لتكون نسخة عنه، ليشكل شرنقة (غير مرئية) وقوقعة كاملة لتعيش داخلها إلين وتموت كغريبة، ويكون فيها هنري وجوديث ضحيتين وسجينين، أو يموتان. لم يكن اعتراضي على مناداتي باسمي، لم أحتجّ على الكلمة، أنها نادتني روزا. اعتادت على مناداتي بهذا الاسم في طفولتنا، تماماً كما اعتادت على مناداتهما هنري وجوديث؛ عرفت أنها حتى الآن تناديها جوديث (وهنري أيضاً عندما تتحدث إليه) باسمها الأول. ولهذا من الطبيعي أن تناديني روزا، فأنا ما زلت في أعين الآخرين طفلة. ولكن هذا لم يكن سبب اعتراضي. لم يكن هذا ما قصدته إطلاقاً؛ في الواقع، في تلك اللحظة التي كنا نقف فيها في مواجهة بعضنا البعض (تلك اللحظة التي سبقت اقتراب جسدي المتحرك منها ليصل إلى الدرج) ظلت تعاملني باحترام وتبجيل أكثر من أي شخص عرفته؛ أدركت ذلك منذ اللحظة التي دلفت فيها من الباب، على خلاف كل من عرفني لم أكن في نظرها طفلة. صرخت ‹روزا؟ أتقولين ذلك لي أنا؟ في وجهي؟› ثم لمستني، فاستحلت إلى جثة هامدة. ربما واصل جسدي الركض بعد أن لمستني، لأنني استشعرت اندفاعه الأعمى من خلال الثقل الصلب والخفيف في الوقت ذاته (لم تكن مالكة البيت: مجرد أداة، ما زلت مصممة على قول ذلك) لتلك الرغبة بمنعي من صعود الدرج؛ ربما نبرة الصوت الآخر، الكلمة الوحيدة التي

جاءت من أعلى الدرج، شطرتنا وفرقتنا قبل أن يتوقف (جسدي). لا أعرف. كل ما أعرفه أن كياني بأكمله ركض مائلاً ميلاناً تاماً وأعمى ليتحول إلى شيء متوحش وجامد، تحت تأثير صدمة مباغتة وسريعة تتجاوز مجرد كونها دهشة وغضباً إزاء تلك اليد السوداء الوقحة الصادة الملامسة للحم جسدي الأنثوي الأبيض. هناك في لمسة اللحم للحم ما يحدث خلخلة وبتراً حاداً ومباشراً في القنوات المراوغة الملتوية المنظمة للتراتبية الرصينة، خلخلة يعرفها الأعداء كما يعرفها العاشقون لأنها تجعلهم أعداء وعشاقاً:– يتلامسون وتلك اللمسة هي قلعة الكينونة الذاتية الخاصة للأنا: ليست النَّفس، أو الروح؛ يمكن لأي شخص أن يسيّر الفكر الشهواني الشبق المنفلت من عقاله في أي مسار معتم لهذا المسكن الدنيوي لكن ما إن يلمس اللحم اللحم، ستشهد سقوط قشور الأعراف البالية المتعلقة بالطبقة الاجتماعية واللون أيضاً. أجل، استحلت جثة هامدة– لم تكن يد امرأة، أو يد زنجية، وإنما لجام كابح لضبط الرغبة الجامحة والغاضبة والتحكم بها– لم أقصدها في كلامي، قصدتُ يدها؛ خاطبتُ يدها من خلال الزنجية، السيدة، كنت تحت تأثير الصدمة التي ستتحول إلى غضب لاحقاً ثم سيصير الغضب هلعاً، لم تنتظر أي جواب ولم تسمع ما قلته لأن كلانا عرف أنني لم أكن أتحدث إليها: ‹أبعدي يدك عني أيتها الزنجية!›

لم أسمع أي جواب. اكتفينا بالوقوف– وقفتُ دون حراك متأهبة ومستعدة للركض، بينما اكتفتْ بالوقوف كالصنم تأكلها نيران الغضب، جمعتنا اليد والذراع التي جمدتنا، مثل حبل سري قاسٍ ووحشي، توأم تآخى مع الظلام الذي انبلجت منه. راقبتها في طفولتي أكثر من مرة تلعب مع جوديث وحتى مع هنري ألعاباً عنيفة (ربما يلعبها جميع الأطفال: ما أدراني) وكانت تنام وجوديث (كما سمعت) معاً، في الغرفة نفسها حيث تنام جوديث على السرير بينما تنام هي على مفرش من القش على الأرض كما يبدو. بيد أنني سمعت أن إلين في أكثر من مناسبة وجدتهما نائمتين معاً على المفرش، ومرة في السرير نفسه. ولكن لم أر ذلك بأم عيني. لم ألعب في طفولتي بالأشياء نفسها التي لعبت بها مع جوديث، على الرغم من أن تلك العزلة المشوهة والقاسية التي أسميتها طفولتي، علمتني (على قلة ما علمتني) أن أصغي قبل أن أستوعب وأن أفهم قبل أن أسمع، كما علمتني الخوف غريزياً منها ومن وضعها، بل وتحاشي استخدام الأشياء التي تلمسها. وقفنا هناك إذاً. ثم فجأة لم يكن الغضب ما انتظرته، الغضب الذي دفعني غريزياً للصراخ؛ لم يكن الذعر: وإنما يأس تراكمي مترام. أذكر وقوفنا هناك تجمعنا تلك اليد المشلولة (أجل: كانت ضحية واعية مثليً تماماً)، صرختُ– صرخة مكبوتة ربما دون كلمات (لم أصرخ منادية جوديث، انتبه: ربما عرفت مسبقاً، في اللحظة التي ولجت فيها إلى المنزل ورأيت الوجه الشبيه إلى حد قريب وبعيد في آن معاً

بوجه ستبن، ربما أدركت لحظتها ما لم أستطع ولم أشأ وما كان يتوجب عليّ تصديقه)– صرخت ‹وأنتِ أيضاً؟ وأنتِ أيضاً يا أختاه، يا أختاه؟› ما الذي أتوقعه؟ أنا، الحمقاء المتسمّرة، قطعت اثني عشرة ميلاً لأتوقع– ماذا؟ انبثاق هنري من باب يعرف لمسته، يده على المقبض، العتبة تحمل وزنه الذي تحفظه عن ظهر قلب: أن أجده واقفاً في الرواق مجرد مخلوق ضئيل بسيط مذعور لا يجذب انتباه الرجال ولا النساء، لم ير نفسه لمدة أربع سنوات ونادراً ما اكترث لأمر نفسه قبل هذه السنوات الأربع وما كان ليعرف نفسه لولا الحرير البني المهترئ الذي كان لأمه ولولا المخلوق الواقف أمامه ويناديه باسمه؟ كنت أتوقع أن يظهر هنري ويقول ‹لماذا، إنها روزا، الخالة روزا. استيقظي يا خالتي روزا؛ أفيقي›؟– أنا الحالمة المتعلقة بالحلم كما يتعلق المحتضر بلحظة انتشاء خاطفة أخيرة في آخر سكرات الموت كي يكثف حلاوة توقف الألم، أستفيق على الواقع، على ما وراء الواقع، لا لأجد الأيام الخوالي كما هي دون تغيير وإنما لأجد أياماً متبدلة تتماهى مع الحلم، حلم يختلف باختلاف الحالم، صار الحلم قرباناً وإلهاً: أمي وجوديث في الحضانة مع الأطفال، أبي وتشارلز يتجولان في الحديقة. استفيقي يا خالتي روزا؛ استفيقي›؟ لم أتوقع ربما، ولم آمل حتى، لم يكن حلماً لأن الأحلام لا تأتي مجتمعة، ولم أقطع اثني عشرة ميلاً باستخدام بغل قاتل وإنما بواسطة مهرة كابوس متجلية على هيئة كميرا [27]؟ (يا ويلي، استيقظي يا روزا؛ استيقظي– انفضي عنك ذاك، لا أقصد أن تتنكري للأيام الخوالي، الأطلال، وإنما لكل ما لم يحدث ويستحيل حدوثه، ويجب ألا يحدث، أفيقي يا روزا، من الأمل، روزا التي استحسنت الحرمان على الرغم من غياب الحزن؛ آمنت بأنها المخلّص الذي لن ينقذ الحب أو السعادة أو السلام، وإنما ما خلّفه الترمل وراءه– واكتشفت أنه ما من شيء يمكن إنقاذه؛ أملت بإنقاذها كما وعدتُ إلين (وليس إنقاذ تشارلز بون، ولا هنري: ولا إنقاذ أي من هذه منه أو إنقاذهما من بعضهما البعض) لكن فات الأوان، روزا التي كانت لتأتي بعد فوات الأوان حتى لو أنها خرجت من الرحم إلى هناك مباشرة أو جاءت في أوج الذروة الكاملة الجبارة القاتلة عندما ولدت؛ التي قطعت اثني عشرة ميلاً وتسعة عشر عاماً لإنقاذ ما لا يحتاج إلى منقذ، وخسرت بذلك معنى وجودها) لا أعرف، عدا أنني لم أجد الجثمان. لم أجد سوى تلك الحالة التي تراودك في الحلم حين تركض في مكانك هرباً من جزع لا تستطيع تصديقه، نحو ملاذ لا تؤمن به، لا تكبّلك رمال متحركة لا قرار لها تغرق داخلها وأنت في خضم كابوس وإنما وجه يحاكم روحه، يد علّقت نفسها بنفسها على الصليب، إلى أن فرقنا الصوت، وأبطل مفعول السحر. كلمة واحدة: ‹كليتي›. بتلك النبرة، بذلك البرود، وتلك الصلابة: لم تكن جوديث من نطقها، وإنما المنزل مجدداً، على الرغم من أن الصوت كان صوت جوديث. آه، ميّزت الصوت بوضوح، الصوت المحبب

للحرمان؛ ميّزته تماماً مثلما ميّزته كليتي. لم تتحرك؛ يدها فقط تحركت، ابتعدت اليد قبل أن أدرك ذلك. لا أعرف إن كانت أنزلتها أم إنني تسللت من تحتها. لكنها لم تعد على جسدي؛ ولن يستطيعوا أيضاً إخبارك عن هذا الأمر: إخبارك كيف ركضت، هربت، صعدت إلى الدرج ولم أجد عروساً أرملة مكلومة وإنما وجدت جوديث واقفة أمام باب الحجرة المغلق، مرتدية فستانها القطني المخطط الذي واظبت على ارتدائه في جميع المرات التي رأيتها فيها منذ وفاة إلين، تحمل في يدها بضعة أشياء؛ ولو كانت في حالة حزن أو أسى لما كانت لتحملها، كلها أو بعضها لا أعرف، إضافة إلى فستان العرس غير المكتمل. قالت ‹نعم يا روزا؟ ›بالنبرة نفسها مجدداً، وتوقفت عن الجري بخطوات ناقصة على الرغم من أن جسدي، الرابية العمياء المتبلدة المعجونة من الأنفاس والطين الواهمين، كان لا يزال يتقدم: ولن يخبرونك كيف تسنت لي رؤية أن الشيء الذي كانت تحمله في يدها الرخوة والمستسلمة كان الصورة، صورتها الموضوعة في الإطار الحديدي الذي أعطته إياها، كانت ساهمة وطبيعية، تحمل الصورة بمحاذاة خاصرتها كأي كتاب كانت تتسلى بقراءته قبل أن أقاطعها.

ذلك ما وجدته. ربما ما توقعته، ما عرفت (حتى وأنا في التاسعة عشرة، عرفت، كنت لأعرف حتى ولو لم أكن في التاسعة عشرة، تسعة عشر عاماً لا صنو لها) أنني سأجده. ربما كان هذا أقصى ما تمنيت رؤيته، وما كنت لأرضى بأقل من ذلك، عرفت حتى وأنا في التاسعة عشرة أن الحياة مجرد لحظة سرمدية واحدة متكررة، لحظة تتحول فيها العذرية إلى ستارة تخفي وراءها ما يخبئه المستقبل وتنتظر باستسلام وحبور الإيلاج العاري الخفيف كالريشة، الإيلاج الذي يتطلب توفر الشجاعة والجرأة (والافتقار إلى الحكمة: لا مكان للحكمة هنا) لإحداث الهتك وتمزيق البكارة. وقد لا يكون هذا قلة شجاعة أيضاً: ليس جبناً أن نعجز عن مواجهة ذلك المرض الذي ينخر جوهر كينونة الجسد الذي تكافح الروح السجينة للتملص من رائحته العطنة، وتحرير الشرايين والأوردة الضعيفة لكن الروح بدورها تسجن تلك الشرارة، حلمها بالتحرر من الجسد، وخلال ذلك تختبر للحظة التحرر التام الكامل وتكرر (تكرر؟ تخلق، تكثف) أبدية الزمان والمكان ولانهائية الكرة الأرضية الهائلة، لتصير الأبدية فلكاً هشاً زائلاً قزحياً، وتوسع حدود سجنها وتحطمها، حلم يخلّف وراءه حشوداً فوضوية مجهولة عفنة علّمت نفسها عبر السنين أن الفضيلة الوحيدة لموت الفرد تتجسد في إعادة خلق آخرين مكانه، تتلاشى الروح وتتبخر: وكأنها لم تكن، لا شيء– لكن تلك الحكمة الصادقة التي تستطيع استيعاب احتمال أن يكون هناك ما هو حقيقي أكثر من الحقيقة نفسها، وهم حقيقي يستفيق الحالم منه دون أن يطرح أسئلة من قبيل ‹أهذا كله محض

حلم؟› ويتساءل عوضاً عن ذلك، يوجِّه سؤاله إلى قلب السماء ذاتها: ‹ترى لماذا استفقت إن كانت تلك إغفاءتي الأخيرة؟›

كان هناك ذات يوم– هل تلاحظ الشذى الفوّاح الذي تتركه زهرة الوستاريا على هذا الجدار، عبير يتكثف بفعل الشمس ويخترق الغرفة ويعبق في المكان (دون أن يعيقه الضوء) يتقدم بسرية وحذر منتقلاً بين ذرات الظلام المنتشرة؟ هنا يكمن عماد عملية التذكر– الحواس، البصر، الشم: العضلات الخاصة بالبصر والسمع واللمس– العضلات عماد التذكر وليس العقل، ولا الأفكار: لا مثيل للذاكرة: العقل يتذكر ما تتعرف العضلات عليه: لا أكثر، ولا أقل: ومجمل الناتج خاطئ ومزيف عادة ولا يعدو مجرد كونه حلماً.– أترى كيف أن اليد الخدرة المسدلة التي تقترب من الشمعة قرب السرير تتذكر الألم، تنكفئ وتتحرر بينما العقل والدماغ نائمين وجلّ ما يفعلانه تحويل حرارة اللمس إلى ضرب من الأساطير التافهة حول الهرب من الواقع: هل ترى كيف تتحول تلك اليد الناعسة عينها، في زواج شهواني مغلف بقشرة عذبة، بسبب الدماغ والعقل ذاتهما، إلى الخيال المشبع ذاته الناجم عن التجربة برمتها. ويحنا، الحزن يخبو، يتلاشى؛ نعرف ذلك– ولكن اسأل مجاري الدمع من أين لها أن تنسى كيف تبكي. في سالف الزمان (لن يستطيعوا إخبارك عن هذا أيضاً) عاشت زهرة الوستاريا مجدها. فاح عبيرها في كل مكان (كنت في الرابعة عشرة حينها) كما لو أن جميع فصول الربيع اختُزلت في ربيع واحد، في صيف واحد: في ربيع وساعات صيفية تنضح بالكثير وتخبئ ما تخبئه لكل أنثى تتنفس فوق الأرض، تكفر عن كل فصول الربيع الخائنة التي ضنت وحجبت براعمها لسنين طويلة لا يمكن استرجاعها أو استعادتها. كانت سنة أوج الوستاريا: الأوج الذي يجتمع فيه بعذوبة ريعان الشباب مع الرغبة والطقس؛ وأنا (في الرابعة عشرة وقتها)– لن أصرّ على أنني امتلكت مفاتن الصبا، المفاتن التي لم تلفت حينها انتباه أي رجل– ولن تلفت انتباه أحد قط– مرتين، لم أكن طفلة وحسب وإنما حتى أصغر من ذلك؛ طفلة أكثر مما كنت امرأة وفي الوقت نفسه لم أملك أياً من ملامح النساء. ولا يمكنني الادعاء بأنني كنت ورقة شجر– ورقة منكمشة وشاحبة ومجعدة تعتصرها المرارة لم تكتسِ خضرتها الكاملة بعد، قادرة على ترهيب وتنفير اللون الأخضر نفسه إذا ما فكّر بجعلها لعبة طفولية محببة، أو على إبعاد ذكور الدبابير والنحل الشهوانية المفترسة. لكنني لا أدعي أنني امتلكت الرغبة والصبا، ولم أرثهما عن كل بنات حواء غير الأخوات منذ حادثة الأفعى؟ أجل، تتملكني الشهوة: شرنقة منكمشة تولد بذرة عمياء مثالية: فمن قال إن بذرة منسية مجعدة عاجزة عن إنتاج براعم ريانة مكتملة لأن البذار المهملة زُرعت في حالة انكماش ولم توضع في الأرض ميتة وإنما نائمة ومنسية فحسب؟

كان ذلك الصيف المشاكس لشبابي العقيم الذي (خلال تلك الفترة القصيرة، تلك الفترة القصيرة والموجزة التي لن تعود من ربيع قلب الأنثى) عشته كرجل لا كسيدة، أو فتاة، الرجل الذي ربما كان عليَّ أن أكونه. كنت في الرابعة عشرة حينها، أربع عشرة سنة إن كان بالإمكان تسميتها بالسنين أمضيت طفولتي في الممرات الجامدة أسترق السمع من خلف الأبواب الموصدة، الطفولة الخالية من الحياة ولم تكن سوى تجسيد للرحم المظلم نفسه؛ كبرت واكتملت، لم أكبر في العمر، إذ مكثت لوقت أطول من اللازم في الممرات التي تشبه الرحم ولم تُجرَ أي عملية قيصرية لإخراجي، انتظرت المبضع الجراحي البارد للزمن الوحشي الذي كان ليحررني، لم أنتظر الضوء انتظرت أن يحررني لكنه عوضاً عن ذلك أقحمني في الهلاك الذي نسميه النصر الأنثوي الذي يتلخص بـ: الصبر والصبر ومن ثم المزيد من الصبر اليائس الذي لا يلقى تقديراً ويفتقر إلى أية بارقة أمل؛ أحب تلك السمكة العمياء التي تعيش في قعر البحر، تلك الشرارة المعزولة التي لا تتذكر السمكة منشأها، السمكة التي ينبض قلبها ويدق في مسكنها الخامل تعايش مع حكة قديمة لا تهدأ تجهل ما يتعين عليها قوله ولا تعرف كيف تتعامل أو تتواصل مع الآخرين إلا من خلال بضع كلمات ‹كان هذا يسمى ضوءاً›، تلك ‹الرائحة›، تلك ‹اللمسة›، ذلك الشيء الآخر الذي لم يعلموه حتى اسم صوت النحل أو الطير أو عبير الزهور أو الضوء أو الشمس أو الحب؛– أجل، لم يكبر أو يتطور، عاشقة الضوء ومعشوقته، لا خبرات تستعين بها سوى تلك العزلة الخادعة المتقرّحة المعكوسة المتنامية التي طورت حاسة السمع النهمة وغير العقلانية لتكون بمثابة تعويض عن باقي الحواس: وعوض التنعم بالمحطات البارزة الاستعراضية الإيقاعية لفترة الطفولة الطبيعية، اخترت أن أربض لأسترق السمع دون استيعاب ما يجري، يلفني الصمت المخملي الرطب للرحم، لم أحدث أي اختلال في الأثير، ولا صدر عني أي صوت خائن، عبر الانتقال من باب وحيد موصد محرّم إلى الباب الذي يليه، اكتسبت كل معرفتي عن ذلك الضوء والفضاء الذي يتحرك ضمنه الناس ويتنفسون كما اكتسبت (الطفلة نفسها) فكرتي عن ماهية الشمس عبر رؤيتها من خلال قطعة من الزجاج الضبابي؛– في الرابعة عشرة، أصغر من جوديث بأربع سنوات، متأخرة بأربع سنوات عن لحظة جوديث التي تعرفها العذراوات فقط: عندما تتخيل الروح المرهفة الشبقة أشخاصاً مجهولين مخنثين دون أن تبلغ النشوة وزفافاً بلا متعة– ليس ذلك الاعتداء الليلي الذي يشنه الموتى الحانقون على أراملهم ليكافئوهم على وفائهم بعد مرور عشرين وثلاثين وأربعين عاماً على رحيلهم، وإنما عالم مليء بالزواج الفعلي الملموس مثل الضوء والهواء الذي تتنفسه. بيد أنه لم يكن صيفاً مليئاً بسخط مقيم في أعماق عذراء؛ ولا صيفاً خالياً من أي عملية قيصرية كان لها أن تمزقني، تحيلني إلى لحم ميت أو حتى إلى جنين ميت، تحررني لأعيش: أو لأختبر

لذاتي، أختبر فيه جسد رجل يحفّ بجسدي، يجتاحني بكامل أسلحته، لم يحدث أياً من هذا، وكأنني رجل ولست امرأة مجوّفة.

كان الصيف الذي تلا أول عيد ميلاد دعاه فيه هنري إلى الدار، الصيف الذي تبع اليومين اللذين أمضاهما في مزرعة ستبن خلال إجازة شهر حزيران قبل أن يقصد النهر ويستقل العبارة عائداً إلى دياره، ذلك الصيف الذي تلا مغادرة عمتي واضطرار والدي للتغيب عن المنزل لقضاء أعماله وأرسلوني إلى إلين (ربما اختار أبي إلين كملجأ ألوذ به لأن توماس ستبن كان غائباً أيضاً خلال تلك الفترة) لأمكث معها وكي تعتني بي، أنا التي تأخرت ولادتي، وولدت في مرحلة فوضوية من حياة أبي وتُركت على يديه المترملتين (لمرتين)، كان بوسعي الوصول إلى رفوف المطبخ، وعد الملاعق وطي الملاءات ووزن الحليب وخضه ولم أكن أصلح لفعل أي شيء آخر، وكنت أضعف من أن أعتمد على نفسي. لم أره قط (لم أره. لم أره مطلقاً ميتاً. سمعت باسمه، رأيت صورة، ساعدت في حفر قبره: هذا كل شيء) على الرغم من أنه جاء إلى منزلي لمرة واحدة، في أول يوم بعد رأس السنة عندما أحضره هنري بداعي أنه ابن أختي ليلقي عليّ التحية أثناء طريق عودتهما إلى الجامعة ولكني لم أكن في المنزل. لم أكن قد سمعت باسمه قبل ذلك اليوم، ولم أكن أعرف بوجوده أصلاً. وبرغم ذلك في اليوم الذي ذهبت فيه إلى هناك لقضاء فصل الصيف، بدا أن فترة المرور بمنزلي والتوقف أمام بابي قد خلّفت بعض البذور، مرارة خاطفة في قبو جسدي لا تتسع لاشتعال شرارة الحب (لم أحبه؛ كيف لي أن أحبه؟ لم أسمع صوته مطلقاً، ولم أعرف بوجوده سوى من خلال كلمات إلين) ولا تكفي أيضاً لأتجسس عليه كما يجول في خاطرك الآن بلا شك، دقائق قليلة كافية لأسمّي خلال الأشهر الست التي تلت رأس السنة الجديدة وشهر حزيران اسم ذلك الطيف الذي انبثق من ثرثرة إلين الفارغة والحمقاء، تلك الهيئة الناقصة التي ظلت بلا وجه إلى أن رأيت وجهه في تلك الصورة، هيئة تستمد تفاصيلها من النظرة السرية الضبابية لفتاة شابة: كان الحب أمراً مجهولاً تماماً بالنسبة إليّ، لم أعرفه يوماً، ولم أعرف حتى حب الوالدين– حيث الانتهاك الدائم للخصوصية، انتهاك دائم حميمي يلمس شغاف القلب، تسفيه الفورة والعناد اللذين ينتجان كثناء وثمرة لحم كل الثدييات، لم أصبح عشيقة، ولا حبيبة، صرت شيئاً يتعدى الحب؛ أصبحت محامياً متمرّساً بكل أنواع الحب المخنث.

لا بد وأنه خلّف وراءه بعض البذور، بذور وهبت الحياة لقصة خرافية تنسجها طفلة خاوية لتكبر في الحديقة. لم أكن أتبعها بداعي التجسس. لم أكن أتجسس، على الرغم من أن الشكوك تساورك حول هذا. ولو افترضنا أنني فعلت، لم أتجسس بدافع الغيرة، لأنني لم أحبه. (كيف لي أن أحبه ولم أره قط؟) وحتى لو أحببته، لم يكن حب المرأة للرجل، كما أحبّته جوديث، أو كما

حسبنا أنها أحبته. لو كان حباً (وأصر على طرح الأسئلة حول ذلك) فقد كان مثل حب أم تعاقب طفلة بالضرب، لكنها لا تقصد ضربها وإنما ضرب صبي الجيران الذي جلدته طفلتها أو جُلدت على يده؛ أم تكافئ ابنتها وتداعبها، فهي لا تقصد مداعبتها وإنما مداعبة الرجل أو السيدة المجهولين اللذين وهبا القرش المخبأ في الكف المتعرق. لم أحبه كما تحب النساء الرجال. فأنا لم أطلب منه شيئاً، كما تلاحظ. بل وأكثر من ذلك: لم أعطه شيئاً، والعطاء دليل الحب. لماذا. لم أشتق له حتى. ولا أعرف إلى الآن إن كنت مدركة لحقيقة أنني لم أر وجهه إلا من خلال تلك الصورة، ذلك الطيف، صورة في غرفة نوم شابة: صورة عادية مؤطرة فوق طاولة زينة صغيرة تغص بالأغراض صورة مزينة (كما خُيّل لي) بكل أزهار الزنبق البكر اللامرئية، كان بوسعي حتى قبل أن أرى الصورة التعرف على وجهه ووصفه بدقة. لكنني لم أره أبداً. لا أعرف حسب معلوماتي أن إلين رأت الوجه قط، أو أن جوديث أحبته، أو أن هنري ذبحه: من سيحاججني إذاً إن أفصحت عن سبب إحجامي عن اختراع الوجه وخلقه؟– وعرفت هذا: لو كنت الله لاخترعت من هذه الفوضى العارمة التي نسميها تطوراً شيئاً (آلة ربما) تزين المرآة العقيمة لكل فتاة بسيطة تتنفس من خلال وجه رأته في صورة– هذا أقل الإيمان لأننا لسنا متطلّبات. لا أحتاج لجمجمة تحيط بالوجه؛ مجهولة تماماً، أحتاج فقط استنباطاً مبهماً للحم والدم الجاريين المعشوقين حتى لو كانت النتيجة مجرد طيف وأوهام. صورة ظهرت نتيجة اختلاس النظر والتسلل (علّمتني طفولتي فعل ذلك بدل أن تعلّمني كيف أحب وقد أفادني هذا كثيراً؛ في الواقع، لو علّمتني طفولتي الحب، لما أفادني الحب بهذا القدر) إلى غرفة الظهيرة المهجورة لأنظر إلى الصورة. لا لأحلم، لأنني أقيم في الأحلام، وإنما لأجدد وأتمرن على الجزء كما ينسل الهاوي المتحرّق المتعثر ليصير في مجرى الهواء ليسمع صوت الملقِّن للحظة أثناء مشهد مرئي عابر. وإن غرت، فلم تكن غيرة تشبه غيرة الرجل، غيرة العاشق؛ ولا حتى ذات العاشق التي تتجسس بدافع الحب، تتجسس لتراقب، تتذوق، تتلمس حلم يقظة لفتاة في عزلتها كأول إزاحة لذلك الحجاب الذي نسميه العذرية؛ ليس لإظهار وإثارة الحياء المرافق للبوح بالحب، وإنما لينعم بالنهد العارم الآني الوردي الأحمر سلفاً بسبب النوم على الرغم من أن الحياء نفسه لا يحتاج لليقظة. كلا، ليس هذا؛ لم أتجسس، من سيمشي على درب الحديقة الرملي الممهد ويفكر ‹هذه آثار أقدامه ظلت هناك على الرغم من المجرفة التي محت الكثير من خطاه، آثار أقدامها إلى جوار آثار أقدامه تتعاقبان بإيقاع بطيء متبادل بينما لا يحتاج القلب والعقل لمراقبة الأقدام المنصاعة (بإرداتها)؛ ويفكر ‹ما أجمل تنهيدة التوأم الروحي التي تناهت إلى أسماع العشرات من أشجار الكرمة والجنبات المترامية الهامسة؟ ما أجمل العهود، ما أجمل الوعود، يا لجمال النيران المستعرة لمطر هذه الوستاريا الليلكي، شلالات الورد التي تلف المكان! لكن أجمل من هذا كله، الأحلى،

التواصل الفعلي واللحم الحالم نفسه. آه كلا، لم أكن أتجسس عندما حلمت داخل مخبئي المتلصص وسط أشجار الكرمة والجنبات حيث ظننت أنها حلمت على مقعد الرغبة وعلقت البصمة المطموسة لفخذيه العاريين تماماً كما طمس رمل الدرب، ملايين الأعصاب الممتدة داخل أصابع سعف الأشجار وأوراقها، الشمس وسلاسل النجوم القمرية التي تنظر إليه من علو، الهواء حوله، دعسته، طيفه العابر، وجهه، صوته، اسمه: تشارلز بون، تشارلز جوود، تشارلز الزوج المرتقب. لا، لم أتجسس، لم أختبئ، كنت طفلة مما أعفاني من ضرورة الاختباء، ولم أنتهك خصوصيته حتى عندما كان يجالسها، ومع ذلك كنت امرأة واثقة وجريئة بما يكفي لأدخل تلك المنطقة (بسعادة ربما، بامتنان) حيث تتحدث الشابات عن الحب– نعم، طفلة بما يكفي كي يأتي ويقول لي ‹دعيني أنام معك›؛ امرأة بما يكفي لأقول ‹دعنا نستلقي على السرير معاً لتحدثني عن الحب›، لكن لم أفعل ذلك لأن الواجب يملي عليّ أن أقول ‹لا تحدثني عن الحب لكن اسمح لي بأن أخبرك عنه، فأنا أعرف عن الحب أكثر مما ستعرفه في حياتك وسأمنحك من الحب أكثر مما تحتاج›. ثم عاد أبي واتجه نحوي وأخذني إلى المنزل وأصبحت مجدداً ذلك الكائن الذي يستحيل تصنيفه، إذ كنت أطول من أن أكون طفلة وأقصر من أن أكون امرأة، ترتدي ثياباً لا تناسب قياسها تركتها عمتها قبل هربها، تعتني بمنزل لا يصلح للعيش، لا تتجسس، لا تختبئ، وإنما تنتظر، تراقب، دون انتظار مكافأة، أو شكر، لم تحبه بالمعنى الذي نقصده إذ لا حب بلا أمل؛ أحببت (إن صحّ التعبير) بطريقة مختلفة عما تورده الكتب المبتذلة: ذلك الحب الذي يتخلى عما لا يستطيع امتلاكه– ذلك القرش الحقير الذي لا يساوي شيئاً لكنه كل ما يملكه المتبرع ووزنه التافه لا يضيف أي قيمة إلى جوهر المحبوب– ومع ذلك قدمته، لم أقدمه له وإنما لها؛ ولسان حالي يقول لها ‹تفضلي، خذي هذا أيضاً. لن تمنحيه ما يستحق من الحب، وعلى الرغم من أنه لن يشعر بقيمة هذا العطاء عندما يُعطى له تماماً كما لن يشعر به عندما يخسره، لكن ستأتي لحظة خلال حياتكما الزوجية ستجدين هذا الجزيء الذري كما تجدين برعماً صغيراً مكرمشاً شاحباً مخبّأً في حوض أزهار مألوف فيستوقفك وتقولين: «من أين جاء هذا البرعم؟»؛ لا ترتقب جواباً سوى: «لا أعرف»». ثم عدت إلى المنزل ومكثت لخمس سنوات، سمعت صدى طلق ناري، هرعت لأصعد الدرج الكابوسي، ووجدت —

لماذا، وقفت امرأة بثبات مرتدية فستاناً قطنياً لتسدّ الباب الموصد محاولة منعي من عبوره– امرأة غريبة تماماً عني لكنها ليست غريبة عن الحزن رغم أن الحزن لم يصبح شريكها بعد مثلي– سيدة تقول ‹نعم يا روزا؟› بمنتهى البرود لتقطع ركضي الذي (أدركت هذا الآن) بدأ قبل خمس سنوات، عندما كان في منزلي أيضاً ولم يترك خلفه أي أثر أكثر مما تركه في بيت إلين، حيث

كان مجرد شبح، طيف؛ وليس رجلاً، كائناً، وإنما قطعة أثاث نفيسة– مزهرية أو كرسي أو مقعد– رغبت بها إلين مع أن الانطباع الذي تركه (أو عدم تركه أي انطباع) في أعماق كل من كولدفيلد أو ستبن انطوى على نبوءة تُنذر بالقادم؛– نعم، ركضت خلال تلك السنة الأولى (السنة التي سبقت الحرب) عندما تحدثت إلين معي عن جهاز العرس (وكان جهاز عرسي)، عن سلسلة حالمة من التنازلات التي كانت تنازلاتي، على قلتها، فقد كان ذلك كل ما أملك بسبب ذلك الاحتمال الذي لم يتحقق ليجسد صخرتنا اليتيمة التي نتشبث بها لنحتمي من دوّامة الحقيقة المرّة؛– السنوات الأربع حينما ظننت أنها انتظرت كما انتظرتُ، بينما العالم الراسخ الذي لقّمونا ملامحه كان يتهاوى ويضيع بين أعمدة النيران والدخان التي ابتلعت السلام والأمان، واجتثت الكبرياء والألم، ولم يتبق سوى محاربين قدماء مشوهين شرفاء، والحب. نعم، لا بدّ، ويجب أن يكون هناك الحب والإيمان: الحب والإيمان اللذان زرعهما فينا الآباء والأزواج والأحبة والأخوة، ممن حملوا كبرياء وأمل السلام في شرف طليعة الجيش كما حملوا الرايات؛ لا بد من وجود الحب والإيمان، وإلا في سبيل ماذا يقاتل الرجال؟ ماذا غير ذلك يستحق الموت في سبيله؟ نعم، لا الموت في سبيل شرف فارغ، ولا كبرياء ولا كي يعم السلام، وإنما في سبيل الحب والإيمان اللذين يخلفهما الجنود وراءهم. كان موته محققاً؛ عرفت ذلك، أيقنت ذلك، كما كان موت الكبرياء والسلام محققاً: وإلا فكيف سيتسنى لنا إثبات خلود الحب؟ لا في سبيل الحب لوحده، ولا في سبيل الإيمان لوحده، بل في سبيلهما معاً. حب دون أمل ربما، إيمان يبعث على القليل من الكبرياء: لكن الحب والإيمان على الأقل يتفوقان على القتل والحماقة، للنجاة على أقل تقدير من الغبار الحقير من الانقياد القديم محطم الفؤاد.– نعم، وجدتها واقفة أمام الباب الموصد الممنوع عليّ عبوره (والذي بدورها لم تعبره بعدها مجدداً حسب علمي إلى أن حمل جونز والآخرون النعش وصعدوا به الدرج) حاملة الصورة ووجهها هادئ تماماً، نظرت نحوي لدقيقة ورفعت صوتها كي يُسمع بوضوح في كافة أرجاء الردهة في الطابق الأرضي: ‹كليتي. الآنسة روزا ستحلّ ضيفتنا على العشاء؛ هلّا أعددت المزيد من الطعام›: ثم قالت ‹هلّا نزلنا إلى الطابق الأرضي؟ عليّ التحدث إلى السيد جونز ليحضر بعض الألواح والمسامير›.

كان هذا كل شيء. أو بالأحرى، ليس كل شيء، إذ لم يحدث شيئاً إطلاقاً، لم تكن هناك أي نهاية؛ لا تؤلمنا الصدمات وإنما النهايات المحبطة القاسية البليدة الناتجة عنها، العواقب الهزيلة التي تبقينا بعيداً عن عتبة اليأس. كما ترى، لم أره أبداً. لم أره ميتاً. سمعت صدى، ولكن لم أسمع صوت الطلق الناري؛ رأيت باباً موصداً لكني لم أعبره: أذكر عصر ذلك اليوم عندما حملنا النعش وأخرجناه من المنزل (حمله جونز ورجال بيض آخرون أخرجوا النعش

الذي صنعوه باستخدام ألواح إسطبل الخيول؛ أذكر أننا أثناء تناول الطعام الذي أعدته جوديث– نعم جوديث: الوجه البارد الهادئ الساكن ذاته منكبّاً على الموقد– في الغرفة ذاتها التي سُجي فيها جثمانه، سمعنا أصوات الطرق والنشر القادمة من الفناء الخلفي، وكيف رأيت جوديث مرة، معتمرة قبعتها القطنية الباهتة تماماً مثل الفستان المهترئ الذي ارتدته، تصدر التعليمات حول طريقة صنعه؛ أذكر كيف أنهم ظلوا طوال فترة العصر الرتيبة يطرقون الخشب تحت أشعة الشمس وينشرونه مقابل نافذة قاعة الاستقبال مباشرة– صرير ثقيل يثير السخط. صرير. صرير المنشار، بدت كل ضربة من ضربات المطرقة اللامبالية المتعمدة وكأنها الضربة القاضية لكن تتبعها ضربة أخرى، تكررت واستمرت في اللحظة ذاتها التي تهدأ الأعصاب المرهقة لثوانٍ وترتاح بتثاقل بين ضربتين، تنشد أقصى درجات التعافي وتتمدد، تسترخي عندما يعمّ الصمت، ثم تزعق مجدداً: إلى أن خرجت أخيراً (ورأيت جوديث في الحظيرة محاطة بسحابة من الدجاج، تضع في مئزرها الملفوف البيض الذي جمعته) وقلت لهم لماذا؟ لماذا هناك؟ لِم اخترتم هذا المكان بالذات؟ توقفا لفترة كافية ليستدير جونز ويبصق مجدداً ويقول ‹لأنه لن يكون بعيداً عن التابوت›: وقبل حتى أن أدير ظهري، أضاف– أضاف أحدهما– بدافع الكسل الصاعق المربك، ‹سيكون من الأسهل إنزاله وتثبيت الألواح بالمسامير حوله، الآنسة جوديث وحدها قد لا تستسيغ الأمر›)– أذكر كيف حملناه وأنزلناه الدرج ونقلناه إلى العربة المنتظرة حاولت حمل الوزن الأكبر من النعش لأتأكد بنفسي من وجوده داخله. لكني لم أستطع التأكد. كنت أحد حاملي النعش، وعلى الرغم من ذلك لم أستطع التأكد، ولم أصدق ما أيقنت في قرارة نفسي من استحالة حدوثه. لأنني لم أره قط، أتفهم قصدي؟ ثمّة أشياء تحدث لنا لكن ذكاءنا وحواسنا ترفض تصديقه تماماً كما ترفض المعدة أحياناً ما ابتلعناه وتأبى هضمه– الوقائع التي تصرعنا وتقتحم حياتنا بطريقة غير مفهومة، مثل لوح زجاجي نشاهد عبره الأحداث المتعاقبة تتكشف أمام أعيننا كما لو أنها تجري في فراغ أبكم، وتتلاشى، تختفي؛ تنتهي، تخلّفنا وراءها مشلولين، عاجزين، يائسين؛ جامدين، إلى أن يصير الموت متاحاً. كانت هذه حالتي تماماً. كنت هناك؛ سار جزء مني بإيقاع مضبوط مع دعسة جونز ورفيقه، ومع ثيوفيلس ماكاسلين الذي عرف الخبر بشكلٍ أو بآخر وجاء من البلدة، وكليتي، حملنا التابوت بصعوبة وارتباك وعبرنا منعطف الدرج بينما تبعتنا جوديث، تضع يدها عليه لتثبته، ثم أنزلناه من العربة؛ شيء ما في أعماقي ساعدني على حمله وما كنت لأستطيع حمله لولاه على الرغم من عجزي في قرارة نفسي عن التصديق، أدخلناه إلى العربة المنتظرة؛ وقف جزء مني إلى جوار الجرح المُحدث في الأرض الهاجع في كآبة أشجار الأرز وسمعت أجراس الموت الثقيلة يدقها الثرى المرتطم بالخشب وأجبت بكلمة لا عندما قالت جوديث الواقفة على الطرف الآخر من تلة القبر ‹كان كاثوليكياً. هل يعرف أحدكم

كيف يقوم الكاثوليكيون بـــــ› وقال ثيوفيلس ماكاسلين الهرم ‹لعنة الله على الكاثوليك؛ كان جندياً. ويمكنني الصلاة على أي جندي كونفيدرالي› ثم صرخ بصوت عالٍ أجش وكأنه جوقة من الأصوات: ‹يااا فورست! يااا جون ساتوريس! أنتمااا!› ومشى شيء ما مع جوديث وكليتي وقطعنا الحقول مع غروب الشمس وأجبت بذهول مشبع بسكينة غريبة على الصوت الهادئ المطمئن الذي تحدث عن حراثة الذرة وتقطيع الحطب للشتاء، وفي المطبخ الذي تغمره أضواء المصباح شاركت هذه المرة في طهي العشاء وشاركت في تناول الطعام أيضاً داخل الغرفة المجاورة للسقف الذي لم يعد يرقد تحته، وخلدت بعدها إلى النوم (نعم، أمسكت بالشمعة التي حملتها لي تلك اليد الثابتة التي لم تعرف الارتجاف وفكرت ‹لم تكلّف نفسها حتى عناء البكاء› ورأيت وجهي عبر مرآة عاتمة على ضوء مصباح خافت وقلت لنفسي: ‹لم تبكِ أنت أيضاً›) داخل تلك الدار التي دخلها كعابر (وكانت هذه آخر زياراته الخاطفة) ولم يترك أي أثر يدل على مروره، ولا حتى دمعة. نعم. جاء يوم كف فيه عن الوجود. ثم صار ماضياً. ثم لم يعد له أي وجود. كان مروره قصيراً جداً، سريعاً جداً؛ ست ساعات من عصر ذات يوم رأى فيه كل شيء– فترة أقصر من أن يترك جسده أثراً على الفراش، ويمكن للدم أن يسيل من كل مكان– لو فعلاً سال دمه، لأنني لم أره. لشح ما سُمح لي بمعرفته، لم نجد جثماناً؛ ولا حتى قاتلاً (لم نتحدث قط عن هنري في ذلك اليوم، لم يأتِ أي منا على ذكره؛ لم أقل– أنا الخالة، العانس– ‹هل كان سقيماً أم عليلاً؟› لم أنطق بأي من آلاف الكلمات التافهة التي من خلالها تتجاهل دماء السيدة الحديدية عالم الرجل الذي تكشف فيه قرابة الدم عن الشجاعة أو الجبن، الحماقة أو الرغبة أو الخوف، أو الصفات التي تنتزع ثناء أقرانه عليه أو صلبهم له) هنري الذي جاء واقتحم الباب ارتكب جريمته واختفى، وصار لأنه بقي على قيد الحياة مجرد طيف أكثر من الشيء المجرد الذي دققنا المسامير في نعشه– طلق ناري لم يُسمع منه سوى صداه، حصان غريب نصف بري، يعلوه سرج فارغ، تحمل حقائبه مسدساً، وقميصاً نظيفاً مهترئاً، وكسرة خبز متحجرة، ألقى أحدهم القبض عليه على بُعد أربعة أميال بعد يومين أثناء محاولته اقتحام باب إسطبله. نعم، وأكثر من هذا: كان غائباً، كان على قيد الحياة؛ عاد لكنه لم يعد موجوداً؛ وارت ثلاث نسوة شيئاً ما في الثرى وغطينه، ولم يعد له أي وجود، وكأنه لم يكن.

ستسألني الآن عن سبب بقائي هناك. يمكن أن أقول إنني لا أعرف السبب، ويمكن أن أقدم عشرة آلاف سبب تافه، كلها أسباب واهية، وصدّق:– إنني بقيت من أجل الطعام، كيف لي أن أفوّت فرصة العيش في بلدة تمرّ فيها قنال تنمو الأعشاب على ضفافها، بلدة أزرع فيها حديقتي، ناهيك عن الجيران والأصدقاء ممن يسهل عليّ تقبل إحسانهم، لأن للحاجة طريقتها الخاصة في

محو مختلف أنواع الهواجس الوازعة الهشة من سلوكنا فيما يتعلق بالشرف والكبرياء؛ إنني بقيت لأحظى بمكان ألجأ إليه، سقف ملكي يأويني بهذه البساطة؛ أو إنني بقيت كرمى للصحبة، لأنعم في بيتي برفقة جيران من لحمي ودمي على الأقل، جيران عرفوني منذ نعومة أظفاري وطيلة حياتي بل وحتى قبل أن أولد بمعنى أنهم لا يفكرون بطريقتي وإنما كما فكر أسلافي، وجدت هنا رفقة سيدة واحدة لم أستطع، على الرغم من صلة الدم التي تجمعنا، فهمها، وإن ثبتت صحة الاستنتاجات التي توصلت إليها، لم أرغب أصلاً بفهمها، وصحبة أخرى غريبة تماماً قد تكون من عِرق مختلف (وهذا ما كنا عليه حقيقة)، لم نكن فقط من جنسين مختلفين (وهذا ما لم نكن عليه)، وإنما كان أحدنا من البشر والآخر ليس كذلك، لا يتحدث أي من اللغات التي يفهمها الآخر، عاجز عن نطق أبسط الكلمات التي أُرغمنا على لوي عنق أيامنا لتتأقلم معها وعن التعبير عن أفكاره ونواياه بغير أصوات شبيهة بالأصوات التي تتواصل من خلالها الوحوش والعصافير. لكني لم أبح بأي من هذا كله. بقيت هناك وانتظرت عودة توماس ستبن. نعم. ستقول (أو تعتقد) أنني انتظرت كي يخطبني؛ إن أنكرت ذلك، ستحسب أنني كاذبة. لكنني أؤكد أن هذه لم تكن نيّتي. انتظرته تماماً كما انتظرتاه جوديث وكليتي: لم يبق لنا غيره الآن، هو سبب بقائنا ووجودنا، لنأكل وننام ونستيقظ وننهض مجدداً: وعلى ضوء معرفتنا بحاجته لنا، وبناءً على هذه المعرفة (لأننا نعرفه) عرفنا أنه سيباشر فوراً إنقاذ ما تبقى من مزرعة ستبن واستعادة ما كان. لم يكن هذا ما نحتاجه منه. (لم أفكر للحظة واحدة بالزواج منه، لم أتخيل لثانية واحدة بأنه سيلتفت إلي، سيلحظ وجودي، لأنه لم يفعل ذلك من قبل. ربما ستصدقني، لن أخفي مشاعري وسأبوح في الوقت المناسب عن اللحظة التي فكرت فيها بالأمر). كلا. عرفنا حتى قبل اليوم الأول من الحياة الجديدة التي سنعيشها أننا لسنا بحاجة إليه، لا حاجة لأي رجل طيلة الفترة التي مكث فيها ووش جونز وعاش هناك– أنا من حافظت على بيت والدي وعلى حياته لمدة تقارب الأربع سنوات، جوديث حذت حذوي، وكليتي القادرة على تقطيع حزمة من الحطب أو حراثة الأرض على نحو أفضل (أو أسرع على الأقل) من جونز نفسه.– وهنا تكمن الحقيقة المؤسفة، إحدى أحلك الحقائق: ذلك السأم المنهك الذي ينخر القلب والروح عندما يكفان عن الحاجة لما هما بأمس الحاجة إليه. كلا. لم نحتجه، ولا حتى لقضاء مصالحه، لم نستطع مشاركته في رغبته (التي تقارب العزم الممسوس الذي أحضره معه إلى المنزل، بل وحتى سبقه وسيّره قبل النزول عن صهوة جواده) الجارفة لإعادة بناء المكان ليعود كما كان وضحى بالرقة واللطف والحب وكل الفضائل العذبة من أجله– إن افترضنا أنه امتلك هذه الفضائل كي يضحي بها، ويشعر بخسارتها، ويطالب الآخرين بالتحلي بها. ولا هذا أيضاً. لا أنا ولا جوديث طلبنا ذلك. ربما لثقتنا بقدرتنا على إنجاز ذلك، لكن أحسب أن هناك شيئاً آخرَ: أننا دخلنا في حالة

من اللامبالاة الأشبه بالسلام، مثل تلك التي تصيب الأرض المتبلّدة العمياء عندما تكف عن الحلم ببراعم الأزهار وتيجانها، وتكف عن حسد العزلة المغمورة بالموسيقا لأوراق الشجر المخضوضرة عندما يداعبها النسيم.

انتظرناه إذاً. عشنا حياة رتيبة مثل ثلاث راهبات في دير مقفر يعضه الجوع: جدراننا آمنة، منيعة بما يكفي، حتى لو لم تكن تكترث بظلف عيشنا وجوعنا. عشنا بألفة، وما همنا أننا سيدتان من البيض وزنجية، لم تكن ألفة تشبه تعايش ثلاث زنجيات أو ثلاث سيدات من البيض معاً، ولا حتى تعايش ثلاث نساء معاً، بل أقرب إلى تعايش ثلاثة مخلوقات ما زالوا يحتاجون لطعام حتى وإن كان بلا نكهة، يعوزهم النوم حتى وإن لم ينعموا بالراحة أو تجديد النشاط وإنما هرباً من الضجر، خبت رغبتهن الجنسية وضمرت كما ضمرت خياشيم الإنسان البدائي المسماة اللوزتين أو أصابع الإبهام المحتفظة بقدرتها على ملامسة باقي الأصابع التي كانت تلزم القردة للتسلق. اعتنينا بالمنزل، ليس كله وإنما الجزء الذي عشنا فيه، استخدمناه؛ اعتنينا بالغرفة التي سيقيم فيها توماس ستبن عقب عودته– لا الغرفة التي اعتاد الإقامة فيها قبل رحيله، غرفة الزوج، وإنما الغرفة التي سيعود إليها كأرمل بلا أبناء، عقيم بلا ذرية رغب بشدة بالحصول عليها تكبّد من أجلها عناء ونفقات إنجاب أطفال وتأمين مسكن لهم يشتمل على أثاث مستورد تحت سقف تتدلى منه ثريات الكريستال– واعتنينا أيضاً بغرفة هنري، أبقتها جوديث وكليتي على حالها تماماً، كما لو أنه لم يجتز الدرج ركضاً عصر ذلك اليوم الصيفي ثم هبطه مجدداً؛ زرعنا واعتنينا وحصدنا بأيدينا العارية كفاف يومنا، عملنا في الحديقة تماماً كما طهونا وأكلنا خيراتها: لا تمييز بيننا قائم على العمر أو اللون وإنما تمييز قائم على من منا قادرة على إشعال النار أو تحريك الطعام في القِدر أو إزالة الأعشاب الضارة من الحديقة أو حمل المئزر الممتلئ بالذرة إلى الطاحونة لإعداد الوجبة بأقل تكلفة ممكنة لتوفير الوقت والنفقات كي نستثمرها في مهام أخرى تعود بالفائدة علينا جميعاً.

كنا كائناً واحداً، متبدلاً لا يعرف التمييز، مما أبقى الحديقة في أحسن حال، ننسج الخيوط ونحيك ملابسنا، نبحث عن الأعشاب النادرة النامية على ضفتي القنال ونجزها لنقي أنفسنا من الأمراض عبر إبرام تسوية إسبارطية معه بما يسمح لنا به وقتنا وجرأتنا، نستعجل جونز ونضايقه لحثه على الاعتناء بالذرة وتقطيع الحطب لتأمين زوادتنا ومؤننا للشتاء مما يقينا البرد والجوع؛– ثلاثتنا، ثلاث نسوة: أخضعتني الظروف في عمرٍ صغير جداً لتجربة أديت فيها دور ربة منزل مفلسة تعيش مثل صخرة منارةً، لم يعلمها أحد كيف تعتني بحوض زهور، فما بالك بالعناية بحديقة مطبخ، تجربة علمتني رؤية الوقود واللحم بوصفها أشياء ترغب بمحض إرادتها أن تكون في صندوق حطب أو على رف المطبخ؛ جوديث التي خلقتها الظروف (الظروف؟ مئة عام من الرعاية

الفائقة، ربما لم تكن رعاية صلة الدم، ولا حتى صلة الدم التي تربطها بعائلة كولدفيلد، وإنما رعاية التقاليد التي شقتها إرادة توماس ستبن الجائرة) لتقطع مراحل الشرنقة الناعمة المعزولة المصانة: برعم، ملكة خصبة مدللة، ثم حاكمة تأمر وتنهى بقوتها الناعمة متسلحة بسكينة الشيخوخة والرضا الرغيد– جوديث التي يعود مردّ عجزها إلى عشرة أجيال من القبضة الحديدة الخانقة وليس بسبب سنوات الجهل مثلي، لم تتعلم أبسط مبادئ العوز القاضي بضرورة التقشف وترشيد النفقات كرمى للتقشف والترشيد فحسب، تطبخ (بتحريض من كليتي) أكثر بضعفين من قدرتنا على الأكل وثلاثة أضعاف من قدرتنا على تحمل نفقاته وتهبه لأي كان، أي غريب تطأ قدمه أرضاً بدأت تمتلئ بجنود مشرذمين يعبرون طلباً لما يسد رمقهم؛ وكليتي تحذو حذوها (ليس بدقة). كليتي، التي لا تعوزها الحصافة، يمكن وصفها بأي شيء باستثناء أنها خرقاء: منحرفة ملتبسة ومتناقضة: حرة، لكنها عصية على الحرية فهي لم تجد نفسها يوماً عبدة، لا ولاء تحمله لأحد مثل ذئب برّي متوحد معزول (نعم: برّي: سوداء نصف مدجنة، نصف دماؤها من ستبن: وإن كان غير المدجن مرادف لكلمة ‹برّي›، فإن ‹ستبن› الشر المستطير الصامت لسوط المدجِّن) التي يبدي ظاهرها المزيف الطاعة ليد الخوف ولكنها في الحقيقة غير ذلك، وإن كان هذا يعتبر ولاءً، الولاء الوحيد للمبدأ الرئيس الثابت المتجسد في وحشية الولاء نفسه؛– كليتي التي مثلت من خلال تصبغ لحمها تلك الكارثة التي أوصلتني وجوديث لما كنا عليه والتي أوصلتها على ما كانت عليه (كليتي) ورفضت أن تكون عادلة كما رفضت أن تكون ذاك الذي يهدف إلى تحريرها، كما لو أنها من خلال قيادة عزلة الوضع الجديد، بقيت عمداً لتمثل لنا النذير المحذر من الماضي.

كنا ثلاث غريبات. لا أعرف ما الذي دار في خلد كليتي، ما الحياة التي عاشتها ما الطعام الذي جمعناه وطهوناه بانسجام، الملابس التي حكناها ونسجناها معاً، أكلنا واختبأنا. لكنني حسبت ذلك لأنها وأنا كنا صريحتين، ويحنا، عدوتين شريفتين. بيد أنني لم أعرف بماذا فكرت جوديث وكيف أحست. نمنا في غرفة واحدة، ثلاثتنا (كي نقتصد في الحطب الذي تعين علينا حمله بأنفسنا وليس من أجل أي سبب آخر. نمنا في غرفة واحدة طلباً للسلامة. حلّ الشتاء باكراً وبدأ الجنود بالعودة– المشرذمون، لم يكن جميعهم قتلة وأوغاداً، وإنما رجالاً خاطروا بكل شيء وخسروا كل شيء، ذاقوا الأمرين وتحمّلوا ما لا يُحتمل وعادوا الآن إلى أرض يباب، ما كانوا الرجال أنفسهم الذين غادروا في صفوف عسكرية وإنما تحولوا– وهذا أسوأ ما في الأمر، إلى أقصى درجات الانحطاط التي تصل إليها الروح جرّاء الحرب– وصاروا يثنون على الرجل الذي يدفعه قنوطه ويأسه إلى إساءة معاملة زوجته الحبيبة أو عشيقته التي اغتُصبت في غيابه. كنا خائفات. أطعمناهم؛ قدمنا لهم كل ما نملك داوينا

جروحهم وتركناهم يرحلون معافين إن استطعنا ذلك. لكننا خفنا منهم)، اعتدنا الاستيقاظ ومباشرة مهامنا المملة التي لا تنتهي وتتمحور كلها حول التشبث بالحياة ومواصلة التنفس؛ دأبنا على الجلوس حول المدفأة بعد العشاء، جميعنا في حالة من الإنهاك والتعب لا ننشد سوى إراحة عظامنا وعضلاتنا المرهقة، حينما تعيد الروح الواهنة المنيعة تشكيل اليأس ليصير عماءً مريحاً لا يبصر رداءً مهترئاً، نجلس ونتحدث، نتحدث في مئات المواضيع– عن رتابة أيامنا المتعبة، عن آلاف المواضيع باستثناء موضوع واحد. تحدثنا عنه، توماس ستبن، عن نهاية الحرب (كان بمقدورنا استشراف أفولها الآن) وموعد عودته، وما الذي سيفعله: كيف سيبدأ مهامه الهرقلية [28] التي عرفنا أنه سينجزها بنفسه، والتي (ويحنا عرفنا ذلك أيضاً) سيرهقنا بها دون شك ويغرقنا بفظاظته المعهودة سواء رغبنا بذلك أم لم نرغب؛ تحدثنا عن هنري بتؤدة، في عجالة– ذلك القلق الأنثوي العادي العاجز عديم الفائدة على الذكر الغائب– كيف تدبر أموره، هل عضه البرد أو الجوع، تماماً كما تحدثنا عن والده، كما لو أن كليهما ونحن الثلاثة عشنا في ذلك الزمن الذي وضع فيه ذلك الطلق الناري، تلك الأرجل المجنونة المهرولة، نقطة ثم مُحي كل شيء، كما لو أن عصر ذلك اليوم لم يكن. لكننا لم نأتِ على ذكر تشارلز بون. غابت جوديث مرتين أواخر الخريف في فترة العصر، وعادت عند العشاء هادئة وهامدة. لم أسألها ولم ألحق بها، بيد أنني عرفت وعرفت أن كليتي عرفت أنها كانت تذهب لتزيل أوراق الشجر والمخلفات البنية لشجر الأرز عن ذلك القبر– ذوت تلك التلة تدريجياً واستوت بالأرض التي لم ندفن فيها أي شيء. كلا، لا وجود لطلق ناري. ذلك الصوت ما كان سوى صفقة باب أخيرة وقاصمة فصلتنا عن كل ما كان، كل ذلك لا يعدو أن يكون–ربما– فصلاً يعيد ترتيب سلسلة من الأحداث: لحظة متبلورة أزلية في زمن مستحيل عاشته ثلاث نسوة مهيضات الجناح عصيات على القهر رغم ذلك، يستبقن الحقيقة القائمة التي أنكرناها ورفضناها، نهبنا شقيق الفريسة، سرقنا قاتل الضحية من أجل رصاصته. هكذا عشنا لسبعة أشهر. ثم عصر أحد الأيام من شهر كانون الثاني عاد توماس ستبن؛ أحدهم لمحه من مكاننا في الحديقة حيث عكفنا على تحضير طعام يكفينا لسنة أخرى، كان على صهوة جواده متجهاً نحو المنزل. وفي إحدى الأمسيات، صرت خطيبته التي تستعد للزواج منه.

احتجت ثلاثة أشهر. (هل تلاحظ أنني لا أقول هو، وإنما أقول أنا؟) نعم، أنا، ثلاثة أشهر فقط، أنا من نظرت إليه على مدار عشرين عاماً على أنه غول (عندما تعين عليّ النظر إليه)، وحش طالع من إحدى قصص الأطفال المرعبة؛ من رأى جسده يعبر فوق جسد شقيقتي الميتة، لنبدأ بتحطيم بعضنا البعض، لكن مع ذلك هرعت إليه كالكلبة مع أول صافرة، ذلك المساء كان أول مرة منذ عشرين عاماً يرفع فيها رأسه نحوي ويتوقف ويبصرني. عجباً، لا

أملك عذراً لأقدم من خلاله (وربما قدمت بالفعل) ألف سبب واهٍ تماماً عن سلوك النساء، أسباب تتراوح من تقلبات المرأة الطبيعية إلى الطمع (أو حتى الأمل) بثروة أو مكانة محتملتين، أو حتى الخوف من الموت وحيدة دون رجل (وسيخبرونك حتماً) وهذا ما يحدث دائماً مع الخادمات الهرمات، أو من أجل الانتقام. كلا. لا مبررات أسوقها أمامك. كان بوسعي العودة إلى بيتي ولم أعد. ربما كان من الأجدى أن أعود إلى بيتي. لكني لم أعد. حذوت حذو جوديث وكليتي، اكتفيت بالوقوف أمام الرواق المتصدع وراقبته يقترب على صهوة حصانه الهزيل المتعب وبدا سراباً أكثر مما بدا جالساً فوق حصانه، بصلابة شرسة مشتعلة ناجمة عن نفاد صبر عجز عن مجاراتها الحصان المتعب، والسرج والحذاء العسكري والمعطف المهترئ الباهت وتطريزاته الوسخة المهلهة فوق سترة عسكرية قصيرة، وصلت هذه الصلابة قبله، وقبل أن يترجل ويقول ‹حسناً يا ابنتي› انحنى ولامست لحيته جبين جوديث، التي تجمدت دون حراك، وتجمدت ملامح وجهها المصمت الثابت، وتبادلا أربع جمل، أربع جمل تضمنت كلمات بسيطة مباشرة استشعرت من خلالها انسجام الدماء الجمعية ذاته الذي استشعرته في ذلك اليوم عندما استوقفتني كليتي عند الدرج: ‹هنري ليس—؟› ‹كلا. ليس هنا›. – ‹أها– وماذا بعد؟› ‹نعم. هنري قتله›، ثم انفجرت بالبكاء. نعم، انفجرت، جوديث التي لم تذرف دمعة واحدة حتى الآن، التي نزلت عن الدرج عصر ذلك اليوم، تعابير وجهها باردة وهادئة وأوقفتني أمام الباب الموصد؛ نعم، انفجرت، كما لو أن تراكمات الأشهر السبعة فاضت بعفوية وانبثقت من كل مساماتها وأفرغت الاحتقان دفعة واحدة (لم تهتز لها شعرة، لم تحرك عضلة واحدة) ثم انتهى كل شيء وتلاشى في غضون ثانية كما لو أن هالة الجلافة والبرود التي أسبغها عليها جففت الدموع قبل أن تذرفها: ظل واقفاً ويداه على كتفيها ثم نظر نحو كليتي وقال ‹كليتي› ثم نحوي– الوجه ذاته كما رأيته آخر مرة، أمسى أنحل قليلاً، عيناه القاسيتان نفسيهما، غزا الشيب شعره، بدا من ملامحه أنه لم يتعرف عليّ إلى أن قالت جوديث ‹هذه روزا. خالتي روزا. إنها تعيش هنا الآن›.

كان هذا كل شيء. دخل إلى حياتنا مجدداً ولم يثر أي زوبعة باستثناء تلك الدموع الآنية التي لم أصدق رؤيتها. لم يكن هناك، لم يكن في المنزل حيث قضينا تلك الأيام، لم يتوقف هناك. سترته العسكرية القصيرة كانت هناك، عاش في الغرفة التي خصصناها له وتناول الطعام الذي أنتجناه وأعددناه كما لو أنه عاجز عن تحسس نعومة الفراش أو التمييز بين المؤن لا من حيث جودتها ولا من حيث طعمها. نعم. لم يكن هناك. ثمّة شيء تناول الطعام معنا؛ تحدثنا إليه وأجاب عن أسئلتنا؛ جلس معنا أمام المدفأة ليلاً، يستيقظ دون سابق إنذار من ذهول تام مرتبك وعميق، يتحدث، لا يتحدث معنا، إلى الآذان الست المستمعة، العقول الثلاثة القادرة على الإصغاء، وإنما يتحدث إلى

الأثير، الحضور المنتظر الكئيب المتهالك، إلى الروح، إلى المنزل نفسه، حديث بدا مثل كلام منمّق يقوله مجنون يشيّد داخل جدرانه الكفنية قلعة كاميلوت [29] وحصن قرقشونة العملاقين. لم يكن ذاهلاً عن المكان، قطعة الأرض المربعة الاعتباطية التي أطلق عليها اسم مزرعة ستبن: لم يكن ذاهلاً عن ذلك قط. كان ذاهلاً عن الغرفة فحسب، لأن ذهنه في مكان آخر، شاردٌ في كل حقل مدمّر وسور مهدّم وجدار كوخ أو مخزن قطن مقوّض وكل مهد طفل مهشّم؛ نشر نفسه وذاب في تلك الضرورة الملحة المشتعلة والوعي المتقد بقصر الوقت والحاجة لاتخاذ تدابير عاجلة كما لو أنه التقط أنفاسه للتو ونظر حوله وأدرك أنه بات عجوزاً (كان في التاسعة والخمسين) وساوره القلق (لا الخوف: القلق) أنه لم يعد هناك متسع من الوقت ليفعل ما يود فعله، وأنه قد لا يملك الوقت ليفعله قبل دنو أجله. كنا محقين بخصوص ما يرغب بفعله: إنه لن يتوقف ولو لثوانٍ لالتقاط أنفاسه قبل ترميم منزله ومزرعته وإعادتهما قدر الإمكان إلى سابق عهدهما. احترنا في كيفية تحقيق هذا، واحتار بدوره أيضاً. لا حيلة له، إذ عاد بخفي حنين إلى منزله، ليجد الفراغ بانتظاره، فبعد أربع سنوات يبدأ تقريباً من الصفر. غير أن هذا لم يثنِ عزيمته أو يرهبه.

كنا نراه لِماماً. يغادر المنزل عند الفجر ويعود بعد حلول الظلام، معه جونز ورجل أو رجلان آخران عثر عليهما في مكان ما ليعملا معه لقاء أجرٍ ما، أجرٍ لربما يعادل القطعة النقدية التي دفعها لذلك المهندس المعماري الغريب– مستعيناً بالتزلّف والوعود والتهديد والقوة كحلٍّ أخير. بدأنا نفهم في ذلك الشتاء ما معنى مرشح انتخابي من الشمال وأبواب ونوافذ موصدة على أناس –نساء– ليلاً يرهبون بعضهم البعض بقصص عن ثورة الزنوج، حينما صارت الأراضي البور الجدباء المهملة والمدمرة بعد أربع سنوات من الحرب جدباء قاحلة، ومع ذلك دأب رجال يحملون مسدسات في جيوبهم على الاجتماع يومياً في أماكن سرية داخل البلدة [30]. لم يحضر أياً من هذه الاجتماعات؛ أذكر مرة أن أحد المفوضين اتصل، وقطع الأراضي الموحلة في مطلع شهر آذار وحشره في الزاوية كي يجيب بنعم أو لا، هل هو معهم أو ضدهم، صديق أم خصم: لكنه أبى، رفض، وعرض عليهم (محافظاً على تعابير وجهه المرهقة الجلفة ونبرة صوته) المواجهة إن رغبوا بذلك، وقال لهم لو أن كل رجل من الجنوب رد برده نفسه، فسنرى ازدهار هذه الأرض مجدداً، ستنقذ الأرض نفسها وسيتعيد الجنوب نفسه بنفسه: ورافقهم إلى أن خرجوا من الغرفة والمنزل ووقف جامداً في المدخل حاملاً المصباح فوق رأسه بينما وجَّه له المتحدث الرسمي باسمهم إنذاره الأخير: ‹يمكن اعتبار هذا بمثابة إعلان حرب يا ستبن›، وأجابه ‹أنا معتاد على خوض الحروب›. نعم، راقبته، راقبت غضب العجوز المنعزل الذي لا يحارب الآن الأرض العنيدة المنصاعة

شيئاً فشيئاً كما جرت عادته، وإنما يناضل الآن ضد ثقلٍ وازنٍ لزمن جديد متغير كما لو أنه يحاول السيطرة على نهر من خلال بناء سد باستخدام الحصى ويديه العاريتين: مدفوعاً مجدداً بوهم زائف يعده بتعويض ما خذله (خذله؟ خانه: وسيدمره هذه المرة) في السابق؛ أرى أوجه التشابه بوضوح الآن: المنعطف القاتل لسير الدائرة المتسارعة لكبريائه الوحشي، شهوته للعظمة الفارغة، رغم أنني عجزت عن رؤية ذلك حينها. وكيف لي أن أفهم وقتئذٍ؟ صحيح أنني كنت في العشرين لكنني طفلة رغم ذلك، طفلة ما تزال تعيش في رحم الممر حيث كان يعبر العالم من أمامي لا على هيئة صدى حي وإنما على هيئة طيف ميت مبهم، حيث راقبت بذهول مباغَت وهادئ للطفلة التي كنت عليها حينها التصرفات الطائشة السرابية حولي من الرجال والنساء– أبي، أختي، توماس ستبن، جوديث، هنري، تشارلز بون– التصرفات التي كانوا يطلقون عليها أسماء شرف، مبادئ، زواج، حب، الفقدان، الموت، الطفلة التي راقبته لم تكن طفلة وإنما أحد دعائم الحكم الثلاثي، المبني على المرأة الأم، الذي أرسيناه نحن الثلاث جوديث وكليتي وأنا، والذي أمّن الطعام والملبس والدفء لتلك القوقعة الجامدة وقدم متنفساً وفضاءً لينمو فيه ذلك الوهم الفارغ الوحشي الذي يدفع الناس لتوهم أنه ‹أخيراً صار لحياتي معنى وقيمة، على الرغم من أن هذا الوهم لم يحمِ سوى الغضب الطائش لطفلة مجنونة›. ثم وفي عصر أحد الأيام (كنت في الحديقة وبيدي مجرفة، عند تفرّع الطريق نحو الإسطبل) رفعت نظري ورأيته ينظر نحوي. نظر إليّ على مدار عشرين عاماً، لكنه الآن فقط رآني؛ وقف في الطريق ونظر نحوي، في وقت العصر. كان هذا كل شيء: لا بدّ وأن هذا كل ما حدث عصر ذلك اليوم، حينما كان من المفترض ألا يكون في الجوار إطلاقاً وإنما على بعد أميال عن المنزل وفي مكان غير مرئي وسط أميال مزرعته المئة التي لم يتكبدوا عناء سلبها منه بعد، ربما لم يكن الوقت قد حان بعد، منتشراً (ليس واهناً لدرجة النحالة وإنما تضخم وصار مهولاً، محيطاً بكل مكان كما لو أنه في لحظة مديدة لا تُقهر مثقلة بجهود مضنية أبقى على تلك المساحة الممتدة على مئة ميل مربعة سليمة ومصانة بينما وقف وجهاً لوجه على حافة الكارثة، بلا خوف أو تقهقر، في مجابهة ما أدرك في قرارة نفسه أنها الضربة القاصمة) غير أنه عوض أن يكون هناك رأيته واقفاً في الطريق ينظر نحوي نظرة فضولية وغريبة كما لو أن المكان أمام الحظيرة، والطريق صارا في اللحظة التي نظر فيها نحوي مستنقعاً خرج منه دون سابق إنذار يحذره من أنه سيدخل الضوء، ثم تابع سيره– الوجه، الوجه ذاته: لم يكن حباً؛ لم أقل ذلك، لم يكن نبلاً أو شفقة: مجرد ومضة مباغتة تعمي الأبصار، لحظة تنويرية، عاشها شخص أخبروه بأن ولده ارتكب جريمة قتل واختفى وقال ‹آه.– حسناً، يا كليتي›. ثم تابع سيره نحو المنزل. لكن هذا لم يكن حباً: لا أدعي ذلك؛ لا أتعلل بأي أعذار، لا أبرر ما حدث، يمكنني القول بأنه كان يحتاجني، استغلني؛ كيف لي أن أحتج

الآن، هل أحتج لأنه سيمعن في استغلالي الآن؟ غير أنني لم أقل ذلك؛ كان بوسعي قول ذلك هذه المرة، لا أعرف، كنت لأقول الحقيقة. لأنني لا أعرف. كان قد ذهب؛ لم أدرك ذلك أيضاً لأن الاستقلاب يطال الروح كما يطال الأحشاء، استقلاب تُحرق من خلاله تراكمات الزمن، وتولد وتخلق وتفضّ بكارة اللحم المفترس الجائع؛ عجباً، للمرة الثانية؛– أجل، تخسر كل الأعراف المتفرّعة عن كلمة لا أستطيع، لن أفعل، محال، بمجرد جرّة قلم شرسة في لحظة حمراء ملتهبة واحدة. كانت تلك لحظتي، كان بوسعي الهرب حينها لكني أحجمت عن ذلك، لاحظت أنه جاء لكني لم أنتبه للحظة مغادرته، وجدت نباتات البامياء جاهزة للطهي دون تذكر كيف حدث ذلك، جلست على مائدة العشاء تلك الليلة تحيطني قوقعة سحابية حالمة ومألوفة ترعرعت معنا وتهمس لنا (لم يلتفت نحوي ثانية خلال العشاء؛ ربما هذا ما قلته لنفسي حينها، إلى أي مجاري أحلام مضللة يقودنا اللحم المتبلد: لكنني لم أفعل) ثم وقبل إشعال المدفأة في غرفة نوم جوديث كعادتنا دخل ونظر إلينا وقال ‹جوديث، أنتِ وكليتي–› وتجمدت الدماء في عروقي، واصل تقدمه، ثم قال ‹كلا، لا تهتما لما قلته. لن يضير روزا سماعكما لما سأقوله أيضاً، فلا وقت أمامنا وجميعنا مشغولون› ودنا مني ووضع يده على رأسي وقال (لا أعرف أين ثبّت نظره، لكن استشففتُ من خلال صوته أنه لم يكن ينظر نحونا ولا نحو أي شيء في الغرفة) ‹قد يخيّل لك أنني لم أكن زوجاً صالحاً لأختك إلين. ربما هذا ما تعتقدينه. لكن حتى إن تجاهلتِ حقيقة أنني أكبر سناً الآن، ربما بمقدوري أن أعدك بألا أعاملك على نحو أسوأ على الأقل›.

هكذا كانت خطوبتي. النظرة المتبادلة تلك في حديقة المطبخ، اليد المرتاحة على رأسي في غرفة ابنته؛ أمر أمبراطور روسي، مرسوم رئاسي، تبجح هادئ منمّق مثل جملة (أجل، تحمل النبرة المتعالية نفسها) لا كي تُقال أو تُسمع وإنما كي تُقرأ كنقشٍ على حجر باهت في قاعدة تمثال منسي مجهول. لا أقدم أعذاراً، لا أدعي أيَ مبرر، لا أناشد أي رحمة، إذ لم أجب ‹موافقة› لا لأنه لم يسألني رأيي، وإنما لعدم وجود أي حيّز ولو كان ضيقاً، أو أي فاصل زمني لشغله بأي رد. كان بوسعي قول شيء ما. كنت لأوسع ذلك الحيّز بنفسي لو رغبت بذلك– لا أقصد حيّزاً يتسع لقول كلمة ‹نعم› رقيقة وإنما شق سلاح المرأة المجنون الأعمى اليائس الذي تصرخ فتحته بكلمة ‹لا! لا!› و‹النجدةّ!› و‹أنقذوني!› كلا، لا مبرر، لا رحمة أنشدها، فقد جلست ساكنة دون حراك، تحت تلك اليد الغافلة لشخص أراه منذ طفولتي على أنه غول وسمعته يوجّه حديثه إلى جوديث، سمعت خطوات جوديث، رأيت يد جوديث، لم أر جوديث– راحة اليد التي قرأت عبرها وكأنني أقرأ تاريخاً مطبوعاً أقرأ اليتم وظلف العيش، فقدان الأحبة؛ سنوات أربع عجاف شاقة من العمل على نول أحدث شقوقاً عميقة في الراحتين، العمل بالمعول والمجرفة وكل الأدوات

الأخرى التي أقرّ الرجال استخدامها: غفا فوق راحة جوديث الخاتم الذي أعطاه لإلين في الكنيسة قبل قرابة ثلاثين عاماً. نعم، ثمّة تشابه وتناقض وجنون كذلك. جلست دون أن أعي مشهد إدخاله الخاتم في إصبعي (جلس بدوره الآن، على الكرسي الذي نسميه كرسي كليتي بينما وقفت الأخيرة في ظل النور المنبعث من المدفأة) وأصغيت لصوته تماماً كما أصغت إلين في نيسان روحها قبل ثلاثين عاماً: لم يتحدث عني أو عن الحب أو الزواج، ولا حتى عن نفسه ولم يكن يخاطب بشرياً عاقلاً ولا بطريقة عاقلة أبداً، بل كان يخاطب قوى القدر المظلمة التي بعثها من سباتها وتحداها، خارجاً من حلم طائش جامح حيث مزرعة ستبن السليمة التي لم يعد لها أي وجود فعلي (ولن تقوم لها قائمة بعد ذلك قط) ولن تعود كما كانت عندما سمعت إلين كلامه للمرة الأولى، كما لو أنه من خلال إلباس ذلك الخاتم في إصبع شخص حي يستعيد عشرين عاماً ويوقف الزمن ويجمّده. نعم، جلستُ وأصغيت لصوته وقلت لنفسي ‹لماذا، إنه مجنون. سيصدر مرسوم زواجه هذه الليلة ويقيم مراسمه الخاصة، التي سيؤدي فيها دور العريس والقسيس معاً، ينطق بلسانه عبارات المباركة المجنونة حاملاً الشمعة التي يضعها عادة إلى جوار سريره: وأنا مجنونة أيضاً، لأنني أطيعه، أذعن له؛ أحرّضه وأجرفه›. كلا، لا أعذار أسوقها، ولا أناشد طلباً لأي رحمة. لو انتُشلت ليلتها (وقد انتُشلت بالفعل؛ أُجلت تضحيتي، سأقدم لاحقاً تضحية باردة عندما سنتحرر –سأتحرر– من كل مبررات الجسد المباغَتة اللحوحة الخائنة) لم يكن خطئي، لم يكن جزاء شيء اقترفته يداي ولم أشارك بما حدث، وحالما استعاد الخاتم وأخرجه من إصبعي، امتنع عن النظر نحوي إلا كما اعتاد النظر إليّ قبل عشرين عاماً من عصر ذلك اليوم، كما لو أنه عاش للحظة واحدة استراحة قصيرة من الجنون، استراحة تتناسب مع تعريف المجانين لهذه اللحظة، تماماً كما يستريح المجانين من جنونهم ليظلوا مدركين لحقيقة أنهم مجانين. تعدى الأمر هذا أيضاً. ظل يراني لثلاثة أشهر يومياً مع أنه لم ينظر نحوي منذ صرت أحد أعمدة ذلك الحكم الثلاثي الذي حظي بامتنانه الرجولي الفظ الأبكم لنجاحنا في تدبر أمورنا بتقشف إسبارطي لم يناسبه ربما لكنه ناسب على الأقل الحلم المجنون الذي عاشه. لكنه لم يرني طوال الشهرين التاليين. ومردّ ذلك على الأرجح إلى سبب واضح: كان مشغولاً جداً؛ فقد أتم خطوبته (ضمن ما أراده) ولا ضرورة لرؤيتي. لم يرني حتماً: لم نحدد قط موعد زفافنا. كما لو أن عصر ذلك اليوم لم يحل، لم يحدث أبداً. ولربما لم أكن في المنزل حينها حتى. وأسوأ من هذا: كان بوسعي الرحيل، والعودة إلى منزلي، وما كان ليشتاق إليّ. كنت (بصرف النظر عما أراده مني– لم يرد كينونتي، وإنما حضوري: مجرد حضوري، سواء كان حضور روزا كولدفيلد أو أي شابة لا تربطه بها أي صلة دم تمثل ما بحث عنه– لأنني سأمنحه هذا الشرف: لم يخطر بباله يوماً ما طلب مني فعله قبل لحظة عرضه لأنني أعرف قلة صبره وعجزه عن

انتظار شهرين أو حتى ثلاثة أيام ليطلب مني ما طلبه)– جسّد حضوري بالنسبة إليه مجرد غياب لمستنقع حالك وكرمة ونباتات متسلّقة كثيفة بالنسبة إلى ذلك الرجل الذي كافح ضمن مستنقع دون بوصلة أو مرشد أو دافع– بلا أمل، ولا أي بصيص نور: فساد شامل لرجل لا يهزم– معمي البصيرة أُقحم أخيراً بشكلٍ مباغت في أرض جافة صلبة تحت الشمس وفي مهب الريح– إن افترضنا أنه يشعر بوجود شيء مثل الشمس، أو إن وجِد من يضاهي السطوع الأبيض لجنونه. نعم، مجنون، لكنه لم يكن مجنوناً جداً. إذ ثمّة أمور عملية تحكم الشر: هناك قوانين يتبعها اللص، الكاذب، حتى القاتل، قوانين أسرع من قوانين الفضيلة؛ لِم لا ينطبق هذا على الجنون أيضاً؟ لو كان مجنوناً، فهو كذلك بسبب حلمه القهري اللاعقلاني وليس بسبب وسائله: كان جنوناً خالياً من أساليب المساومة والتملق للعمال الذين يؤدن مهام يدوية شاقة مثل جونز؛ كان جنوناً نظيفاً من الجياد المقنّعة المهرولة ليلاً [31] التي أفرغ أصحابه إن لم نقل أصدقاؤه من خلالها تقرحات وقيح الهزيمة؛ لم تكن خطة أو تكتيكاً مجنوناً أفضت به للحصول بأقل سعر ممكن على المرأة الوحيدة المتوفرة لتتزوجه، وباستخدام الأداة اليتيمة التي قد توصله إلى تحقيق مراده؛ ليس مجنوناً، كلا: لأنه ثمّة حتماً شيءٌ في الجنون، حتى الخطة الشيطانية التي يهرب منها إبليس، رعباً وهلعاً مما صنعته يداه، وينظر إليها الله بشفقة– شرارة ما، كسرة خبز لتخمير واستعادة ذلك اللحم الصريح، صيرورة الكلام والبصر والسمع والذوق والكينونة التي نسميها الكائن البشري. لكن هذا غير مهم. سأخبرك عما فعله وسأترك الحكم لك. (أو سأحاول إخبارك، لأنه ثمّة أشياء يمكن التعبير عنها بثلاث كلمات وربما نكون قد أسهبنا إن شرحناها حتى بثلاث كلمات، وهناك أشياء تُشرح بثلاثة آلاف كلمة وقد لا يكون هذا كافياً، وتنطبق حالتنا على الحالتين معاً. يمكن سرد الحكاية؛ بوسعي قول جمل عديدة، تكرار الكلمات الوقحة الصريحة العارية الفاضحة بالطريقة نفسها التي نطق بها، وأنقل إليك الرعب والهلع ذاتهما وعدم التصديق المثير للحنق الذي عشته عندما استوعبت قصده؛ أو أقول ثلاثة آلاف جملة وأترك لك إشارات الاستفهام لماذا؟ لماذا؟ ولماذا؟ الأسئلة التي طرحتها وسمعتها على مدار قرابة خمسين عاماً). لكنني سأترك لك الحكم وقرّر بنفسك إن كنت مخطئة أم مصيبة.

كما ترى، كنت تلك الشمس، أو حسبت أنني أنا من صدق بوجود الشرارة، مستنقع الجنون المقدس ذاك، على الرغم من أن الجنون لا يعرف كلمات تعبّر عن الرعب والذعر ولا طرقاً لالتماس الرحمة. كان هناك غول طفولتي الذي نقل أختي قبل ولادتي إلى كهفه العملاق المظلم وأنجبا نصف شبحين لم يلقيا مني أي تشجيع، ولم أرغب بأي صلة تربطني بهما كما لو أن عزلتي الناجمة عن ولادتي بعد زواجهما قد أكسبتني حدساً حول ذلك الارتباط القاتل،

حذرتني من ذروة الأحداث الفتاكة المزمجرة قبل معرفتي باسم القاتل– وغفرت ذلك؛ هناك شبح قاد حصانه تحت الراية (سواء كان شيطاناً أم لم يكن) عانى بشجاعة– وصفحت عن ذلك بل وتعدى موقفي الصفح والغفران: طمست ما حدث، لأن الجسد والدماء والذاكرة التي سكنها الغول عادت بعد خمس سنوات ورفع يده وقال ‹تعالي› كما لو أنك تخاطب كلباً، وأتيت. نعم، الجسد والوجه، الاسم الصحيح والذاكرة الصحيحة، حتى الاستحضار المناسب للمواضيع والأشخاص (باستثناء نفسي: أولم يكن هذا دليل جديد؟) الذين خلّفهم وراءه وعاد إليهم: ولكن لم يكن الغول؛ إنه شرير صادق بحق، آثم قاتل يثير الذعر أكثر مما يثير الشفقة: لكنه لم يكن غولاً، غير أني حدّثت نفسي، لِم لا يكون الجنون ضحية جنونه أيضاً؟ أو لِم يكون جنوناً أصلاً وليس قنوطاً منعزلاً يخوض صراع الأقانين مع الروح الحديدية الوحيدة الملعونة الجبّارة: لكنه لم يكن غولاً، لأنه كان ميتاً، متلاشياً، مستهلَكاً التهمه اللهب ورائحة الكبريت ربما وسط ما علق في ذاكرتي أو غاب من مشاهد رأيتها أثناء اختلاس النظر في حبسي الانفرادي المضطرب الوحيد في طفولتي؛ كنت تلك الشمس، التي حسبت أنه (بعد ليلتئذ في غرفة جوديث) لم يكن ذاهلاً عني ولكنه فقط غير واعٍ ومجرد متلقٍ مثل حاجٍ تحرر من المستنقع وبدأ بتحسس الأرض والشمس والضوء مجدداً رغم أنه غير مدركٍ لأي شيء حوله سوى الظلمة وحنينه للمستنقع– لا يؤمن بسحر دم قد يسبغه عليه شخص لا تربطه به قرابة تحت مُسمّى كلمة باهتة اسمها الحب، سحر قد يصير شمسه (مع أنني الأصغر والأضعف) حيث لا وجود لظل كليتي وجوديث؛ نعم، أنا الأصغر بينهم وفي الوقت ذاته كان عمري وقوتي غير قابلين للقياس لأنني الوحيدة بينهم التي قالت ‹مهلاً أيها العجوز المجنون الرعديد، لا كنوز لدي لأناسب حلمك لكن بوسعي أن أمنحك فضاءً أثيرياً ومسرحاً تهذي فيه كما يحلو لك›. وفي عصر أحد الأيام– يوم قال فيه القدر كلمته: العصر والعصر والعصر: أتلاحظ هذا؟ العصر موت الأمل والحب، موت الكبرياء والمبادئ، موت كل شيء عدا الإنكار الذاهل الدفين الحانق الذي استمر لثلاثة وأربعين عاماً– عاد إلى المنزل وناداني، كان في الرواق الخلفي ونزلت؛ أخبرتك أنه لم يفكر بهذا قبل تلك اللحظة، تلك اللحظة المترامية التي امتدت بين المنزل والمكان المجهول الذي كان فيه عندما فكر بالأمر: كان هذا مصادفة أيضاً: اليوم الذي عرف فيه بالتأكيد وبدقة أخيراً عدد الأميال التي بوسعه الاحتفاظ بها وتبقى باسمه يوم وفاته، وأنه بصرف النظر عمّا سيحل به الآن، فسيحتفظ بقوقعة تحميه في مزرعة ستبن التي تمتد على مئة ميل، رغم أن اسمها سيصير مزرعة الميل الواحد– ناداني، صرخ يستدعيني إلى أن نزلت. لم يسعفه صبره للانتظار حتى يعقل حصانه؛ وقف والعنان في يده (لا يد تحط على رأسي الآن) ونطق بالكلمات الوقحة الشائنة كما لو أنه يعلّم جونز أو أحد رجاله طرق تزاوج الكلاب أو الأبقار.

لا بد وأنهم أخبروك عن عودتي إلى منزلي. آه، نعم، أعلم: ‹روزي كولدفيلد، خسرته، تبكيه؛ اصطادت رجلاً لكنها لم تستطع الاحتفاظ به›– آه أجل، أعلم (وبلطف أيضاً، سيقولون ذلك بمنتهى اللطف): روزا كولدفيلد، العصا المحنية اليتيمة المثيرة للشفقة الريفية المسماة روزا كولدفيلد، خُطبت بسلامة أخيراً، هذا ما ستخبرك به البلدة والمقاطعة؛ سيقولون لك: كيف غادرت لأعيش ما تبقى من العمر، رأيت ابن أختي يرتكب جريمة قتل ويأتي على فعل لا صلاحية سوى لله على فعله ليتيح لي أداء ما يفترض أن أختي المحتضرة أوصتني به بأن أنقذ أحد الطفلين على الأقل وأضمن النجاة التي حرمتهما منها بمجرد ولادتها لهما وأوصتني بالبقاء في المنزل عندما يعود، الشيطان، الذي لم تنل منه الرصاصات ولا القذائف؛ انتظرته لأنني كنت شابة حينها (لم أدفن بعد أي أمل ملفوف بالعلم وسط موسيقا عسكرية جنائزية) بلغت سن الزواج في هذا الزمان والمكان حيث صار الشباب موتى والأحياء إما عجائز أو متزوجين أو منهكين، متعبين لا طاقة لهم على الحب؛ كان فرصتي الأفضل والوحيدة: في بيئة تضجّ بالعوز والنقص الناجمين عن الحرب كانت فرصي شحيحة لأنني لم أكن فقط نبيلة جنوبية وإنما أيضاً الشخصية الأكثر تواضعاً تتحدث ظروفها وخلفيتها عن نفسها بنفسها فلو كنت ابنة مزارع ثري لكان بوسعي الزواج ممن أشاء ولكن لأنني ابنة حانوتي بسيط لم تجد الورود طريقها إلى يدي وكُتب عليّ الزواج أخيراً من موظف عادي تحت التجريب يعمل مع أبي؛– نعم، لا بد وأنهم أخبروك: عن الشابة التي دفنت الأمل لأول مرة تلك الليلة بعد أربع سنوات من الجلوس إلى جوار شمعة مهشمة تعاني الأرق تحنط الحرب وإرثها من المعاناة والظلم والحزن وتكتب على الجهة الخلفية من ورق دفتر حسابات قديم، تحنط وتجفف الرائحة النتنة السرية السامة للشهوة والكراهية والقتل لتختلط مع الهواء الذي تتنفسه؛– سيقولون لك: ابنة متهرب من الخدمة العسكرية صار شيطاناً، شريراً: ولهذا كانت محقة في كرهها لوالدها ولو أنه لم يقضِ نحبه في تلك العليّة لما كان عليها الخروج طلباً للطعام والحماية والملاذ ولو لم تعتمد على الطعام والملبس الذي وفرهما لها (حتى لو لم تساعد في زرع الكتان وحياكته) للبقاء على قيد الحياة ولحمايتها من البرد ولو لم تأذن العدالة وتسمح له بحفظ ماء وجهها لما صارت خطيبته ولو لم تصبح خطيبته لما كتب عليها سهاد الليالي وطرح السؤال مراراً وتكراراً على نفسها لماذا ولماذا ولماذا كما دأبت على فعله خلال ثلاثة وأربعين عاماً: كما لو كان من حقها ولو غريزياً حتى في طفولتها كره والدها ولهذا أمست هذه السنوات الثلاث والأربعين المليئة بالغضب العنين القاهر انتقام الطبيعة المركبة والساخرة والعقيمة وقصاصها منها لكرهها الرجل الذي أنجبها.– نعم، عقدت أخيراً خطوبة روزا كولدفيلد، مع تجاهل حقيقة أن توفير شقيقتها لها المأوى والأقارب على الأقل، قد يصير تهمة توجهها البلدة لها: والآن روزي كولدفيلد، خسرته، تنتحبه؛ وجدت رجلاً

لكنها فشلت في الاحتفاظ به؛ روزا كولدفيلد التي قد تكون محقة فقط، أن تكون محقة، غير كافٍ بالنسبة للنساء اللواتي يفضلن أن يَكُنَّ على خطأ على أن يَكُنَّ مجرد نساء يبحثن عن الرجل حيث لا يصبحن على حق ما لم يعترف الرجل بأنه على خطأ. وهذا ما لن تغفره له قط: القصد ليس أنها لن تغفر إهانته لها، ولا هجره لها: لن تغفر أنه ميت. آه، نعم، أعلم، أعلم: كيف عرفوا بعد مرور شهرين أنها حزمت مقتنياتها (القليلة، ارتدت الشال والقبعة مجدداً) وعادت أدراجها إلى البلدة، لتعيش وحيدة في المنزل حيث مات أبواها ورحلا وحيث ستعرج عليها جوديث من وقتٍ لآخر وتحضر معها ما يتيسر من الطعام مما توفره مزرعة المئة ميل والذي بالكاد يسد رمقهم، يغذي إرادة العيش العنيدة الوحشية المبهمة التي ترغمها (ترغم الآنسة كولدفيلد) على القبول. هذا رهيب حقاً: باتت البلدة الآن– المزارعون العابرون، الخدم الزنوج العاملون في مطابخ البيض– يرونها تجمع العشب مع شروق الشمس عند أسوار الحديقة، تجره على طول السور لأن بيتها بلا حديقة، ولا تملك البذور لزراعتها، ولا أدوات تعمل بها حتى لو أتقنت تماماً استخدامها فهي حديثة العهد بالبستنة وما كانت حتماً لتقوم بذلك لو أتقنت البستنة هي من تأبى الاستسلام؛ تدور حول سور الحديقة وتقطف الخضار وكانوا يرحبون بها ويسمحون لها بأخذ الخضار بل ومستعدون لقطفها وإرسالها لها حيث كان أناس كثيرون غير القاضي بينبو يرغبون بترك سلال المؤن على شرفة منزلها الأمامية ليلاً ولكنها ما كانت لترضى بذلك هي من ترفض حتى استخدم عصا لتصل إلى الخضار من فوق السور وتقرب الأغصان منها لتقطفها، كان قطف ما تصل إليها يدها دون الاستعانة بأي أداة أقصى ما وصلت إليه لصوصيتها، ولم يكن حرصها على ألا ترى البلدة سرقتها ما دفعها لقطاف الخضار قبل استيقاظ البلدة إذ لو أنها تمتلك زنجياً لأرسلته في وضح النهار ليغير على البلدة، وما كانت لتهتم ولا لتعر ذلك أي اهتمام، تماماً على غرار الأبطال الفرسان الذين كتبت فيهم الشعر وما كانوا يلقون لها أي بال.– نعم روزي كولدفيلد، خسرته، انتحبته؛ اصطادت معجباً لكنها عجزت عن الاحتفاظ به؛ (آه نعم، سيخبرونك) اصطادت معجباً وأهينت، سمعت شيئاً لا يُغتفر، لا يُعزى هذا إلى سماع ما قيل وإنما لأنه فكر فيها بهذه الطريقة وعندما سمعته نزل عليها كلامه كالصاعقة وأدركت أنه فكر بالأمر ليوم على الأقل، لأسبوع، أو حتى لشهر، تأملها يومياً والفكرة تدور في خلده فيما كانت غافلة تماماً عما يجري. لكنني سامحته. سيخبرونك العكس، لكنني غفرت له. لِم لا أسامحه؟ ما من شيء لأغفره؛ لم أخسره لأنني لم أملكه يوماً: قطعة محددة من الوحل العطن دخلت حياتي، قالت لي ما لم أسمعه من قبل وما يتعين ألا أسمعه مجدداً قط، ثم رحلت؛ كان هذا كل شيء. لم أملكه يوماً؛ لم أملكه حتماً بالطريقة المقرفة التي قد تقصدها وربما تعتقد (لكنك مخطئ) أنني أقصدها. هذا غير مهم. لم يكن هذا أسوأ ما في الإهانة. أعني أنه لم يكن مملوكاً لأي

أحد أو لأي شيء في هذا العالم، لم يكن يوماً، ولن يكون، حتى إلين لم تمتلكه، ولا حتى حفيدة جونز. لم يكن موجوداً في هذا العالم. كان ظلاً يمشي. كان ظل عذابه متجسداً على هيئة خفاش شكّله ضوء مصباح شيطاني مبهر يعمي الأبصار خرج من تحت قشرة الأرض ولهذا كان ظلاً معكوساً، مقلوباً: من ظلمة سحيقة فوضوية إلى ظلمة سحيقة أبدية تدق المسمار الأخير في انحداره (أتلاحظ انحداره التدريجي؟) الجُمل المنقوصة، التشبث، محاولته التشبث عبثاً بأيدٍ هلامية بما أمِل أن يجمع شتاته، ينقذه، يأسره– إلين (هل تلاحظ الانحدار؟)، أنا، ثم في نهاية المطاف الابنة غير الشرعية الوحيدة لووش جونز التي، كما سمعت، ماتت في بيت دعارة في ممفيس– ليبلغ ما ينشده (حتى لو لم يجد السكينة والسلام) أخيراً في ضربة منجل صدئ. أخبروني بهذا أيضاً، لم يكن جونز من أخبرني هذه المرة وإنما شخص آخر لطيف تذكرني والتفت إليّ ليخبرني بأنه قضى نحبه. صرخت ‹مات؟›. ‹مات؟ أنت؟ أنت تكذب؛ لستَ ميتاً؛ السماء تعجز عن قتلك والجحيم لا يجرؤ، هل مت حقاً!› لكن كونتن لم يكن مصغياً، فثمّة ما يعترض طريقه أيضاً ويعجز عن عبوره– ذلك الباب، الخطوات المهرولة على الدرج خلف الباب الذي ما يزال يردد صدى طلق ناري خافت، السيدتان، الزنجية والفتاة البيضاء وثيابها التحتانية (المصنوعة من أكياس الطحين عندما تتوفر ومن الستائر عندما لا تتوفر الأكياس) يتوقف، ينظر نحو الباب، الساتان والدانتيل القديم المزركش الكريمي المصفر المفروش بعناية على السرير ثم تلفته الفتاة البيضاء ويتوقف أمامها ثم فجأة ينفتح الباب ويطل الأخ، محباً، شعره أشعث مقصوص بالسكين، وجهه هزيل متعب غير حليق، سترته القصيرة مرقّعة وباهتة ورمادية، مسدسه ما يزال على خاصرته: الاثنان، الأخ والأخت، متشابهان على نحوٍ غريب كما لو أن اختلاف جنسيهما لم يفعل سوى توحيد الدماء المشتركة لينتج تشابهاً مثالياً لا يُحتمل، تحدثا إلى بعضهما البعض وتبادلا جملاً قصيرة موجزة متقطعة وكأنها صفعات، كما لو أن صدريهما يتلاكمان، دون أن يبادر أحدهما ليقي نفسه من ضربات الآخر:

لا يمكنك الزواج منه الآن.

لماذا لا أستطيع الزواج منه؟

لقد لقي مصرعه.

مات؟

أجل. لقد قتلته.

لم يستطع كونتن استيعاب ذلك. لم يكن يصغي إليها أصلاً؛ قال «سيدتي؟ ما هذا؟ ماذا قلتِ؟»

«ثمّة شيء ما في ذلك المنزل».

«في ذلك المنزل؟ إنها كليتي. أليست—»

«كلا. ثمّة شبح يعيش هناك. يختبئ في المنزل. ظل هناك لأربع سنوات، يعيش ويختبئ في ذلك المنزل».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–6–

ذابت ندف الثلج العالقة على كُمّ معطف شريف رويداً رويداً، احمرّت يده المربّعة الشقراء التي خلع عنها القفاز تحت تأثير لسعات البرد القارس في الخارج. على الطاولة البعيدة أمام كونتن، ثمّة ظرف مستطيل أبيض فوق كتاب مفتوح تحت المصباح، ورسالة مكتوبة بخط يد والده المألوف الجميل وبأسطر مائلة قرأ جفرسون 10 كانون الثاني 1910 الآنسة ثم فتح الظرف، لمح مطلع الرسالة ابني الغالي، كتب والده الرسالة من المكان الذي كان يجري تحضيراته للدخول إلى جامعة هارفرد، وهكذا وصلت الرسالة إلى جامعة كامبريدج لتُقرأ تحت ضوء مصباح طاولة غريبة؛ كتبها في غسق ذلك اليوم الصيفي الخانق– حيث زهرة الوستاريا، رائحة السيجار، اليراعات– طارت كلها بخفة من الميسيسيبي ودخلت إلى الغرفة الغريبة، متحدية الثلج القاصم الغريب في نيو إنغلاند:

ابني الغالي،

دُفنت الآنسة روزا كولدفيلد البارحة. دخلت في غيبوبة قرابة أسبوعين وفارقت الحياة قبل يومين دون استعادة وعيها ودون ألم لا أعرف ما معنى هذا، فلطالما خُيّل إليّ أن الموت الخالي من الألم هو ذاك الذي يأخذ العقل على حين غرّة بغفلة منه وبضربة قاضية غادرة إن صح التعبير، فالموت حالة شعورية قصيرة وغريبة يعيشها الفقيد ولا بدّ أن تكون الظروف عابرة وغريبة على حدٍ سواء، ولا أعرف إن كان هناك ألم يصيب العقل أصعب من ذاك الذي يشعر به الطفل أو الأحمق أمام مواجهة بطيئة وتدريجية نعرف مع الوقت أنها نهاية قطعية ومبرمة، لا أعرف إن كان هناك مجال لهدهدة الألم أو إيقافه من خلال اللجوء إلى مهرب نهائي نلوذ به من غضب عنيد ذاهل مشتعل على مدار ثلاثة وأربعين عاماً صار خبزنا اليومي ووقودنا وكل حياتنا، لا أعرف معنى ذلك أيضاً— [32]

استحضرت الرسالة معها إلى أجواء تلك الأمسية من شهر أيلول (وسرعان ما راودته حاجة ملحّة لقول ‹كلا، لا خالة ولا ابنة أخ ولا ابنة عم بل روزا. الآنسة روزا. الآنسة روزا كولدفيلد، عجوز قتلها الغضب منذ ربعان شبابها عام 1866 في الصيف» ثم شريف «تقصد أنها ليست من أقاربك، ليست قريبتك على الإطلاق، إنه ليس هناك أي جنوبي اسمه بيارد [33] أو غوينيفير [34] تربطك به صلة قرابة؟ ثم كيف قضت نحبها؟» لم تكن هذه المرة الأولى التي يطرح فيها شريف مثل هذه الأسئلة، بالأحرى لم تكن المرة الأولى التي يطرح فيها شخص ما في كامبريدج هذه الأسئلة منذ أيلول: أخبرنا عن الجنوب. كيف تسير الأمور هناك. ماذا يفعل الجنوبيون. لِم يا ترى يعيشون هناك. لماذا

يعيشون أصلاً)– في تلك الأمسية الأيلولية عندما توقف السيد كمبسن عن الكلام أخيراً، نفض (كونتن) كلام والده من رأسه أخيراً لأنه حان وقت المغادرة، لم يبق كلام والده في رأسه لأنه لم يكن مصغياً وليس لأنه لم يسمعه قط إذ ثمّة شيء لم يستطع تجاوزه: ذلك الباب، ذاك الوجه النحيل المأساوي الدرامي الشاب الذي نوّم نفسه مغناطيسياً مثل ممثل تراجيدي في مسرحية يؤديها جامعيون هواة، هاملت الأكاديمي مسرنماً بعد إسدال الستارة يتبختر فوق الخشبة المغبرّة التي غادرها باقي الممثلين بعد انتهاء العرض، الأخت أمامه مباشرة وبينهما فستان العرس الذي لم ترتده يوماً، لم ترتده حتى لاستكمال اللمسات الأخيرة، تراشقا اثنتي عشرة أو أربع عشرة كلمة مكررين الكلمة نفسها مرتين أو ثلاث مرات أي إن الكلمات التي استخدماها لن تتعدى الثماني أو العشر كلمات إن عددتها جيداً. وهي (الآنسة كولدفيلد) ملتفة بشالها، كما خُيّل له، ترتدي قلنسوتها (كانت سوداء قبل أن تبهت وتكتسي الأخضر الحديدي القاتم العدائي مثل ريش طاووس هرم) حقيبة يدها كبيرة بما يكفي لتكون حقيبة سفر تتسع لكل مفاتيح البيت: خزانة المطبخ وخزانة الملابس والباب، بعض المفاتيح غير صالحة لفتح الأقفال التي يستطيع طفل صغير فتحها في البيت المغلق مستخدماً دبوس شعر أو حتى علكة، بعضها لا يناسب الأقفال التي صُنعت من أجلها على غرار الأزواج العجائز الذين لم تعد تجمعهم أي روابط مشتركة ولا أشياء يقولونها أو يفعلونها معاً، ولا يتقاسمون أي شيء اللهمّ إلا ثقل الهواء يتبادلانه ويتنفسانه والأرض المنتظرة اللامبالية التي تحمل وزنهما؛– تلك الأمسية، الأميال الاثني عشر التي خلّفتها وراءها المهرة البدينة في غبار ليلة أيلولية لا قمر في سمائها، الأشجار المنتشرة على طرفي الطريق لا تشبه في شيء الأشجار الباسقة وإنما بدت راكعة مثل ديك ضخم، أوراقها متغضنة ومتباعدة بثقل عن بعضها البعض مثل ريش ديكة لاهثة، مثقلة بستين يوماً من الغبار، شجيرات الطريق يلفها غبار قسّته الحرارة، تُلمح من بين السُّحب الغبارية التي اخترقها الحصان والعربة، بدت مثل كتل مطاطية عمودية هشة ومتصلّبة دون حراك وكأنها طين آسن قديم منقّى من الأوكسجين متكوم على جانبي الطريق، السُّحب الغبارية التي سارت العربة عبرها جامدة في مكانها لا تزحزحها الرياح ولا يدعمها أي هواء ولا تتحرك إلا بعوامل محرِّضة، متكتّلة حولهم، آنية وأزلية في آن، قدم مربّع من الغبار يليه قدم مربّع من الغبار ثم قدم مربّع من الحصان والعربة يليه قدم مربّع من الحصان والعربة، تتجول تحت فسحة السماء التي تُلمح بشكلٍ متقطع عبر الأغصان، سماء مسطحة سوداء مثقلة بنجوم شرسة، تواصل السُّحب الغبارية سيرها، تلفهم دون خيوط ولكن تحيطهم بإشارات تحذيرية ربما، تحذير رقيق وودي، كما لو أنها تقول اقتربا إن شئتما. لكنني سأسبقكما؛ أتكدس أمامكما وأصل قبلكما، أرتفع، أنزلق برفق تحت الحوافر والعجلات فتتوها عن وجهتكما ولا يتبقى لكما سوى

الانغمًاس بلطف في تلة ومشهد بانورامي لليلة هانئة يكتنفها الغموض ولن تجدا أمامكما سوى خيار العودة ولهذا أنصحكما بعدم الذهاب، عودا أدراجكما الآن ودعا ما سيحدث يحدث، مذعناً (كونتن) لهذا، جالساً في العربة إلى جوار عجوز عنيدة بحجم الدمية ممسكة بمظلتها القطنية، يشمّ رائحة لحم العجوز المكثفة بفعل القيظ، ورائحة الكافور المكثف بفعل الحر في الطيات القديمة للشال، يشعر وكأن دمه وبشرته استحالت إلى مصباح كهربائي لعجز العربة عن منحه ما يكفي من الهواء ليبرد جلده، لا تتحرك بسرعة تكفي لجعل جلده يتعرّق، يفكر بينه وبين نفسه قائلاً يا إلهي الرحيم، دعنا لا نجده أو نجد الشبح، لا نحاول إيجاده أو إيجاد الشبح، ألّا نخاطر بقض مضجعه أو مضجع الشبح: (ثم قال شريف مجدداً، «مهلاً. مهلاً. أتقصد أن هذه السيدة العجوز، الخالة روزا —»

قال كونتن: «الآنسة روزا»

«حسناً، حسناً. – تلك العجوز، الآنسة روزا–»

«الآنسة روزا، أقول لك إن اسمها الآنسة روزا».

«حسناً حسناً حسناً.– تلك العجوز– هذه الخالة ر– حسناً حسناً حسناً حسناً.– لم تخرج، لم تطأ قدمها البيت خلال ثلاثة وأربعين عاماً، لكنها مع ذلك تقول إن أحدهم مختبئ في المنزل وعلى الرغم من ذلك وجدت من يصدقها، ويرافقها في تلك العربة ويقطع الأميال الاثني عشر في منتصف الليل للتأكد إن كانت مخطئة أو مصيبة؟»

قال كونتن «نعم».

«تلك الكهلة التي ترعرعت في منزل أشبه بضريح مكتظ، التي أمضت حياتها بلا هدف لا دافع لها سوى كرهها وبغضها لوالدها ولعمتها وزوج أختها عاشت بسلام وراحة منتظرة اليوم الذي يثبتون فيه لأنفسهم وللآخرين أيضاً أنها كانت مصيبة: وفي إحدى الليالي تسلقت العمة أنابيب تصريف مياه المطر وهربت مع تاجر خيول وكان رأيها صائباً بخصوص العمة وهذا كافٍ ليستقيم الوضع: ثم حبس والدها نفسه في العلية كي لا يُجر إلى جيش المتمردين وقضى جوعاً وهذا يعيد الأمور إلى نصابها باستثناء وجود احتمال لا يمكن غضّ النظر عنه، وهو أنه في لحظة دنو أجله عندما حلت لحظة الاعتراف لنفسه بأنها كانت على حق لربما عجز عن نطق كلمة واحدة أو لربما لم يكن إلى جواره من يقول له ذلك: إذاً كانت محقة برأيها حول الأب أيضاً فلو لم يدفع الجنرال لي وجيف ديفيس إلى الجنون لما تعين عليه حبس نفسه والموت، ولو لم يمت لما جعلها يتيمة ومعدمة تقاسي كل تلك الظروف، هشة تعاني الأمرّين مما وضعها في موقفٍ يسمح بأن تتلقى تلك الإهانة القاتلة: ومحقة

حول صهره لأنه لو لم يكن شيطاناً لما احتاج أولاده لمن يحميهم منه ولما توجب عليها الذهاب إلى هناك تحت ضغط خذلان جسدها العجوز ومتطلباته لتجد هي كاسندرا عوضاً عن أغاممنون الأرمل بيراموس القديم ذا المفاصل المتصلّبة الذي تشتاقه ثيسبي العذراء وتجرأ دون سابق إنذار في هذا اليوم الشيطاني من شهر نيسان على اقتراح أن يتزاوجا على سبيل التجربة والاختبار فإن كان المولود ذكراً حينها يتزوجان؛ ولما تعين عليها العودة إلى البلدة مرغمة تلتهمها نيران الغضب والهلع لتذوق العلقم وتبتلع المرارة وتسرق الطعام فجراً من خلف الأسوار المتآكلة: لم تُحل هذه المسألة قط بسبب هوية الفتاة التالية التي عرض عليها هذا العرض، لا لأنه وجد من يعرض عليها هذا بعد رفضها مباشرة وفي لمح البصر دون عناء، بقيت هذه النقطة معلقة بسبب هوية من خلفتها، من الممكن تصور أنها عانت موقفاً مشابهاً رفضت فيه عرضاً وجدته خليفتها عرضاً سخياً وقبلت أن تحلّ مكانها، حتى لو كان عرضاً قدمه لها الشيطان بعينه، لم تُحل هذه المسألة يوماً إذ عندما حانت ساعة الاعتراف بأنه كان مخطئاً واجهتها المعضلة نفسها التي واجهتها مع والدها، كان قد أسلم الروح أيضاً لأنها حتماً تنبّأت بالمنجل الذي هوى عليه للسبب نفسه ألا وهو الذل ونوبة غضب أخيرة على غرار المطرقة التي دقت المسمار الأخير في نعش عمل والدها– ذلك المنجل، إكليل نصر قيصر– المنجل الصدئ الذي قدمه الشيطان نفسه إلى جونز قبل سنتين ليجز الأعشاب الضارة على مدخل الكوخ ويصنع مسار– ذلك النصل الصدئ المكلل بشرائط مبهرجة أو خرز رخيص لكل يوم قادم (ما رأيها بالموضوع؟ اعتبار خليفتها مومساً لم يكن كافياً، أليس كذلك؟)– المنجل الذي عمد من خلال شكله الرمزي إلى السخرية منها، حتى بعد موته، حتى عندما أنفت الأرض عن تحمل ثقل جسده للحظة واحدة أكثر من ذلك؟»

قال كونتن: «نعم»

«فاوست هذا، هذا الشيطان، بعلزبول [35] الهارب من وجه الشيطان الغاضب ووهج وجهه المحتقن الحانق على تصرفات ستبن التي فاقت احتمال الشيطان نفسه، اختبأ، هرول هرباً مما اعتقدتْ في بادئ الأمر أنه هرب ليحفظ ماء وجهه مثل ابن آوى يلوذ بكومة من الأحجار إلى أن أيقنت أنه لم يكن مختبئاً، لم يشأ الاختباء، وإنما في خضم نوبة جنون شيطانية مؤذية أخيرة قبل أن يأخذه الشيطان هذه المرة نهائياً وللأبد؛– فاوست هذا الذي ظهر على غفلة أحد أيام الأحاد حاملاً مسدسين ومعه عشرون شيطاناً ينوبون عنه واستولى بالحيلة على مئة ميل من أملاك هندي فقير جاهل وبنى عليها أكبر منزل رأيته في حياتك ثم غاب ومعه ست عربات لتعود محمّلة بنجادٍ معشّقة بالكريستال وكراسٍ من ماركة «وبدجوود» [36] لتأثيث البيت وظلّ بعلم الغيب

إن كان قد نهب عبّارة أخرى أو أنه أخذ مما استولى عليه من مسروقات خلال العملية السابقة، أخفى قرنيه وذيله تحت ملابس بشرية وقبعة من فرو السمور واختار (اشتراها، قايض حماه، أليس كذلك؟) زوجة بعد مرور ثلاث سنوات كافية ليفحص الوزن ويقارن، لم تكن سليلة عائلة محلية دوقية وإنما سليلة أدنى البارونات مرتبة قُيّضت إمارته منذ زمن لتلافي مخاطرة إحضار زوجته له معها أوهام العظمة كمهرٍ لها قبل أن يكون مستعداً لذلك وأخذ بعين الاعتبار ألا تكون إمارة العائلة قد قُيّضت منذ زمن بعيدٍ كي تحفظ المقتنيات من الضياع بين السكاكين والشوك والملاعق الجديدة التي أحضرها معه– زوجة لا تكتفي بدعم التخفي وإنما ستنجب له وقد أنجبت ولدين ليصون ويحفظ من خلالهما ومن خلال ذريتهما العظام الهشة والجسد المتعب لرجل عجوز ليكونا عوناً له عندما يصير كهلاً ويدفنه الشيطان في الأرض للمرة الأخيرة حيث لا مهرب ولا مفر: وبالتأكيد وقعت الابنة في حب الابن العميل الذي يجسد الحصن الحي الذي يحميه (يحمي الشيطان) من يد حارس محكمة الشيطان الذي سيستدعيه للمحاكمة إلى أن يحين موعد زواج الابن فيضمن له حينها النمو والازدهار– ثم استدار الشيطان على عقبيه ولم يكتفِ بطرد الخطيب ولا الابن من المنزل بل وأغوى وأشل الابن الذي من المفترض أن يكون اليد التي يضرب بها الأب الغاضب للحيلولة دون وقوع سفاح القربى: عاد الشيطان من الحرب بعد خمس سنوات ووجد الأمور التي خطط لها منتهية ومكتملة: هرب الابن للأبد جارّاً حبل المشنقة خلفه، ابنة محكومة بالعنوسة– ثم وقبل أن يترجل عن صهوة حصانه رتب (الشيطان) أوضاعه وتقدم لخطبة إحداهن مجدداً كي يستبدل تلك الذرية والآمال التي بدّدها بيديه؟»

قال كونتن: «نعم»

«عاد إلى المنزل ووجد أن فرصه بأن يكون جدّاً قد ذهبت أدراج الرياح على مرأى أولاده، مزرعته أضحت ركاماً، حقوله بوراً لا تنمو فيها سوى الأعشاب الضارة، وضرائب ورسوم وعقوبات أقرها قادة الولايات المتحدة وجميع زنوجه التحقوا باليانكيين، أوَ تحسب أن هذا كله يرضيه: وقبل أن يترجل عن جواده شرع بمحاولة استعادة مزرعته لتعود كسابق عهدها، وكأنه ربما يرجو خداع الشيطان عبر إشاعة الأوهام والبلبلة والقلاقل والاختفاء وراء وهم أن الأوان لم يفت بعد والفرص لم تنته وحقيقة أنه على مشارف الستين سينجب دفعة جديدة من الأولاد ليصيروا حصنه المنيع، غير أنه اختار لهذه المهمة آخر سيدةٍ على وجه الأرض تقبل بأن يسيطر عليها، هذه السيدة رـــــ حسناً حسناً حسناً. ـــــ السيدة التي كرهته ولم تكف يوماً عن كرهه، وعلى الرغم من ذلك اختارها بمنتهى الوقاحة كما لو أن الحقيقة الراسخة اليائسة حول عجز النساء عن مقاوِمة جاذبيته جزء من الثمن الذي حصل عليه لقاء ما باعه

للشيطان والذي حتماً لم يكن روحه إذ حسب السيدة العجوز كان بلا روح؛ عرض عليها الزواج ووافقت– ثم بعد ثلاثة أشهر، دون تحديد موعد للزفاف والزواج ودون ذكره ولو لمرة واحدة، وفي اليوم ذاته الذي تأكد مئة بالمئة من أنه سيحتفظ بجزء من أرضه على الأقل وعرف بالضبط مساحة هذا الجزء [37]، تحدث معها واقترح أن يتزاوجا كزوجين من الكلاب، مخترعاً بمكرٍ شيطاني الشيء الذي دأب الأزواج والخطّاب على محاولة اختراعه على مدى عشرة ملايين سنة: الشيء الذي سينسف دون إلحاق الأذية بالنساء أو إعطائهن المسوغ للإقدام على فعل متحضر أو قَبَلي حلمهن بعش الزوجية بل وأيضاً يتركهن متزوجات للأبد (ليصير الأزواج أو الخطّاب ديوثاً بأمان في غمضة عين) من جيفة الغضب والانتقام؛ نطق بما حرره للأبد من أي تهديد أو تطفل بعد أن أزاح عن طريقه آخر فرد في عائلة زوجته الراحلة، صار حراً الآن: هرب الابن إلى تكساس أو كاليفورنيا أو حتى إلى أمريكا الجنوبية، حلّت على الابنة لعنة العنوسة لتعيش معه حتى موته، وبعد موته لا يهم ما سيحل بها، في ذلك المنزل العفن، ترعاه وتطعمه، تربي الدجاج وتقايض البيض بالملابس التي لا تستطيع ولا كليتي صنعها: لم يحتج إذاً لأن يكون شيطاناً الآن وإنما مجرد عجوز مجنون عاجز أدرك أخيراً أن حلمه في استعادة مزرعة المئة ميل كان ضرباً من العبث ليس هذا فحسب بل وأيقن أن ما تبقى له من المزرعة لن يعيله وعائلته وتفرّغ لإدارة متجره الصغير على تقاطع الطرق حيث وضع سكك الحراثة وأطواق الأحصنة والأقمشة القطنية والكيروسين والخرز والشرائط الرخيصة ليقصده زبائنه الزنوج (وأيضاً هؤلاء ما اسمهم؟ ما الكلمة المستخدمة؟ البيض؟ نعم، الرعاع) يعمل فيه جونز ويحلم بأن يدرّ عليه المتجر المال الكافي لإعادة بناء المزرعة؛ هو الهارب مرتين حتى الآن، انغمس في المتجر وتحرر من الشيطان الذي حطم أولاده بعضهم البعض قبل أن ينجبوا ذريته، ولربما فكر بأنه أخطأ عندما تحرر من الشيطان فألقى بنفسه في أحضانه مجدداً ثم اكتشف أنه أخطأ في عبوديته للشيطان فتحرر من قبضته مرة أخرى– ثم التف على عقبيه واتخذ الطريق نفسه مجدداً ومعه هذه المرة الخرز والأقمشة القطنية والحلوى المخططة التي أخذها من درجه الخاص ورفوف متجره؟»

قال كونتن: «نعم». قال لنفسه حديثه يشبه تماماً حديث أبي، ألقى نظرة خاطفة (وجهه هادئ، ساكن، متجهم على نحوٍ غريب) على شريف الذي مال قليلاً نحو المصباح، جذعه العاري وردي لامعٍ وناعم كبشرة الأطفال، كملاك، جذعه خالٍ تقريباً من الشعر، عدسات نظارته الدائرية تلمع فوق وجهه الأحمر الذي يشبه فلقة القمر، استنشق (كونتن) رائحة السيجار وزهرة الوستاريا، رأى اليراعات ترفرف وتغمز في غسق أيلول. يتحدث مثل أبي تماماً هذا ما كان سيقوله أبي لو أنه كان يدري بما اكتشفته تلك الليلة قبل ذهابي إلى

هناك فكر عجوز مجنون عاجز أدرك أخيراً محدودية قدرة الشيطان على إلحاق الأذى بالآخرين، أدرك أن وضعه يشبه وضع مغنية، مهرة، أيقنت أن النغم الذي تتباهى به لا يخرج من البوق والكمان والطبل وإنما من الساعة والتقويم الزمني، لا بد وأنه رأى نفسه مدفعاً بالياً قديماً بإمكانه إطلاق قذيفة واحدة أخيرة وسيبتلعه بعدها غبار الانفجار الذي أحدثه وارتداداته، مسح بنظره ما تيسر أمامه من نطاق المشهد وما أتاحته له بوصلته وأبصر الابن وقد رحل، اختفى، أمر أفدح من لو أن ابنه قضى نحبه (على فرض أنه ما يزال حياً يرزق) اسمه صار مختلفاً وسينادیه غرباء باسمه الجديد وسيترك الابن كرات النار التنينية المنحدرة من دم ستبن على جسد سيدة غريبة للحفاظ على التقاليد، وينقل الإرث الشيطاني المؤذي تحت اسم آخر ووسط أناس لن يعرفوا قط اسمه الحقيقي؛ الابنة ملعونة بالعنوسة اختارت العنوسة قبل وجود شخص اسمه تشارلز بون لأن الخالة التي جاءت لإغاثتها وانتشالها من الحزن والفقدان لم تجدها حزينة ولا مفجوعة ووجدت عوضاً عن ذلك وجهاً مصمتاً هادئاً تحته فستان صوفي بيتي وفوقه قلنسوة واقفاً أمام باب موصد ومرة أخرى وسط دوامة ضبابية من الدجاج بينما انكب جونز على بناء النعش ستواظب على ارتداء ذلك الفستان طيلة السنة القادمة حينما عاشت الخالة هناك وعمدت النسوة الثلاث على حياكة ملابسهن بأنفسهن وزراعة ما يأكلنه وتقطيع الحطب لطهي ما يزرعنه (باستثناء المساعدة التي قدمها جونز الذي عاش مع حفيدته في خيم صيد السمك المهجورة المتداعية والشرفة المتعفنة حيث وضع على مدار سنتين المنجل الصدئ الذي أعاره إياه ستبن، استعاره لجزّ الأعشاب النامية على الباب– وأرغمه في نهاية المطاف على استخدامه لغرض آخر غير جزّ العشب، غير جزّ أعشاب الخضار) وظلت ترتديه حتى بعد غضب الخالة وعودتها إلى البلدة لتقتات على سرقة ما تحمله الشاحنات من منتجات الحدائق وعلى السلال الغذائية التي يتركها لها مجهولون على عتبة بابها ليلاً، النسوة الثلاث، الابنتان إحداهما زنجية والأخرى بيضاء والخالة على بعد اثني عشرة ميلاً تراقب من مكانها كما تراقب الابنتان من مكانهما الشيطان العجوز، فاوست الأثري اليائس الذي يعاني من دوالي الساقين يؤدي حركاته الأخيرة فيما يد الشيطان على كتفه، يدير متجره الصغير الريفي لشراء الخبز واللحم، يساوم بتؤدة وطمع البيض والزنوج الذين عضّهم الفقر ليجني بضعة قروش ونقود معدنية بخسة، العاجز عن قطع مسافة عشرة أميال على حصانه في أي اتجاه دون اجتياز حدود ملكيته، مستخدماً مخزونه الشحيح من الشرائط الرخيصة والخرز والحلوى الملونة الفاسدة التي بواسطتها يستطيع حتى رجل عجوز إغواء فتاة ريفية ذات خمسة عشر ربيعاً، مدمراً حفيدة شريكه، جونز هذا– هذا الرجل الطويل المتعافي من الملاريا الذي منحه الإذن قبل أربعة عشر عاماً كي يقرفص في خيم صيد سمك مهجورة ومعه حفيدته التي يبلغ عمرها عاماً واحداً– جونز، الشريك الحمّال

والعامل الذي أخذ بيديه وبأمرٍ من الشيطان (وربما وضع أيضاً) الحلوى والخرز والشرائط من الدِرج، أخذ قياسات الملابس التي ساعدت جوديث (التي لم تنتحب ولم تندب) الحفيدة في صنع الفستان لتتبختر أمام الرجال المسترخين، تحت النظرات الجانبية والألسن المتدلية، إلى أن فضح بطنها المنتفخ أمرها وربما خوفها؛– جونز الذي حُظر عليه قبل عام 1961 الدخول من الباب الأمامي للمنزل ولم تطأ قدمه خلال السنوات الأربع التالية أبعد من باب المطبخ حينما يحضر الصيد والسمك والخضار الذي اعتاشت عليه من ستصبح زوجة الغاوي والابنة (وكليتي أيضاً، الخادمة الوحيدة الباقية، الزنجية، التي ستمنعه من عبور باب المطبخ وإدخال ما يحمله) للبقاء على قيد الحياة، لكنه صار الآن يدخل المنزل (على نحوٍ متكرر) خلال فترات العصر عندما يبدأ الشيطان بإطلاق الشتائم لاعناً خلو المتجر من الزبائن ويقفل الباب وينسحب إلى أقصى المتجر ويخاطب بالنبرة ذاتها التي اعتادها حين توجيه الأوامر العسكرية للجنود أو للخدم الذين كانوا يعملون في منزله (الذين بلا ريب أمر جونز بإحضار الشرائط والخرز والحلوى لهم) يأمر جونز بإحضار الجرة، ليبدأ الاثنان (حتى إن جونز صار يجلس الآن، جونز الذي كان في الأيام الخوالي، عندما اعتادا قضاء فترات عصر أيام الآحاد السابقة التي ولّت دون رجعة، أيام السلم الرتيب، تحت عريشة العنب في الفناء الخلفي، الشيطان مستلقياً في الأرجوحة الشبكية بينما جونز مقرفصاً أمام العمود، ينهض بين الفينة والأخرى ليصبّ الخمر للشيطان من الدمجانة ودلو الماء العذب الذي جلبه من النبع الذي يبعد مسافة ميل واحد ثم يقرفص من جديد، يقهقهان ويضحكان ويقول ‹حااضر سييد تووم› كلما فرغت كأس الشيطان)– يشربان على التوالي من الجرة نفسها ولم يعد الشيطان يستلقي الآن ولا حتى يجلس وإنما يصل بعد الكأس الثالث أو الثاني إلى حالة الرجل العجوز العنيد العاجز الغاضب فينهض، مترنحاً ومسرنماً يصرخ مطالباً بإحضار حصانه ومسدساته ليمتطيه مستخدماً يداً واحدة فقط ويذهب إلى واشنطن ليطلق النار على لنكولن (متأخراً أكثر من سنة) وشيرمان، صارخاً ‹اقتلهما! اقتلهما كما تقتل الكلاب لأنهما لا يفرقان عن الكلاب في شيء!›ويقول جونز: ‹حااضر، يا الكوولونيل، فاوراً› ويراقبه يخرّ على الأرض ويطالب بمصادرة أول عربة عابرة لتحمله إلى المنزل وتصعد به الدرج الأمامي وتدخل عبر الباب الرئيس غير المطلي عابراً نافذة الباب الذي استورد جميع ألواحه من أوروبا وتفتح جوديث له الباب ليدخل وجهها كما دائماً، لا تغير يطال أماراته الباردة المتجمدة التي لم تفارق وجهها على مدار أربع سنوات، يصعد به الدرج ويدخله غرفة النوم ويضعه في السرير مثل الطفل ثم يستلقي على الأرض بالقرب من السرير حريصاً ألا يغفو لأن الرجل النائم على السرير سيبدأ عند الفجر بالأنين والتململ وسيقول جونز ‹أنا هنا أيها الكوولونيل. لا تقللق. لن يجلدونا بعد، صاحيح؟›– جونز هذا عمد بعد مغادرة الشيطان بصحبة الفوج عندما كانت حفيدته في

الثامنة إخبار الناس أنه «كان يابحث عن مكان الرائد وعن زنوج› حتى قبل أن يسألوه عن سبب تخلفه عن الالتحاق بالقوات وربما صدق مع مرور الوقت الكذبة، وكان من أوائل المهنئين للشيطان بعودته، استقبله عند البوابة قائلاً ‹حسناً، يا كوولونيل، قتلونا لاكنهم لم يهزيمونا بعد، صاحيح؟› الذي عمل بكدٍ واشتغل وتصفد عرقاً لتنفيذ أوامر الشيطان خلال فترة الغضب المسعور الأولى حينما ظن الشيطان أن بوسعه استعادة مزرعة المئة ميل لمجرد أن عزيمته وإرادته صلبة لا تتزحزح لاستعادة المزرعة التي يتذكرها وقد ضاعت منه، يكدح بلا أمل لقبض أي أتعاب أو مقابل والذي لا بد وتبصر قبل الشيطان بكثير (أو سيعترف بهذا) أن المهمة مستحيلة– جونز الأعمى الذي رأى مع ذلك في الخراب الداعر الحانق الطيف القديم اللطيف للرجل الذي امتطى ذات يوم صهوة جواد أصيل أسود متبختراً في المضمار الذي لم يكن لعين أن تستطيع رؤية حدوده من أية زاوية كانت

قال كونتن: ‹نعم›.

حلّ صباح ذلك الأحد واستيقظ الشيطان ورحل قبل بزوغ خيوط الفجر الأولى، حسبت جوديث أنها تعرف سبب رحيله لأن الفحل الأسود الذي امتطاه للذهاب إلى فرجينيا وعاد على متنه قد أنجب حصاناً من زوجته المهرة بينلوبي، قد يكون هذا صحيحاً مع فارق أن من استيقظ الشيطان باكراً من أجل تفقده لم يكن تلك المهرة وكان هذا قبل أسبوع تقريباً من إلقاء القبض على الزنجية العجوز المقرفصة إلى جوار الفراش المصنوع كيفما اتفق من لحف في ذلك الفجر بينما جلس جونز على الشرفة حيث ربض المنجل الصدئ لسنتين، لتكشف الزنجية عن سماعها لصوت الحصان ثم دخول الشيطان ووقوفه فوق الفراش حاملاً السوط في يده، دنا ببصره نحو الأم والطفل وقال ‹حسناً يا ميلي، من المؤسف أنك لست مهرة مثل بينلوبي، لو أنك مهرة لمنحتك مربطاً لائقاً في الإصطبل› ثم أدار ظهره وخرج بينما الزنجية العجوز ظلت مقرفصة هناك، وسمعتهما، سمعت الصوتين، صوته وصوت جونز: ‹ارجع للخلف. إياك ولمسي يا ووش›—‹سأقتولك أيها الكوولونيل› بعدها سمعت صوت السوط وليس صوت المنجل، جمد الهواء، لم تعبر أي نسمة، لم تسمع شيئاً لأن ضربة السوط الجزائية تتبعها عادة صرخة ألم بينما تلك الضربة لم يتبعها سوى صمت أخير. وجدوه أخيراً تلك الليلة وأحضروه إلى المنزل على متن العربة وحملوه، ساكناً مدمّى فيما أسنانه ما تزال ظاهرة بين شعر لحيته المقسوم إلى نصفين (بالكاد غزاها الشعر الأبيض مع أن شعر رأسه قد شاب كله) تحت نور المصابيح ومشاعل الصنوبر، صعدوا به الدرج حيث استبقت الابنة الباب مفتوحاً عيناها غير دامعتين ووجهها جامد كالحجر وفتحت له الباب أيضاً هو من اعتاد قيادة العربة بسرعة إلى الكنيسة وقاد العربة بسرعة هذه المرة، لكن بعد انقضاء الأمر

ولم يصل للكنيسة قط لأن الابنة (السيدة الثلاثينية الآن التي تبدو أكبر من عمرها، كبرت لكن بطريقة مختلفة عما يكبر بها الضعفاء، محتجزة في انتفاخ ثابت داخل الجسد الميت أو عبر سلسلة من مراحل الانهيار التدريجي دون أن تستسلم خلاياه لإطار معدني منيع وإنما استسلم لجسد آخر كما لو أنه في حياة لاهية ومشاعة وغافلة مثل حياتهم كحياة مستعمرة من اليراقات، وإنما بالطريقة نفسها التي كبر بها الشيطان نفسه: بنوعٍ من التكثيف، الانبثاق المرهق للتحجر الجوهري الصامد الذي خففه مؤقتاً اللون والنسيج الناعم، الهالة الكهربائية الخفيفة للشباب، لكنه لم يخبئه أبداً– العانس في ملابس مصنوعة منزلياً كيفما اتفق، يداها لا تفعلان شيئاً سوى نقل البيض أو غرس المحراث في الأخاديد) قررت وجوب نقله إلى الكنيسة الميثودية نفسها في البلدة حيث تزوج والدتها قبل العودة به إلى المقبرة في بستان الأرز، واستعارت بغلين فتيين نصف بريين لجر العربة: قاد العربة مسرعاً إلى الكنيسة، نعشه مصنوع منزلياً، وألبسوه القفازات العسكرية المطرزة التي ما زالت صالحة للاستخدام، ثم حرن البغلان وانقلبت العربة عليه وسقطت فوقه، ووقع بقبعة الريش والزي العسكري الكامل داخل الحفرة التي أخرجته منها الابنة وأعادته إلى بستان الأرز وقرأت الصلاة بنفسها. بلا دموع، دون حزن هذه المرة أيضاً، سواء كان هذا لضيق الوقت والمجال لتبكيه لأنها بدأت على الفور بإدارة المتجر بنفسها إلى حين العثور على من يشتريه، لم تبقه مفتوحاً وإنما حملت المفاتيح في جيب مئزرها، قادمة من المطبخ أو الحديقة أو حتى الحقل لأنها صارت وكليتي الآن تقومان بكل أعمال الحراثة اللازمة، بعد رحيل جونز أيضاً، والتحاقه بالشيطان بعد اثنتي عشرة ساعة في يوم الأحد ذاته (ربما لحقه إلى المكان ذاته أيضاً؛ ربما يحتسيان نبيذ العنب سوية متخففان من الحاجة للخبز أو للطموح أو الفحش أو الانتقام ومن المحتمل ألا يحتاجا شرب الخمر أيضاً ويكتفيان بالحنين لهذا وذاك من حينٍ لآخر دون معرفة ما يشتاقان إليه بالتحديد؛ ساكنان، هانئان، متحرران من الزمن أو تغير الطقس، فيما تهب بين الفينة والأخرى بعض الرياح، يظهر طيف ما، فيتوقف الشيطان عن الكلام ويكف جونز عن القهقهة وينظران إلى بعضهما البعض، يلوح بيديه في الهواء متخبطاً، القبر، النوايا، ثم سيقول الشيطان ‹ما كان هذا يا ووش؟ حدث شيء ما. ما كان هذا؟› بينما ينظر جونز نحو الشيطان، يلوح بيديه أيضاً خبط عشواء، صاحي الذهن أيضاً، يقول ‹لا أعرف أيها الكوولونيل، ماذا؟› يراقبان بعضهما البعض. ثم يتلاشى الطيف، تسكن الرياح ثم يقول جونز أخيراً، بهدوء، دون زهوٍ: ‹لا شك أنهم قتلونا، لاكنهم لم يهزيمونا بعد، صاحيح؟›)– تمطرهما النسوة والأولاد بالدلاء والسلال، بعدها تذهب هي أو كليتي إلى المتجر، تفتحه، تخدم الزبون، تقفل المتجر وتعود: إلى أن باعت المتجر أخيراً وأنفقت ماله على صنع شاهدة القبر.– («ما رأيك؟» قال شريف. «قل لي؛ ما رأيك أنت؟ تطلق أنت وأبوك النار على طيور السمان،

في اليوم الغائم التالي هطل المطر طوال الليل ولم تستطع الأحصنة عبور الخندق فترجلتما وسلمتما زمام الأمور إلى– ما اسمه؟ الزنجي الذي يركب البغل؟ لستر.– لستر يتولى مهمة إرشادهما للالتفاف على الخندق» وعبر مع والده الخندق مع بدء المطر بالهطول مجدداً ببطء وثبات ورتابة، بلا صوت، كونتن جاهل تماماً بمكانهما لأنه قاد حصانه مطأطئ الرأس متحاشياً الرذاذ، ثم رفع بصره ليرى المنحدر الماثل أمامهما حيث ذوت أوراق البردي الصفراء الرطبة ثم نظر إلى الأعلى ليبصر المطر الهاطل كالذهب المذاب ورأى القبر، أشجار الأرز على قمة الهضبة مائلة تحت المطر كما لو أن الأشجار عُطّست بالحبر وتُركت لتجف– خلف أشجار الأرز، خلف الحقول اليباب، التي خلفها، يهجع على بعد نصف ميل بستان البلوط والدار الكبيرة الرمادية العطنة المهجورة. توقف السيد كمبسن لينظر خلفه نحو لستر فوق بغله، وقد لف حول رأسه كيس الخيش الذي يستعمله كسرج، رفع ركبتيه، قاد الأحصنة على طول الخندق ليجد مكاناً مناسباً لعبوره. قال السيد كمبسن «من الأجدى أن نختبئ من المطر». «لن نجد معبراً قبل مئة ياردة من أشجار الأرز على أي حال».

اجتازا المنحدر. لم يتمكنا من رؤية الكلبين نهائياً، شاهدا أوراق البردي المتغضنة فقط، ظل الكلبان يمسحان المنحدر إلى أن رفع أحد الكلبين رأسه ونظر للخلف. أومأ السيد كمبسن بيده نحو الأشجار، تبعه وكونتن. عمّ الظلام أرجاء منطقة الأشجار، الضوء أدكن من الرمادي، المطر هطل بهدوء، قطراته مثل حبات لؤلؤ ناعمة، تتساقط على ماسورة البندقية وشواهد القبور الخمس مثل قطرات شمع باردة لم تذب تماماً تتساقط على الرخام: على اللوحين المستويين الثقيلين المحدبين، الشواهد الثلاث الأخرى مائلة قليلاً، ثمّة أحرف مائلة مبعثرة هنا وهناك وقد تُلمح كلمة كاملة ومقروءة على الضوء الخافت الذي تحمله قطرات المطر جزيئاً جزيئاً وتبعثرها في العتمة؛ جاء الكلبان، اقتحما المشهد كالدخان، شعرهما ملتصق بشدة بفعل البلل، التفا على بعضهما البعض طلباً للدفء مثل كرة واحدة متجانسة ظاهرياً. تصدع اللوحان المستويان من منتصفهما تحت ثقلهما (واختفيا داخل الحفرة حيث هوى قرميد إحدى القبتين فتشكل ممر صغير أملس متآكل بفعل حيوان صغير– متمارض ربما– أو أجيال من الحيوانات الصغيرة لعدم وجود ما يؤكل في القبر لفترة طويلة) غير أن الحروف كانت مقروءة بوضوح: إلين كولدفيلد ستبن. ولدت في 9 تشرين الأول عام 1817. توفيت في 23 كانون الثاني عام 1863 وعلى الشاهدة الأخرى: توماس ستبن، الكولونيل في الفرقة 23 للمشاة في الميسيسيبي، الولايات الكونفدرالية الأمريكية، توفي في 12 آب عام 1869: الأرقام الأخيرة، التاريخ، أُضيفت لاحقاً على نحوٍ نافر باستخدام إزميل، دون الإفصاح عن مكان وزمان ولادة الفقيد. نظر كونتن إلى الأحجار

بتمعن، فكر لم يكتبوا الزوجة المحبوبة إلين كولدفيلد ستبن، قال «لم أكن أعلم أنهم امتلكوا المال الكافي لشراء الرخام عام 1869».

قال السيد كمبسن: «اشتراها بنفسه. اشترى الشاهدتين عندما كان الفوج في فرجينيا، بعد أن بعثت له جوديث تخبره نبأ وفاة والدتها. طلب الرخامتين من إيطاليا، أفضل الأنواع، الأنقى على الإطلاق– شاهدة زوجته مكتملة فيما ترك فراغات على رخامته حيث سيُكتب تاريخ وفاته: حدث كل هذا بينما كان يخدم في الجيش الذي سجل أعلى نسبة ضحايا وقُتل منه أكثر مما قُتل في أي جيش آخر قبله حتى ذلك الزمن ومع ذلك اتبع تقليداً سنوياً لاختيار مجموعة جديدة من ضباط الفوج (وبناءً على نظام خوّل له أن يطلق على نفسه منذ ذلك الحين لقب كولونيل، بما أنه انتُخب والكولونيل سارتورس الصيف الفائت ومُنحا لقبي كولونيل) كان هذا ما استطاع معرفته، ربما صار تحت التراب قبل تلبية طلبه أو حتى استلام الشاهدتين ووضعت علامة على قبره (إن وضعت) باستخدام مسلة محطمة مغروزة في الأرض، أو غافلاً عن حقيقة أنه قد يكون برتبة ملازم ثانٍ أو حتى جندياً– في حال تحلى رجاله طبعاً بالشجاعة الكافية لتخفيض رتبته– وعلى الرغم من ذلك، لم يكتفِ باستيراد الرخامتين وتدبر أمر شرائهما، بل وعمد ويا للغرابة على تدبر أمر عبورهما ساحل البحر المغلق تماماً بسبب رفض المهربين الكامل لنقل أي شحنة باستثناء الذخيرة—» خُيّل لكونتن أن بوسعه تخيلهم: القوات المنهكة المتضورة جوعاً عارية الأقدام، الأوجه المضناة المعفرة بالبارود الأسود تنظر للخلف من فوق الأكتاف البالية، العيون الغاضبة التي احترق فيها إصرار ثابت على النصر تراقب ذلك المحيط القاتم المحرّم التي هربت عبره سفينة واحدة بائسة خفيفة الوزن حملت فوقها حيزاً بقيمة ألفي جنيه ثمينة لكنه حيز لا يتضمن رصاصاً ولا حتى ما يسدّ الرمق، وإنما صخرة فاخرة خاملة تحمل نقوشاً سيحملها في السنة التالية الفوج إلى بنسلفانيا ثم تشهد معركة غيتيسبيرغ، متحركة خلف الفوج في عربة يقودها خادم الشيطان العبد لتقطع المستنقعات والسهوب والجبال، لم يكن الفوج أسرع من العربة، برجاله المتضورين المنهكين والأحصنة المرهقة المضناة التي غاصت حتى ركبها في الوحل الصقيعي أو الثلج، يتعرقون ويطلقون الشتائم واللعنات على الرخامتين عابرين المستنقعات والبرك الآسنة مثل قطعة مدفعية، حجران يحملان اسم ‹الكولونيل› و‹زوجة الكولونيل›؛ ثم عبرت معركة ممر كمبرلاند ثم جبال تينيسي، سافرت ليلاً لتراوغ دوريات اليانكيين، ودخلت الميسيسيبي أواخر خريف عام 1964، حيث انتظرت الابنة التي عارض زواجها وستصير أرملة الصيف المقبل دون أن يبدو الحزن ظاهراً عليها، ماتت زوجته وتخلى ابنه عن حقوقه العائلية ونُفي، ووضع إحدى هاتين الرخامتين على قبر زوجته ووضع الأخرى عمودياً في رواق المنزل، حيث كانت تنظر إليها الآنسة

كولدفيلد ربما يومياً على أنها صورته الذاتية، ربما قرأت (بلا ريب فوق قبره أيضاً) أحرف تشي بما هو أكثر من الآمال والتوقعات التي عقدتها سيدة عذراء أكثر بكثير مما باحت به لكونتن، لأنها لم تذكر بتاتاً الحجر أمامه، وشرب (الشيطان) قهوة الذرة الجافة وأكل الكعك الذي أعدته جوديث وكليتي من أجله وقبّل جوديث على جبينها وقال ‹حسناً يا كليتي› وقفل راجعاً إلى الحرب، حدث ذلك كله في غضون أربع وعشرين ساعة؛ استطاع رؤيته؛ ربما كان هناك أيضاً. ثم فكر كلا. لو كنت هناك لما رأيت الأمر بهذا الوضوح

قال: «لكن هذا لا يشرح الشواهد الثلاث. لا بد وأنها كلّفت ثروة بدورها».

قال السيد كمبسن: «من دفع ثمنها؟». استشعر كونتن بأنه ينظر إليه. «فكر». نظر كونتن إلى الشواهد الثلاث المتطابقة وأحرفها الباهتة، وقد مالت قليلاً تحت ضربات إبر الصنوبر الطفيلية المتجمعة، فك شيفرة الأحرف أيضاً عندما نظر عن كثب، كُتب على الأولى: تشارلز بون، ولد في نيو أورلينز، لويزيانا. مات في مزرعة ستبن، الميسيسيبي، في 3 أيار 1865. عاش 33 عاماً و5 أشهر. استشعر عيني والده تراقبانه.

قال السيد كمبسن: «نعم». توجب على كونتن الانحناء لكشط بعض أوراق الصنوبر الإبرية ليقرأ الشاهدة الثانية. عندما انحنى نهض أحد الكلبين واقترب منه، أقحم رأسه ليرى إلى ماذا ينظر كونتن تماماً كما يفعل البشر، وكأنه اكتسب من خلال عشرته مع الناس خصلة الفضول التي لا يتحلى بها سوى البشر والقردة.

قال: «ابتعد»، هشّ الكلب بيده فيما مسح بيده الثانية أوراق الصنوبر الإبرية، زادت مسحته وضوح الأحرف الباهتة، الكلمات على القبر: تشارلز إتيان سانت فاليري 1859–1884. استشعر والده يراقبه، قال قبل أن ينهض إن الحجر الثالث حمل التاريخ نفسه، 1884. قال «لا يمكن أن يكون دخل المتجر من غطى التكاليف هذه المرة». «لأنها باعت المتجر عام 1970، كما أن العام 1884 هو العام ذاته الذي كُتب على شاهدة قبرها»، فكر بمدى الصعوبة والمرارة التي كانت لتذوقها لو أنها أرادت كتابة الزوج الحبيب على الشاهدة الأولى.

قال كمبسن «حقاً». «حضر جدك الدفن. جاءت جوديث إلى البلدة ذات يوم وأحضرت النقود له، بعضه، لم يعرف أبداً من أين حصلت على النقود، ظن أنه بعض ما تبقى من ثمن المتجر الذي أشرف بنفسه على بيعه؛ أحضرت النقود والعبارة التي ستُنقش على الشاهدة (باستثناء تاريخ الوفاة طبعاً) كان كل شيء مكتوباً كما ترى، خلال الأسابيع الثلاثة تلك حينما كانت كليتي في نيو

أورلينز تبحث عن الابن لتعيده على الرغم من أن جدك طبعاً لم يعرف بهذا، لم يكن المال والعبارة من أجلها وإنما من أجله».

قال كونتن: «عجباً».

«نعم. عاشتا حياة جميلة– يا للنساء. حياة منفصلة تماماً عن الحقيقة، ليس هذا فحسب بل منعزلة تماماً عن الواقع على نحوٍ يتعذر إصلاحه. ولهذا لم يكن موتهما، لحظة الفناء، مهماً أبداً لهما إذ تحلتا بالشجاعة والصبر في وجه الألم والاندثار اللذين يجعلان أعتى الرجال الإسبارطيين يتحولون إلى فتية باكين، لكن بالنسبة لهما كانت الجنازتان والقبران، التأكيد التافه الصغير للخلود الزائف محلقاً فوق نومهن، جميعها غاية في الأهمية. كان لديك خالة (لا تتذكرها لأنني أنا نفسي لم أرها قط ولا أعرف عنها سوى ما سمعته من حكايات حولها) وجدت نفسها في وضع يحتم عليها إجراء عملية جراحية خطيرة اقتنعتْ بأنها لن تنجو منها، في وقت كانت فيه أقرب قريباتها سيدة تجمعها بها لسنوات علاقة مريرة غير مفهومة (بالنسبة لعقل الرجل) وكأنهما عدوتان حميمتان وهي علاقة تنشأ بين النساء اللواتي تجمعهن صلة رحم، وتجسد همها الوحيد في هذا العالم بالتخلص من فستان بني معين كانت تملكه وعرفت أن قريبتها لم تطقه بتاتاً، وتوجب حرقه، لم أقل وهبه لشخص آخر وإنما حرقه في الفناء الخلفي تحت النافذة حيث بإمكانها، إن تشبثت بالنافذة (واحتمال آلام مبرّحة) رؤيته يحترق بأم عينيها، لأنها اقتنعت بأن قريبتها، ستلبسها إياه بعد موتها وتحرقها».

قال كونتن: «وهل ماتت؟»

«كلا. حالما استحال الفستان إلى رماد، بدأت بالتعافي. اجتازت العملية وتماثلت إلى الشفاء وماتت بعد قريبتها بعدة سنوات. ثم أسلمت الروح بسلام في عصر أحد الأيام دون أن تعاني من أي مرض ودفنت مرتدية فستان عرسها».

قال كونتن: «حسناً».

«نعم، لكن حدث في عصر أحد أيام صيف عام 1970 أن سقت الدموع أحد هذه القبور (كان هناك ثلاثة قبور فقط حينها). رأى جدك ما حدث؛ باعت جوديث المتجر في ذلك العام ورتب جدك أمر البيع من أجلها وجاء ليشرف على البيع وشهد ما حدث: الفاصل، طقوس الترمل الاحتفالية المأساوية. لم يعرف حينها كيف وصلت الزنجية التي جدها الثامن زنجي إلى هنا، أو حتى كيف عرفت جوديث بأمرها وكتبت لها لتنبئها بموت بون. لكنها وصلت على أي حال، ومعها صبي عمره اثني عشر عاماً لكنه بدا في الثامنة. كان الأمر أشبه بمشهد أحد الحدائق على حد وصف الشاعر الإيرلندي وايلد: مع الغروب،

أشجار الأرز القاتمة تتخللها أشعة الشمس الآفلة، الضوء المثالي والقبور، بدت قطع الرخام الثلاث (أعطى جدك المال إلى جوديث لشراء الحجر الثالث مقابل ثمن المتجر) وكأن المسؤولين عن إعداد خشبة المسرح قد جاؤوا ونظفوا الرخامات ولمّعوها ورتبوها وسيعودون بعد الغسق ويكسروها ويأخذونها بعد أن صارت قطعاً هشة لا وزن لها، ويعيدونها إلى المخزن حيث سيحتاجونها مجدداً؛ الموكب، المشهد، الفصل المسرحي، ترتقي خشبة المسرح– السيدة التي يشبه وجهها زهرة الماغنوليا وقد أمسى قوامها رياناً أكثر، سيدة خلقتها الظلمة ونذرت نفسها لها وتولى الفنان بيردزلي مهمة اختيار ملابسها، وألبسها ثوباً ناعماً فضفاضاً لا يشي بأنها في حالة حداد أو أنها قد ترملت وإنما فستاناً يوحي بأنها في فاصل زمني من نهم قاتل ومتهور، من جوع شغوف مزمن للجسد، تمشي تحت مظلة قماشية من الدانتيل وتتبعها زنجية عملاقة مبتهجة تحمل وسادة حريرية وقد تعلق بيدها طفل صغير لربما ينبري الرسام بيردزلي باختيار ملابسه بل ورسمه أيضاً– طفل نحيل رقيق وجهه ناعم عاجي ولا توحي تقاسيمه إن كان وجه طفل أم طفلة، تعلق، بعد أن سلمت أمه المظلة إلى الزنجية وأخذت الوسادة وركعت إلى جوار القبر وسوّت تنورتها وشرعت بالبكاء، تعلّق الفتى بمئزر الزنجية ورفض تركها لكنه وقف بهدوء يرمش بعينيه، حيث إنه ولد وعاش طيلة حياته في نوع من السجن الحريري المضاء بشموع خافتة لا تنطفئ، يتنفس هواء يشبه الحليب مغموراً بضياء كامل تبثه أيام وساعات الأم، ولم ير نور الشمس إلا لماماً، فما بالك بالخروج للهواء الطلق، حيث الأشجار والعشب والأرض؛ وأخيراً، السيدة الأخرى، جوديث (التي لم تجد أي ضرورة للحداد، فلم تحزن، فكر كونتن، نعم، لقد استمعت بما فيه الكفاية) وقفت بين أشجار الأرز، مرتدية فستانها القطني وقبعة واقية من الشمس تلائمه، بهت الفستان والقبعة وتآكلا– الوجه الهادئ، اليدان اللتان واظبتا على الحراثة أو تقطيع الحطب والطهي أو حياكة الملابس مطويتان أمامها، وقفت وكأنها مرشد حيادي في متحف، تنتظر، دون أن تراقب ربما. ثم جاءت الزنجية وأعطت السيدة الهجينة قنينة كريستالية لتستنشقها ثم ساعدتها على النهوض وأخذت الوسادة الحريرية وأعادت المظلة للسيدة الهجينة وعادوا إلى المنزل، الطفل ما زال ممسكاً بمئزر الزنجية، الزنجية تسند المرأة بإحدى يديها تتبعهم جوديث ووجهها بلا أي أمارات وكأنها ترتدي قناعاً أو أنه قُدّ من الرخام، عادوا إلى المنزل، عبر الرواق الفسيح إلى داخل المنزل حيث كانت كليتي تطهو البيض وخبز الذرة الذي كان كل ما تأكله وجوديث لتسدا رمقهما.

«مكثتْ لأسبوع. وقضت باقي الأسبوع في الغرفة ذاتها من المنزل حيث افترشت ملاءات الكتان السرير، وارتدت ثوباً جديداً مخرماً من الساتان والحرير الأرجواني الملائم للحداد– الغرفة موصدة ولا يدخلها الهواء قط،

معتقة خلف ستائر مسدلة تعبق فيها رائحة جسدها الثقيلة، أيامها، ساعاتها، ملابسها، عبير ماء الكولونيا التي تفوح من ملابسها المعلقة، ومن الزجاجة الكريستالية التي استبدلتها الزنجية بالمروحة عندما جلست إلى جوار السرير خلال رحلاتها إلى الباب لاستلام الصواني التي حملتها كليتي وصعدت بها الدرج– كليتي، التي تولت هذه المهمة بناءً على أوامر جوديث، أدركت حتى دون أن تقول لها جوديث ذلك أنها كانت زنجية أخرى تخدم، زنجية أخرى تغادر المطبخ من وقتٍ لآخر وتبحث في غرف الطابق الأرضي إلى أن تجد ذلك الصبي الصغير الغريب الوحيد جالساً بهدوء على الكرسي العمودي القاسي في المكتبة المظلمة الرطبة أو في الردهة، بأسمائه الأربعة ودمه الأسود لأن جده السادس عشر كان زنجياً وثيابه الباهظة الثمن المخصصة للنخبة على طراز زيّ اللورد الصغير فونتلروي التي تبثّ رهبة قاتلة مفزعة في قلب السيدة الحنطية المتجهمة التي تقترب من الباب حافية القدمين وتنظر إليه، عاجزة عن تقديم الحلوى المحشوة بالفواكه ولذلك تعطيه خبز ذرة مدهون بالدبس الثقيل (تلجأ للقدوم خلسة، لا لاحتمال اعتراض الأم أو العجوز، وإنما لافتقار ربة البيت لما يؤكل بين الوجبات)، تقدمه له، تدفعه دفعاً بوحشية وعنف، ووجدته في عصر أحد الأيام يلعب مع صبي زنجي بحجمه في الطريق خارج البوابة ولعنت الصبي الزنجي وطردته بقسوة قاتلة، وأمرت الآخر بالعودة مجدداً إلى المنزل بنبرة لا يمكن وصفها بأنها موبخة أو غاضبة وإنما نبرة باردة إلى حدٍّ قاتل.

«نعم، كليتي، التي وقفت جامدة إلى جوار العربة في ذلك اليوم الأخير، تبعت الجنازة الثانية إلى المقبرة حاملة الوسادة الحريرية والمظلة وزجاجة العطر، عندما غادرت الأم والطفل والعجوز قاصدين نيو أورلينز. ولم يعرف جدك أبداً إن كانت كليتي من راقبت، أبقت على جسور التواصل بطريقة أو بأخرى، انتظرت اليوم، اللحظة، المواتية، الساعة التي سيصير فيها الصبي الصغير يتيماً، فذهبت بنفسها لإحضاره؛ أم إن جوديث هي من انتظرت وراقبت وأرسلت كليتي لتحضره ذلك الشتاء، في شهر كانون الأول من العام 1871؛– كليتي التي لم تبتعد يوماً عن مزرعة ستبن لمسافة أبعد من جفرسون، وعلى الرغم من ذلك، خاضت تلك الرحلة بمفردها قاصدة نيو أورلينز وعادت مع الطفل، صار عمر الصبي الآن اثني عشر عاماً إلا أنه يبدو في العاشرة، يرتدي إحدى البدلات المبالغ فيها على طراز اللورد الصغير فونتلروي وفوقها معطف طويل أكبر من حجمه اشترته له كليتي (وأرغمته على ارتدائه، ليقيه إما من البرد أو من شيء آخر لم يدرك جدك كنهه) ووضع كل مقتنياته في منديل مطرز كبير– هذا الصبي الذي لم يكن يتحدث الإنجليزية كما لا تتحدث السيدة الفرنسية، السيدة التي وجدته، اصطادته، في مدينة فرنسية وأحضرته معها، وجه الطفل لا يوحي بأي عمر، كما لو أنه لم يعش الطفولة قط، بطريقة

مختلفة عن قول الآنسة روزا كولدفيلد إنها لم تعش طفولتها، وإنما كأنه لم يكن بشراً مولوداً وإنما خُلق دون الاستعانة برجل ودون أن تعاني الأم عذابات الولادة وأمسى يتيماً دون فقد أي إنسان (جدك قال إنك لم تسأل عما حلّ بالأم، ولم تبالِ بتاتاً: هل كان مصيرها الموت أو الفرار أو الزواج: لم تتشكل نتيجة تحول– تحلل أو زنا– إلى المرحلة التالية حاملة معها كل السنوات التافهة المتراكمة الدفينة التي نسميها الذاكرة، الأنا المعروفة، وإنما تحولت من مرحلة إلى مرحلة كما تتحول الشرنقة إلى فراشة، لم تحمل معها الأحداث التي جرت داخل الشرنقة، لم تخلف وراءها سوى امحاءً تاماً صرفاً لا يقاوم لتتحول إلى التجسيد التالي بوصفها زهرة مفرطة التفتح أو زهرة مغنوليا تنتقل من شهر حزيران خصب إلى آخر، دون أن تخلف وراءها أي عظام أو مادة أو غبار لأي شيء قد يتركه من فارق الحياة منذ لحظة في طريقه بين الشمس والأرض) وإنما ولدت كاملة لم تمسها أية جرثومة في تلك المتاهة الخادعة العبقة التي يولدها الحرير الخانق كما لو أن الصبي كان رمزاً روحياً حساساً وغريباً، صفحة سرمدية عن ليليث الأزلية الخالدة، يدخل العالم الواقعي خلال اثني عشر عاماً وليس لحظة الولادة، ملابسه الناعمة متوارية تحت قماش الدنيم القاسي الفوضوي المكوي الذي يشتريه الملايين– ذلك الزي المضحك وأبهة أبناء حام المأساوية؛– طفل ضئيل صامت لا يتقن الإنجليزية، انتُزع فجأة من الهزيمة الوحيدة التي ألحقتها به الحياة الوحيدة التي عرفها، على يد مخلوق رآه لمرة واحدة فقط وتعلم كيف يهابه ويخاف منه ولكن مع ذلك عجز عن الهرب منه، تجمد بيأس وسلبية في حالة معقدة يلفها الذعر والثقة، وعلى الرغم من أنه لم يتحدث معها أصلاً (خاضوا، بلا ريب، تلك الرحلة الأسبوعية على متن العبّارة وجلسوا بين بالات القطن على سطح قارب الشحن، يأكلون وينامون مع الزنوج، وعجز هناك عن البوح لرفاقه إن كان جائعاً أو محتاجاً لقضاء حاجته) واكتفى بالتكهن وتخمين وجهتهم، لم يعرف أي شيء حتماً سوى أن العالم الذي يألفه قد اختفى مثل عمود دخان، ومع ذلك لم يقاوم، عاد بهدوء وحذر إلى تلك الدار المتداعية التي سبق له وأن رآها لمرة واحدة، حيث تعيش السيدة الفظة النكدة التي دخلت حياته ورأته يعيش مع سيدة بيضاء هادئة لطيفة، سيدة نكدة لا تعرف السكينة، لا اسم لها لكنها مع ذلك لصيقة به لدرجة تخولها أن تكون مالكة البقعة الوحيدة على الأرض التي رأى فيها والدته تنتحب؛— عاد، عبر عتبة البيت الغريب، الحدود الراسخة، لم يقده أحد، أو يجره، ولكن دُفع دفعاً وسُيق كالماشية يُسيّره ذلك الحضور الصارم العتيد، ليدخل منزلاً صغيراً ميتاً ابتلع ما تبقى من ملابسه الحريرية، قميصه وجواربه الناعمة وحذاءه وكل ما بقي ليذكره بالأيام الخوالي، هربت ثيابه من ذراعيه وجسده وساقيه كما لو أنها نُسجت من سراب [38] أو دخان.– نعم، النوم في سرير صغير يُخبأ تحت سرير

جوديث، على مقربة من سرير تلك السيدة التي تحاكمه بنظراتها وتعامله بلباقة رسمية محايدة وباردة محبطة أكثر من فظاظة وجلافة الوصاية المستمرة التي تفرضها عليه الزنجية، التي نامت بتذلل مصطنع عنيد على فراش القش على الأرض، استلقى الطفل بينهما دون أن يعرف النوم طريقه إليه يضنيه ويؤرّقه القنوط اليائس السلبي مدركاً تماماً لحالته، واعياً للسيدة النائمة على السرير التي بدت نظراتها نحوه وسلوكها معه وحتى لمسة يديها، كلها تفقد الدفء والحرارة عندما تتعامل معه محاطة بعداوة باردة متصلبة، والسيدة النائمة على فراش القش التي رآها كوحش بري مروّض قُلّمت مخالبه جاثم في القفص بما يشبه ضراوة يائسة عاجزة (وقد قال جدك ‹دع الأطفال الصغار يأتون إلي [39]›: وما كان قصده من وراء هذا؟ كيف، لو كان الرب يقصد ضرورة أن يعاني الصغار كي يكونوا مقربين منه، فأي أرض تلك التي خلقها؛ إن تعين عليهم المعاناة كي يقتربوا منه، فأي ملكوت هذا الذي أوجده؟) انظر إلى المخلوق البشري الذي يطعمه، الذي أطعمه، يدفع إليه الطعام الذي تبين بنفسه أنه الأطيب على الإطلاق، الطعام الذي أدرك أنه أعدّه من أجله بعد تقديم تضحية عن سبق الإصرار، معجونة بذلك المزيج الغريب من البربرية والعطف، من التوق والكراهية، التي ألبسته وغسّلته، دفعته نحو أنابيب مياه حارّة جداً أو باردة جداً ولم يتجرأ على النطق بصرخة واحدة، ونظفته بالصابون وفركت جسده بليفة خشنة، واستخدمت أحياناً الفرشاة والفراء كما لو أنها حاولت مسح وصمة السمرة الناعمة الخفيفة على بشرته كما عندما ترى طفلاً يفرك بدنه على الحائط ليزيل تلك الصبغة، الإهانة المختنقة، وطمسها؛– استلقى هناك بينهما وقد جافاه النوم، يستشعر أرقهما أيضاً، يستشعر بأنهما تفكران فيه، تشعران به وتملآن الوحدة المدوية ليأسه بضجة أعلى من تلك التي قد يثيرها أي حديث: لست في الأعلى على السرير معي، لا لذنب ارتكبته أو لعدم رغبتك بذلك، ولست في الأسفل هنا على فراش القش معي، لا لذنب ارتكبته أو لعدم رغبتك بذلك، ولا لذنب ارتكبناه أو لعدم رغبتنا بذلك إذ لا نصبو إلى ما لا طاقة لنا به وننتظر المصير القادم لا محالة.

«ولم يعرف جدك من منهم أخبره أنه كان، حتماً، زنجياً، هو من لم يسمع قط بكلمة «زنجي» ولم يعرفها من قبل وترعرع في زنزانة خاوية حريرية وثيرة معلّقة بكابل على ارتفاع ألف قامة عن البحر، حيث لا قيمة أخلاقية للون أكثر من الجدران الحريرية وعبق الشموع الوردية، وحيث تجسدت العقبات التي واجهها في تلك التي راقبها– الزواج من امرأة واحدة والوفاء والكياسة والنبل والود– متجذرة ببساطة في وظائف الجسد مثل عملية الهضم. لم يعرف جدك إن كان قد أبعد عن فراش القش أخيراً أو أنه تخلى عنه بملء إرادته؛ إن تصلبت وحدته وحزنه في الوقت المناسب، هل هجر غرفة نوم جوديث أم

طَرد منها، لينام في القاعة (حيث نقلت كليتي فراشها أيضاً) على الرغم من أنه لم ينم على فراشٍ من القش مثلها وإنما على سرير متنقل، أرفع مرتبة وربما دون أمرٍ من جوديث وإنما بفضل كرم الزنجية وتواضعها القوي العنيد؛ ثم في العلية، انتقل السرير إلى هناك، بضعة قطع من الملابس (أسمال الثياب المصنوعة من الحرير والجوخ التي كان يرتديها عندما وصل، السراويل القطنية والجينز القاسية التي اشترتها وصنعتها السيدتان من أجله، وقبِلها دون كلمة شكر، بلا تعليق، قبِل غرفته الحقيرة دون كلمة شكر، بلا تعليق، لم يجر أي تعديلات على محتويات الغرفة المتقشفة وظلت كما عرفوها حتى السنة الثانية عندما كان في الرابعة عشرة ووجدت إحداهما، كليتي أو جوديث، تحت فراشه شظايا مرآة مهشمة: ومن يدري عدد ساعات الحزن الذاهل العصي على البكاء التي قضاها قبل ذلك، يتفحص مظهره في الأسمال الرثة الرقيقة التي تفوق حجمه وبالكاد يستطيع التعرف على نفسه، مثقلاً بغموض مرتبك أبكم) المعلقة خلف ستارة مصنوعة من سجادة قديمة ثُبتت بالمسامير في الزاوية. اعتادت كليتي على النوم في الرواق في الطابق الأرضي، لتمنعه من الصعود إلى العلية، وتحول دون هربه أو خروجه وتسدّ عليه المنافذ جميعاً مثل حارسة شمطاء إسبانية، علمته تقطيع الحطب والبستنة ثم علمته عندما قوي عوده الحراثة (أو بالأحرى عندما زادت لياقته، إذ لم يشتد عوده قط وظلت عظامه هشة ورقيقة)– صبي ليّن عظامه هشة ويداه أنثويتان يصارع مع طيف مجهول لبغل صعب المراس، أياً كان المهرّج المأساوي العقيم المرافق له المذعن للعنة والده الأولى، يرزح تحت سطوة اللعنة تدريجياً ويرتبط الاثنان، يجمعهما الرمز الذكوري الهمجي الفولاذي الخشبي، تنتزع من الأرض الأنثوية الخصبة الذرة لإطعامهما بينما كليتي تراقب بشراسة متوجسة مما يجري، دون أن يغيبا عن نظرها أبداً، شراسة يشوبها الاهتمام العنيد المشبع بالغيرة، تهرع كلما توقف أحدهم سواء كان من البيض أو السود في الطريق وتخشى أنه ينتظر أن ينهي الصبي حراثة الأخدود ليتوقف لفترة كافية للتحدث معه، تنهر الصبي بكلمة واحدة أو حتى بإيماءة وحشية تفوق مئة مرة وحشية وابل الشتائم التي كانت تكيلها على العابرين. وظن (جدك) أنه لم يكن أي منهما. لا كليتي، التي حرسته كما لو كان بتولاً إسبانياً، التي وحتى قبل أن تساورها شكوك بأنه سيأتي ليعيش معهم، قاطعت تواصله الأول مع زنجي وأعادته إلى المنزل؛ ولا جوديث، التي رفضت في جميع الأوقات أن تسمح له بالنوم في سرير ذلك الطفل الأبيض في غرفتها، التي على الرغم من أنها عجزت عن التصالح مع فكرة نومه على الأرض فقد تكون لربما أرغمت كليتي على أخذه إلى سرير آخر معها، لتجعل منه راهباً عازباً لكن غير مخصي، ولم تسمح له بالتحدث مع الغرباء، فلن تقبل بالتأكيد أن تدفعه للزواج من زنجية. لم يعرف جدك، مع أنه اطلع على أمور أكثر مما اطلعت البلدة والريف، بوجود طفل غِريب هناك ويبدو أنه لم يخرج

من المنزل حتى صار عمره اثني عشر عاماً، ولم يمر وجوده على البلدة مرور الكرام، فقد حسب سكان البلدة والمقاطعة أنهم عرفوا سبب إطلاق هنري النار على بون، ولم يثر استغرابهم سوى الطريقة التي تدبرت فيها كليتي وجوديث أمرهما لإبقائه بعيداً عن الأعين طوال تلك الفترة، واعتقدوا أن أرملة دفنت بون على الرغم من عدم إبرازها لأي أوراق ثبوتية، وظلت تكهنات جدك المرتابة الوحيدة التي لم تربط بين الطفل الذي رآه منذ سنتين عندما جاءت السيدة التي جدها الثامن زنجي إلى البلدة لتنتحب على القبر، مع أن المئة دولار والتوجيهات التي كتبتها جوديث بيدها لقاء شاهدة القبر الرابعة كانت في خزنته حينها، وحسب أن الطفل قد يكون ابن كليتي، أنجبته مما تركه أبوه على جسد ابنته– بدا الطفل طوال الوقت بالقرب من المنزل بصحبة كليتي، وتعلم في شبابه لاحقاً الحراثة وكليتي إلى جواره أيضاً ثم صار من المعروف مدى تيقظها وحذرها المواظب الصارم لاكتشاف وإفساد أي محاولة للتحدث معه، ولم يربط جدك أخيراً بين الصبي، الشاب، وبين الطفل الذي رآه قبل ثلاث أو أربع سنوات عندما زار القبر؛– جدك الذي زارت جوديث مكتبه عصر ذلك اليوم بعد مرور خمس سنوات ولم يستطع تذكر أين سبق له وأن رآها في جفرسون– السيدة التي أضحت في الأربعين، مرتدية الفستان القطني القبيح نفسه والقبعة الباهتة ذاتها، ورفضت أن تجلس، وعلى الرغم من القناع المحكم الذي اصطنعته لتوحي بأن الموضوع مستعجل وخطير، وأصرت على السير نحو المحكمة أثناء حديثهما، أخبرته، عندما اقتربا من القاعة المكتظة حيث جلس القاضي، القاعة المكتظة التي دلفا إليها ولمحه جدك، رأى الصبي (وقد أمسى رجلاً) مكبل اليدين ويمسك به ضابط، ذراعه الأخرى معلّقة بحمالة كتف والضمادات على رأسه لأنهم عرضوه على طبيب أولاً، عرف جدك تدريجياً ما الذي جرى أو جلّ ما حدث لأن المحكمة نفسها لم تحصل على الكثير من المعلومات من الشهود، الشهود الذين هربوا وأخبروا المأمور، الذين (باستثناء الشاهد الذي ألحق به إصابات بالغة فتعذر عليه الحضور) تعارك معهم– جرت لعبة شارك فيها الزنوج على بعد عدة أميال عن مزرعة ستبن وكان معهم، ولم يدرك جدك كم مرة شاركهم اللعب من قبل، وهل ذهب إلى هناك للمشاركة في الرقص أو في لعب النرد في المطبخ حيث بدأت الواقعة، الواقعة التي لم يبدأها الزنوج حسب زعم الشهود، وحدثت دون مبرر أو سبب، لا يوجد اتهام بالغش، ولا أي اتهام آخر؛ ولم ينكر أي تهمة، لم يفه بحرف واحد، رفض أن ينطق بكلمة واحدة، جلس شاحباً متجهماً وصامتاً: واختفت عند هذه النقطة كل الحقيقة والقرائن وتحولت إلى كتل متموجة من رؤوس وظهور الزنوج والأذرع والأيادي السوداء القابضة على هراوات مأخوذة من حطب المواقد إضافة إلى معدات المطبخ وشفرات الحلاقة، الرجل الأبيض لبُّ الموضوع استخدم سكيناً حصل عليها من مكان ما، استخدمها بحماقة وبطريقة تفضح قلة خبرته ومهارته، ولكن بصرامة

وقوة قاتلتين تتنافيان مع مظهره، قوة نابعة من إرادة يائسة وحصانة تجعله فوق القصاص والعقاب، تلقى في المقابل لكمات وأصيب بجروح بدا غير واعٍ لها؛– دون مبرر، دون سبب؛ لم يعرف أحد قط ما الذي جرى، ما اللعنات والشتائم التي أُكيلت ودفعته للإقدام على ما فعله، وجدك الوحيد الذي تلمّس وتحسس وقبض على تلابيب ذلك التمرد الغاضب، مساءلة أوامر السماء، سلاح يُقذف في وجه يأس غاضب مقيم يصيب حتى الشيطان نفسه، كما لو أن الطفل ومن ثم الشاب قد اكتسبه من الجدران التي عاش الشيطان بينها، الهواء الذي عبره يوماً وتنفسه حتى تلك اللحظة عندما رد القدر الذي تحداه طويلاً ضربته؛ جدك الوحيد الذي استشعر ذلك لأن المحكمة والحاضرين لم يتعرفوا عليه، لم يتعرفوا على هذا الرجل النحيل الذي غطت الضمادات رأسه وذراعه، ووجهه المتجهم الجامد الحنطي (وقد صار الآن شاحباً تماماً)، الذي يرفض رفضاً قاطعاً الإجابة عن أي سؤال، أو الإدلاء بأي تصريح: ولهذا فقط كانت المحكمة (القاضي جيم هامبليت) تسرد لائحة الاتهامات الموجهة ضده عندما دخل جدك، منتهزاً الفرصة ووجود الجمهور ليلقي خطاباً طويلاً، عيناه تبرقان لرؤية أناس يودون سماع أنفسهم يتحدثون على الملأ: ‹في هذه الفترة، وبلدنا يكافح للنهوض من تحت الكعب الحديدي لمضطهد طاغية، ومستقبل الجنوب بوصفه وطناً مناسباً لعيش نسائنا وأطفالنا متوقف على سواعدنا وكدنا، متسحلين بكبرياء وكرامة وتسامح الرجال السود وكبرياء وكرامة وتسامح البيض؛ تأتي أنت، رجل أبيض، رجل أبيض— ‹حاول جدك الاقتراب منه، إيقافه، حاول التقدم عبر الحشد، قائلاً ‹جيم. جيم. جيم!› لكن الأوان كان قد فات، كما لو أن صوت هامبليت نفسه قد أيقظه أخيراً أو كما لو أن أحدهم ضربه بإصبعه على أرنبة أنفه وأيقظه، نظر إلى السجين وقال ‹أبيض› مجدداً حتى بعدما بدأ صوته بالتلاشي وكأن أمر إيقاف الصوت صُعق داخل دائرة كهربائية صغيرة، واستدارت وجوه جميع الحاضرين نحو السجين عندما صرخ هامبليت ‹أي نوع من الناس أنت؟ من أين أتيت؟›

«أخرجه جدك من السجن، دحض لائحة الاتهام ودفع الغرامة واصطحبه إلى مكتبه وتحدث إليه بينما انتظرت جوديث في غرفة الاستقبال. قال ‹أنت ابن تشارلز بون›. ‹لا أعرف› أجاب الآخر بتجهم وجلافة. قال جدك ‹ألا تتذكر؟›. لم يجب الآخر. ثم أخبره جدك أن عليه الرحيل، الاختفاء، أعطاه مالاً: ‹بغض النظر عمن تكون، حالما تكون بين غرباء يمكنك أن تكون من تشاء. سأرتب الأمور؛ سأتحدث إلى – إلى – ما اسمها؟› وكان قد تمادى بالفعل، وقد فات أوان إيقافه؛ جلس ونظر إلى ذلك الوجه الجامد الذي ما كان ليشي بأي تعابير أكثر مما يشي وجه جوديث، لا علائم على أمل ما أو ألم: مجرد وجه متجهم غامض مطرق يتأمل اليدين الأنثويتين الصلبتين والأظافر المكسرة التي أمسكت بالنقود بينما فكر جدك بسبب عدم قدرته على قول ‹الآنسة

جوديث›، لأن ذلك سيظهر الفروق أكثر من أي وقت مضى. ثم فكر لا أعرف إن كان يرغب بإخفائه أو لا ولهذا قال الآنسة ستبن. ‹سأخبر الآنسة ستبن، لن أخبرها عن الوجهة التي ستقصدها بالطبع، لأنني لا أعرف وجهتك. سأخبرها فقط أنك رحلت وأنني أعرف وجهتك وأن أمورك ستكون على خير ما يرام›.

«غادر إذن، وذهب جدك لإعلام جوديث، وجاءت كليتي ووقفت عند الباب ونظرت ملياً في وجهه ورمقته بنظرة ثابتة ولم تفه بكلمة ثم غادرت لإخبار جوديث، وانتظر جدك في تلك الردهة المعتمة وعرف أنه لن يخبر أي منهما. لا ضرورة لذلك. حضرت جوديث ووقفت تنظر إليه وقالت ‹أحسب أنك لن تخبرني›– قال جدك: ‹ليس لأني لا أريد إخبارك، وإنما لأنني لا أستطيع ذلك. ليس الآن لأنني قطعت عليه وعداً. لكن معه نقود؛ سيكون—› وأحجم عن المتابعة، وقف بينهما ذلك الفتى اللامرئي البائس الذي قدِم قبل ثماني سنوات مرتدياً سترته الواسعة وأسمال قبعته المصنوعة من الحرير والجوخ، التي بدت الأفضل حالاً بين جميع مكونات ملابسه، وسروال العمال– التي تحمل لعنته القديمة، والذي صار شاباً مفعماً بقوة الرجال دون أن يتخلى عن كونه طفلاً وحيداً يرتدي قميصه المغطى بالشعر والمصنوع من الجلد وجينز الدينم، ونطق جدك بكلمات متلعثمة خالية من أي معنى، التفاهات الفارغة المنمّقة التي نسميها مجاملات، يفكر بينه وبين نفسه ليته ميتاً الآن، بل ليته لم يُخلق أصلاً: ثم فكر كم ستبدو خلاصة عقيمة وتافهة بالنسبة لها إن كان سيقول هذا، لقد قالها دون شك، فكر بها، الفرق هنا أنه يتحدث عن شخص واحد، ولكن ربما فكر بها سابقاً قاصداً أهل الجنوب بأسرهم. عاد أدراجه إلى البلدة. والآن، في المرة القادمة، لم يُستدعَ؛ عرف بقدومه عندما عرفت البلدة برمتها: كان وسط الكرمة، وكان تشارلز إتيان سانت فاليري قد عاد (لم يعد إلى المنزل مجدداً؛ عاد إلى البلدة) قبل أن يعرف جدك كيف عاد؛ ظهر، برفقته سيدة سوداء كالفحم تشبه القردة وشهادة زواج أصلية، أعادته السيدة لأنه كان قد تعرض للضرب المبرح ومصاب بجروح بليغة وعاجز عن تمالك نفسه فوق ظهر البغل المريض الخالي من أي سرج الذي امتطاه بينما سارت زوجته إلى جوار البغل لتحول دون وقوعه عنه؛ وصلت إلى المنزل ويبدو أنها رمت شهادة الزواج في وجه جوديث بشيء من اليأس المقيم الذي يشبه اليأس الذي دفعه لمهاجمة الزنوج خلال لعبة النرد. ولم يعرف أحد قط الحيثيات المذهلة لغيابه على مدار عام كامل لأنه لم يأتِ أبداً على ذكر ما حدث بينما ظلت السيدة، حتى بعد مرور عام وعقب مولد ابنهما، تحت تأثير الحالة الآلية المذعورة التي كانت عليها حين وصولها، عاجزة، ربما، عن تذكر ما حدث لكنها بدت وكأنها تنضح الأحداث تدريجياً خلال عملية إفراز مريعة ومرتابة كما تنضح العرق الذي يفرزه الجسد عند التعرق أو الهلع: كيف عثر عليها، أخرجها من بركة تفكيرها المحدود الآسنة ثنائية الأبعاد (الاسم ذاته،

اسم البلدة أو القرية، لم تعرفه يوماً أو أن صدمة نزوحها قد مسحت الاسم من عقلها وذاكرتها للأبد) أمّن لها الطعام والمأوى، وتزوجها، أمسك بيدها حتماً عندما أذعنت له حتى قبل أن تعرف اسمه أو تعرف أنه لم يكن أبيض (لم يعرف أحد بأنه أبيض حتى الآن وهي لم تكن متأكدة، حتى بعد ولادة الابن في أحد أكواخ العبيد المتداعية التي أعاد بناءها عقب استئجار قطعة أرض من جوديث)؛ أعقب ذلك فترة أشبه بعام مقسم إلى فترات زمنية متتالية محكومة بالشلل التام وكأنها شريط سينمائي تالف، أمضاها الرجل الأبيض الذي تزوجته مضطجعاً على ظهره يتعافى من الجروح الأخيرة التي لحقت به، داخل غرف كئيبة نتنة في أماكن– بلدات ومدن– لا تعرف اسمها أيضاً، تتخللها فترات أخرى، استراحات، تضجّ بحركة حانقة مبهمة لا مبرر واضح لها، تقدم– زوبعة من الأوجه والأجساد التي اندفع الرجل عبرها، يجرها خلفه، دون أن يكون لديها أدنى فكرة عن الوجهة ومكان الانطلاق، وأي غضب يحركه ويقضّ مضجعه، تنتهي كل فترة على غرار ما انتهت إليه الفترة التي سبقتها حتى صار هذا ضرباً من العُرف– كان الرجل على ما يبدو يبحث عن ظروف تتيح له التباهي بجسد رفيقته الفاحم الذي يشبه جسد القردة ويصفع به أوجه الجميع وكل من يفكر بالانتقام: عمال السفن والحمّالون العاملون على متن العبّارات أو في البارات الرخيصة في المدينة الذين حسبوه رجلاً أبيض وازدادوا قناعة بذلك بعد إنكاره لهذا؛ الرجل الأبيض الذي ظن أنه ينفد بجلده عندما يدعي بأنه زنجي، أو يحمي نفسه مما هو أسوأ: من نوبة انحراف جنسي؛ النتيجة ذاتها في كلتا الحالتين: الرجل ذو الجسد والأطراف الواهنة كجسد فتاة تلقت للتو الصفعة الأولى، أعزل في معظم الأوقات ومتجاهل للأرقام المجابهة له، يتملكه الغضب ذاته والحقد والمناعة البدنية التي تقيه من الألم والعقاب، يحجم عن التأفف أو كيل اللعنات أو الشتائم، ويكتفي بالتبسم.

«أطلع جوديث على وثيقة الزواج وأخذ زوجته، النائية بنفسها وبالطفل، إلى الكوخ المتهالك الذي اختاره ليكون مستقرّها وملاذها وحجرها، أمرها بالدخول بإيماءة من رأسه ربما، وعاد إلى المنزل. لم ترشح أي تفاصيل عن لقائه بجوديث في تلك الغرفة الجرداء الخالية من أي سجاد أو أي أثاث اللهم إلا بضع كراسٍ نجت من التقطيع لتُرمى في مقود الطهي أو في المدفأة أو في النار لتسخين مياه قد تُستخدم لعلاج أحد الأمراض بين الفينة والأخرى– السيدة التي ترمّلت قبل زفافها، ابن الرجل الذي أفجعها وأفجع محظيته الوريثة الزنجية، التي لم تمقت دماءه السوداء بالقدر الذي أنكر فيه دماءه البيضاء، بإفراط غريب مشبع بغضب موروث لا فكاك منه، بالطريقة نفسها التي اتبعها الشيطان نفسه. (لأن الحب كان في الأجواء قال السيد كمبسون تلك الرسالة التي أحضرها وقدمها إلى جدتك لتحتفظ بها كان بإمكانه (كونتن) رؤيتها، بالوضوح ذاته الذي رأى فيه الرسالة المفتوحة على الكتاب على

الطاولة أمامه، بيضاء بين يدي والده الداكنة فوق سرواله الكتاني في غسق أيلولي مشبع برائحة السيجار والوستاريا، تملأ اليراعات المكان، قال لنفسه صحيح. لقد سمعت ما يكفي، أطلعوني على ما يكفي؛ أجبروني على سماع أشياء كثيرة، كثيرة، كما حدث لأبي ربما: تلك الرسالة، ومن يدري أي ترميم أخلاقي كانت تنشد في عزلة ذلك المنزل، تلك الغرفة، تلك الليلة، من يدري أي سياج حديدي صنعته التقاليد البالية كبّلها، هي من تهاوت أمامها كل القلاع التي اعتقدت أنها راسخة وعصيّة على السقوط، تهاوت جميعها كقشة في عين العاصفة؛– جلست بالقرب من المصباح على الكرسي العالي، بظهر مشدود، مرتدية الملابس نفسها، كلها باستثناء القبعة ربما، صار رأسها عارياً الآن، الشعر الفاحم الذي تخللته في السابق بضع شعرات بيضاء غزاه الشيب الآن، كان أمامها وجهاً لوجه، واقفاً. لم يجلس؛ ربما لم تدعُه للجلوس، فيما يصله الصوت البارد واهناً ضعيفاً يمكن لصوت شعلة المصباح أن تطغى عليه: «لقد أخطأت؟ أقرّ بخطئي. آمنت بأهمية أمور لمجرد أنها كانت مهمة فيما مضى. لكنني كنت على خطأ. لا أهمية تعلو على أهمية التنفس، أن تتنفس، أن تعرف أنك على قيد الحياة. والطفل، وثيقة الزواج، الورقة. ماذا عنها؟ تلك الورقة بينك وبين الزنجية التي لا مفرّ من كونها زنجية؛ يمكن تنحيتها جانباً، لن يجرؤ أحد بعد الآن على ذكر أنها كانت أكثر من مزحة طائشة لشاب جامح. أما بالنسبة إلى الطفل، فكل شيء على ما يرام. ألم ينجب والدك طفلاً؟ ألم يكن الأسوأ في هذا الموضوع؟ كنا لنبقي على السيدة والطفل لو أحببت؛ يمكثان هنا وستتولى كليتي...» راقبها، تحدِّق به دون حراك، ساكنة، مشدودة الظهر، يداها مطويتان على حجرها، بالكاد تتنفس كما لو أن طائراً برّياً أو وحشاً قد ينقض عليها متسللاً من انقباض وانفراج فتحتي أنفها أو تحرك صدرها» «كلا: أنا. سأطرح الموضوع للنقاش، أترى لا.. لا ضرورة لوجود أي اسم؛ لا ضرورة لرؤيته ثانية أو للقلق منه. سترى كيف سيبيع الجنرال كمبسن جزءاً من الأرض؛ سيفعل ذلك، ويمكنك حينها الذهاب إلى الشمال، إلى المدن، حيث لا أهمية إن كنت– لكنهم لن يفعلوا هذا. لن يجرؤوا. سأخبرهم أنك ابن هنري ومَنْ يستطع أو يجرؤ على النقاش– كان واقفاً، ينظر إليها أو لا لربما لا ينظر، لم تستطع الجزم لأنه أخفض وجهه– وجهه الجامد الخالي من أي تعابير، راقبته، لم تجرؤ على الإتيان بأي حركة، كانت تهمهم، صوتها واضح بما يكفي لسماعها: «تشارلز»: وهو: «كلا الآنسة ستبن»: وهي مجدداً، ظلت دون حراك، متحكمة في عضلاتها كي تبقى ساكنة، كما لو أنها واقفة أمام أكمة تتربّص بحيوان تعرف أنه يراقبها على الرغم من أنها لا تراه، لا تتذلل له بالمعنى الحرفي للكلمة، لا تشعر بالجزع أو حتى بالتوجس وإنما باضطراب شخص حر مستعص على الإصلاح حريص على عدم ترك أي أثر على الأرض التي بالكاد تحمله ولا تجرؤ على مد اليد لتلمسه ولهذا تكتفي بالتحدث إليه، صوتها خافت وجامد، طافح بالغواية، بالوعود السماوية التي هي سلاح الأنثى:

«نادني بالعمة جوديث يا تشارلز») نعم، من سيعرف إن كان قد نطق بشيء أم لا، استدار، وغادر، ظلت جالسة في مكانها، دون حراك، عضلاتها ساكنة، تراقبه، ما يزال بوسعها رؤيته، الجدران والظلمة اللتان تتيحان الرؤية من شقوقهما، لتراقبه يسير قاطعاً الدرب العشبي بين الأكواخ المهجورة المتهالكة متجهاً نحو الكوخ حيث تنتظره زوجته، يدعس على الطريق المرصوف بالصوان متجهاً نحو بستان جثسيماني [40] الذي صنعه لنفسه، حيث صلب نفسه ونزل عن صليبه للحظة ثم صعد إليه مجدداً.

«ليس جدك. لم يعرف أكثر مما عرفته المقاطعة، ألا وهو: أن الصبي الغريب الذي اعتادت كليتي على مراقبته وعلّمته الزراعة، الذي جلس كرجل ناضج في قاعة المحكمة ذلك اليوم ورأسه معصوب بضماد وإحدى ذراعيه معلّقة برباط طبي والذراع الأخرى مكبّلة بالأصفاد، الصبي الذي اختفى ثم عاد بصحبة زوجة حقيقية تشبه أحد ساكني حديقة الحيوان، يعمل كمزارع في مزرعة ستبن، يعتني بالمزرعة جيداً، يتدبر أموره بمفرده مستعيناً بقوته البدنية المتواضعة، بجسده وأطرافه التي ما تزال غضّة وأوهن من أن تحتمل المهام التي أوكلها لنفسه، عاش مثل ناسك في الكوخ الذي أعاد بناءه حيث ولد ابنه، بلا رفيق لا من البيض ولا من السود (كفت كليتي عن مراقبته؛ لم تكن لها أي حاجة لذلك) ولم يره أحد في جفرسون سوى لثلاث مرات خلال السنوات الأربع التالية ثم ظهر بعدها، أبلغ عنه الزنوج الذين لم يهابوه أو يهابوا كليتي أو جوديث، قالوا إنه إما أعمى أو ثملٌ يرتكب أعمال عنف في منطقة متجر الزنوج في شارع ديبوت، إلى أن جاء جدك وأبعده (أو لأنه ثملٌ جداً فقد أصبح عنيفاً، حسب مسؤولي البلدة) واستبقاه إلى أن جاءت زوجته السوداء القميئة وأعادته إلى العربة، لا شيء حيٌّ فيها سوى عينيها ويديها، حمّلته في العربة وأخذته إلى المنزل. لم تعلن البلدة أنه مفقود في بادئ الأمر؛ كان المسؤول الطبي في المقاطعة هو من أخبر جدك أنه مصاب بالحمى الصفراء وأن جوديث أرغمته على الانتقال للعيش في الدار الكبيرة ورعته واعتنت به إلى أن أُصيبت بدورها بالمرض، وطلب منه جدك إعلام الآنسة كولدفيلد فامتطى جدك الحصان وذهب في أحد الأيام. لم يترجل عن حصانه؛ جلس على حصانه ونادى على كليتي إلى أن أطلّت عليه من إحدى النوافذ العلوية وأخبرته بأنهم «لا يحتاجون إلى أي شيء». وعرف جدك خلال الأسبوع التالي أن كليتي كانت محقة، أو عرف على الفور ذلك، على الرغم من أن جوديث كانت أول من فارق الحياة».

«عجباً» قال كونتن. – نعم فكر بينه وبين نفسه كثيراً جداً لفترة طويلة جداً مسترجعاً كيف نظر إلى القبر الخامس وفكر بأن من دفن جوديث كائناً من كان خاف حتماً من التقاط الموتى الآخرين للعدوى منها، لأن قبرها كان على الجهة المقابلة من الحظيرة بعيداً عن القبور الأربعة الأخرى في أبعد نقطة

عنها، فكر قائلاً أبي لم يقل «فكر» هذه المرة لأنه عرف من رتّب لشراء شاهدة القبر قبل أن يقرأ النقش المكتوب عليها، فكر متخيلاً التعليمات الدقيقة التي أملتها جوديث لنقش الأحرف وكيف استنهضت نفسها (استجمعت قواها رغم الهذيان) لتكتب من أجل كليتي عندما عرفت أنها ستموت؛ وكيف عاشت كليتي بتقشف خلال السنوات الاثنتي عشرة التالية حين اعتنت بالطفل الذي ولد في كوخ العبيد القديم، توفر المال ليتيسر لها دفع ثمن شاهدة القبر التي سبق لجوديث أن دفعت لجدك المئة دولار قبل أربع وعشرين سنة، وعندما حاول جدك رفضه، وضعت (كليتي) العلبة الصدئة المليئة بالسنتات والقروش والأوراق النقدية المهترئة على المكتب وخرجت دون نطق كلمة واحدة. توجب عليه إزالة أوراق الأرز الإبرية عن هذه الشاهدة أيضاً ليقرأ ما نُقش عليها، راقب الأحرف تتوضح تحت يده، مستغرباً من صمودها كل هذا الوقت وكيف لم تستحل بدورها إلى رماد لحظة تماسّها مع الخطر القاسي الفتّاك: جوديث كولدفيلد ستبن. ابنة إلين كولدفيلد. ولدت في 3 تشرين الأول 1841. قاست الذل وشظف العيش في هذا العالم على مدار 42 سنة و4 أشهر و9 أيام، واستراحت أخيراً في 12 شباط 1884. مهلاً أيها الفاني؛ حاذر من الغرور والحماقة واحترس فكر (كونتن) صحيح. لا حاجة للسؤال عمّن اخترع هذه الكلمات، من رتّبها بهذه الطريقة فكر نعم، الكثير، لردحٍ طويل من الزمن. لا ضرورة لأن أصغي حينها لكن توجب عليّ الاستماع إلى ما يقال وعليّ أن أسمع كل شيء مجدداً لأن ما يقوله يطابق ما قاله أبي: عاشت النسوة حياة جميلة. تناولن مع كل شهيق اللحم وشربن مع كل زفير نذر يسير مبارك من القلق وتعدد ظلال الحقائق وأوجهها– من قلة الولادة والحرمان، وانعدام المعاناة والارتياب واليأس– يتخايلن في الحفلات بادعاءٍ وكياسة فارغة، حركاتهن مثالية ومدروسة لا مجال فيها لأي خطأ أو هفوة. أرسلت الآنسة روزا بطلب شراء تلك الشاهدة. طالبت القاضي بينبو بتلك الشاهدة. صار القاضي الوصي على ممتلكات والدها نظراً لعدم وجود أي وصية لأن السيد كولدفيلد لم يكتب أي وصية ولم يكن لديه أي ممتلكات باستثناء المنزل والمتجر الذي صار قوقعته المحصنة. عيّن نفسه وصياً إذاً، انتخب نفسه أثناء خلوة جمعت الجيران والمواطنين لمناقشة شؤونها ومصيرها بعد أن أدركوا أن لا قوة تحت الشمس ولا أي رجل أو لجنة من الرجال ستقنعها يوماً بالعودة إلى ابنة أختها وصهرها– الجيران والمواطنون ذاتهم الذين تركوا سلال الطعام على عتبة منزلها ليلاً، الأطباق (الصحون الممتلئة بالطعام والمغطاة بالمناديل) التي لم تنظفها يوماً واكتفت بإعادتها متسخة إلى السلة ووضعها على العتبة نفسها حيث وجدتها كما لو أنها تود إيهامهم بأنها غير موجودة أو أنها لم تمسسها أو تفرغها على الأقل، لم تخرج وتأخذ السلة دون أن تخلّف وراءها أي انطباع بالسرية أو حتى المقاومة، تذوقت الطعام بلا ريب، انتقدت جودته وطريقة طهيه، مضغته وابتلعته

واستشعرت طريقه أثناء هضمه دون أن تتخلى عن التعلّق بذلك الوهم، ذلك الإصرار الهادئ العنيد على أن كل الأدلة الدامغة التي تخبرها عن وجود السلال باطلة، حيث يمكن للنساء فعل ذلك؛– النفس الأمّارة بالوهم ذاتها التي تأبى الاعتراف بأن تصفية المتجر تركت لها شيئاً ما، وأنها ليست سوى شخص معدوم يرفض أخذ ثمن المتجر من القاضي بينبو لكنها تقبل في الوقت ذاته قيمة المال (بل وتفرط في تقييمه بعد هذا بسنوات) بعشرات الطرق: تستغل الصبية الزنوج العابرين مصادفة أمام المنزل، توقفهم وتأمرهم بقلب تربة الفناء، وعلى غرار البلدة، كانوا يعرفون أنها لن تأتي على ذكر أجرهم، ولن يروا وجهها مجدداً على الرغم من أنهم يعرفون بأنها تراقبهم من خلف ستائر النافذة، لكن القاضي بينبو سيدفع لهم أجرهم– تدخل إلى المتجر وتطلب أغراضاً معروضة على الرفوف تماماً كما طلبت الشاهدة التي تبلغ تكلفتها مئتي دولار من القاضي بينبو، وتخرج من المتجر وقد اقتنت ما تريد– متبعة المكر الشاذ نفسه الذي يدفعها للامتناع عن غسل الأطباق والمناديل التي تأتيها في سلال الطعام، ترفض مناقشة بينبو عن شؤونها لأنها تعرف أن مبلغ المال الذي استلمته منه لا بدّ وقد فاق منذ سنوات (ثمّة على مكتب بينبو ملف، ملف سميك، تحت عنوان ممتلكات جودهو كولدفيلد. خاص مكتوب بحبر لا يُمحى. بعد موت القاضي فتح ابنه بيرسي الملف. كان مليئاً باستمارات سباق وتذاكر رهان ملغاة على أحصنة لا أحد يعرف أين عظامها الآن، فازت بالسباقات وخسرت في مضمار ممفيس قبل أربعين عاماً مضى، ودفتر يشتمل على جدول مكتوب بعناية بخط يد القاضي، كل عمود فيه يشير إلى التاريخ واسم الحصان وقيمة الرهان ونتيجته سواءً فاز أم خسر؛ وعمود آخر يبيّن كيف وضع على مدار أربعين عاماً كل ربح أمام الخسارة المكافئة لها تماماً، وفق عمليات حسابية فائقة الدقة) ما اشترته من المتجر

لكنك لم تكن مصغياً، لأنك تعرف كل شيء مسبقاً، عرفت به، تشرّبته مسبقاً دون الحاجة إلى الكلام عنه بمجرد أنك ولدت وعشت في محيطه، معه، كما سيفعل الأطفال ويفعلون: أي إن كل ما قاله لك والدك لم يفعل سوى النقر، كلمة بعد كلمة، على الحبال الرنانة للذكريات، مرّ من هنا من قبل، رأى هذه القبور أكثر من مرة أثناء جولات تسكع في فتوته هدفها يتجاوز مجرد البحث عن اللعب واللهو، كما رأيت الدار القديمة أيضاً، تعرف شكله قبل رؤيته، كبرت بما يكفي لتخرج في أحد الأيام بصحبة أربعة أو خمسة فتية بحجمك وعمرك نفسهما تتحدون بعضكم البعض لإخراج الشبح، لأن الدار مسكونة بلا شك، لا بد وأنها مسكونة على الرغم من أنها فارغة من ساكنيها منذ ست وعشرين عاماً لا شيء يهدد وجودها ولم يشاهد أحد أو يبلغ عن أي شبح إلى أن حاولت عربة محمّلة بالغرباء القادمين من أركنساس التوقف وقضاء الليلة في الدار وحدث شيء ما قبل حتى أن يباشروا تفريغ العربة، شيء لم

يستطيعوا أو لم يرغبوا بالإفصاح عنه أرغمهم على العودة إلى العربة وعدم التوقف في أي محطة قبل الوصول إلى جفرسون– القوقعة العطنة وأروقتها الملتوية وجدرانها المقشرة، ستائرها المهترئة ونوافذها الموصدة، تقع في وسط المنطقة التي استولت عليها الدولة وبيعت مراراً وتكراراً مراراً ومرة بعد مرة. كلا، لم تكن مصغياً؛ لا حاجة لك بذلك: ثم هاجت الكلاب وماجت، نهضت؛ رفعت نظرك وكنت متأكداً مئة بالمئة، تماماً كما خمّن والدك، لجم لستر البغل والحصانين تحت المطر على بعد حوالي خمسين ياردة عن أشجار الأرز، جلس طاوياً ركبتيه على صدره تحت كيس الخيش يلفّه الضباب الكثيف للحيوانات الهائجة كما لو أنه ينظر إليك وإلى والدك وكأنكما مؤمنان ورعان حزينان مطهّران من الإثم. قال والدك: ‹ادخل يا لستر ولا تبق تحت المطر؟› ‹لن أسمح للكولونيل العجوز بإيذائك›.– ‹ادخل ودعنا نذهب إلى المنزل› قال لستر: ‹لا مزيد من الصيد اليوم›. – قال والدك: ‹سنبتل تحت المطر›. ‹سأقترح عليك أمراً: نقود أحصنتنا إلى تلك الدار القديمة. سنحتمي من المطر والبلل هناك›. لكن لستر لم يتزحزح. ظل جالساً تحت المطر يختلق الأعذار الواهية كي لا يذهب إلى الدار– مثل أن سقفها يسرب المياه أو أنكم ستصابون بالزكام لعدم وجود مدفأة أو أنكم ستبتلون جميعاً قبل أن تصلوا إلى هناك ولهذا فمن الأفضل الذهاب مباشرة إلى المنزل: هزئ والدك من لستر لكنك لم تقهقه لأنك وعلى الرغم من أنك لست أسود مثل لستر، إلا أنك لم تكن أكبر سناً منه، وكنت ولستر سوية في ذلك اليوم عندما بدأتم أنتم الخمسة، الصبية الخمسة بالعمر نفسه، تتحدون بعضكم بعضاً للدخول إلى الدار قبل وقت طويل من الوصول إليها، تقتربون من الجهة الخلفية للدار، تعبرون الشارع القديم حيث يعيش العبيد– أدغال السمّاق والخرما والكرز والعسلة، والأكوام العفنة لما كان يوماً جدراناً خشبية ومدافئ حجرية وأسقف مصنوعة من ألواح الخشب وسط الشجيرات، باستثناء واحد، ذلك الشيء؛ دنوتم منه؛ لم تلحظوا العجوز في بادئ الأمر لانشغالكم بمراقبة الصبي، المدعو جيم بوند، الصبي الضخم متهدل الشفاه حنطي البشرة يكبرك بضع سنوات وجسده أضخم قليلاً من جسدك، مرتدياً قميصاً باهتاً ومرقعاً لكنه نظيف تماماً وسروال عمال أقصر منه بكثير، يعمل في جزء من الحديقة على مقربة من الكوخ: لم تلحظوا مطلقاً وجودها إلى أن استدرتم ووجدتموها تراقبكم من على كرسي مسنود على جدار الكوخ– سيدة ضئيلة شاحبة لا يزيد حجمها عن حجم قرد قد تكون في أي عمر يزيد عن العشرة آلاف سنة، ترتدي تنورة باهتة فضفاضة وخرقة بالية بالغة النظافة على رأسها، قدماها العاريتان بلون القهوة ملتفتان على الكرسي تماماً كما يلف القرد ساقيه، تدخن غليوناً مصنوعاً من الطين تراقبه بعينين مثل زري حذاء غائرتين في بحر من تجاعيد وجهها، اكتفت بالنظر إليكم وقالت دون أن تحرك الغليون وبصوت يشبه كثيراً صوت سيدة بيضاء: «ماذا تريدون؟» وبعد برهة قال أحدكم «لا

شيء» ثم أطلقتم سيقانكم للريح غير آبهين بمن بدأ بالركض أولاً ولا سبب جريكم لأنكم لم تكونوا خائفين، عبرتم الأراضي المحروثة القاحلة والحقول الهرمة المليئة بالشجيرات البرية إلى أن وصلتم إلى سياج متعرج وعبرتوه قفزاً، ثم بدت الأرض والحقول والسماء والأشجار والغابة مختلفة مجدداً، عاد كل شيء على ما يرام من جديد

قال كونتن: «نعم».

قال شريف: «وهذا ما كان يتحدث عنه لستر. وراقبك والدك مجدداً لأنك لم تكن قد سمعت بالاسم من قبل، لم تفكر حتى بأن له اسم في ذلك اليوم عندما رأيته في حقل الخضار، وقلت «من؟ جيم ماذا؟» وقال لستر: «ذلك هو. الصبي فاتح البشرة الذي يعيش مع السيدة العجوز» وظل والدك يراقبك فقلت «هجئ الاسم» وقال لستر «اسمه على وزن كلمة يقولها المحامون. إلى ماذا يخضعونك عندما يقبضون عليك. تلك هي الكلمة لا أعرف القراءة». وكان هذا اسمه، اسمه بوند ولم يكن ليكترث لهذا، من ورث عن أمه ما ورث وشيئاً لن يستسغه قط من والده، ولو سأله والدك إن كان ابن تشارلز بون لأصابته الحيرة ولما عرف أيضاً، لم يأبه قط: وإن أخبرته بأنه بالفعل ابن تشارلز بون، لربما يلامس الجواب ما يمكن أن تسميه عقله ثم يتبخر قبل وقت طويل من قدرته على إبداء أية استجابة أو ردّ فعل، سواء كانت فخراً أم حبوراً، غضباً أم حزناً؟»

قال كونتن: «نعم».

«وعاش في ذلك الكوخ خلف الدار المسكونة لمدة ستة وعشرين عاماً، مع السيدة العجوز التي لا بد وأنها تجاوزت عقدها السبعين الآن دون أن يمس الشيب شعرة واحدة من شعرها المخبأ تحت تلك الخرقة البالية، ودون أن يترهل جلدها وكأنها كبرت إلى حدٍّ معين مثل أي شخص عادي، ثم توقفت بها السنون، وعوض أن يغزو الشيب رأسها، بدأت تتقلص لتتحول بشرتها ووجهها ويداها إلى ملايين التجاعيد الصغيرة وصغر جسدها وتضاءل ليصير أصغر فأصغر مثل شيء يتقلص في فرن، مثلما تفعل عفاريت كلب الجبل برأسها– ربما كانت الشبح عند الضرورة، عندما لا يكون للمرء أي شيء آخر يفعله سوى التسكع حول الدار، ولكن الحال لم يكن كذلك؛ لو كان هناك أي شيء بين جدران الدار لحمايتها من المتصيّدين، ولكن الحال لم يكن كذلك؛ لو قصدها أحدهم طلباً للاختباء والتواري عن الأنظار، ولكن الحال لم يكن كذلك. ومع ذلك، أخبرتك هذه السيدة العجوز، الخالة روزا، عن شخص مختبئ هناك وقلتَ إنه كليتي أو جيم بوند وقالتْ كلا وقلتَ لا بد وأنها كليتي أو جيم بوند لأن إبليس لقي حتفه وجوديث فارقت الحياة وبون مات وهنري رحل دون أن يكون له أي قبر حتى الآن: وقالتْ كلا فذهبتَ إلى هناك، قطعت اثني عشر

ميلاً تحت جنح الليل على متن عربة فوجدت كليتي وجيم بوند كلاهما داخل المنزل وقلت ألم أقل لك؟ ولكنها (الخالة روزا) أصرت وقالت كلا فتابعت: وما هي النتيجة؟»

«نعم».

قال شريف: «مهلاً. حباً بالله مهلاً»)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–7–

تلاشت ندف الثلج عن ذراع شريف، ذراعه عارية: كل شيء ساكن باستثناء زنده الغض ويده التي تشبه يد كيوبيد، دنت يده من المصباح والتقطت الغليون المحاذي لكوب القهوة الفارغ الذي لم يتغير مكانه منذ استخدمه آخر مرة، ملأه وأشعله. درجة الحرارة صفر في الخارج، قال كونتن لنفسه؛ سيفتح النافذة بعد برهة وسيأخذ نفساً عميقاً، أغلق قبضة يده كان عارياً حتى خصره، في الغرفة الوردية الدافئة فوق الفناء المسوّر. إلا أنه لم يرفع النافذة بعد، في هذه الأثناء، في خضم هذه الأفكار، مضت ساعة وانطفأ التبغ في الغليون الذي انقلب على وجهه وبرد، وتناثرت ذرات الرماد حوله على الطاولة أمام ذراعي شريف الورديتين المتصالبتين اللتين يغطيهما شعر أشقر بينما جلس يراقب كونتن من خلف نظارتيه العاتمتين العاكستين لنور المصباح. قال: «الحفيد إذن كان كل ما ينشده». «كان هذا جلّ ما سعى وراءه. يا يسوع، الجنوب بخير، أليس كذلك؟ أفضل من المسرح، أليس كذلك؟ أفضل من مسرحية بن هر [41]، أليس هذا صحيحاً؟ لا عجب أنك تأتي بين الفينة والأخرى، الحق معك.»

أحجم كونتن عن الرد. جلس جامداً، أمامه الطاولة، يداه على جانبي الكتاب المفتوح حيث الرسالة فوقه: الورقة التي كانت مطوية على شكل مثلث في المنتصف صارت مفتوحة الآن، ثلاث أرباعها مفتوح، كان نصف الرسالة أعلى من النصف الآخر الذي انحنى تحت تأثير ثقل فحواها والطيّة القديمة وتباين وزن كلماتها، حال ذلك دون قدرته على قراءة فحوى الرسالة وفك طلاسمها، ناهيك عن هذا التشويش الإضافي. لكن بدا وكأنه ما يزال ينظر إليها على الرغم من ذلك، أو هذا ما ظنه شريف، أخفض وجهه قليلاً، بكآبة وتجهم نوعاً ما. قال كونتن: «لقد أخبر جدي عنها. في تلك المرة عندما هرب المهندس المعماري، أو بالأحرى حاول، حاول أن يهرب إلى مصبّ النهر ويعود إلى نيو أورلينز أو إلى أي مكانٍ آخر، وهو—» («إبليس، أليس كذلك؟»). أحجم كونتن عن الإجابة، لم يتوقف، رنة صوته، متشوقة، حالمة بعض الشيء دون أن تفقد مسحة الذهول الكئيب والحنق المكبوت: ظل شريف ساكناً بدوره، بدا وكأنه يرتدي نظارتيه دون أي شيء آخر (غطت الطاولة جسده من خصره فما دون؛ لو دخل أحدٌ إلى الغرفة لخُيّل له أنه عارٍ كما ولدته أمه) وكان أشبه بتمثالٍ باروكي معجون من الكعك الملون صنعته نزعة كابوسية مبهمة نحو الانحراف، تمثال يراقبه بفضول متأمل عنيد). «— أرسل في طلب جدك وبعض الرجال الآخرين وأحضر كلابه وزنوجه البربريين ولاحق المهندس وأرغمه على العيش ليومين في جحر داخل كهف أسفل ضفة النهر. كان هذا في الصيف الثاني، عندما وضعوا آخر طوبة وأنهوا حفر الأساسات وقطعوا العوارض الخشبية

الضخمة شذبوها، إلا أن المهندس فاض به الكيل ذات يوم أو خشي أن يتضوّر جوعاً أو أن ينفد طعام الزنوج المتوحشين (وطعام الكولونيل ستبن أيضاً) فيلتهمونه أو ربما نهشه الحنين إلى وطنه أو ربما شعر بأن عليه الرحيل فحسب–» (قال شريف: «ربما لديه حبيبة». «أو لربما أراد أن تكون لديه حبيبة. قلت إنه لم يكن لدى إبليس والزنوج سوى فتاتين». أحجم كونتن عن الرد على هذا أيضاً؛ ربما لم يسمع، كما لو أنه يتحدث بصوت هادئ مكتوم إلى الطاولة أمامه أو الكتاب على الطاولة أو الرسالة على الكتاب أو يديه المحيطتين بجانبي الكتاب). «—رحل إذاً. بدا وكأنه تبخر في وضح النهار، اختفى وسط خمسة وعشرين شخصاً. أو لربما ستبن هو من أدار له ظهره، ورآه الزنوج يرحل لكنهم ظنوا أن هذا أمر لا يستحق الذكر؛ لأنهم برابرة لم يخطر لهم ربما ما يضمره ستبن له بينما يعمل عارياً في الوحل طوال اليوم. أخمّن إذاً أنهم لم يعرفوا سبب وجود المهندس هناك، ما المهام الموكلة إليه أو المهام التي أنجزها، ربما ظنوا أن ستبن أرسله، طلب منه أن يذهب ويغرق نفسه، يرحل ويلقى مصرعه، أو يرحل فحسب. وهذا ما فعله، قفز في وضح النهار، مرتدياً سترته المطرزة وربطة عنقه الأنيقة وقبعته الفخمة مثل عضو كونغرس معمداني ولربما حمل القبعة بيده، وركض نحو المستنقع وراقبه الزنوج يختفي عن الأنظار واستأنفوا عملهم وستبن لم ير ما حدث، لم يلحظ اختفاءه إلى أن حلّ الظلام، وقت العشاء ربما، وأخبره الزنوج بما جرى وأعلن أن اليوم التالي إجازة لأن عليه أن يذهب لإحضار بعض الكلاب. لم يكن له أي حاجة بالكلاب مع وجود الزنوج لاقتفاء أثره، لكن ربما فكر بأن الضيوف قد يحتاجون إلى الكلاب، لقلة خبرتهم باقتفاء الأثر مع الزنوج. وأحضر جدك (كان شاباً حينها) بعض الشمبانيا وأحضر الآخرون بعض الويسكي وبدؤوا بالتجمهر بعد مغيب الشمس في منزله الذي كان بلا جدران في ذلك الوقت، وكان مجرد صفوف وطوب مطمورة في الأرض ولكن لم يكن هذا ليضيرهم لأنهم لم يناموا على أي حال، قال جدك بأنهم جلسوا حول النار ومعهم الشمبانيا والويسكي وربع الغزال الذي اصطاده، وجاء الرجل مع الكلاب قرابة منتصف الليل. ثم حل الصباح وواجه الكلاب بعض المشقة في بادئ الأمر لأن بعض الزنوج تظاهروا بإضاعة الأثر على سبيل المزاح. لكنهم اقتفوا الأثر بشكل واضح في نهاية المطاف، الكلاب والزنوج في أسفل النهر ومعظم الرجال على صهوة جيادهم على طول النهر وكان كل شيء على ما يرام. لكن جدك والكولونيل ستبن أخذا الكلاب والزنوج معهما لأن ستبن خشي من أن يقبض الزنوج على المهندس قبل أن يتمكن من اللحاق بهم. قطع مسافات طويلة مع جدك، وأرسل أحد الزنوج ليقود الحصانين في الأماكن الوعرة إلى أن تمكنا من امتطائهما مجدداً. قال جدك بأن الطقس كان لطيفاً وكان من السهل اقتفاء الأثر لكنه أجاب بأنه كان من الأجدى لو انتظر حتى تشرين الأول أو تشرين الثاني. وأخبر جدِك بضع شذرات عن الأمر.

«في جهله كمُن مقتله. ما اكتشفه فجأة لم يكن ما يود فعله وإنما ما تعين عليه فعله فحسب، سواء فعل ذلك بناءً على رغبة منه أم لا، ما كان أمامه أي خيار آخر، عرف أنه لو لم يفعل ما فعله لفقد نفسه طيلة ما تبقى من حياته، لفقد ما خلّفه كل الرجال والنساء الموتى داخله وكل ما يعينه على مواصلة الحياة، وقف جميع الموتى يراقبون ويترقبون إن كان سيفعل الصواب، يضع الأمور في نصابها ليتمكن من النظر في أوجه الموتى القدامى، بل وجميع الأحياء الذين سيلاحقونه عندما يصير في عداد الموتى. وفي اللحظة ذاتها التي اكتشف فيها حقيقة الأمر، تبيّن له أن هذا آخر ما يتوجب عليه فعله في العالم لأنه غفل عن حقيقة أن هذا ما يتعين عليه فعله، ليس هذا فحسب، وإنما أنه غفل عن حقيقة أن هذا موجود ليكون مرغوباً ومشتهى، موجود ليحدث، كل هذا غاب عن ذهنه إلى أن صار في الرابعة عشرة من عمره تقريباً. فقد ولد في جبال فرجينيا الغربية حيث —» (قال شريف: «لم يولد في فرجينيا الغربية»، «— قال كونتن: «ماذا؟». قال شريف: «لم يولد في فرجينيا الغربية». «لو كان عمره خمسة وعشرين عندما كان في الميسيسيبي عام 1833، فهذا يعني أنه ولد عام 1808. ولم يكن هناك ما يُسمّى فرجينيا الغربية عام 1808 لأن–» قال كونتن: «حسناً». «— لم تكن فرجينيا الغربية قد أُعلنت كإحدى الولايات—» قال كونتن: «حسناً حسناً. إحدى الولايات الأمريكية قبل عام—» وأضاف: «حسناً حسناً حسناً»). «—حيث عاش أهله وناسه في أكواخ خشبية تغصّ بالأطفال مثل الأكواخ التي شهدت ولادته— رجال وفتية يمارسون الصيد أو يستلقون على الأرض حول النار بينما تحاول النسوة والفتيات الأكبر عمراً الاقتراب من النار بين الفينة والأخرى ليطهين الطعام، حيث اقتصر الملونون على الهنود ممن تعتبرهم أدنى منك وتتطلع إليهم من فوق بندقيتك، ولم يكن يسمع أحد أو يتخيل قط مكاناً أو أرضاً يمكن للرجال تقسيمها بمجرد السير فوقها على صهوة جيادهم الأنيقة أو الجلوس بملابسهم الناعمة في أروقة منازل كبيرة بينما رجال آخرون يكدحون في خدمتهم؛ لم يتخيل يوماً وجود شيء ما اسمه ملكية أو رغبة بالتملك، أو أن كل الأشياء المشتهاة موجودة بالفعل، أو أن الملاك ينظرون بدونيّة إلى من لا يملكون، بل ويحظون بدعم كل من ينظر مثلهم بدونيّة إلى الآخرين، والأنكى من ذلك أنهم يحظون بدعم المهمّشين أنفسهم الذين لا يملكون شيئاً ويعلمون علم اليقين أنهم لن يملكوا شيئاً في حياتهم كلها. كانت الأرض حيث ترعرع ملكاً للجميع ومن يمشي للمتاعب بقدميه ويقيم سياجاً حول قطعة أرض ويقول «هذه أرضي» يُعتبر مجنوناً؛ والمتاع مشاع للجميع أيضاً، لا أحد يملك أكثر مما يملكه الآخرون لأن المرء يملك فقط ما يقوى على العناية به أو ما يطيق رعايته والاحتفاظ به، والمجنون فقط يسير للمتاعب بقدميه مدفوعاً بالجشع والرغبة في امتلاك أكثر من كفاف يومه وبعض الويسكي. جهل كلية وجود بلد مقسم بالكامل بدهاء ويقطنه شعب مقسمون أيضاً بدهاء حسب لون بشرتهم

ومقدار ملكيتهم، وثمّة فئة تملك اليد العليا على الحياة والموت والمقايضة والشراء، يملكون بشراً من لحم ودم يخدمونهم يومياً وإلى الأبد ويؤدون مهام متكررة مثل صبّ النبيذ من الجرة ووضع الكأس في أيديهم أو خلع أحذيتهم عندما يحين موعد نومهم يفعلون هذا مراراً وتكراراً منذ ولادتهم حتى وفاتهم ويقومون بكل ما لا يطيقه المرء ولن يطيقه قط ولكن على الرغم من ذلك لم يفكر أيٌّ من الرجال الذين عرفهم في التملّص من أداء هذه المهام تماماً كما لو كان أمراً بديهياً مثل مضغ الطعام أو بلعه أو مثل الشهيق والزفير. لم يكن في طفولته يستمع إلى الحكايات الغامضة عن ملاك تايدووتر الأثرياء التي بطريقة ما سمعها حتى سكان أعالي الجبال لكنه لم يدرك حينها العِبرة من ذلك، وعندما صار يافعاً لم يلق بالاً إلى هذه الحكايات لعدم وجود ما يقارنه أو يقيسه بها لتبث في الكلمات الحياة ويصير لها مغزى، وما من فرصة أمامه (لم يكن لديه أدنى فكرة أو تصور بأنه لربما يوماً ما سيحظى بهذه الفرصة)، ولانهماكه بما يفعله الصبية؛ وعندما صار شاباً وبثّ الفضول الحياة في الحكايات التي لم يكن يدرك أنه قد سمعها من قبل، استحوذ الأمر على اهتمامه ورغب بزيارة هذه الأماكن ولو لمرة واحدة، دون أن يشوب هذه الرغبة أدنى إحساس بالحسد أو الندم، إذ ظن أن هؤلاء الناس ولدوا هكذا هنا أو هناك، بعضهم ولد ثرياً (محظوظاً وفق تسميته: أو لربما يسميهم المحظوظون الأثرياء) والبعض الآخر ولد فقيراً، وما من فرصة (كما قال لجدك) أمام الناس للاختيار وما من شيء يستحق الندم عليه حيث (كما قال لجدك أيضاً) لم يخطر على باله يوماً أن مثل هذه الصدف العمياء تعطي للبعض الأحقية أو تخوّلهم النظر بدونيّة إلى الآخرين، إلى أيٍّ كان. لم يسمع من قبل بهذه الكلمات قبل هبوطه من الجبال.

«هذا ما كان الحال عليه. هبطوا، العائلة بأكملها، عادوا إلى الساحل الذي ينحدر منه ستبن (عندما وصلت السفينة إلى بلدة جيمستاون ربما قادمة من أولد بايلي [42])، هبطوا ليصيروا بنظر أهالي تايدووتر مجانين فقدوا عقولهم بفعل الارتفاع والعلو والجاذبية كما لو أن الشعرة التي جمعت العائلة معاً (ذكر أمام جدك شيئاً عن موت والدته حينها ووصف والدها لها بأنها امرأة صالحة وشبقة وأنه سيفتقدها، وشيئاً عن جمع الزوجة للعائلة حتى بعد تفرقها في الغرب) في الجبال قد انقطعت وهبطوا جميعهم ابتداءً من الأب مروراً بالبنات البالغات والابنة التي كانت مجرد طفل يحبو حينها، من الجبال على الزلاجات بتسارعات مختلفة ودون تناغم أو انسجام مثل كومة بائسة من الطمي المتكوّم على ضفة نهر بعد فيضانه يتحركون بطريقة آلية ناشزة مثل أشياء جامدة بلا حياة وأحياناً عكس التيار ليعبروا هضاب فرجينيا والوديان الرتيبة المحيطة بمنبع نهر جيمس. لم يعرف سبب ترحالهم أو بالأحرى لم يتذكر السبب إن فرضنا أنه عرفه– سواء كان تفاؤل والده أو أمله أو حنينه،

لأنه لم يعرف مسقط رأس والده، هل كان البلد الذي عادوا إليه أم لا، أو حتى إن عرف والده أو تذكر أو أراد أن يتذكر مسقط رأسه وأن يجده مجدداً؛– سواء أخبره أحدهم، أحد الرحالة، عن مكان أو زمان يسهل العيش فيه، ملاذ يهرب إليه من مشقة الحصول على الطعام وتدفئة بدنه في الجبال، أو أن شخصاً عرفه والده أو شخصاً عرف والده وتذكره، وفكر به، أو أن أحد أقاربه حاول نسيانه لكن فشل في ذلك، قد أرسل في طلبه وانصاع له والده، بعد أن أغرته سهولة العيش وليس الأمل في الحصول على العمل المنشود، يتملكه إيمان ربما بشفاعة صلة الرحم كي يتملّص من العمل إن كان هناك صلة رحم أصلاً، أو إيمان بالآلهة الحارسة له إن لم يكن هناك أي صلة رحم. لكنه —» (قال شريف: «إبليس») «— لم يعرف، أو يتذكر إن كان قد سمع بالسبب أو أخبره أحد به أم لا. كل ما تذكره أنه في صباح أحد الأيام نهض والده وطلب من الفتيات البالغات أن يحزمن ما يتوفر من طعام، وقام أحدهم بلف الطفلة وآخر أطفأ النار بالمياه وهبطوا الجبل متجهين نحو الطريق. كان لديهم عربة بعجلتين وثوران مريضان. أخبر جدك أنه لم يتذكر كيف ومتى وأين حصل والده عليها، وقاد (كان في العاشرة حينها؛ ترك الصبيّان الأكبر سناً المنزل قبل أن يهبطوا بفترة قصيرة ولم يسمع أحد عنهما أي أخبار) الثوران لأن والده بدأ منذ حصلوا على العربة بالتدرب على ذلك الجزء من المهام المكرّسة لعدم فعل أي شيء، غافلٌ عن كل ما حوله غارق في الألحفة والمصابيح والدلاء وأكوام الملابس والأطفال، يعلو شخيره وتفوح منه رائحة الخمر. هكذا روى ما حدث. لم تسعفه ذاكرته لتذكر كم استغرق سفرهم هل سافروا لأسابيع أم أشهر أو سنة (باستثناء أن إحدى الفتيات البالغات كانت غير متزوجة عندما غادروا الكوخ وأصبحت متزوجة قبل أن يحطوا رحالهم أخيراً، وصارت أماً قبل أن تغيب سلسلة الجبال الزرقاء عن نظرهم)، لا يتذكر إن مرّ الشتاء تلاه الربيع والصيف أثناء ترحالهم أم إن تعاقب الفصول مر ببطء خلال هبوطهم أم إن الهبوط نفسه منحهم الشعور بتغير الفصول مع هبوط درجة الحرارة وتغير المناخ– (لا يمكن القول إنها فترة من الزمن لأنه وحسب ما يتذكر أو حسب ما قاله لجدك، كانت غير محددة البداية أو النهاية. قد يكون مسمّى مرحلة التخفيف أفضل ما يمكن إطلاقه عليها)– تخفيف من الخمول الغاضب والجمود المريض أثناء انتظارهم في العربة بعيداً عن الأبواب والمواخير المحروسة بالكلاب حتى يثمل الأب ويفقد رشده، ليصير تائهاً هائماً على وجهه وبعد أن يتلقفوا الرجل العجوز من أي مخزن أو ملحق أو حظيرة أو قنال ويضعونه في العربة مجدداً وشعروا بأنهم لا يحرزون أي تقدم وأنهم عالقون بينما الأرض تتحرك من تحتهم، تضيق وتتسع وسط تلافيف الجبال حيث أبصروا جميعاً النور للمرة الأولى، الجبال تنهض أمامهم مثل مدّ يبتلع الأوجه القاسية الغريبة الفظة المتحلقة حول أبواب العربة التي دخلها العجوز للتو أو حُمل إليها أو رُمي داخلها (وفي إحدى

المرات قذف به زنجي ضخم كالبغل أول رجل أسود، عبد، يرونه في حياتهم، ظهر فجأة حاملاً العجوز على كتفه مثل كيس الطعام وفمه– الزنجي– يقهقه بضحكة فاجرة تكشف عن أسنانه الشبيهة بشواهد القبور) يتبدل العالم من حولهم، يختفي عالم ليظهر عالم آخر يخلّفونه وراءهم كما لو أن العربة تسير على جهاز للجري (وقد حلّ! الربيع ثم الصيف وما زالوا يسيرون نحو مكان لم يروه من قبل وليس لديهم أي فكرة عما يكون، ناهيك عن انعدام أي رغبة بالذهاب إليه؛ مقتلعون من مكان أشبه ببقعة صغيرة ضائعة على إحدى كتفي هضبة لا يعرف أحد منهم ربما– باستثناء الأب عديم الإحساس الذي اصطحب معه في رحلته فيلة وأفاعٍ بلون التوت اصطادها بنفسه– طرقاتها وتشعباتها) يستحضرون من وطنهم الجامد الساكن الأوجه والأماكن الغريبة ثم ينسونها، الأوجه والأماكن– أضحت الكلاب والمواخير الآن قرى صغيرة، ثم صارت القرى الصغيرة قرى أكبر، والقرى الأكبر غدت بلدات وصارت البلاد مستوية الآن تقطعها الطرق الممهدة والحقول والزنوج العاملون في الحقول بينما البيض يجلسون على أحصنتهم الجميلة يراقبونهم، والمزيد من الأحصنة الجميلة والرجال الأنيقين والملابس الفارهة، ثمّة نظرة مختلفة عن نظرة رجال الجبال حول الحانات حيث لم يكن يسمح للعجوز بالدخول من الباب الأمامي وحيث تسبّبت له طريقته في شرب الخمر بالطرد حتى قبل أن يحظى بفرصة الدخول وشرب الخمر حتى الثمالة (وبدؤوا حينها بالفعل بقضاء وقت ممتع) واختفت الآن القهقهات والسخرية، حتى لو كانت القهقهات والسخرية قاسية تخلو من أي لطف أو نبل.

«بهذه الطريقة فهم ما يجري. عرف الفرق بين البيض والسود، ليس هذا فحسب بل وكان يتعرّف على الفرق بين البيض والسود وفق معايير مختلفة عن تلك المتعلقة بقدرتهم على رفع السندان أو العيون المفقوءة أو شرب كؤوس الويسكي ثم النهوض والخروج من الغرفة مشياً على القدمين. هكذا فهم سير الأمور، بدأ يميّز ذلك دون إدراك منه. كان ما يزال يظن أن هذا ناتج عن مكان الولادة؛ تبسُّم الحظ؛ وأن المحظوظين قد يكونون أبطأ وأكثر تردداً من غير المحظوظين في استغلال ذلك أو في نسب الفضل لهم في ذلك، يشعرون بأنه يعطيهم أموراً كثيرة غير الحظ؛ ينظرون بعين العطف على غير المحظوظين ويترفقون بهم أكثر مما يترفق غير المحظوظين على بعضهم البعض. توجب عليه استكشاف كل ذلك لاحقاً. تذكر تماماً كيف اكتشف ذلك لأنها اللحظة نفسها التي اكتشف جهله فيها. لم تكن هذه اللحظة، الثانية، التي أدرك فيها أنه تأخر كثيراً: إنها اللحظة التي أوصلته إلى الاكتشاف: اللحظة التي لا ريب أدركوا فيها، صدّقوا أخيراً أنهم لن يسافروا أكثر من ذلك، انتهى ترحالهم، ولن يذهبوا إلى أي مكان– دون أن يكون هذا مترافقاً مع شعورهم بالاستقرار أخيراً، لأنهم أدركوا ذلك أثناء ترحالهم؛ تذكر كيف لمسوا في أحد

الأيام في المكان ذاته تأثير الفرق التدريجي بين ارتداء أحذية وملابس دافئة وبين البقاء حفاة باردين: في حظيرة أبقار حيث ولدت شقيقته طفلها، كما أخبر جدك، وحيث حسبما يتذكر، حبلت بطفلها الثاني أيضاً. حطوا الرحال أخيراً. في مكان لا يعرفه. لبعض الوقت خلال الأيام أو الأسابيع أو الأشهر الأولى، ظلت غريزة الحطّاب التي اكتسبها من محيطه أو ورثها ربما من شقيقيه المختفيين، أحدهما في أقصى الغرب حيث كان يجري نهر الميسيسيبي فيما مضى– والذي أورثه إلى جانب الملابس المهترئة المصنوعة من جلد الغزال التي لا تختلف كثيراً عما خلّفوه وراءهم في الكوخ قبل رحيلهم للأبد– الغريزة التي قواها اللعب وتجارب الصبا، أبقت بوصلته سليمة مما أتاح له (حسب قوله) العودة إلى الكوخ الجبلي في الوقت المناسب. لكن هذا صار من الماضي الآن، أسابيع وأشهر تفصله الآن عن اللحظة التي تمكن فيها أخيراً من تحديد مكان ولادته (ربما سنة، السنة، عندما عجز عن تحديد عمره ولم يتمكن بعدها من تصفية ذهنه ليتذكر، ولهذا أخبر الجد أنه نسي عمره خلال سنة واحدة). لم يعرف إذاً من أين جاء ولا مكانه الحالي ولا سبب مجيئه. كان هناك فحسب، محاطاً بالأوجه، كل الأوجه المألوفة لديه تقريباً، الأوجه التي لطالما عرفها (على الرغم من عددها، وجهود شقيقته غير المتزوجة التي أنجبت بعد فترة قصيرة، كما أخبر الجد، دون أي زفاف، طفلاً آخر، تذوي، جرّاء المناخ والقيظ والرطوبة) صار يعيش في كوخ طبق الأصل عن الكوخ الجبلي سوى أنه لا يتموضع في مكانٍ تضربه الريح من كل صوب وإنما بالقرب من نهر كبير ضحل بالكاد يعبره تيار واحد بل ويجري أحياناً عكس التيار، حيث كان أخوته وأخواته يمرضون بعد العشاء ويقضون نحبهم قبل الوجبة التالية، حيث كان الناس والزنوج يراقبونهم يزرعون ويبنون أشياء لم يسمع بها من قبل (صار للعجوز دور أيضاً، غير معاقرة الخمر. بات يغادر الكوخ أخيراً بعد الفطور ويعود صاحي الذهن وقت العشاء، ونجح في تأمين قوت يومهم بطريقة أو بأخرى) ويراقبهم كذلك الرجل الذي امتلك الأرض والزنوج والبيض المشرفين على العمل أيضاً، يعيش في أكبر منزل رأته عينه على الإطلاق ويمضي معظم فترة بعد الظهر (حكى كيف زحف وسط الشجيرات الشائكة وتمدّد لمراقبة الرجل) في أرجوحة مصنوعة من البراميل ومعلّقة بين شجرتين، حافي القدمين ومعه زنجي يرتدي يومياً ملابس أفضل من ملابسه أو ملابس والده وشقيقاته أو من تلك التي يصبون إلى امتلاكها يوماً ما، كان للزنجي مهمة وحيدة وهي تحريك المروحة وجلب المشروب له؛ (كان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة أو الثالثة عشرة أي السن التي أدرك فيها أنه نسي للأبد عمره) يستلقي طوال فترة العصر بينما تأتي شقيقاته بين الفينة والأخرى إلى باب الكوخ على بعد ميلين ويصرخن مطالبات بإحضار الحطب أو المياه، كان يراقب ذلك الرجل الذي كان لديه حتى حذاء صيفي، لكن ما كان هناك أي ضرورة لارتدائه.

«لكنه لم يشعر بأي حسد إزاء الرجل الذي يراقبه. تمنى لو أن لديه حذاءه، ولربما ودّ لو أن أباه يملك قرداً يلبسه الجوخ ليناوله الكوز ويجلب بدلاً عنه الحطب والمياه إلى الكوخ كي تستخدمها شقيقاته في التنظيف والطهي وتدفئة المنزل. ربما أدرك أيضاً، وفهم مقدار الغبطة التي ستشعر بها شقيقاته إن شاهدهم جيرانهن (بيضٌ مثلهن، يعيشون في أكواخ أخرى لا تشبه إطلاقاً مساكن الزنوج العبيد ومتهالكة أكثر من مساكن السود لكنها على الرغم من ذلك محاطة بهالة الحرية الوضاءة، وعلى الرغم من أن مساكن ربع العبيد ذات أسقف جيدة ومطلية بالأبيض). لم يكن قد فقد براءته بعد، لم يكتشف بعد أنه جاهل. لم يحسد الرجل أكثر مما حسد ذلك الرجل في الجبل الذي كان يملك بندقية. ودّ لو أنه يملك بندقية، كان ليجيز ويدعم تفاخر مالكها وسعادته لاقتنائها لأنه لم يستطع تخيل قدرة مالكها على استغلال حظه الطيب الذي اصطفاه من بين كل الناس ليحظى بالبندقية وكأنه يقول لهم: لأنّ معي بندقية، ذراعاي وساقاي ودمي وعظامي أعظم منكم ناهيك عن الظفر الكبير الذي سيكون من نصيب صاحب البندقية: وكيف بحقّ الله يمكن لشخص أن يحارب رجلاً يمتلك زنوجاً حسنة الملبس ويتنعم برفاهية الاستلقاء طوال العصر في الأرجوحة حافي القدمين؟ وفي سبيل ماذا بحق الله سيقاتل؟ لم يعرف حتى إنه جاهل إلى أن جاء اليوم الذي أرسله فيه والده إلى المنزل الكبير حاملاً رسالة. لم يتذكر (أو لم يبح) بفحواها، يبدو أنه لم يكن يعلم بعد ما العمل الذي يزاوله والده، ما العمل (ما المهام) الذي يقوم به العجوز في المزرعة– صبي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، يرتدي ملابس رثة جلبها له والده من مخزن المزرعة وقصتها إحدى شقيقاته لتناسب مقاسه ورقعتها ولم يعد يذكر كيف بدت عليه أو كيف ستبدو على أي شخص غيره، يقطع الطرق ويدخل البوابة ويمر بالزنوج الذين لا يفعلون شيئاً طوال النهار سوى زراعة الورد وجز العشب، ليصل إلى المنزل، إلى الرواق، الباب الأمامي، متشوقاً لرؤية المنزل من الداخل أخيراً، ليكتشف الأملاك التي يملكها دون غيره رجل لديه زنجي مخصص ليناوله مشروبه ويخلع له حذاءه الذي ما كانت هناك أي ضروره لارتدائه، لم يفكر ولو للحظة إلا بمدى حبور الرجل وهو يطلعه على مقتنياته تماماً كحبور الرجل الجبلي وهو يطلعه على بارود البندقية ومخزن الرصاصات. لأنه كان ما يزال جاهلاً. عرف ذلك دون أن يدرك بأنه عرف؛ أخبر الجد كيف أنه، قبل أن ينهي الزنجي الذي اقترب من الباب جملته، بدا وكأنه تلاشى واستدار جزء منه وعاد بالزمن إلى السنتين اللتين عاشهما هناك تماماً مثلما يحدث عندما تعبر غرفة على عجل وتلقي نظرة سريعة على محتوياتها ثم تعود إلى الغرفة وتنظر إلى جميع محتوياتها من الجهة المقابلة وتلاحظ أنك لم تر هذه الأشياء من قبل، العودة بالزمن إلى هاتين السنتين ورؤية الكثير من الأشياء التي حدثت لكنه لم يلحظها قط من قبل: الطريقة التي اعتادت فيها شقيقاته الكُبريات والنساء البيض

الأخريات النظر فيها بصمت مطبق ومحدد إلى الزنوج، نظرة خالية من الخوف أو الجزع ولكنها تطفح بالعداء الحذر غير المبني على أي حقائق أو أسباب ولكن البيض والسود ورثوه على حدٍّ سواء، الشعور، رائحة العداء الرابض بين النساء البيض أمام أبواب الأكواخ المتهالكة والزنوج العاملين على الطرق، عداء مبهم لا تحكمه حقيقة أن الزنوج يرتدون ملابس أفضل، وأن الزنوج لم يبادلوهم أي عداء ولم يخالجهم أي شعور بالجسارة أو التهكم وإنما حقيقة أنهم كانوا غافلين عن الأمر، غافلين تماماً (تعرف أنك تستطيع ضربهم، قال للجد، وأنهم لن يردوا ضربتك ولن يقاوموا أصلاً. لكن لا رغبة لك بضربهم، لأنهم (الزنوج) لم يكونوا ما تود ضربه، لا يمثلون ما تود ضربه؛ وأنك بضربهم لا تضرب سوى بالون طفل رُسم عليه وجه ناعم ومنتفخ على وشك الانفجار ضاحكاً ولهذا لا تجرؤ على ضربه لأنه سينفجر ببساطة إلى شظايا من الضحكات وتفضل أن تدعه يمر أمام ناظرك على أن تقف وسط وابل من القهقهات)– لم يعرف مما رشح عن حديثهم الليلي حول النار عندما يزورهما أحد أو يذهبان لزيارة أحد ساكني الأكواخ بعد العشاء، أحاديث نسائية رصينة، وهادئة، لكنها مشبعة في الوقت ذاته بالغموض والكآبة فيما يتدخل رجل ما، والده عادة عندما يكون ثملاً، ليدلي بعبارة فجة تجسد قيمته ومكانته، الاحترام الذي تفرضه قوته البدنية على أصحابه، والصبي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة أو ربما الثانية عشرة يعرف أن الرجال والنساء يتحدثون عن الشيء نفسه دون ذكره بالاسم ولو لمرة واحدة، مثلما يتحدث الناس عن الفاقة والعوز دون ذكر الحصار، عن المرض والسقم دون ذكر الوباء؛– عما حدث عصر أحد الأيام عندما كان يسير مع أخته على الطريق وسمع صوت اقتراب عربة خلفهما فتنحى عن الطريق لكنه لاحظ أن أخته لا تود إفساح الطريق للعربة، واصلت السير وسط الطريق مشحونة بحقد عنيد يملأ رأسها فصرخ بها لتتنحى: ثم لم ير سوى الغبار والأحصنة متأهبة على أقدامها الخلفية وأسرجتها اللامعة مشدودة وعجلاتها مكبوحة؛ ورأى مظلتين داخل العربة والحوذي الزنجي يزعق: «أنتي أيها الفتاة! تنحي جانباً يا فتاة!» ثم خمد الغبار، رحلت العربة: العربة والغبار، الوجهان تحت المظلتين يحدقان بشقيقته من علو: ثم قذف العربة بكتلٍ من التراب والطين وسط الغبار المتطاير، مدركاً الآن، بينما الزنجي الخادم الذي يرتدي ملابس قرد يسد الباب بجسده أثناء حديثه معه، بأنه لم يكن يستهدف الحوذي الزنجي عندما قذف كتل الطين على الإطلاق، وإنما الغبار الذي أثارته تلك العجلات المتفاخرة، والعبثية؛– عما جرى في وقتٍ متأخر من ذات ليلة عندما عاد والده إلى المنزل، دخل مترنحاً إلى الكوخ؛ وكان بوسعه شم رائحة الويسكي التي أيقظته، يسمع صوت والده القوي المبتهج الذي يدينه ويؤكد أنه ثمل تماماً: «لقد جلدنا أحد زنوج بيتي بون هذه الليلة» نهض ومشى، وسأل من الزنجي الذي جلدوه ورد والده بأنه لا يعرف، وأنه لم ير الزنجي من قبل: وسأل عما اقترفه الزنجي وقال

والده «إلى الجحيم، ابن العاهرة اللعين زنجي من بيتي بون».– كيف، دون علم منه ولأنه لم يكن قد اكتشف جهله حينها، لا ريب أنه قصد بالسؤال تماماً ما قصده والده بالجواب: زنجي لا على التعيين، مخلوق حي، مخلوق حي بما يكفي ليشعر بالألم ويتلوى ويصرخ. لم يستطع تمييزهم: الشعلة تمحو عتمة الغابة، أوجه البيض الهستيرية الحانقة، أوجه الزنوج كالبالون. ربما قيّدوا أيدي الزنوج أو أمسكوا بها لكن لا ضير من ذلك لأن هذه الأيادي ليست أيادي الأوجه البالونية التي ستناضل وتتلوى مطالبة بالحرية، ليست الأوجه البالونية: كان الوجه الأبرز بينهم، طافياً وناعماً ومنتفخاً بثخانة ورقة. ثم يضرب أحدهم البالون ضربة واحدة يائسة وقانطة ثم يرى الوجوه تهرب، تركض، بكل ما أوتيت من قوة، تتخطاهم وتعبرهم ثم تعود مجدداً وتتخطاهم من جديد، الأمواج الهادرة للقهقات الدمثة المرعبة الصاخبة والخالية من أي معنى. يقف الآن أمام الباب الأبيض الذي يسدّه الزنجي القرد وينظر إليه من علو مرتدياً الجينز حافي القدمين شعره مشعث لأنه لم يعرف مشطاً في حياته لأن شقيقاته يعرفن كيف يخفينه جيداً عنه– لم يكترث يوماً لشعره أو ملابسه أو شعر شخص آخر أو ملابسه إلى أن رأى الزنجي القرد، الذي رمته الأقدار ليكون من عائلة ريتشموند ربما، نظر—» (أو حتى من عائلة تشارلستون»، زفر شريف). «—إليهم ولم يذكر قط ما قاله الزنجي، كيف أخبره الزنجي، حتى قبل أن يفصح عن سبب مجيئه، ألا يطرق الباب الأمامي مجدداً وأن يلتف ويقصد الباب الخلفي.

«لم يتذكر كيف غادر. وجد نفسه على حين غرّة يركض مبتعداً عن المنزل، وليس نحو الجهة الخلفية. لم يبكِ، حسبما قال. لم يعترِه الغضب حتى. تحتّم عليه أن يفكر، وقلّب في رأسه الخيارات باحثاً عن مكان هادئ يفكر فيه، ووجد ضالّته. قصد الغابة. قال إنه لم يبح لنفسه عن وجهته: وأن جسده وقدميه قادوه إلى هناك– توغل إلى مكان شقت فيه الحيوانات درباً يفضي إلى شجيرات قصب السكر وشجرة بلوط متهاوية تحولت إلى ما يشبه الكهف حيث خبّأ صاجاً ليشوي عليه صيده من حينٍ لآخر. قال إنه دخل الكهف زاحفاً على بطنه وأسند ظهره على جذور الشجرة المقلوبة، وفكر. لم يكن قد أدرك بعد ما يجري حوله. لم يستوعب مأزقه بعد، العوائق القادمة، جهله حال دون تبصره لما يحيق به قبل أن يصطدم بالمأزق. كان ينشد تذكر تجربة ما ليقارن بها ما يجري، لكن تجاربه شحيحة ولم تسعفه في إيجاد مبتغاه. طُلب منه الالتفاف والذهاب إلى الباب الخلفي قبل أن تتيحَ له الفرصة لإيصال الرسالة التي بُعث من أجلها، لم يعرف يوماً أبواباً خلفية، فقد جاء من مكانٍ بيوته لها نوافذ فقط ومن يدخل أو يغادر من النافذة فإما ليختبئ أو ليهرب، وما كان هذا ولا ذاك ما جاء لأجله. لقد جاء في الواقع في مهمة، مدفوعاً بإيمانٍ طيب بأن جميع الرجال يأخذون على عاتقهم أداء هذه المهام. لم يكن بالطبع ينتظر

أن يدعوه لتناول الشاي أو الطعام لأن الزمن والمسافة التي تفصل قدر طهي عن الآخر لا تُقاس بالساعات أو الأيام؛ ربما لم يتوقع أن يدعوه أحدٌ للدخول أصلاً. لكنه توقع أن يستمع أحدٌ إلى الرسالة التي جاء لإيصالها، أُرسل من أجلها، في مهمة لم يتذكر فحواها ولم يستوعبها حينها (حسبما قال)، رسالة تتعلق حتماً بالمزرعة التي تحتضن المنزل الأبيض الأملس وذلك الباب الأملس الأبيض المُعشّق بالنحاس حيث وقف الزنجي القرد مرتدياً جوارب طويلة من الكتان والحرير ليطلب منه أن يلتف ويقصد الباب الخلفي حتى قبل أن ينطق بما جاء من أجله. بدا وكأنه قدِم حاملاً حفنة من الرصاص أو بضع رصاصات ليطلقها الرجل صاحب البندقية الجميلة، ثم جاء الرجل وطلب منه أن يترك الرصاصات على جذع شجرة مقطوعة موجود في طرف الغابة، دون أن يسمح له بالاقتراب وتأمل البندقية.

«لم يعترِه الغضب. أصر على إخبار الجد عن هذا الأمر. كان يفكر فحسب، شعر بأنه يتعين فعل شيء ما حيال ذلك؛ توجب عليه القيام بشيء ما كي يستطيع العيش مع نفسه لبقية حياته لكنه عجز عن الاهتداء إلى سبيلٍ ما بسبب جهله الذي اكتشفه للتو، ذلك (الجهل وليس الرجل أو التقاليد) الذي ينبغي عليه هزيمته. لم يجد ما يقارن به أو يقيّم الموقف بناءً عليه سوى مثال البندقية، لكن حتى هذا لم يجدِ نفعاً حينها. كان مستكيناً تماماً، كما قال، جلس ولف ذراعيه حول ركبتيه في المخبأ الضيق بالقرب من الدرب الذي شقته الحيوانات وكان يرى من وقتٍ لآخر عندما تهب رياح مناسبة غزالاً عابراً على بعد عشرة أقدام عنه، قلّب الموضوع بينه من طرف وبين نفسه من طرف ثانٍ بهدوء وسكينة، وخلُص الطرفان إلى أنه يتعين اللجوء إلى شخص آخر، شخص أكبر عمراً وأذكى منه. لكن ما من أحد، كان بمفرده، الطرفان داخل جسد ذلك الفتى ذي الثلاثة عشر ربيعاً أو ربما أربعة عشر أو لربما بلغ الخامسة عشرة لكنه لن يعرف أبداً عمره الحقيقي، يتجادلان ويتناقشان بهدوء وسكينة: لكن يمكن أن أطلق عليه النار. (لا على الزنجي القرد. تماماً كما لم يكن الزنجي الذي شارك والده في جلده تلك الليلة هو المستهدف. كان الزنجي مجرد وجه بالوني آخر لامع منتفخ يقهقه بضحكة مجلجلة مريعة دون أن يجرؤ على تفجيرها، ينظر إليه بدونية أمام الباب نصف المغلق في تلك اللحظة التي وقبل أن يدرك ذلك، هرب من داخله شيء ما– لم يستطع غضّ الطرف عنه– كان ينظر إلى الوجه البالوني الذي ينظر إليه بالطريقة ذاتها التي يراها فيها الرجل الذي لا يتعين عليه ارتداء حذائه، صاحب الضحكة التي تعلو البالون، ينظر إليه من مكان غير مرئي حيث حكمت الأقدار أن يكون هناك حينها، إلى الفتى الواقف أمام الباب نصف المغلق مرتدياً ملابس مرقّعة وقدماه المفلطحتان حافيتان، ينظر إلى الفتى وإلى ما ورائه، كان يرى أباه وشقيقاته وأشقاءه كما يراهم المالك؛ تماماً كما يراهم الثري (وليس

الزنجي) مجرّد قطيع، مخلوقات ثقيلة لا نعمة فيها، هُجِّروا إلى عالم لا يحمل لهم أي أمل أو مغزى، يتناسل وينجب أشراراً ومتوحشين بأعدادٍ كبيرة، ليصبحوا ضعفين أو ثلاثة أضعاف، ويملؤون الأرض بسلالة ينتظرها مستقبل يرث ملابس مرقّعة ومقصوصة لتصبح على مقاس الجيل الأصغر اشتروها بأثمان باهظة لأنهم من البيض، من متاجر يُمنح فيها السود الملابس مجاناً، يتناقلون تراثاً وحيداً ألا وهو ذلك التعبير على الوجه البالوني المنفجر بقهقهة مجلجلة ينظر إلى سلفٍ منسي ومجهول طرق على الباب عندما كان فتى وطلب منه زنجي أن يلتف ويقصد الباب الخلفي.): لكن يمكنني أن أطلق النار عليه فيجيب الآخر: كلا. هذا لن يجدي نفعاً: فيردّ الأول: ماذا يتعين علينا أن نفعل إذاً؟ فيقول الآخر: لا أعرف: والأول: لكن يمكن أن أطلق عليه النار. بوسعي أن أتسلل عبر الشجيرات وأستلقي إلى أن يخرج للاستلقاء على الأرجوحة وأرديه: والآخر: كلا. لن يجدي هذا نفعاً: والأول: ماذا سنفعل إذاً؟ والآخر: لا أعرف.

«شعر بالجوع. ذهب إلى المنزل الكبير قبل موعد العشاء، وقد حلّ الغروب وكان بوسعه رؤية آخر خيوط الشمس على أعلى الأشجار حوله حيث قبع جاثماً. بيد أن معدته أخبرته بأن الوقت قد تأخر وسيكون قد تأخر كثيراً عن موعد العشاء حين وصوله إلى البيت. ثم قال إنه بدأ يفكر بالبيت. وأنه فكر أولاً بأنه كان يحاول الضحك وظل يردد بينه وبين نفسه بأنه كان يضحك حتى بعد أن زال جهله؛ البيت، عندما غادر الغابة واقترب من المنزل، دون أن يتخلى عن حذره، نظر إليه– الجدران الخشبية العفنة الخشنة، السقف المتداعي الذي فقد بعض الألواح الخشبية ولم يستبدلوها واكتفوا بوضع الأواني والدلاء تحت الشقوق، الغرفة الملحقة التي استخدموها كمطبخ وأبلت بلاءً حسناً فعندما يكون الطقس لطيفاً لم يكترثوا لعدم وجود مدفأة فيها إذ لم يحاولوا استخدامها في الأيام الماطرة على أي حال، وأخته تنقل المياه بإيقاع ثابت إلى طشت في الفناء، ظهرها له، لا هيئة لها بثوبها القطني والحذاء الرجالي القديم الذي ينفلت من كاحليها العاريين وابتسامتها العريضة كبقرة، العمل نفسه الذي كانت تقوم به كالبهائم وبغباء ولا يتناسب على الإطلاق مع ما تجنيه بالمقابل: تقزيم الجوهر الأساس للعمل والجهد إلى حالة بدائية لا يحتملها سوى الحيوانات؛ خطر على باله الآن للمرة الأولى عمّا سيقوله لوالده عندما يسأله إن كان أوصل الرسالة إلى الرجل العجوز، هل سيكذب أم سيقول الحقيقة، إن كذب قد يُفتضح أمره على الفور، لربما أرسل الرجل زنجياً ليعرف لماذا فشل والده في إتمام المهمة الموكلة إليه وأرسل والده الأعذار والحجج عمّا لم يتم بنجاح– على فرض أن رسالته الشفوية إلى المنزل كانت بخصوص مهمة ما، (وعلى فرض أنها موكلة لعجوزه) ولربما كانت كذلك. لكن هذا لم يحدث على الفور لأن والده لم يكن قد رجع إلى

البيت بعد. لم يكن هناك سوى أخته، كما لو أن الحطب لم يكن ما تنتظره وإنما تنتظر عودته، لتحظى بفرصة استخدام حبالها الصوتية، وتلح عليه لإحضار الخشب، لن يرفض ولن يعترض، لن يسمعها أصلاً، لن يعيرها أي اهتمام لأن ذهنه ما زال يفكر. ثم جاء العجوز وأخبرته الأخت أنه لم يحضر الحطب، وأرغمه العجوز على إحضاره: لم يأتِ أحدٌ على ذكر الرسالة حتى عندما جلسوا لتناول العشاء أو عندما ذهب واستلقى على فراش القش حيث غط في النوم على الرغم من أنه قصد الفراش ليتمدد فحسب، لكنه غط في النوم، يداه تحت رأسه ولم يأتِ أحدٌ على ذكر الرسالة ولم يحسم أمره بعد إن كان سيصدق أو سيكذب. قال إن الجزء الأسوأ من الحكاية لم يكن قد حدث بعد، استلقى بينما الطرفان داخله يتجادلان، يتحدثان واحدٌ بعد الآخر، بهدوء، بل وحتى مال ظهرهما للخلف ليحافظا على هدوئهما وعقلانيتهما دون تحامل: لكن بوسعي قتله. –كلا. لن يجدي هذا نفعاً– ماذا سنفعل إذاً؟ – لا أعرف: اكتفى بالاستماع دون إبداء أي اهتمام حسبما قال، سمعهما دون إصغاء. لم يسعَ وراء ما يفكر به الآن. كانت الأفكار في رأسه، أفكار طبيعية في رأس فتى، طفل، ولم يكترث لها إما لأنها الأفكار التي تشغل عادة أي صبي، وعرف أن فعل ما عليه فعله كي يعيش مع نفسه يتطلب منه التفكير كرجل، فكر لم يمنحني الزنجي قط الفرصة لإخباره عن فحوى الرسالة ولهذا (الزنجي أيضاً) لن يعرف عما تضمنته وبصرف النظر عن مضمونها فلن تصل ولن يعرف أنها لم تصل حتى وقت متأخر وسيدفع ثمناً باهظاً لتوظيفه ذلك الزنجي ولو كان مضمونها أن النيران التهمت الإسطبل أو المنزل فإن الزنجي لم يسمح لي بإنذاره ثم قال إنه فجأة توقف عن التفكير، ثمّة شيء يصرخ بما حدث بصوت كافٍ لتسمعه أخته على الفراش الآخر ووالده في سريره مع الشقيقتين الأصغر يملأ الغرفة بشخيره ورائحة الكحول: لم يمنحني حتى فرصة إخباره. حتى لأخبره، وأقول مضمون الرسالة: تتالت الكلمات بسرعة واختلطت الأفكار، بدأت تصرخ في وجهه معاً، تفور فوقه ومنه مثل قهقهة الزنجي: لم يمنحني الفرصة لقول محتوى الرسالة وأبي لم يسألني قط إن كنت قد أخبرته ولهذا فلن يعرف أبداً أن أبي أرسل له أي رسالة ولهذا ليس مهماً إن وصلته أم لم تصله، حتى أبي لا يكترث لذلك؛ ذهبت إلى ذلك الباب كي يخبرني الزنجي بألا أعود مجدداً إلى الباب الأمامي وما من جدوى من إخباره وما من ضيرٍ في عدم إخباره، لست قادراً على فعل ما يفيد أو يضر له. كان الأمر على هذا النحو كما قال، مثل انفجار– ومضة خاطفة اختفت دون أن تخلّف أي أثر وراءها، لا رماد أو رفض: مجرد ومضة فاقعة لا محدودة على هيئة جهله الصرف الرابض مثل نصب تذكاري؛ هذا الجهل يملي عليه ما يتوجب فعله بالهدوء نفسه الذي يتحدث به الآخرون، مستخدماً قصة البندقية نفسها لإقناعه، وعندما استخدم ضمير الجماعة هم عوضاً عن ضمير المذكر المفرد، كان يقصد كل البشر التافهين الفانين تحت الشمس الذين يستلقون

في الأراجيح فترة العصر بأكملها بعد خلع أحذيتهم: «إن قررت مواجهة أصحاب البنادق الجيدة، فإن أول شيء عليك فعله هو الحصول على أقرب بندقية جيدة يمكنك سرقتها أو استعارتها أو صنعها، أليس كذلك؟»: وأجاب نعم. «لكن المسألة لا تتعلق بالبنادق. لهزيمتهم عليك أن تمتلك ما يملكونه ويتاح لك فعل ما يقومون به. عليك امتلاك أرض وزنوج ومنزل جميل لهزيمتهم. هل فهمت؟» وأجاب نعم مجدداً. غادر تلك الليلة. استيقظ قبل الفجر وغادر بالبساطة نفسها التي أوى فيها إلى السرير: نهض عن الفراش ومشى على رؤوس أصابعه إلى أن خرج من البيت. لم ير أياً من أفراد عائلته بعدها.

«قصد الهند الغربية». ظلّ كونتن ساكناً، لم يرفع حتى رأسه لينفض عنه حيرته القلقة إزاء الرسالة المفتوحة على الكتاب المفتوح، وضع يديه على الطاولة أمامه على طرفي الكتاب والرسالة، أحد طرفي الرسالة مقلوب للأعلى ليشكل زاوية قائمة، كما لو أنه عرف نصف سر التحليق. «قالها على هذا النحو. كان والجد جالسين على جذع شجرة بعد أن فشلت الكلاب في اقتفاء أثره. جلسا على جذع الشجرة– الشجرة التي فشل المهندس في تفاديها واضطر لتسلقها دون شك لأنهما وجدا حمالتي سرواله معقودتين على أحد أغصانها على الرغم من عجزهما عن فهم سبب استخدامه للحمالتين وتطلب منهما فهم السبب ثلاث ساعات ليدركا أن المهندس استخدم الهندسة المعمارية والفيزياء لتضليلهما لأن المرء دائماً ما يتكل على أعتى نقاط قوته ليجتاز المحن– القاتل يتكل على القتل، اللص على السرقة والكاذب على الكذب والأباطيل. عرف المهندس بأمر الزنوج المتوحشين حتى دون أن يعرف أن بوسع ستبن الاستعانة بالكلاب؛ اختار تلك الشجرة وذلك الغصن بعد أن فكر ملياً بالتوتر والمسار والمسافة وقطع الفراغ الفاصل بين شجرة والشجرة التي تليها قفزاً وواظب على فعل ذلك لمسافة ميل تقريباً قبل أن تطأ قدمه الأرض مجدداً. مرت ثلاث ساعات قبل أن يجد أحد الزنوج المتوحشين (لم تستطع الكلاب تجاوز الشجرة؛ ظنوا أنه كان داخلها) مكان هبوطه عن الأشجار. جلس والجد على الجذع وتحدثا بتبجح وتفاخر عن نفسيهما، وذهب زنجي إلى المخيم وجلب الطعام والويسكي وأكلا، وكشف للجد عن المزيد أثناء انتظارهما.

«قصد الهند الغربية. قالها بهذه الطريقة: لم يتحدث كيف عرف مكان الهند الغربية ولا من أين غادرت السفن ولا أين رست، ولا كيف وصل إلى السفن وصعد على متن إحداها ولا كيف أحب البحر ولا عن قسوة حياة البحارة ولا بدّ أنه خاض تجربة شاقة، صبي في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة لم ير المحيط من قبل، يسافر بالبحر عام 1823. اكتفى بالقول «قصدت الهند الغربية»، جلس على جذع الشجرة مع الجد بينما واصلت الكلاب نباحها تحت

الشجرة معتقدة أن المهندس كان بداخلها لأن من الأجدى له أن يكون هناك– قال إنه جلس جلسته نفسها تلك بعد ثلاثين عاماً في مكتب الجد (مرتدياً ملابس أنيقة على الرغم من أنها متسخة ومهترئة قليلاً عقب ثلاث سنوات من الحرب، النقود تُصدر خشخشةً في جيبه فيما لحيته في ذروة طولها أيضاً: رجل مثقف ملتحٍ في أوج العنفوان الذي يتيح لأي رجل أن يقول لقد حققت كل ما أطمح لتحقيقه ويمكنني التوقف هنا إن أردتُ ولا مجال لأن يتهمني أحد ولا حتى أن أتهم نفسي بالتقصير أو الكسل– وربما هذه هي اللحظة التي يوجه فيها القدر ضربته القاصمة، في اللحظة التي تبدو فيها القمة مصانة ومحصنة تربض لحظة الإنحدار– رأسه مرفوع بعض الشيء بطريقة يصعب التكهن إن كان يقلّد أحداً ما أم إنه تعلمها من الكتاب نفسه الذي تعلم منه تلك الكلمات، العبارات المنمّقة حتى إن الجد قال إنه طلب منه عود كبريت لإشعال سيجاره أو إنه عرض عليه تدخين السيجار– لا عبثية في الأمر، لا شيء مضحك فيه أيضاً حسبما قال الجد، ومردّ هذا لجهله الذي لم يفارقه قط حيث إنه وبعد أن أدرك أخيراً ما يتعين فعله تلك الليلة نسي الأمر وكان غافلاً عن كونه ما يزال جاهلاً) وأخبر الجد– أخبره، انتبه؛ لا لالتماس الأعذار، أو استثارة الشفقة؛ أو لتوضيح موقفه، ولا لتبرئة نفسه: أخبر الجد أنه تخلّى عن زوجته الأولى على طريقة ملوك القرن الحادي أو الثاني عشر: ‹اكتشفت أنها لن تكون أبداً، دون ذنب اقترفته، سنداً أو عوناً للمخطط الذي رسمته في ذهني، فأمّنت لها ما تحتاجه وهجرتها›– تحدث إلى الجد بالنبرة نفسها عندما جلسا على الجذع بانتظار عودة الزنوج والضيوف الآخرين والويسكي: ‹قصدت الهند الغربية. كنت قد ارتدت المدرسة في الشتاء، وتعلمت ما يكفي عنهم، وأيقنت أنهم الأنسب والأكثر منفعة لاحتياجاتي›. لم يتذكر كيف ارتاد المدرسة. لم يتذكر كيف قرر والده فجأة إرساله إلى المدرسة، أي رؤية ضبابية راودته وسط غيوم الكحول وضرب الزنوج ومخططات العجوز للتهرب من العمل– لم يكن يبتغي طموحاً أو مجداً، أو لرؤية ابنه بصورة أفضل من صورته كرمى له، ولا حتى لحظة تمرد ربما ضد سقف البيت نفسه الذي تسربت منه مياه الأمطار لتبلل مئات العائلات كعائلته التي تآوت تحته واندثرت دون أثر، دون أن تخلّف أي شيء، ولا حتى خرقاً بالية أو أوانٍ فخارية مكسورة، لربما ما دفعه لإرساله ناتجٌ عن حسد انتقامي محض من رجل أو رجلين، مزارعين، دأب على مقابلتهما من حينٍ لآخر. أُرسل على أي حال إلى المدرسة لقرابة ثلاثة أشهر في أحد الشتاءات– صبي مراهق في الثالثة أو الرابعة عشرة في قاعة تغصّ بأطفال يصغرونه بثلاث أو أربع سنوات ويسبقونه في التعليم ثلاث أو أربع سنوات، ولم يكن أكبر من المعلّم فحسب (ذلك النوع من المعلمين الذين يعلمون في مدرسة ريفية مكونة من قاعة واحدة في مزارع تايدووتر) كان قد صار رجلاً تقريباً جلب ربما إلى المدرسة معه إلى جانب مخزونه الجبليِ الوافر كمية لا بأس بها من العصيان المكبوت

الذي لم يكن مدركاً له تماماً كما لم يكن مدركاً أن المعلم خاف منه في البداية. لم يكن عناداً ولا يمكن تسميته غروراً أيضاً، وإنما مجرد اتكال ذاتي على الجبال والعزلة، لأن بعض أقاربه على الأقل (أمه كانت امرأة جبلية اسكتلندية، وأخبر الجد بأنه لم يتعلم قط كيف يتحدث الإنجليزية بطلاقة) ترعرعوا في الجبال، وإنما كان ذلك الشيء الذي منعه من احتقار وحفظ معلومات جافة ودفعه للإصغاء عندما كان المعلم يقرأ بصوتٍ عالٍ. – أُرسل إلى المدرسة، ‹حيث› كما أخبر الجد، ‹تعلمت النزر اليسير باستثناء بعض السلوكيات الصالحة والطالحة، غير النابعة من الازدراء أو الاستحسان أو الثواب، تعلمت على قدر استطاعتي، ما ورد في الكتب ولا يصلح إلا ليظل بين دفتيها. كنت أصغي عندما يقرأ لنا. أدركت أنه كان يلجأ للقراءة عندما يلحظ أن الأوان قد حان وتأهبت المدرسة بأكملها للنهوض ومغادرة القاعة. ولكن بصرف النظر عن دوافعه، كان يقرأ لنا وأصغيت له، على الرغم من أنني لم أدرك أن ذلك الإصغاء جهّزني لما سأخطط له لاحقاً أكثر مما فعلته كل عمليات الجمع والطرح الواردة في الكتب. هكذا عرفت بالهند الغربية. لم أعرف موقعها، ولو أنني عرفت حينها بأن معرفة مكانها ستخدمني يوماً ما، لكنت قد تعلمت هذا أيضاً. عرفت فحسب بوجود مكان اسمه الهند الغربية قصده الفقراء على متن السفن وصاروا أثرياء، لا أهمية للسبيل الذي اتبعوه للثراء، طالما أن المرء كان ذكياً وجسوراً: لا تعوزني الجسارة على ما أظن، وأما الذكاء فأعتقد أنني سأتعلمه بتسخير القليل من الطاقة وامتلاك الإرادة في المدرسة وبذل بعض الجهد وخوض التجارب. أتذكر كيف بقيت في عصر أحد الأيام بعد انتهاء الدوام المدرسي وانتظرت المعلم، استوقفته (كان رجلاً ضئيلاً مظهره يرثى له وثيابه مغبرّة دائماً، كما لو أنه ولد وقضى حياته برمتها في سقيفة أو مستودع) تحدثت إليه ثم غادرت. أذكر كيف جفل عندما رآني وكيف فكرت حينها أنني إن ضربته فإنه لن يصرخ ولن يصدر عنه أكثر من صوت زوبعة من الغبار كما لو أنني ضربت سجادة معلّقة على حبل. سألته عن مدى صحة ما قرأه عن الرجال الذين صاروا أثرياء في الهند الغربية. «لِم لا؟» أجابني، وجفل. «ألم تسمعني أقرأ ذلك من الكتاب؟» – قلت: «كيف لي أن أعرف أن ما قرأته ورد بالفعل في الكتاب. كنت بتلك السذاجة كما ترى. لم أكن قد تعلمت حينها كيف أقرأ اسمي؛ على الرغم من أنني كنت أرتاد المدرسة منذ ثلاثة أشهر، وأجرؤ على قول إنني لم أعرف القراءة أكثر مما كنت أعرف حين وطأت قدماي الصف لأول مرة. ولكن كان من الواجب عليّ أن أعرف، كما تعرف. لربما يبني المرء مستقبله بأكثر من طريقة، لا يكتفي ببناء الجسد الذي سيكون غده أو سنته القادمة، إنما أفعاله والمآلات المتعاقبة المزمنة لأفعاله خلال مسيرته والتي تعجز حواسه الضعيفة وذكاؤه المحدود عن التنبؤ بها ويتعين عليه تقبل نتائجها بعد عشر سنوات أو عشرين أو ثلاثين سنة، يجب عليه تحملها كي يستمر في حياته. ربما لم أكن أنا من

أمسك بذراعه في تلك اللحظة عندما ابتعد (لم أشك به في الواقع. أعتقد أنني حتى في ذلك الوقت، وأنا في ذلك العمر، أيقنت استحالة أن يكون قد اخترع هذا، إنه يفتقر لتلك الخصلة التي ينبغي على المرء امتلاكها لينجح في خداع حتى طفل والكذب عليه. ولكن كما ترى، كان من اللازم أن أتأكد، أتبع أي طريقة تخطر على بالي للتأكد. وما من حيلة في يدي غيره) حدّق بي وبدأ بمقاومتي، ثبّته وقلت له– كنت هادئاً، هادئاً؛ فقط أردت أن أعرف– قلت «افرض أنني ذهبت إلى هناك واكتشفت أن الأمر ليس كما أخبرتنا؟» بدأ بالزعيق وصرخ «النجدة! النجدة!» فحررته. وفي الوقت المناسب عندما أدركت أنني لتحقيق مخططي سأحتاج أولاً وقبل أي شيء وفوق أي شيء إلى المال بكمية وفيرة في المستقبل القريب، تذكرت ما قرأه علينا وذهبت إلى الهند الغربية».

«ثم بدأ الضيوف الآخرون يتقاطرون، وبعد فترة وجيزة عاد الزنوج ومعهم القهوة وفخذ غزال وويسكي (وزجاجة شمبانيا استرقوا النظر إليها جميعهم كما قال الجد) وصمت لبرهة. لم يفصح عن المزيد إلا بعد أن فرغوا من تناول الطعام وجلسوا يدخنون بينما تفرّق الزنوج والكلاب (توجب عليهم إبعاد الكلاب بالقوة عن الشجرة، ولا سيما عن الغصن الذي علّق عليه المهندس حمالة سرواله، كما لو أن الغصن كان آخر شيء لمسه المهندس، ليس هذا فحسب، وإنما آخر فرصه لتضليلهم، واشتمّ الكلاب رائحة الرجل ورائحة فرحة نصره مما أثار جنونهم) في كافة الاتجاهات، وصاروا يبتعدون أكثر فأكثر إلى أن زعق أحد الزنوج مع غروب الشمس (تمسك بحبال الصمت لفترة، كما قال الجد، استلقى متكئاً على مرفقه، مرتدياً حذاءً أنيقاً والسروال الوحيد الذي يملكه والقميص الذي لبسه عندما خرج من الوحل واغتسل حين أدرك أن عليه اقتفاء أثر المهندس بنفسه إن أراد الإمساك به حياً ربما، لم يتحدث إلى نفسه ولم يكن يصغي حتى إلى حديث الرجال عن القطن والسياسة، اكتفى بتدخين السيجار الذي قدمه له الجد يتأمل الجمر وربما يستعيد الرحلة التي قام بها إلى الهند الغربية في الرابعة عشرة من عمره وكان يجهل وجهته تماماً وغير متيقن من الوصول أصلاً، ولا من صدق الرجال الذين أخبروه أن السفينة متجهة إلى هناك ولا إن كان أستاذ المدرسة قد أصدقه القول حول ما ورد في الكتاب. لم يخبره أحد إن كانت الرحلة شاقة أم لا، وكم سيتحمل ليصل. تعين عليه تحمل مشاق الرحلة بالطبع، ثم أدرك أن جلّ ما يلزمه هو التحلي بالشجاعة والدهاء الخصلة التي عرف أنه يملكها وتلك التي اعتقد أن بوسعه تعلمها إن كان من الممكن تعلمها، وقد تكون مشاق الرحلة طمأنته بأن الرجال الذين قالوا إن السفينة متجهة نحو الهند الغربية لم يكذبوا عليه لأنه لم يكن ليصدّق في ذلك الوقت كما قال الجد أي أمر لا يخوض المرء الصعاب لنيله). – قال: ‹ها هي هناك› ونهض وذهبوا جميعاً ليجدوا مكان هبوط

المهندس على الأرض مجدداً، والذي توصلوا إليه بعد بحث استغرق لقرابة ثلاث ساعات. توجب عليهم الإسراع إذاً ولا وقت للكلام، أو على الأقل، حسبما قال الجد، لم يُظهر أي رغبة بمتابعة الحديث. ثم غربت الشمس وحان موعد عودة الرجال الآخرين إلى البلدة؛ عادوا جميعهم باستثناء الجد الراغب في أن يستزيد. بعث برسالة مع أحدهم (لم يكن متزوجاً حينها أيضاً) بأنه لن يعود إلى المنزل، وواصل وستبن البحث إلى أن حلّ الظلام. عاد زنجيان (كانا على بعد ثلاثة عشر ميلاً عن مخيم ستبن) حاملين البطانيات والمزيد من المؤن. سادت العتمة وبدأ الزنجيان بإشعال مشاعل الصنوبر وواصلوا بحثهم لبعض الوقت، ليقطعوا شوطاً أكبر نحو إلقاء القبض عليه، متأكدين من أن المهندس سيأخذ استراحة قريباً بعد أن أرخى الليل سدوله كي يتفادى السفر ضمن حلقة مفرغة. وهذا ما تذكره الجد: قاد وستبن جواديهما (كان ينظر للخلف من حين لآخر ويرى أعين الأحصنة تبرق عاكسة ضوء المشاعل ورؤوسهم تتحرك ذات اليمين وذات الشمال والظلال تتراقص على أكتافها وخواصرها) وسار الكلاب والزنجيان (الزنجيان لا يرتديان سوى سروالين) ومعهما المشاعل التي يتطاير دخانها فوقهم فيما ضوؤها الأحمر ينير رأسيهما الدائريين وأذرعهما فيما جفّ وحل المستنقعات الذي غطى جسديهما وأبعد الذباب وبان لامعاً، برّاقاً مثل الزجاج أو الخزف وظلاهما تظهر أطول من جسديهما في لحظة ثم تختفي في اللحظة التالية وحتى الأشجار والأجمات والجنبات تظهر للحظة ثم تتلاشى دون أن يؤثر هذا على معرفة المرء بأنها ما تزال موجودة لأنه بوسعك شمّ رائحتها مع كل شهيق، وعلى الرغم من أنها غير مرئية، فقد أثقلت الهواء غير المرئي بعبيرها الكثيف. وتحدث كيف استأنف ستبن حديثه، أخبره ثانية قبل أن يدرك أنه يفصح عن أكثر مما ينبغي، وأسهب في حديثه عن قدر الإنسان (أو عن الإنسان) الذي يقود القدر ليفصّل نفسه على مقاسه تماماً مثل ملابسه، مثل المعطف الجديد الذي قد يكون على مقاس ألف رجل، ولكن يحتاج رجل واحد ليرتديه لفترة كي يناسبه شخصياً دون غيره ويمكنك ملاحظة هذا حتى لو لم تر سوى الأكمام وطية المعطف: كان ذلك قدره إذاً–» («قدر الشيطان» حسب وصف شريف) «–القدر طوّع نفسه ليكون على مقاسه، ليناسب جهله، نزعته الفطرية للدراما وبساطته الطفولية البطولية تماماً على غرار الزي الناعم الذي لربما رأيته على عشرة آلاف رجل خلال هذه السنوات الأربع، وارتداه عندما دخل المكتب عصر ذلك اليوم بعد ثلاثين عاماً وقد طوّع نفسه ليلائم تبختره وحركاته المتفاخرة وثرثرته الاستقصائية الهادئة، وجهله الصريح الذي نسميه «طفولياً» غير أن الطفل هو المخلوق الحيّ الوحيد الذي لا يكون قط صريحاً أو جاهلاً، المخلوق الأبسط والأشنع. كان يسهب في الحديث، يتحدث دون أن يفصح عن السبيل الذي سلكه ليصل إلى مكانه ولا كيف تورط (بعد عشرين سنة على الأقل، يربض خلف نافذة في العتمة ويطلق النار من بندقية قامِ أحدهم

بتلقيمها وإعطائه إياها) فيما تورط فيه، ولا كيف وجد نفسه محاصراً في تلك الغرفة الهاييتية [43] بالبساطة نفسها التي وجد نفسه فيها في الهند الغربية بالقول إنه قرر الذهاب إلى الهند الغربية وفعل؛ هذه الطرفة لا تعدو كونها استمرارية مقصودة للطرفة الأخرى لكنها خطرت على باله عند رؤية الزنوج والمشاعل أمامه؛ لم يقل كيف وصل إلى هناك، ما الذي حدث خلال السنوات الست التي تفصل بين ذلك اليوم عندما كان فتى في الرابعة عشرة لا يعرف أي لغة سوى الإنجليزية حتى إنه لا يتقن الإنجليزية، وقرر الذهاب إلى الهند الغربية ليصير ثرياً، وتلك الليلة التي بات فيها مراقب عمال أو مشرفاً أو شيئاً من هذا القبيل على مزارع سكر فرنسي، كان محتجزاً في المنزل مع عائلة المزارع (وقال الجد إنه حينها أتى للمرة الأولى على ذكر– ظلٌ انبثق من لحظة ثم تلاشى مجدداً دون أن يختفي أثره تماماً– أثر للـــ» («الفتاة» قال شريف «لا تصحح لي. تابع») «–الذي سيقول للجد بعد ثلاثين عاماً إنه وجدها غير مناسبة للمهمة التي كلفها بها فأقالها، بعد أن أمّن لها ما يعيلها) كان يبتعد عن النافذة من فترة لأخرى ليركل بضعة خدم همجيين مذعورين ويلعنهم ليساعدوا الفتاة على تلقيم البندقية التي سيطلق والمزارع منها النار عبر النوافذ، وأحسب أن الجد كان يقول ‹انتظر انتظر حباً بالله انتظر› إلى أن توقف أخيراً وتراجع وبدأ مجدداً بعد أن أخذ بعين الاعتبار السبب والأثر حتى وإن كانا غير قائمين على تسلسل منطقي. أو ربما كانت حقيقة أنهما جلسا مجدداً، وقررا أنهما سارا كفاية تلك الليلة، وصنع الزنوج المخيم وأعدوا العشاء واحتسيا (هو والجد) بعض الويسكي وأكلا ثم جلسا أمام النار يحتسيان المزيد من الويسكي وأعاد سرد القصة كلها من جديد لكنها ظلت مبهمة– حكى كيف ولماذا كان هناك– لأنه لم يكن يتحدث عن نفسه. كان يخبر قصة ما. لم يتبجح بسرد بطولاته؛ كان يروي قصة فحسب عن رجل اسمه توماس ستبن خاض العديد من التجارب، وكانت القصة لتبقى ذاتها لو كان للرجل أي اسم آخر، لو رواها عن أي رجل آخر وهو يشرب الويسكي في ليلة من ذات الليالي.

«كان هذا ما أخّره ربما. لكن ما قاله لم يوضّح القصة بما يكفي. لم يحكِ للجد عن طبيعة عمل شخص اسمه توماس ستبن. قال الجد إن الشيء الوحيد الذي أتى على ذكره عن تلك السنوات الست أو السبع التي قضاها في مكان ما، ولا بدّ وأنه عاشها، هو أنه تعلم اللهجة المحلية كي يشرف على المزرعة، أما الفرنسية التي تعلمها فلم تكن ربما بهدف أن يتزوج، لكنه حتماً احتاجها للتنصل من زوجته بعد أن صارت زوجته– كيف، أسرّ للجد باعتقاده أن الشجاعة والدهاء كافيان لكنه اكتشف بُطلان وبهتان هذا الاعتقاد وأخبره عن عمق أسفه لأنه لم يتعرّف على تقاليد الهند الغربية عندما اكتشف أن الناس جميعاً لا يتحدثون اللغة نفسها وتبيّنه بأنه لا يحتاج للشجاعة والمهارة فحسب،

وإنما يتوجب عليه تعلم لغة جديدة، وإلا مات المخطط الذي كرّس نفسه له في مهده. تعلم اللغة مثلما تعلم كيف يكون بحاراً على ما أظن، لأن الجد سأله لماذا لم يتخذ له خليلة ليعيش معها فيتعلم اللغة بأسهل الطرق وقال الجد إنه جلس ونور النار يضيء وجهه وسكنت لحيته وعيناه أضاءهما بريق خافت، وقال– والجد قال إنها المرة الوحيدة على الإطلاق التي سمعه يتحدث فيها بهدوء وتلقائية: حتى تلك الليلة التي أتحدث عنها (وحتى زواجي الأول، قد أضيفُ) كنت ما أزال بتولاً. قد لا تصدق هذا، وإن حاولت شرح الأمر لربما لن تصدقني على الإطلاق. ولهذا سأكتفي بقول إن ذلك كان أيضاً جزءاً من المخطط الذي كان يدور في رأسي› وقال الجد ‹لماذا يتوجب عليَّ ألا أصدق الأمر؟› نظر إلى الجد والتعابير الوضاءة نفسها تنير عينيه، قال، ‹لكن هل تصدقني؟ لا ريب أنك لا تزدريني في أعماقك بما يكفي لتصدق أنني لم أتعرض للغواية ولم أغوِ أحداً وقد بلغتُ العشرين؟› وقال الجد ‹أنت على حق. عليّ ألا أصدق هذا. لكنني أصدقك›. لم تكن حكاية تدور عن النساء إذاً، وحتماً ليست عن الحب: المرأة، الصبيّة، مجرد طيف قد تأتمنه على تلقيم البندقية لكنك لا تأتمنه على إطلاق النار من النافذة في تلك الليلة (أو الليالي السبع أو الثماني التي قضوها متكومين في العتمة يراقبون من النوافذ الحظائر أو مخازن الحبوب أو أي جرن تخزن فيه محصول السكر، ويراقبون الحقول أيضاً، تتصاعد منها النيران والدخان: قال إنه استطاع شم الدخان، ما كان للمرء أن يشم أي شيء غير الدخان، الرائحة الخانقة للشجيرات المحترقة كما لو أنها رائحة الكراهية والحقد، رائحة الألف سنة السرية المظلمة التي أفرزت الكراهية والحقد، رائحة زادت من حدة رائحة احتراق السكر: وحكى الجد أنه تذكر حينها كيف كان ستبن يمتنع عن إضافة السكر إلى قهوته وعرف (الجد) السبب الآن لكنه سأل ستبن والأخير أكد له صحة ذلك؛ وقال إن الخوف لم يتسلل إلى قلبه إلى أن رأى النيران تلتهم الحقول والحظائر حتى إنهم نسوا رائحة احتراق السكر، لكنه لم يتمكن قط من تذوق السكر بعدها)– الصبيّة تظهر لوهلة فقط في الحكاية، يذكرها بكلمة واحدة على الأكثر، وقال الجد بأن الأمر كان كما لو أنه لمحها لثانية فقط على ضوء نيران البندقية– وجه منحنٍ، خدٌّ جانبي، ذقن لمحها للحظة تحت ستارة من الشعر المنسدل، ذراعٌ هيفاءُ بيضاء مرفوعة، يد ناعمة تقبض بقوة على البندقية، لا شيء غير ذلك. لا مزيد من التفاصيل أو المعلومات باستثناء أنه خرج من الحقل، الذي كان يشرف عليه، ودخل المنزل المحاصر حيث اندفع نحوه الزنوج حاملين المناجل، ولا تفاصيل سوى كيف خرج من الكوخ العفن في فيرجينيا إلى الحقول التي أشرف عليها: ولا يمكن، حسب الجد، تصديق هذا ولا تصديق أنه وصل إلى هناك قادماً من فيرجينا لأن ذلك يحتاج وقتاً وقطع مسافة مما دل على شيء من التمهل لأن الزمن أطول من المسافة، بينما بدا الأمر الآخر، أي الدخول من الحقول إلى المنزلِ المليء بالمتاريس، وكأنه مترافق مع

خرق عنيف وخاطف لم يستغرق أكثر من الوقت الذي استغرقه لسرد القصة– حساب دقيق للوقت الذي كان معيار عنفه نفسه، قصة رواها بأسلوب قصصي تشريحي مبهج تماماً كما تذكرها، أعجبته لأنه ينظر إليها بحيادٍ وفضول ودون اهتمام شخصي لدرجة أن عنصر الخوف ذاته (في تلك المرة التي ذكر فيها الخوف بالتسلسل العكسي ذاته لوقت الحديث عندما لم يكن خائفاً، قبل أن يصبح خائفاً، حسب وصفه) فشل في جعلها أقل رتابة. لم يتسلل الخوف إلى قلبه إلا بعد انتهاء كل شيء، كما قال الجد، لأن الأمر برمته انحصر في ذلك بالنسبة إليه– مجرد فرجة، مشهد لن يحظى ربما بفرصة مماثلة لرؤيته، كان جهله ما زال مسيطراً ولم يكن يعرف معنى الخوف إلا بعد انقضاء الأمر، جهل حتى إنه لم يكن خائفاً في بادئ الأمر؛ لم يعرف أنه عثر على المكان الذي يمكنه فيه جني المال بسرعة إن امتلك الجسارة والدهاء (لم يكن يعني الدهاء، حسبما قال الجد. قصد انعدام الضمير بيد أنه لم يكن يعرف هذه الكلمة لأنها لم ترد في الكتاب الذي قرأ منه معلم المدرسة. أو لربما هذا ما قصده من كلمة الشجاعة، كما قال الجد) وإنما المكان الذي تصبح فيه الأخلاق الرفيعة صنواً للمال وبريق الدولار لم يكن ناتجاً عن الذهب وإنما عن الدماء– بقعة أرض أوجدتها العناية الإلهية ونحّتها جانباً، حسبما قال الجد، لتكون مسرحاً للعنف والظلم وسفك الدماء وجميع الشهوات الشيطانية الناتجة عن الجشع والوحشية، مسرحاً لنوبة يأس أخيرة تجتاح جميع المهمَّشين المنبوذين وكل الملعونين– جزيرة صغيرة وسط بحر نيلي رائع وضاحك يكتم غضباً وهيجاناً شديدين، في المنتصف بين ما نسميه الأدغال وما نسميه الحضارة، في المنتصف بين القارّة الغامضة المخيفة حيث يسرح العنف ويمرح فيها ويغتصب الدم الأسود واللحم والعظام السوداء والتفكير والذكريات والأمل والرغبات، والأرض المعروفة الباردة الملعونة بها، الأرض والشعوب المتحضّرة التي أزهقت دمها وعقلها ورغباتها حتى غدت أتفه من أن تؤخذ بعين الاعتبار أو أن يُحسب لها أي حساب، وصارت مشرّدة ويائسة في المحيط الوحيد– جزيرة صغيرة ضائعة في العزلة استغرقت عشرة آلاف سنة من التراث الاستوائي لتحتمل مناخها، ترابها معجون بدماء السود الذين رزحوا مئتي عام تحت نير الاضطهاد والاستغلال إلى أن أينعت زهوراً خضراء وقرمزية فاتنة وشتلات قصب سكر أطول بثلاث مرات من الإنسان وأضخم منه بالطبع ولكن كل رطل فيها يساوي رطلاً من خام الفضة، كما لو أن الطبيعة حملت ميزاناً واحتفظت بسجلات لتقدم تعويضاً عن الأطراف المبتورة والقلوب المكلومة حتى لو أن الإنسان أحجم عن فعل ذلك، زرع الطبيعة والإنسان غرق بالدم المسفوك وذرته الرياح التي حاولت السفن عبثاً تفاديها، حتى ابتلع البحر الأزرق آخر شراع بال، وتلاشت آخر صرخة يائسة لطفل أو امرأة؛– زرع الرجال أيضاً: لم تسكت العظام والعقول السليمة والدِماء القديمة الساهرة المتجذرة في الأرض التي داسوها عن

الصراخ طلباً للانتقام. وأشرف على المزارع، جال على صهوة حصانه بسلام وتعلم اللغة (ذلك الخيط الواهي الرفيع، كما قال الجد، الذي يجمع من حين لآخر الحواف والزوايا السطحية الصغيرة لأسرار الرجال وحيواتهم المعزولة قبل أن يغرق مجدداً في العتمة حيث صرخت الروح صرختها الأولى ولم يسمعها أحد وستصرخ للمرة الأخيرة ولن يسمعها أحد أيضاً)، غير عارف بأنه فوق بركان، سمع الريح ترتجف وترتعش في الليل على أصوات الطبول والغناء ولم يدرك أن ما سمعه كان قلب الأرض نفسها، ظن (قال الجد) أن الأرض كانت طيبة وحنونة والعتمة مجرد شيء رأيته، أو لم تستطع الرؤية فيها؛ راقب ما راقب غير مدرك أنه يراقبها، ينطلق إلى جولاته اليومية من قلعة مسلحة إلى أن جاء اليوم الموعود. لم يتحدث عن هذا أيضاً، كيف جاء ذلك اليوم، الدرجات التي أفضت إليه لأن الجد قال إنه لم يكن يعرف على ما يبدو، لم يستوعب بسبب جهله، ما كان يراه كل يوم– عظمة خنزير ولحم نتنٌ ما زال عالقاً بها، ريش دجاجة، خرقة ملطخة بالية تلف بضع حصاة وجدت على وسادة رجل عجوز في صباح أحد الأيام ولم يعرف أحد (ولا حتى المزارع نفسه الذي اعتاد النوم على الوسادة) كيف وصلت إلى الوسادة لأنهم عرفوا في الوقت نفسه عن فقدان جميع الخدم والخلاسيين، ولم يعرف إلى أن أخبره المزارع بنفسه أن البقع التي لطخت الخرقة ليست وحلاً ولا شحماً وإنما دماء، ولم يعرف أيضاً أن ردة فعل المزارع لم تكن نوبة غضب أهل الغال وإنما نوبة ذعر، هلع، وانتابه الفضول لا أكثر لم يكن مهتماً حقاً لأنه كان يعتبر المزارع والابنة كلاهما (أخبر الجد كيف أنه حتى قبل ليلة من الحصار لم يخطر على باله أنه لم يكن يعرف الاسم الذي عُمدت به الفتاة، ولا إن كان قد سمع الاسم أم لا. كما أخبر الجد، سقط هذا سهواً منه كما لو أنك سحبت ورقة الجوكر من وسط كومة من أوراق اللعب ثم عجزت عن تذكر إن كنت قد سحبته أم لا، أن زوجة العجوز كانت إسبانية، لهذا كان الجد وليس ستبن من أدرك أنه حتى تلك الليلة حين وقع الهجوم لربما لم يكن قد التقى الفتاة لأكثر من بضع مرات) غريبان؛– عثر على جثة أحد الخلاسيين على الأقل (وجدها، اصطادها بعد يومين دون أن يعرف أن ما يراه كان جداراً مصمتاً من الأوجه السوداء السرية، جدار يخفي وراءه كل ما يجري التحضير له، وكما عرف لاحقاً، كل شيء تقريباً، وفي اليوم الثالث وجد الجثة في مكان كان له أن يلحظها فيه خلال الساعة الأولى من بحثه في اليوم الأول لو كانت هناك) جلس على جذع الشجرة، قال الجد، يروي الحكاية، يومئ ويحرك يديه مع أحداثها، الشخص الذي رآه الجد يقاتل عارياً صدراً لصدر أحد زنوجه المتوحشين على ضوء نار المخيم أثناء تشييد منزله وسيظل يقاتلهم على ضوء المصباح في الإسطبل بعد أن عثر أخيراً على الزوجة التي ستكون سنده لتحقيق المخطط الذي رسمه في رأسه، لم يجزع من القتال أيضاً، لم ترتجف يداه عندما غسل الدماء وارتدى قميصه لأنه سيلقي الزنجي على ظهره في

نهاية المطاف بينما صدره يعلو ويهبط بسرعة ويسارع زنجي آخر ليسكب عليه الماء؛– جلس وقص للجد كيف أنه وجد أخيراً الخلاسي، أو من كان خلاسياً، وأنه (ستبن) اختبر كل ما يختبره الرجال وعمل أقصى استطاعته، وفعل أشياء عديدة ولا يود التباهي بها: ولكن الرجل الذي يدعي أنه متحضر يرى أموراً لا مفرّ منها غير أنه لا يتحدث عنها، لهذا سيكتفي بالقول إنه عثر على الخلاسي أخيراً وبدأ يستوعب خطورة الموقف؛ ثم استوعب المنزل، المتاريس، هم الخمسة– المزارع، الابنة، خادمتان إضافة إليه– محاصرون داخله وامتلأ الهواء بالدخان ورائحة قصب السكر المحترق واللهب والدخان المتصاعد منه في السماء وارتجاج الهواء وقرع الطبول والغناء– الجزيرة الصغيرة الضائعة تحت مرجلها المقعر تتحول بين ليلة وضحاها إلى عدم لن تمتد إليه أية يد للمساعدة، ولا تدخلها حتى رياح من العالم الخارجي فقط الرياح التجارية المتجهة نحو خط الاستواء، الرياح المتعبة نفسها تتلاطم جيئة وذهاباً مثقلة بالأصوات المنهكة للنساء والأطفال القتلى المشردين بلا قبور في أرجاء البحر المعزول المتوحد– بينما الخادمتان والفتاة التي لم يكن قد عرف بعد اسمها بالمعمودية يلقمن البنادق التي يطلق منها مع الأب النيران على أعداء غير موجودين باستثناء ليل هاييتي، تجابه أضواءهم الشحيحة العنينة العتمة المتربصة الدامية: وكان هذا في الوقت ذاته من السنة، الفصل الذي يفصل بين الأعاصير وأي أمل بهطول المطر: وروى كيف نفدت المياه في الليلة الثامنة وكان عليهم فعل شيء ما فألقى البندقية وخرج وأخضعهم. هكذا سرد ما حدث: خرج وانتصر عليهم، وعندما عاد صار خطيب الصبيّة وقال الجد ‹مهلاً مهلاً› بالتأكيد، قال ‹لكنك لم تكن تعرفها حتى، هذا ما قلته لي عندما بدأ الحصار لم تكن تعرف حتى اسمها› ونظر إلى الجد وقال ‹نعم. لكنك كما تعرف، احتجت بعض الوقت للتعافي وتعرفت عليها في هذه الفترة›. لم يرو كيف انتصر عليهم. لم يتحدث عن ذلك أيضاً، لا ذروة للقصة أيضاً؛ اكتفى بالقول إنه ألقى البندقية وطلب من أحدهم فتح قفل الباب ثم أعاد إقفاله خلفه، ومشى في العتمة وأخضعهم، ربما بأن صرخ بصوت غطى على أصواتهم، ربما بمجرد وقوفه، بصبره الذي فاق برأيهم صبر ما يمكن أو ما ينبغي على أي إنسان من لحم ودم تحمله (ينبغي، صحيح: هنا النقطة المريعة: أن تجد لحماً ودماً يتحمل أكثر من طاقته)؛ ربما دبّ الذعر في قلوبهم وولوا الأدبار هرباً من الأذرع والسيقان البيضاء التي تشبه أذرعهم وسيقانهم وتسيل منها الدماء تماماً كما تسيل من أجسادهم وتتملكها روح محصنة بُعثت من النار الأولى التي بُعثت منها أرواحهم لكنها لم تكن ملكهم، كان هذا مستحيلاً (أطلع الجد على الندبات، وكانت إحدى الندبات حسبما قال الجد، في مكان قريب جداً من النقطة التي كانت ستبقيه بتولاً طوال حياته) ثم طلع الفجر وتوقف قرع الطبول للمرة الأولى منذ ثمانية أيام، خرجوا (ربما الرجل والابنة) وسارا عبر الحقول المحترقة الممتدة تحت الشمس المشرقة

كما لو أن شيئاَ لم يحدث، سارا وسط سكون رائق لا يصدق، وعثرا عليه وأحضراه إلى المنزل: وعندما تعافى خطب الصبيّة. ثم توقف عن الكلام».

قال شريف: «حسناً، أكمل».

قال كونتن: «قلتُ لك إنه توقف».

«سمعت ما قلته. توقف عن ماذا؟» كيف خطب ومن ثم توقف ولكن على الرغم من ذلك كان لديه زوجة تنصل منها لاحقاً؟ قلتَ إنه لم يتذكر كيف وصل إلى هابيتي، ثم لم يتذكر كيف دخل المنزل والزنوج حوله. هل تحاول إخباري الآن بأنه لم يتذكر حتى كيف تزوج؟ بأنه خطب ومن ثم قرر بأنه يود التوقف، اكتشف في أحد الأيام بأنه لم يتوقف وإنما على العكس وجد نفسه متزوجاً؟ وأنت تطلق عليه اسم البتول؟»

قال كونتن: «توقف عن الكلام، عن سرد ما جرى». لم يتحرك، كان يتحدث على ما يبدو إلى (إن كان يتحدث إلى شيء ما أساساً) الرسالة فوق الكتاب المفتوح الذي أحاطه بيديه على الطاولة. ملأ شريف الجالس قبالته الغليون وشرع يدخنه مجدداً. كانت الرسالة مقلوبة، وتطاير الرماد الأبيض من المنفضة وحط على الطاولة أمام الذراعين المتصالبتين العاريتين اللتين استعان بهما ليدعم جسده ويحتضنه في الوقت ذاته، وعلى الرغم من أن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة إلا أن درجة حرارة الغرفة بدأت بالانخفاض بما يوحي بأن الحرارة ستنفد من أجهزة التدفئة المركزية بحلول منتصف الليل ولن يتبق إلا ما يكفي للحيلولة دون تجمد الأنابيب، وعلى الرغم (لن يؤدي مشهد التنفس العميق أمام النافذة اليوم) من أن عليه الذهاب إلى غرفة النوم وارتداء ثوب الحمام وفوقه معطفه والعودة مجدداً إلى الغرفة بعد وضع معطف كونتن على ذراعه. «اكتفى بقول إنه خطب وسيتزوج ثم توقف عن سرد القصة. توقف فحسب، كما قال الجد، بهذه البساطة والقطعية، بالبساطة والقطعية ذاتها التي جرت فيها كل الأحداث، كل ما كان من الممكن أن يحدث، كل ما يحتاجه الإصغاء إلى رجل يسرد حكايته لرجل آخر وهما يحتسيان الويسكي ليلاً. ربما هكذا جرت الأمور». أخفض (كونتن) وجهه. تحدث بنبرة كئيبة ومثيرة للفضول مما جعل شريف يتابع حديثه منذ البداية بترقب وترصد متعمدين، راقبه وقد ارتسمت تعابير الدهشة الملائكية المتعمّقة فيما أضفت نظارتاه مسحة تزيد من هيئة المثقف الذي بدا عليه، أو لربما كان لنظارتيه الدور الأكبر في إظهاره على هيئة المثقف. «وقف ونظر إلى زجاجة الويسكي وقال «سأكتفي بهذا القدر هذه الليلة. علينا الذهاب للنوم؛ يجب أن ننهض باكراً غداً. قد نلقي القبض عليه قبل أن يبتعد كثيراً».

«لكنهما لم ينهضا باكراً. لم يلقيا القبض عليه إلا في وقت متأخر من عصر اليوم التالي– أعني على المهندس المعماري– لأن ساقه أُصيبت أثناء محاولته قطع النهر بطريقة هندسية غريبة. غير أنه أخطأ في الحساب هذه المرة فحاصره الزنوج والكلاب وبدأ الزنوج بالزعيق (قال الجد إن الزنوج حسبوا أن هروب المهندس عنى أنه سلّم طواعية لحمه المحرّم لينهشوه، أقدم من تلقاء نفسه بالخطوة التي تقوده إلى التهلكة، وقبل الزنوج استسلامه ولاحقوه وألحقوا به الهزيمة حين قبضوا عليه، ومن حقهم الآن طهي لحمه وأكله، المنتصر والمهزوم قبلا هذا بالروح ذاتها والروح الرياضية نفسها بلا ضغينة أو حقد) سحلوه (عاد جميع الرجال الذين بدؤوا السباق البارحة باستثناء ثلاثة منهم، والرجال الذين عادوا جلبوا معهم آخرين، وصار عددهم الآن يفوق عددهم حين بدأ السباق، كما قال الجد)– سحلوه وأخرجوه من كهفه تحت ضفة النهر: رجل ضئيل فقد أحد طرفي معطفه الطويل حتى الركبة وأفسدت المياه والوحل صدريته المزهّرة عندما وقع في النهر وانزاح أحد طرفي سرواله مما سمح لهم برؤية المكان الذي ربط فيه ساقه بقطعة من ذيل قميصه وقد غطتها الدماء وتورمت ساقه، وأضاع قبعته للأبد. لم يعثروا عليها قط فأعطاه الجد قبعة جديدة يوم مغادرته بعد انتهاء بناء المنزل. حدث هذا في مكتب الجد وقال الجد إن المهندس أخذ القبعة الجديدة ونظر إليها وانفجر باكياً. — رجل ضئيل غاضب وجهه كالوحوش ولحيته لم يحلقها منذ يومين، خرج من الكهف يرغي ويزبد مثل قط بري، ساقه مصابة وحالته مزرية، الكلاب تنبح والزنوج يصيحون ويزعقون يحدوهم أمل فتاك وغبطة قاتلة، يتملّكهم يقين بأن القوانين باتت باطلة بشكل آلي لأن السباق طال لأكثر من أربع وعشرين ساعة ولا يتعين عليهم الانتظار لطهيه إلى أن قطع ستبن النهر حاملاً هراوة قصيرة وضرب الزنوج والكلاب، تاركاً المهندس واقفاً في مكانه، لم يجزع ولو للحظة، كان يلهث بعض الشيء وقال الجد إن مسحة من المرض بانت على وجهه بعد إلحاق الزنوج الأذى بساقه المصابة أثناء إلقاء القبض عليه، وألقى عليهم خطاباً بالفرنسية، خطاباً مطولاً لكنه ألقاه بسرعة كبيرة وحسبما قال الجد ما كان حتى لرجل فرنسي آخر أن يفهم كل ما قاله. لكن الخطاب بدا جيداً؛ قال الجد إنه – وجميع الحاضرين– استشفوا بأن المهندس لم يكن يقدم اعتذاراً؛ كان خطاباً جيداً، وحكى كيف التفت ستبن نحوه ولكنه (الجد) كان يقترب من المهندس، حاملاً زجاجة الويسكي غير المفتوحة بعد. ورأى الجد العينين الغائرتين في الوجه المنهك، عينان يائستان وقانطتان لكنهما مكابدتان على الرغم من ذلك، صامدتان أيضاً، لم يهزمهما المشهد اللعين كما قال الجد، ولا الساعات الخمسين الغريبة المرهقة التي قضاها دون نوم يجوب المستنقعات وسط العتمة يتضور جوعاً ويهيم على وجهه بلا أمل في أن يصل إلى أي مكان: لا معين سوى إرادته الصابرة ويقينه بأن الهزيمة بانتظاره لكن المشهد اللعين لم يهزمه على

الرغم من كل ذلك: حمل الزجاجة بإحدى يديه الصغيرتين المتسختين اللتين تشبهان يدي الراكون ورفع اليد الأخرى وتحسس رأسه للحظة ثم تذكر خسارته للقبعة، وحرك اليد بإيماءة لم يفهمها الجد كما قال، كما لو أنه يجمع كل القهر البشري وهزائم السلالة البشرية في قبضة صغيرة بين أصابعه كما لو أنه يقبض على الغبار ومن ثم ينثره مجدداً على رأسه، ورفع الزجاجة وانحنى للجد أولاً ثم لجميع الرجال المتحلقين حوله والجالسين على أحصنتهم يحملقون ويتفرّسون فيه، ثم أخذ الرشفة الأولى في حياته كلها من الويسكي الفاخر والرشفة الأولى من المشروب الذي لم يتخيل قط أنه سيحتسيه تماماً كما لم يتخيل أبداً رجل من البراهمة [44] نفسه في موقف متخيل يدفعه لأكل الكلاب».

توقف كونتن. سارع شريف إلى القول «حسناً. لا تكلّف نفسك عناء قول إنه توقف؛ أكمل فحسب». لكن كونتن لم يكمل على الفور– الصوت الهادئ المثير للفضول، الوجه المنخفض، الجسد المرتاح الذي لم يؤت بأي حركة سوى التنفس؛ الاثنان جامدان لا يأتيان بأي حركة سوى التنفس، كلاهما شابان، كلاهما ولدا في العام ذاته: أحدهما في ألبرتا والآخر في الميسيسيبي؛ ولدا على بعد نصف قارة عن بعضهما البعض ولكن على الرغم من ذلك التقيا، جمعتهما الأعاجيب الجغرافية لحوض النهر القارّي، ذلك النهر الذي يجري في الأرض ويشكّل حبلها السرّي بل وأيضاً يجري في الحيوات الروحانية للكائنات التي تعيش في كنفه، النهر الذي يجسد البيئة نفسها التي تهزأ من خطوط العرض ودرجات الحرارة، على الرغم من أن بعض هذه الكائنات، كشريف مثلاً، لم يروه أبداً– الاثنان اللذان لم يريا بعضهما البعض قط قبل أربعة أشهر ولكن منذ ناما في الغرفة نفسها وتناولا الطعام ذاته جنباً إلى جنب وقرآ الكتب عينها وحفظا منها ما سيسردونه في الحصص الدراسية نفسها، جلسا وجهاً إلى وجه والطاولة والمصباح بينهما حيث استقر صندوق باندورا والورقة والكلمات المثقلة بالجن والشياطين العنيفة الخارجة عن المنطق في هذه الزاوية الحميمية الرهبانية من الغرفة الجامعية، هذا التجويف الحالم المفتقر للتدفئة حيث تنمو ما نسميها الأفكار النيّرة. قال شريف «لا تكلّف نفسك عناء قول هذا، أكمل فحسب».

قال كونتن «سيستغرق هذا ثلاثين عاماً. مضى ثلاثون عاماً قبل أن يطلع الجد على المزيد. ربما كان كثير الانشغال. استثمر كل الوقت الذي كان ليقضيه في الكلام لتحقيق الخطة التي رسمها في رأسه، وللتنعم بمتعته الوحيدة في قتال زنوجه المتوحشين في الإسطبل حيث يمكن للرجال إحضار أحصنتهم والدخول من الجهة الخلفية دون أن يراهم سكان الدار لأنه كان متزوجاً حينها، وقد استكمل بناء داره وزُجّ في السجن بتهمة سرقة الدار ثم أُطلق سراحه

واستتب الأمن، يعيش مع زوجة وولدين– كلا– ثلاثة أولاد– ونظف أرضه وجهزها وزرع البذور التي أعاره إياها جدي وبات ثرياً ومستقراً الآن—»

قال شريف: «أجل. السيد كولدفيلد: ما كان هذا؟»

قال كونتن: «لا أعرف. لم يعرف أحدٌ حقيقة ما جرى. استخدم ما يسمى تصريح نقل الأمتعة، وأقنع بطريقة أو بأخرى السيد كولدفيلد بالسماح له باستخدام حظوة السيد كولدفيلد: أحد تلك الأمور التي تجعل منك ذكياً إن نجحت ولكن إن لم تنجح تسارع على الفور لتغيير اسمك والانتقال للعيش في تكساس: وسرد أبي كيف أن السيد كولدفيلد جلس في متجره الصغير وراقب حمل عربته يتضاعف كل عشر سنوات ربما دون تكبد أي خسائر ورأى الفرصة للقيام بذلك الشيء نفسه كل الوقت، لكن ضميره (وليس قلة جسارته: قال الأب إنه كان جسوراً جداً) لم يسمح له بفعل ذلك. ثم جاء ستبن وعرض عليه القيام بذلك، ليتقاسما الغنائم إن نجح الأمر، بينما يتحمل ستبن كل المسؤولية إن لم ينجح. ووافق السيد كولدفيلد. قال أبي إن مردّ ذلك لقناعة السيد كولدفيلد بفشل الخطة، وعدم يقينه من أنهم سيفلتوا من العقاب، لم يستطع التوقف عن التفكير بالأمر، فإن جرّبا الخطة وفشلت سيتمكن السيد كولدفيلد من إخراجه من ذهنه؛ وإن فشلت المحاولة وألقي القبض عليهما، فسيصرّ السيد كولدفيلد على تحمّل نصيبه من المسؤولية ليكون هذا بمثابة توبة وكفارة عن الإثم الذي ارتكبه في ذهنه طوال هذه السنوات. لم يقتنع السيد كولدفيلد قط بأن الأمر قد ينجح، وعندما رأى أن الأمور تسير على ما يرام، ونجح الأمر، كان أقل شيء يمكن له فعله رفض حصته من الأرباح؛ وعندما رأى أن الأمر قد نجح كره ضميره، وليس ستبن؛– ضميره والأرض، البلد الذي خلق ضميره ومن ثم قدم له الفرصة لجني كل ذلك المال وعرض الفرصة على الضمير الذي خلقه البلد، وما كان للضمير سوى أن يرفض؛ كره ذلك البلد كثيراً وسُعد عندما رآه يقترب أكثر وأكثر من الهاوية والهلاك والحرب الفتاكة، كان بوسعه الانضمام إلى جيش اليانكيين، كما قال أبي، لكنه لم يكن جندياً وعرف أنه إما سيُقتل أو يموت من المشقات ولن يكون موجوداً عندما يحين اليوم الذي سيدرك فيه الجنوب حقيقة أنه يدفع الآن ثمن عدم تنصيب صرحه الاقتصادي على صخرة صلدة من الأخلاق الصارمة وإنما على رمال متحركة من الانتهازية واللصوصية. انحاز إذاً للتصرف الوحيد الذي استطاع التفكير به ليبهر الناجين من القتال ويشاركهم الندم—»

قال شريف: «حتماً. هذا جيد. لكن ستبن. المخطط. تابع، الآن».

قال كونتن: «أجل. المخطط.– الغنى والثراء والثراء الفاحش. أضحت الأمور جيدة وواضحة أمامه الآن: استكمل بناء المنزل، منزل أكبر وأكثر بياضاً من

المنزل الذي قصد بابه ذلك اليوم وجاء الزنجي بملابسه التي تشبه ملابس القردة وطلب منه الذهاب للباب الخلفي، اختاره هو الذي يحمل وصمة الزنوج، التي لا يحملها الرجل الممدد في الأرجوحة حافي القدمين، ليملي عليه التعليمات ويأمره بالذهاب إلى الباب الخلفي وطرقه هو الصبي الصغير حافي القدمين الذي يرتدي سروال أبيه بعد تقصيره. لكن أبي قال إن الأمر لم يعد كذلك الآن، عندما جاء إلى مكتب جدي ذلك اليوم بعد مرور ثلاثين عاماً، دون أي نيّة منه لتقديم أعذار تماماً كما لم يكن له أي نية لتقديم أعذار في ليلة تعقب أثر المهندس، جلّ ما أراده أن يشرح، حاول جاهداً أن يشرح لأنه صار أكبر سناً وأوسع اطلاعاً، عرف أن تقدمه في العمر يعني دخوله في سباق مع الزمن: الوقت يضيق أمامه وتتقلّص فرصه واحتمالاته مع أنه بات واثقاً من إرادته الصلبة وشجاعته تماماً كما هو واثق من لحمه ودمه، أخبر جدي أن مغزى قصة الصبي والباب ليس من نسج خيال الطفل المذهول اليائس؛ وأنه سيجعل باب منزله مفتوحاً للجميع بحيث لا يجد الصبي نفسه مضطراً أبداً للوقوف أمام الباب الأبيض والطرق عليه: لن يكون البيت مفتوحاً كمأوى فقط وإنما كمكان يرحب بدخول الجميع ليتسنى لذلك الصبي، ذلك الغريب المجهول أغلق الباب بنفسه وراءه للأبد، رامياً وراء ظهره كل ما عرفه، ليرنو إلى المستقبل، إلى الضوء المجهول القادم الذي يخبّئ بين طيّاته أحفاده الذين لم يولدوا بعد ولم يسمعوا قط باسم الصبي ولم يعرفوا أنهم تحرروا للأبد من الوحشية تماماً كما تحرّر أولاده (أولاد ستبن)—»

قال شريف: «لا تقل إنني الوحيد الذي يشبه رجلك العجوز. لكن أكمل. أولاد ستبن. أكمل».

قال كونتن: «أجل. الولدان» ثم قال لنفسه أجل. نحن ننجب آباءنا ربما. ما من شيء يحدث ربما وينتهي. الأحداث لا تجري ربما لمرة واحدة وإنما تتابع كتموجات المياه التي تشكلها الحصاة قبل غرقها، تواصل التموجات حركتها، تتسع، البركة مشدودة إلى خيط مياه رفيع سرّي يجمعها مع البركة التالية التي تغذيها البركة الأولى، تغذت، تغذت بالفعل، درجة حرارة المياه في البركة الثانية مختلفة، وزن جزيئي مختلف عما نراه، نحسه، ونتذكره، تعكس في صيغة مختلفة السماء الأزلية الثابتة، لا يهم: الصدى المائي للحصاة الناجم عن سقوطها في البركة لا يرى أبداً تموجات سطحها أيضاً الناشئة في مكان سقوط الحصاة، صدى الإيقاع المتأصل فكر الآباء وأنا أنجبنا شريف أو شريف وأنا كلانا أنجبنا آباءنا أو ربما توماس ستبن أنجبنا كلنا. «أجل، الولدان، الابن والابنة جنسهما وعمرهما متناسبان مع المخطط الذي رسمه أيضاً، شخصيتهما وحالتهما الذهنية والبدنية مناسبة للمخطط واصطفاهما من بين ملائكة السيرافيم والشيروبيم [45] السماوية كما اختار زنوجه العشرين وفق المقايضة التي جنح لها عندما هجر زوجته الأولى وذلك الطفل بعدما اكتشف

أنهما لا يتفقان مع مخططه المستقبلي. وقال الجد إن هذا حصل بمعزل عن تدخل الضمير، إن ستبن جلس في المكتب عصر ذلك اليوم بعد ثلاثين عاماً وأخبره أن ضميره أنّبه في بادئ الأمر لكنه تناقش بهدوء ومنطق مع ضميره إلى أن توصلا إلى تسوية، على غرار النقاش الذي خاضه مع ضميره حول تصريح نقل الأمتعة الذي اتفق عليه مع السيد كولدفيلد (لكن ربما لم يطل النقاش طويلاً هذه المرة، لضيق الوقت) إلى أن توصلا إلى تسوية؛– كيف أقرّ بعدم عدالة ما فعله إلى حدٍّ ما إلا أنه نحّى هذا الموضوع جانباً وتفرّغ لتقوية سلطته من خلال تعامله بصراحة مع المسألة؛ كان بإمكانه ببساطة هجرها، يأخذ قبعته ويرحل، لكنه لم يفعل ذلك: كان معه ما اعترف الجد بأنها حجة جيدة ومشروعة، فإن لم يشفع له إنقاذ المكان كله بمفرده، إلى جانب إنقاذ أرواح البيض هناك، فسيشفع له على الأقل الجزء المذكور بالتفصيل في اتفاق الزواج الذي أبرمه بنيّة طيبة ويقرّ له بالفضل، لم يخفِ شيئاً عن أصوله الغامضة وصفر ممتلكاته، لكنهم أخفوا عنه وضللوه أيضاً تضليلاً خبيثاً أحبط دون علمه الحافز الرئيس لمخططه بأكمله وأفرغه من معناه، وخلق وهماً مثيراً للسخرية عن كامل معاناته ومكابداته السابقة واللاحقة التي سيواجهها في سبيل تحقيق مخططه– حجة تخلى عنها طواعية، استثنى الزنوج العشرين من كل حججه فيما كان أي رجل في مكانه ليصرّ على الاحتفاظ بهم (في أي حجة) مدعوماً بمصادقة قانونية وأخلاقية حتى وإن لم تحظَ بمصادقة الضمير الحساسة: لم يقاطعه الجد بقول ‹مهلاً مهلاً› لأن الجهل هو السبب مجدداً، ذلك الجهل الذي ظن أن مقومات الأخلاق مثل مقومات الفطيرة أو الكعك ولا تحتاج لإعدادها سوى لوضع المقادير الصحيحة ومزجها وإدخالها إلى الفرن لتحصل على الفطيرة أو الكعك المنشود دون أي شيء آخر معها.– أجل، جلس في مكتب الجد محاولاً شرح ما حصل بإيجاز صابر ذاهل، لم يكن يشرح للجد أو لنفسه لأن الجد قال إن هدوءه دلّ على تخليه منذ زمن بعيد عن أمله بفهم ما جرى، لكنه حاول تقديم الشرح للظروف، للقدر نفسه، الخطوات المنطقية التي أوصلته إلى نتيجة أبدية مذهلة قطعاً، مكرراً الخلاصة الواضحة والبسيطة لخلاصة تاريخه (الذي صار الجد وهو يعرفانه الآن) كما لو أنه يحاول شرحه لطفل متمرد لا يمكن التنبؤ بتصرفاته: ‹كما ترى، رسمت خطة في رأسي. سواء كانت خطة جيدة أم سيئة هذه نقطة هامشية؛ السؤال المهم أين أخطأت، ما الذي فعلته أو لم أفعله، بمن ألحقت الخطة الأذى أو ما الضرر الذي سببته لنصل لهذه النتيجة. رسمت خطة. احتجت لتحقيقها المالَ ومنزلاً ومزرعة وعبيداً وعائلة– وتلقائياً طبعاً، زوجة. عقدت العزم على امتلاكها كلها، دون مساعدة من أحد. جازفت حتى بزوجتي في مرحلة ما، كما أخبرتك، لأنني كما قلت لم أقدم على هذه المجازفة لمجرّد رغبتي بأن يكون لي زوجة، لكن هذه المجازفة أوصلتني لتلك النتيجة. باتت هذه نقطة هامشية الآن: اكتفيت بأن أتخذ زوجة لي، قبلتها بنيّة طيبة، لم أخف أي معلومات عن

نفسي، وانتظرت أن يقابلوني بالمثل. لم أطلب حتى، لاحظ معي، كما قد يتوقع أحد أجدادي الغامضين مني أن أفعل (أو على الأقل التغاضي عن فعل ذلك) بسبب جهلي للكياسة التي يتطلبها التعامل مع النبلاء. لم أطلب؛ قبلتهم وقبلت مكانتهم وأصررتُ من جهتي على شرح كل شيء عن نفسي وعن أسلافي: وعلى الرغم من ذلك أخفوا عني عمداً الحقيقة الوحيدة التي من حقي معرفتها وكانوا يعلمون أنها قد تدفعني للانسحاب من الموضوع بأكمله، وإلا لما كانوا أخفوها عني– حقيقة لم أعرف بها إلا بعد ولادة ابني. حتى بعد معرفتي لم أتهور. كان بوسعي تذكيرهم بتلك السنوات الضائعة، تلك السنوات التي جعلتني أتخلف عن الجدول الزمني الذي رسمته ليس بمقدار الزمن الضائع بوصفه رقماً فحسب، وإنما ذلك المقدار من الوقت الذي يمثله رقم تلك السنوات والذي يتوجب عليّ الآن قطعه مجدداً لأصل إلى النقطة التي كنت قد وصلتها ثم أضعتها. لكنني لم أذكرهم. اكتفيت بتوضيح دور هذه الحقيقة الجديدة في استحالة وجود هذه السيدة والطفل ضمن خطتي، وبناءً على ذلك، كما أخبرتك، لم أحاول الاحتفاظ بما يمكن أن أعتبره الثمار التي جنيتها جرّاء المخاطرة بحياتي، ليس هذا فحسب لم أحاول أيضاً الاحتفاظ بالممتلكات التي مُنحت لي بموجب اتفاقيات موقعة، على النقيض من ذلك، تخليت عن كل حقوقي على أمل أن يعوض هذا عن الظلم الذي ربما ألحقته من خلال منح الشخصين اللذين قد يُقال إنني حرمتهما من أي شيء قد أملكه لاحقاً: وتم الاتفاق، كما تلاحظ، اتفق الطرفان على ذلك. وعلى الرغم من هذا، وبعد مضي ثلاثين عاماً، أكثر من ثلاثين عاماً بعد أن ارتاح ضميري أخيراً لأنني حاولت التعويض عن أي ظلم لربما ألحقته بهما› لم يقل جدي ‹مهلاً› الآن لكنه قال، بل وربما صرخ: ‹ضمير؟ ضمير؟ يا إلهي، يا رجل، ماذا تتوقع؟ ألم تتعظ من تشابه الغرائز والمصائب التي تلحق برجل قضى كل هذا الوقت في صومعة، ناهيك عن رجل خاض على مدار كل تلك السنوات ما خضته؟ ألم تتعظ من الرعب والخوف من الإناث الذي رضعته بلا شك مع حليب الثدييات الفطري؟ أي جاهل أعمى كنت عليه وأي رجل أخبرك أن جهلك اسمه عذرية؟ أي ضمير بعته ليطمئنك بأنك اشتريت المناعة ضدها بعملة اسمها العدل؟—»

في هذه اللحظة ذهب شريف إلى غرفة النوم وارتدى ثوب الحمام. لم يقل ‹مهلاً› نهض فحسب وترك كونتن جالساً أمام الطاولة، أمام الكتاب المفتوح والرسالة، وخرج من الغرفة ثم عاد مرتدياً الثوب وجلس مجدداً وأخذ الغليون البارد، دون تجديد تبغه أو إشعاله. قال «حسناً». «في عيد الميلاد تلك السنة دعاه هنري إلى الدار، ودخل إلى الدار، ورآه الشيطان ورأى الوجه الذي ظن أنه دفع ثمن هجره قبل عشرين عاماً. أكمل».

قال كونتن: «أجل، قال أبي إنه من أطلق عليه هذا الاسم ربما. تشارلز بون. تشارلز جود. لم يخبر جدي أنه من سمّاه، لكن جدي يعتقد ذلك، أنه من سمّاه على الأرجح. كان هذا جزءاً من التطهير، تماماً كما كان ليفعل إزاء الجزء المترتّب عليه إزاء القبعات المتشظية وخراطيش البنادق بعد انتهاء الحصار لو لم يقع فريسة المرض (أو لو لم يخطب ربما)؛ لربما أصرّ على ذلك، الضمير مجدداً الذي حال دون انخراطها وانخراط الطفل في المخطط على الرغم من أنه كان قادراً على غضّ الطرف، فإن لم يخدع باقي العالم كما خدعوه، فسيدخل الرعب على الأقل في قلب كل من يفكر بالبوح بالسر– الضمير نفسه الذي لم يسمح للطفل، لأنه صبي، بحمل اسمه أو اسم جده لأمه، ومنعه أيضاً من الامتثال للعُرف واختيار زوج على عجل للسيدة المهدورة ومنح ابنه اسماً أصيلاً. اختار الاسم بنفسه، حسب اعتقاد جدي، كما أسماهم جميعاً– كلهم حملوا اسم تشارلز جود وكليتيمنيسترا وهنري وجوديث وكلّهم– كل السلالة الخصبة لأنياب التنين حسب وصف جدي. وقال جدي—»

شريف: «جدك، يبدو أن المعلومات انهالت عليه متأخراً ودفعة واحدة، بعد انتظار دام لخمسة وأربعين عاماً. لو عرف كل هذه المعلومات، ما الأسباب التي دفعته لإخبارك أن المرأة التي كان جدها الأكبر الثامن هي سبب الخلاف بين هنري وبون؟»

«لم يكن يدري حينها. جدي لم يخبره كل شيء أيضاً، ستبن بدوره لم يخبر جدي كل شيء».

«من أخبره إذاً؟»

«أنا من أخبره». لم يتحرك كونتن، لم يرفع بصره بينما كان شريف محدقاً به.

«في ذلك اليوم بعد ما قمنا– بعد الليلة التي قمنا–»

قال شريف: «حسناً. بعد رحلتك مع الخالة. فهمت. أكمل. وقال الأب–»

«— حكى أنه لربما وقف في الرواق الأمامي عصر ذلك اليوم وانتظر وصول هنري والصديق الذي دأب هنري على إخبار العائلة عنه في رسائله، ولربما قال ستبن لنفسه في أول مرة ذكر فيها هنري اسمه إنه من المستحيل أن يكون ابنه، إنه ثمّة حدٌّ لسخرية الأقدار إن تجاوزته صار الأمر وحشياً وتعدى كونه مجرد مماحكة غير مهلكة أو مصادفة بريئة، جدي قال إن ستبن على الأرجح عرف بعدم وجود شخص اختلق اسماً لشخص بلا اسم الآن أو لم يحمل يوماً أي اسم: وصلا أخيراً وقال هنري ‹هذا تشارلز يا أبي› وهو–» (قال شريف «الشيطان») «– رأى الوجه وعرف أن المصادفة تتعدى كونها مجرد طفل اندفع إلى ملعب كرة القدم كي يشارك في اللعبة بينما هرول اللاعبون

حوله دون أذيته وتابعوا لعبهم وفي غمرة صراعهم ليجنوا ما يُسمى الفوز أو الخسارة غفل الجميع عن الطفل ولم يلحظوا وجوده لكن الطفل جاء وفرض حضوره رافضاً تغييبه؛– وقف أمام باب داره؛ كما تخيل تماماً، كما خطط، وتعمّد، وبكل ثقة وبعد مرور خمسين عاماً جاء الطفل البائس اللقيط المشرّد الضائع وطرق الباب وما من زنجي يرتدي ثياباً تشبه ثياب القردة ليأتي ويطرد الطفل؛ وقال جدي إنه حتى حينها، على الرغم من أنه عرف أن بون وجوديث لم يلتقيا قط، إلا أنه لا بدّ شعر وسمع صدى هوي المخطط وسقوطه– الدار، المنزلة، الذريّة وكل شيء– كما لو أنه بُني من دخان على الرغم من أن كل شيء هوى دون جلبة، ولم يُحدث أي اختلال في الهواء ولم يخلّف أي أنقاض. لم يعتبر هذا قصاصاً، ولا ظهور خطايا الأب لتجثم على صدره؛ حتى إنه لم يعتبرها حظاً عاثراً، وإنما مجرد خطأ: خطأ عجز عن اكتشافه بنفسه فقصد الجد، لا ليبحث له عن أعذار وإنما ليعرض الحقائق على جهة محايدة (جهة متمرسة بالقانون كما ظن حسبما قال الجد) ليتمحّص ويميط اللثام ويرشده. لم يعتبر هذا قصاصاً أخلاقياً كما ترى: مجرد خطأ قديم يمكن لأي رجل يتحلى بالشجاعة والدهاء (يدرك أنه بات يمتلك الصفة الأولى الآن بينما تعلّم الصفة الثانية، اكتسبها) أن يتداركه طوال الوقت بمجرد وضع يده على مكمن الخطأ. لم يستسلم. لم يستسلم في حياته؛ قال الجد إن أفعاله المتلاحقة (حقيقة إنه لم يرتكب أي شيء لفترة من الزمن مما قد تسبب في الوصول إلى المحنة التي خشي من مواجهتها دائماً) لم تكن ناتجة عن قلة شجاعته أو دهائه أو وحشيته، وإنما ناتجة عن قناعته بأن كل شيء نتج عن خطأ بسيط وإلى لحظة اكتشافه مكمن الخطأ لم يكن ينوي المخاطرة بارتكاب خطأ آخر.

«دعا بون إلى الدار إذاً، وعلى مدار أسبوعي الإجازة (لم تكن إجازة طويلة؛ قال الأب إن السيدة ستبن تبصرت خطوبة جوديث وبون لحظة قراءة اسم بون في أولى رسائل هنري) راقب بون وهنري وجوديث، أو بالأحرى راقب بون وجوديث لأنه كان يعرف بالعلاقة التي تجمع بين هنري وبون من خلال رسائل هنري التي أرسلها من الجامعة؛ راقبهما لأسبوعين، ولم يأتِ بأي ردة فعل. ثم عاد بون وهنري إلى الجامعة وصار السائس الزنجي يجلب الرسائل ويرسلها أسبوعياً بين أكسفورد ومزرعة ستبن رسائل موجهة إلى جوديث الآن وغير مرسلة من هنري (ولم يكن هذا بالضرورة، حسبما قال الجد، لأن السيدة ستبن أغرقت البلدة والمقاطعة بأخبار تلك الخطوبة التي قال الجد إنها لم تحدث بعد) وعلى الرغم من ذلك لم يفعل شيئاً. لم يفعل شيئاً على الإطلاق قبل انتهاء الربيع تقريباً وأرسل هنري رسالة يخبرهم فيها بأنه سيحضر معه بون للمكوث يوماً أو يومين قبل ذهاب بون إلى دياره. حينها ذهب ستبن إلى نيو أورلينز. سواء اختار ذلك التوقيت للذهاب أو ذهب ليلتقي مع بون وأمه سوية وينهي الموضوع للأبد أم لا، لم يعرف أحدٌ قط إن كان قد

التقى بالأم أم لا أثناء وجوده في نيو أورلينز، إن كانت قد استقبلته أم رفضت استقباله؛ أو أنها استقبلته فحاول مجدداً التوصل إلى اتفاق جديد معها، شراء موقفها بالمال ربما، لأنه رجل يؤمن بأن امرأة محتقَرة وحانقة ومنفعلة تقبل بشراء سكوتها بالإقناع قد تقبل أيضاً بشراء سكوتها مقابل المال، ولم يجدِ ذلك نفعاً؛ أو ربما بون كان هناك وهو من رفض العرض، لكن لم يعرف أحد أبداً إن كان بون قد علم بأن ستبن والده، إن كان يحاول الثأر لوالدته في بادئ الأمر ثم وقع في الحب، خضع بعدها لتيار القصاص والهلاك الذي قالت الآنسة روزا بأن ستبن أحدثه وألحق من خلاله اللعنة بكامل سلالته، سلالته من البيض والسود على حدٍّ سواء. لكن الأمر لم يجدِ نفعاً في نهاية المطاف، وحلّ الربيع التالي وجاء هنري وبون إلى مزرعة ستبن مجدداً ورأى ستبن أنه لا سبيل للحيلولة دون وقوع الكارثة، رأى أن جوديث غارقة في حب بون وما من فارق إن كان بون يبتغي الثأر أو أنه وقع ضحية بدوره ووجد الهلاك بانتظاره أيضاً. بدا أنه أرسل بطلب هنري عشية عيد الميلاد قبل موعد العشاء (قال الأب إنه أخيراً لربما صار يعرف أكثر عن النساء بعد رحلته إلى نيو أورلينز وبات يدرك عبثية الحديث مع جوديث أولاً) وأخبر هنري بالأمر. وعرف بما قد يقوله هنري وجاء ردّ هنري تماماً كما توقعه وسمع كذبة ابنه وأيقن هنري أن والده سيبتلع الكذبة وأن ما قاله والده كان صحيحاً؛ وقال أبي إن ستبن علم على الأرجح بما سيفعله هنري وعوّل على ذلك لأنه كان ما يزال مقتنعاً بأن الأمر مجرد خطأ فني بسيط، وكان مثل مراوغ خسر الكثير لكنه لا يستطيع التراجع ويظن أن قليلاً من الصبر والذكاء والهدوء واليقظة يكفي لتشتيت الخصوم وسحقهم واحداً إثر آخر. وفعلها هنري. وعرف ستبن على الأرجح ما الخطوة التالية التي سيقدم عليها هنري، وأن هنري أيضاً قد يذهب إلى نيو أورلينز ليعرف الحقيقة بنفسه. ثم حلّ العام 1861 وعرف ستبن ما يتعين عليهم فعله الآن، وليس ما سيفعله هنري فحسب وإنما ما سيجبر بون على فعله أيضاً؛ ربما (لأنه شيطان– على الرغم من أن تبصر وقوع الحرب لم يكن يحتاج لأن يكون المرء شيطاناً) استشرف أيضاً انضمام هنري وبون إلى السرية الطلابية في الجامعة؛ من خلال طريقته الخاصة في المراقبة عرف في يوم ورود اسميهما في القائمة، وعرف مكان السرية قبل أن يصبح الجد كولونيل فيلق السرية إلى أن أُصيب في معركة شيلوه (حيث جُرح بون) وعاد إلى المنزل ليتأقلم مع خسارته لذراعه اليمنى وعاد ستبن إلى المنزل عام 1864 ومعه شاهدتا قبر وتحدث إلى الجد في المكتب في ذلك اليوم قبل عودتهما إلى الحرب؛– عرف طيلة الوقت مكان وجود هنري وبون، وأنهما كانا طوال الوقت في فيلق الجد حيث كان بإمكان جدي الاعتناء بهما بالشكل اللائق حتى دون علم الجد بأنه يعتني بهما– حتى لو كانا بحاجة للمراقبة، لا بد وأن ستبن عرف بأمر الفترة التجريبية، وما الذي يدور في خلد هنري: يضع ثلاثتهم– نفسه وجوديث وهنري– في وضع معلّق بينما يتصارع مع ضميره

ليتوصل إلى قرار حول ما يتعين عليه فعله تماماً كما أخذ والده الوقت الكافي على مدار ثلاثين عاماً ليفكر بما عليه فعله، ربما صار مثل بون مؤمناً بالقضاء والقدر تاركاً للحرب تسوية الأمر برمته إما بقتله أو بقتل بون أو بقتلهما معاً (لكن من دون أي تدخل، دون أي مراوغة من جانبه لأنه هو من حمل بون إلى مؤخرة الفيلق بعد معركة شيلوه أو ربما عرف أن الجنوب سيخسر الحرب وستفقد الأشياء أهميتها، لم يبق ما يثير حماستنا أو اهتمامنا، ما يستحق تمردنا عليه أو معاناتنا في سبيله أو الموت من أجله ولا الحياة كرمى له أيضاً. كان هذا يوم مجيئه إلى المكتب، في يومه–» (قال شريف: «يوم الشيطان») «– أول يوم من عودته إلى الديار، عاد ومعه شاهدتا القبر وكانت جوديث هناك وأظن أنه نظر إليها وأنها نظرت إليه ثم قال ‹تعرفين مكانه› ولم تكذب جوديث عليه، وقال (عرف هنري) ‹لكنه لم يتواصل معك بعد› ولم تكذب جوديث عليه بخصوص هذا الشأن أيضاً ولم تبك لأن كلاهما عرف مضمون الرسالة عندما ترد ولم يجد أي ضرورة كي يسأل ‹عندما تصلك منه رسالة يخبرنا فيها عن قدومه، ستبدئين وكليتي بحياكة ثوب الزفاف› حتى لو كذبت عليه جوديث حول هذا الأمر، لكنها لم تفعل: وضع إحدى الشاهدتين على قبر إلين والأخرى في الردهة ومن ثم جاء لمقابلة الجد، في محاولة منه لشرح ما حدث، ليرى إن كان بوسع الجد اكتشاف مكمن الخطأ الذي اعتقد أنه المسبب الوحيد لمشكلته، جلس مرتدياً زيّه العسكري المهترئ والبالي، وقفازيه الرثين ووشاحه الكالح فيما (كان وجود ريشة في قبعته أمراً لازماً لا بدّ له وأن يحصل عليه بكافة السبل. من الجائز أن يخسر سيفه، لكن من المستحيل أن يخسر ريشة قبعته) انكسرت ريشة قبعته واهترأت وتعفرت بالتراب، بينما السرج جاهز على حصانه الذي ينتظره في الشارع وأمامه أيضاً ألف ميل ليصل إلى فيلقه، ومع ذلك اختار أن يقصد المكتب في يوم إجازته الوحيد كما لو أنها ألف يوم، كما لو أنه ما من أمر طارئ تحت الشمس يستدعي العجلة وأنه عندما غادر لم يكن لديه أي مكان يقصده سوى الاثني عشر ميلاً التي تفصله عن مزرعة ستبن وألف يوم إجازة أو ربما سنوات من السلام الرتيب العميم، وسيظل، حتى بعد وفاته، يراقب أحفاده الجميلين وأحفاد أحفاده ينتشرون إلى أبعد مدى قد تراه العين؛ سيظل، حتى ولو كان ميتاً تحت التراب، سيبقى ذلك الشخص الجميل كما سمّاه ووش جونز، لكنه لن يموت الآن. صار محتجزاً بين الجدران التي شيّدها من أخلاقياته الشخصية: ذلك الانشطار التافه للشعر المجرد فيما اندثرت روما (كما قال الجد) وأريحا تشظت، هذا صحيح إذاً أو كان من شأنه أن يكون خاطئاً لكن للدم الجامد والعظام والشرايين المتصلّبة التي قال جدي إن الرجال يركنون لها في شيخوختهم بينما تنحصر ردود الشباب والمرنون والأقوياء بين كلمتي ‹نعم› و‹لا› البسيطتين كلمة ‹لا› اللحظية والقاطعة والارتجالية كقطع الكهرباء ووصلها، جلس وتحدث فيما الجد لا يعرف عمّا يتحدث ستبن وقال الجد إن

ستبن نفسه لم يكن يعرف عمّا يتحدث لأنه لم يبح له بكل شيء. الأخلاقيات مجدداً، كما قال الجد: تلك الأخلاقيات التي ردعته عن تلويث ذكرى زوجته الأولى أو الطعن بها، أو على الأقل تشويه ذكرى الزواج على الرغم من شعوره بالغبن والخديعة، حالت دون ذكرها بالسوء أمام أحد معارفه الموثوقين ودفعته للتحفظ على خفاياها أمام شخص يثق به بما يكفي ليجد نفسه راغباً بتبرير موقفه له، لم يسرّ بها حتى لابنه من زواج آخر كي يحافظ على مكتسبات حياته ورغبته، ليظل ملجأه الأخير. تردد بسبب كل هذا كما قال الجد: ولكن ليس بعد ذلك اليوم. خُدع، إلا أنه خلّص نفسه دون طلب أو تلقي أي مساعدة؛ من غيره ليتصرف يهذه الطريقة إذا ما خُدع. – جلس يتحدث عن مدى أخلاقية حقيقة أنه، بصرف النظر عن المسار الذي اختاره، فإن النتيجة ستكون كما لو أن المخطط أو الخطة التي كرّس في سبيلها خمسين عاماً من حياته ستبدو وكأنها لم تكن بعد مرور خمسين عاماً بالضبط، والجد غافل عن الخيار الذي يتحدث عنه، عن خياره الثاني إلى أن نطق كلمته الأخيرة قبل نهوضه وارتداء قبعته ومصافحة يد الجد اليسرى وامتطاء جواده، النكران، لطالما كان النكران: لم يقل الجد إذاً ‹لا أعرف أي الخيارين أفضل› ليس لأن ما من كلمات تُقال سوى هذه الكلمات ولهذا فإن قولها لا يعتبر بمثابة رد إطلاقاً بل لأن ستبن لم يكن مصغياً، لم ينتظر أي رد، لم يأتِ سعياً وراء شفقة ولم يكن ليأخذ بأي نصيحة، أما المبررات فقد أكره ضميره قبل ثلاثين عاماً على قبولها. كان مدركاً لشجاعته، وعلى الرغم من الشكوك التي ساورته مؤخراً حول مدى دهائه بعدما كان متيقناً من امتلاكه لما يكفي من الدهاء، فقد كان ما يزال مؤمناً بأن الدهاء موجود في مكان ما من العالم ومن الممكن تعلمه وإن كان الحال كذلك فسيتعلمه– وحول هذه النقطة، لربما قال الجد: إن عجز الدهاء عن إنقاذه في المرة الثانية على غرار المرة الأولى، لكان اعتمد على الشجاعة على الأقل ليجد الإرادة والقوة اللازمتين لبداية ثالثة تعينه لتحقيق مخططه– لم يكن مجيئه إلى المكتب بهدف طلب الشفقة أو المساعدة لأنه حسب قول الجد لم يتعلم أبداً طلب المساعدة من أحد وكان ليرتبك لو أن الجد عرض عليه ذلك، جاء وفي جعبته حيرة رصينة وهادئة، وأمل ربما (إن ظل مكان للأمل وإن كان ثمة شيء يطلبه سوى التفكير بصوتٍ عالٍ) بأن الدماغ القانوني قد يدرك ويوضح الخطأ الأولي الذي ما يزال يصرّ على ارتكابه، وعجز عن معرفته بنفسه: ‹وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام التغاضي عن حقيقة فُرضت عليّ دون علمي أثناء مراحل بناء مخططي، والتي عنت إبطال المخطط نهائياً وللأبد؛ أو التمسك بخطتي الأساسية المتعلقة بالمخطط بالإصرار ذاته الذي حثني على هذا الإنكار. اخترت، وحاولت بأقصى طاقتي التكفير عن الأذية التي قد تنجم عن خياري، ودفعت أثماناً باهظة لقاء حصولي على حرية الاختيار أثمان أعلى بكثير مما هو متوقع، أو حتى ِمما هو مطلوب (وفق القانون). ومع ذلك أنا مطالب الآن

باختيار ثانٍ، مدفوعاً بعامل غريب لا علاقة له بضرورة إجراء اختيار جديد، كما أشرت وكما تبين لي في بادئ الأمر، ولكن لأن أي خيار أتخذه، أي مسار قد أختاره، يفضي إلى النتيجة نفسها: إما أنسف مخططي بيدي، وهذا ما سيحدث إن أُرغمت على لعب ورقتي الرابحة الأخيرة، أو أتقاعس عن فعل أي شيء، أترك الأمور تجري في مسارها الطبيعي الذي أعرفه وأراقب اكتمال مخططي بنجاح على نحو طبيعي وعادي إلى أن يبدو واضحاً أمام أعين الجميع، وأمام عيني أيضاً ليبان وكأنه خيانة واستهزاء بالصبي الصغير الذي وقف أمام ذلك الباب قبل خمسين عاماً وأوصد الباب في وجهه، الصبي الذي رسمت الخطة بأكملها انتصاراً له ونُفذت مراحلها إلى أن جاءت لحظة الاختيار هذه، هذا الخيار الثاني المترتب على الخيار الأول الذي فُرض عليّ فرضاً نتيجة اتفاق، اتفاق أبرمته بنيّة طيبة، دون إخفاء أي شيء، بينما أخفى الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى عني العامل الوحيد الذي قد يدمر خطتي ومخططي عن بكرة أبيه، أخفوه عني بمنتهى النجاح حتى إنني لم أكتشفه قبل ولادة الطفل»»

قال شريف: «رجلك العجوز. عندما كان جدك يخبره عن هذا، كان جاهلاً تماماً عمّا يتحدث عنه مثلما كان جاهلاً بما يتحدث عنه الشيطان عندما سرد عليه الحكاية، أليس كذلك؟ وعندما أخبرك العجوز بالقصة، ما كنت لتعرف عمّا يتحدث عنه الجميع لولا ذهابك إلى هناك ولقاؤك مع كليتي، أليس هذا صحيحاً؟»

قال كونتن: «نعم، جدي كان صديقه الوحيد».

«الصديق الوحيد للشيطان؟» لم يجب كونتن، لم يتحرك. برد الجو خارج الغرفة. نفدت الحرارة من التدفئة المركزية تقريباً: الحديد البارد يصدر إشارات وتحذيرات صارمة بالذهاب إلى النوم، إلى الموت الصغير، الولادة الجديدة. مر وقت طويل على دقات الساعة الإحدى عشرة. قال شريف: «حسناً». تدثر بثوب الحمام بعد أن تكوّم على بشرته الزهرية العارية الجرداء تقريباً. «اختار. اختار الفسق. مثلي. لكن أكمل». لم تكن ملاحظته تنمّ عن صفاقة أو تحقير. نشأت (إن كان لها منشأ) عن الوجدان الراسخ غير العاطفي للشباب الذي يتخذ هيئة الخفة القاسية الطائشة– التي لم يعرها كونتن بالمناسبة أي اهتمام، وأكمل كما لو أن ما من أحد قاطعه، وجهه ما يزال منخفضاً، يفكر على ما يبدو بالرسالة المفتوحة على الكتاب المفتوح بين يديه.

«غادر تلك الليلة قاصداً فرجينيا. قال الجد إنه راقبه من النافذة يقطع الساحة على صهوة حصانه الهزيل الأسود، منتصباً، ثيابه الرمادية باهتة، قبعته ذات الريشة المكسورة مائلة بعض الشيء لم يقد حصانه بسرعة كبيرة مثل سابق عهده، كما لو (حسبما قال الجد) أنه تخلّى وعلى الرغم من وجود الرتبة

العسكرية والامتيازات عن مباهاته، لم يكن هذا بسبب الويلات التي حلّت عليه ولا الإنهاك الذي نال منه ولا حتى شقاء الحرب وبدا وكأنه ما يزال غارقاً في الحالة التي ناضل فيها للبقاء سليماً وحراً مترفعاً عن دوامة البشر الذين يتصرفون خارج المنطق ولا يمكن التنبؤ بسلوكهم، كما لو أنه لا يستخدم رأسه للتنفس ولم تكن جهوده وكفاحه طوال خمسين سنة لتأسيس ذرية، وضعفت شيفرته للمنطق والأخلاق، ومال ميزان معادلته للحقائق والخسارات والحسابات، رفض السباحة أو الطفو على السطح؛– رآه يقترب من نزل هولستون ورأى العجوز السيد ماك كاسلين [46] ورجلين عجوزين آخرين يعرجون فأوقفه، جلس على الحصان وحادثهم بصوت منخفض، كما قال الجد، لكن مع ذلك كانت إيماءاته الرصينة المدروسة وكتفاه المشدودتان توحي بأنه كان يلقي خطاباً. ثم تابع طريقه. وصل إلى مزرعة ستبن قبيل حلول الظلام، ومن المرجح أنه اعتلى جواده متجهاً نحو المحيط الأطلسي بعد العشاء، وجد نفسه وجهاً لوجه مع جوديث مجدداً لمدة دقيقة كاملة، لم يحتج لقول ‹سأوقف الزواج إن استطعت›، ولم تحتج لقول ‹أوقفه إذاً إن استطعت› واكتفيا بتبادل العبارات الوداعية، القبلة على الجبين بلا دموع؛ تحدث إلى كليتي ووش: حديث السيد للعبيد، البارون للخدم: ‹حسناً يا كليتي، اعتني بالآنسة جوديث. – ووش، سأرسل لك قطعة من ذيل معطف أبراهام لينكولن من واشنطن› وأظن أن ووش أجابه بأنها توجد تحت زجاجة نبيذ العنب ودلو البئر: «وداعاً، اقتل كل الأوغاد!» تناول كعكة الذرة وشرب القهوة المصنوعة من البلوط الجاف [47] وانطلق. ثم جاء العام 1865 وتقهقر الجيش (التحق الجد مجدداً بالجيش أيضاً؛ صار عميداً الآن وأحسب أنه نال هذه الرتبة لأسباب عديدة إلى جانب فقدانه لذراعه) نحو جورجيا وصار في كارولينا وأدرك الجميع أن الحرب في أيامها الأخيرة. ثم أرسل الجنرال روبرت لي في أحد الأيام تعزيزات إلى الجنرال جوزيف جونستون من فيلقه الخاص واكتشف الجد أن سرية ميسيسيبي الثالثة والعشرين كانت ضمن أحد الفيالق. ولم يعرف الجد بما جرى: إن كان ستبن قد اكتشف بطريقة ما أن هنري أرغم ضميره على موافقته كما فعل والده (والد هنري) قبل ثلاثين عاماً، إن بعثت جوديث رسالة ربما إلى والدها تخبره بأنها تلقت رسالة من بون أخيراً وعرفا بما ينويان فعله، أو إن كان أربعتهم وصلوا كشخص واحد إلى النقطة التي يتعين فيها فعل شيء ما، يجب فعل شيء ما، لم يعرف الجد ما حدث. عرف في صباح أحد الأيام أن ستبن ذهب إلى مقر فيلق الجد القديم وطلب إذناً للحديث مع هنري وبالفعل تحدث إليه ثم عاد مجدداً قبل حلول منتصف الليل».

قال شريف: «اختار إذاً، في نهاية المطاف. لعب ورقته الرابحة أخيراً. وعاد إلى الديار وعرف—»

قال كونتن: «مهلاً».

«— بما أراد معرفته أو ما سيعرفه على أي حال—»

قال كونتن: «قلت لك مهلاً!» لكنه ظل ساكناً ولم يرفع صوته– ذلك الصوت المضبوط الهادئ: «ها أنا أخبرك بما جرى» فكر بينه وبين نفسه هل يتوجب عليّ أن أسمع القصة كلها مجدداً سأسمعها مجدداً كلها أنا بالفعل أسمعها كلها مجدداً أنا أصغي إليها مجدداً لن أسمع شيئاً آخر سوى هذه القصة مرة بعد مرة للأبد يبدو أن الإنسان لا يعيش أكثر من والده ولا أكثر من أصدقائه وأقرانه أيضاً: – (إنه على الأقل فيما يتعلق بما لم يحتج لقول أي كلمة عنه ولا النطق بأي تحذير إزاءه حتى لو بعثت له جوديث رسالة، أرسلت له إقراراً بهزيمتها، التي وفقاً للسيد كمبسن لم ترسل له أي إقرار بأنه هزمها وانتظرت (قالت السيدة كولدفيلد إنها لم تكن مفجوعة) وقابلته أثناء عودته، لم تكن غاضبة أو يائسة كما توقع على الرغم من قلة معرفته، شح ما تعلمه، عن النساء حسب وصف السيد كولدفيلد، لكنها حتماً قابلته بوجه مختلف عن الوجه الهادئ الصقيعي المعتاد، حسب السيدة كولدفيلد، قابلته– القبلة مجدداً بعد فراق لسنتين تقريباً، على الجبين؛ الأصوات، الكلمات والجمل ذاتها، الهادئة، المبطّنة، الحيادية تقريباً: «و– ؟» «نعم. هنري قتله» متبوعة ببضع دموع تجمدت لحظة انهمارها، كما لو أن ماء الدمع مكون من طبقة رقيقة أو طبقة واحدة من ورق السجائر وعلى هيئة وجه بشري؛ «مرحباً يا كليتي. مرحباً يا روز.– حسناً يا ووش. لم يتسنَّ لي المضي إلى ما وراء خطوط اليانكيين لأقص جزءاً من ذيل ذلك المعطف كما وعدتك:؛ القهقهة، الضحك (جونز ضحك)، التيبس الأخرق للطين الصارخ الذي حسب قول السيد كمبسن، يستمر لوقت أطول من حياة كلا المنتصرين والمهزومين: «حسناً، يا كرنل، قتلونا لكنهم لم يهزمونا بعد، أليس كذلك؟» وكان هذا كل ما قيل. عاد. عاد إلى الديار مجدداً حيث تكمن مشكلته الآن بالعجلة، ومرور الوقت، والحاجة إلى الإسراع. لم يعد مهتماً كما قال السيد كمبسن بالشجاعة والإرادة، ولا حتى بالدهاء. لم يكترث للحظة واحدة بقدرته على بدء خطته مجدداً للمرة الثالثة. كل همّه كان قلة الوقت أمامه لبدء الخطة، استعادة أرضه الضائعة. لم يهدر لحظة واحدة أيضاً. لم يفقد الإرادة ولا الدهاء، على الرغم من أنه لم يعتبر أن إرادته أو دهاءه اللذين أعاناه على الانتظار وفرا له الفرصة، ولربما القليل من الدهاء والكثير من الشجاعة شجاعة أكثر بكثير من الإرادة هي ما أتاحت له خطوبة الآنسة روزا خلال ثلاثة أشهر وحتى قبل إدراكها للحقيقة– الآنسة روزا، النصير الأول والمدافع الرئيس عن تلك العصبة من الشياطين اللحوحة التي كان هو موضوعها الأساس (وليس الضحية) خُطبت له قبل أن تعتاد على وجوده في المنزل؛– نعم، شجاعة أكثر من الإرادة، والقليل من الدهاء أيضاً: الدِهاء الذي اكتسبه من الجراح والويلاتِ

التي واجهها على مدار خمسين عاماً عاد فجأة ونما وأزهر كما لو كان بذوراً راقدة في الفراغ أو في تربة حديدية. بدا عاقد العزم وما من شيء سيوقفه، في ممر المنزل الذي كان استمرارية لا تتجزأ لرحلة طويلة قادته من فرجينيا، لم يتوقف ليحيي عائلته وإنما ليأخذ جونز وجرجرته في الحقول التي تغص بالأشواك والأسوار المهدّمة ووضع فأساً أو معولاً بين يديه، النقطة الوحيدة الضعيفة، نقطة الضعف الوحيدة في عزلة عنوسة الآنسة روزا، ليشنّ هجومه ويوجه ضربة واحدة، مستخدماً مهارة تكتيكية وحشية تعلمها من سيده القديم (سرية ميسيسيبي الثالثة والعشرين كانت ضمن قوات جاكسون في فترة ما). لكن الدهاء خذله من جديد. تداعى دهاؤه، اندثر وتبخر في ذلك المنطق وتلك الأخلاقيات القديمة العنينة التي خذلته من قبل: وأي يوم كان ذلك اليوم، وأي قاع هوى فيه صريعاً، رغم حذره وتحسس الطريق بإحدى قدميه، رغم ذراعي المحراث قاسي القلب الذي يطبق عليه بيديه القاطعتين متحجرتي القلب، والسور الخشبي الذي رفعه عالياً في الهواء وكأنه بخفة ريشة لا تشعر بوزنها عضلاته، أي يوم كان ذلك عندما أدرك وجود مشكلة أكبر تعيقه أكثر من نفاد الوقت، وأن المشكلة بوطأة فكرة هذا النفاد: أنه تجاوز الستين وأنه قد ينجب صبياً واحداً على الأكثر، صبي واحد في أفضل حالات أعضائه التناسلية، كان مثل مدفع عتيق أدرك أنه لم يعد في مخزنه سوى طلقة واحدة. عرض عليها ما عرضه إذن، وجاءت ردة فعلها تماماً كما توقع وكما كان ليعرف لو أنه لم يُغرق نفسه مجدداً بمبادئه المتكاملة الأركان لكنها أركان عاطلة عن العمل، ترفض وتأبى التحرك. لأن عرض الزواج، الغضب وعدم التصديق؛ المد، انفجار السخط والغضب الذي بسببه اختفت الآنسة روزا من مزرعة ستبن، طفت تنورتها المنتفخة التي تتلاعب بها الريح فوق الطوفان، رفرفت قلنسوتها (ربما قلنسوة إلين التي وجدتها في العليّة) بسرعة فوق رأسها مثقلة بالحنق والغيظ. وقف وعقال حصانه على يده، ولربما لاح شيء يشبه الابتسامة بين ثنايا لحيته وحول عينيه ولكنها لم تكن ابتسامة وإنما تغضّن ثقيل يفضح أفكاره الغاضبة: – الاستعجال، الحاجة الماسة للاستعجال؛ ضرورة الاستعجال وليس بدافع الخوف، ولا القلق؛ لمجرد أنه أدرك قرب فوات الأوان، على الرغم من أن خطوته كانت طلقاً ناريا خفيفاً، وبندقيته قديمة، والعربة والمخزن هما الأسوأ على الإطلاق؛ ولكن في المرة القادمة قد لا يتبقّى ما يكفي من البارود للطلق الناري وتلقيم البندقية بشكلٍ كامل؛– حقيقة أن خيط الدهاء والشجاعة والعزيمة التف حول البكرة نفسها التي التف حولها ما تبقّى له من أيام وكانت البكرة قريبة منه إلى درجة أن بوسعه مدّ يده ولمسها. إلا أن هذا ما كان ليؤرقه بعد، لأن (المنطق القديم، المبادئ الأخلاقية المعهودة، التي لم تفشل يوماً في خذلانه) سار على المنوال نفسه، مؤكداً له أنه كان على حق بما لا يدعو أي مجالٍ للشك، كما ظن دائماً، وما حدث كان مجرد وهم ولم يحدث في الواقع)

قال شريف: «كلا. مهلاً. دعني ألهو قليلاً الآن وأسترسل. الآن، ووش. وقف (الشيطان) قرب الحصان، الجواد المسروج، السيف في غمده، الحصان الرمادي ينتظر أن يمتطيه بسلام وينطلق متجاوزاً القمل والعث وكل ما خسره باستثناء ذله: ثم جاء صوت حفّار القبور الوفيّ الذي بدأ اللعبة وهو من سينهيها، انبثق من بين الأجنحة مثل شكسبير تماماً: ‹حسناً يا كرنل، قتلونا لاكنهم لم يهزمونا بعد، أليس كذلك؟›–» لم يكن هذا تحاذقاً أيضاً. كانت مجرد مراوغة وقائية ضد التهور المتواري خلف العار الذي يسربل الشباب إن غلبتهم مشاعرهم، المراوغة التي كانت وراء حديث كونتن، سبب ارتباك كونتن الجامد، التقلب (على الجانبين)، مثل مهرج متصنع: كلاهما، سواء بعلمهما أو من دون علمهما، في الغرفة الباردة (صار الجو بارداً الآن) التي شهدت التوصل إلى أفضل الخلاصات والتي كانت في جلّها تنحو باتجاه مبادئ ستبن الأخلاقية وشيطنة الآنسة كولدفيلد– لم تشهد هذه الغرفة هذا فحسب وإنما كانت المكان الأنسب للتوصل إلى هذه الاستنتاجات لأنها المكان الوحيد الذي تنزع فيه مخالب المنطق والمبادئ؛– حمى كل منهما ظهر الآخر كما لو أنهما في الخندق الأخير، وقالا لا لظل كونتن الميسيسيبي وأفعاله وردود أفعاله التي تنطوي على أقل قدرٍ من المنطق والمبادئ، من هرب بموته من كل هذا، وبقي غير مكترث بل وحصيناً، أكثر مناعة وحيوية بألف مرة. لم يقصد شريف أي إساءة ولم يشعر أحد بالإساءة، لأن كونتن لم يتوقف. لم يتلعثم حتى، أغرق شريف بسيلٍ من الكلمات دون فواصل أو نقاط أو فقرات:

«–ليس في حوزته الذخيرة الكافية ليخاطر بطلق ناري واحد ولهذا تمثلت أولى خطواته لتنفيذ هذا المخطط في إخراج الأرنب من الشجيرات الكثيفة، عبر قذف الشجيرات بقطع صغيرة من الطين الجاف. قد تكون هذه أولى قطع الخرز التي غادرت متجره ومتجر ووش الصغير حيث كان يثور على زبائنه، وعلى الزنوج وعلى الرعاع والمساومين، ثم يطردهم ويغلق الباب ويعاقر الخمر إلى أن يفقد وعيه. ربما ووش هو من جلب الخرز بنفسه إلى المتجر، كما قال أبي، وقف عند البوابة في يوم عودته من الحرب، بعد فراره مع الفوج وظل يخبر الرفاق أنه (ووش) كان يبحث عن مكان كرنل والزنوج إلى أن صدق هذه الكذبة مع مرور الوقت. والدة أبي شرحت كيف أن زنوج ستبن قطعوا الطريق عليه فور معرفتهم بمكانه وأنه يعيش في المكان الذي كان سابقاً مخيم صيد السمك بعد أن سمح له ستبن ولحفيدته بالعيش هناك (كانت في الثامنة حينها). كان عددهم أكبر من أن يهزمهم، أو أن يحاول ذلك على الأقل، والمخاطرة بفعل ذلك: سألوه عن سبب تخلّفه عن الحرب وأجاب ‹ابتعدوا عن طريقي أيها الزنوج!› انفجروا ضاحكين، تساءلوا فيما بينهم (لكن ما من أحد هناك غيره): ‹من يكون لينعتنا بالزنوج؟› وهاجمهم شاهراً هراوته وفرّوا من أمامه، دون أن يغضبوا، اكتفوا بالضحك وإطلاق القهقهات. كان ما

يزال يحمل صيده (أو غنائم سرقاته) من السمك والحيوانات والخضار وأحضرها إلى المنزل الذي تعيش فيه السيدة ستبن وجوديث (وكليتي أيضاً)، منعته كليتي من الدخول إلى المطبخ ومعه السلّة، وقالت ‹قف عندك، أيها الرجل الأسود. قف تماماً حيث أنت. لم تعبر أبداً هذا الباب عندما كان الكولونيل خارج المنزل ولن تعبره الآن›. كان هذا صحيحاً، لكن حسبما قال أبي، فقد شاب هذا شيء من الكبرياء: لم يحاول قط دخول المنزل، على الرغم من يقينه من أنه لو أقدم على الدخول، لما سمح لهم ستبن بازدرائه؛ وقال (كما قال أبي) لنفسه ربما لم أرض محاولة الدخول إلى الدار ليس لرفضي أن أمنح أي زنجي أسود فرصة طردي وإنما لأنني لن أرغم السيد توم على لعن زنجي أو السماح لزوجته بلعن زنجي على حسابي كانا يحتسيان الخمر سوية تحت عريشة العنب عصر أيام الآحاد، وكان يرى خلال أيام الأسبوع ستبن (من خيرة الرجال كما أسماه) على الحصان الأسود، يتجول في المزرعة، وقال أبي إن قلب ووش كان حينها يمتلئ فخراً وسكينة ويفكر على الأرجح أن الزنوج في هذا العالم، الذي ذكر الإنجيل أن الله خلقهم ولعنهم ليكونوا فظين وأتباعاً لكل البشر من ذوي البشرة البيضاء، أصحاب الملابس الأجمل والمنازل الأفخم والأفضل من ملابسه وملابس حفيدته– إن هذا العالم الذي جاء إليه ويضجّ دائماً بصدى قهقهات الزنوج وضحكاتهم الساخرة، لا يعدو حلماً ووهماً وأن العالم الحقيقي هو حيث إلهه الوحيد (كما قال الجد) يمتطي حصانه الأسود، ويفكر ربما، كما قال أبي، أن الكتاب قال إن جميع البشر خلقوا على هيئة الرب وأن جميع البشر سواسية في عين الرب، لهم جميعهم الهيئة ذاتها في عين الرب نفسه على الأقل، وكان ينظر إلى ستبن ويفكر رجل فخور جميل. لو هبط الرب بنفسه وتجول في الأرض، لكان على هذه الهيئة. ربما جلب بنفسه أولى الخرزات، وقال أبي لربما جلب كل الشرائط على مدار ثلاث سنوات بينما تنضج الفتاة وتتفتح كما تفعل البنات في هذا العمر؛ أو كان على الأقل ليعرف كل شريط بمجرد رؤيته عليها حتى لو كذبت عليه، وهذا ما لم تفعله على الأغلب، فهي بالتأكيد تعرف بأنه رأى جميع الشرائط على الرفوف كل يوم لمدة ثلاث سنوات ويعرفها كما يعرف حذاءه. لم يعرف الشرائط فحسب، بل عرف جميع الرجال الآخرين، الزبائن والخمولين، البيض والسود ممن يجلسون ويقرفصون لساعات أمام المتجر لمراقبتها أثناء مرورها، لم تكن خائفة؛ ولا مذعورة ولم تتباهَ بالشرائط والخرز، كان يعرفهم جميعاً ولكن معرفة سطحية: وقحين ومتجهمين وخائفين. لكن الأب حكى أن قلب ووش كان ربما ما يزال مطمئناً حتى بعد أن رأى الفستان ودار حديث بينهما عنه، ربما شحب لونه قليلاً أثناء مراقبة وجهها المذعور الخائف المتكتم وهي تخبره (قبل أن يسألها، وبطريقة ملفتة للنظر، تطوعت بسرعة لتقديم الإجابة) أن الآنسة جوديث أعطتها الفستان، وساعدتها في صنعه: وقال أبي إنه لربما أدرك فجأة ودون أي مقدمات ذلك

عندما مرّ بالرجال أمام المتجر ولاحظ أنهم يراقبونه أيضاً وأنهم يعرفون بما ظن أنه يدور في رأسهم. لكن الأب قال إن قلبه كان ما يزال مطمئناً، حتى بعد هذا، وأنه قدم إجابة، إن كان قد قدم إجابة أصلاً، وضع حدّاً للاحتجاجات والأقاويل: ‹حسناً، الآن. إن أراد كرنل والآنسة جوديث إعطاء الفستان لك، آمل أنك فكرت بشكرهم›– لم يجزع، كما قال أبي: فكر فحسب، شحب لونه فقط؛ وحكى أبي أنه في عصر ذلك اليوم جاء جدي لرؤية ستبن والتحدث إليه عن أمر ما ولم يكن هناك أحد في الجهة الأمامية من المتجر وكان يهمّ بالخروج والتوجه نحو المنزل عندما سمع أصواتاً قادمة من الجهة الخلفية للمتجر ومشى باتجاه الصوت وسمعهما قبل أن يحاول تجنب سماعهما وقبل أن يجنبهما سماع صوته ينادي اسم ستبن. لم يكن الجد قد رآهما بعد، لم يكن قد وصل إلى حيث يستطيعان سماعه، ولكنه قال بأنه عرف بالضبط ماذا يجري: طلب ستبن من ووش إحضار الكوز وفتح ووش الموضوع بينما كان ستبن يستدير نحوه، مدركاً أن ووش لن يحضر الكوز قبل أن يتأكد من أن ستبن فهم مغزى كلامه، أدرك كل ذلك وظل مع ذلك ملتفتاً نصف التفاتة نحو ووش ثم فجأة أدار رأسه ونظر نحو ووش فيما الأخير ظل واقفاً، لم يهَبه، كان معانداً وهادئاً وغير خائف، وقال ستبن ‹ماذا عن الفستان؟› وقال الجد إن صوت ستبن كان حاداً وخفيضاً على عكس صوت ووش؛ وإن صوت ووش كان عادياً وهادئاً، غير ذليل: صابر وبطيء. ‹أعرفك منذ عشرين سنة. لم أرفض يوماً فعل ما تطلبه مني. وأنا رجل يزيد عمره عن الستين. وما هي إلا فتاة في الخامسة عشرة›. وقال ستبن ‹هل تقصد بأنني سألحق الأذى بالفتاة؟ أنا، الرجل الذي بعمرك تقريباً؟› وقال ووش: ‹لو كان الحديث عن رجل غيرك، لكنت قلت أنك بعمري. عجوز أو غير عجوز، لما كنت لأسمح بأن تأخذ الفستان أو أي شيء آخر من يديك. لكنك مختلف›. وقال ستبن ‹كيف ذلك؟› وقال الجد إن ووش لم يجب وإنه نادى على اسم ستبن مجدداً لكنهما لم يسمعانه؛ ثم قال ستبن: ‹ألهذا أنت خائف مني إذاً؟› وقال ووش ‹لست خائفاً. لأنك شجاع. لم تكن شجاعاً للحظة واحدة أو دقيقة أو ساعة من حياتك فقط لتحصل على ورقة من الجنرال لي. لكنك شجاع، هذه حقيقة بقدر حقيقة أنك على قيد الحياة وتتنفس. بهذا أنت مختلف. لا أحتاج إلى أي ورقة من أحد لأعرف ذلك. وأعرف أن كل ما تلمسه يداك، سواء كان فوجاً من الرجال أو فتاة بريئة أو مجرد كلب صيد، فإنك ستضع الأمور في نصابها›. ثم سمع الجد صوت حركة ستبن، حركة مباغتة وقوية، وقال الجد إنه خمّن، وفكر بما يدور في رأس ووش. لكن ستبن اكتفى بقول ‹أحضر الكوز›– ‹حسناً يا كرنل› ردّ ووش.

«حلّ يوم الأحد إذاً، بعد سنة من ذلك اليوم وثلاث سنوات من اليوم الذي عرض فيه على الآنسة روزا بأن يحاولا أولاً الإنجاب فإن كان صبياً وكُتبت له

الحياة، يتزوجان. مع بزوغ أول خيوط الفجر، قبل يوم من ولادة المهرة للحصان الأسود المنتظر، ظنت جوديث عندما غادر المنزل أنه ذاهب إلى الإسطبل، لا أحد يعرف بالضبط مقدار الأمور التي عرفتها عما يدور بين والدها وحفيدة ووش، مقدار ما لم تستطع تحاشي معرفته لكنها عرفت به مرغمة من حديثها مع كليتي (من المحتمل أنها أخبرتها، أو ربما لم تفعل) لأن كل من في المنطقة سواءً من السود أو البيض عرفوا بما يجري بمجرد رؤية الفتاة والشرائط والخرز التي يألفونها جميعاً، لا أحد يعرف مقدار ما تحاشت اكتشافه خلال تصميم الفستان وحياكته (يقول أبي إن جوديث هي من صممت الفستان وحاكته؛ الفتاة لم تكذب على ووش حول هذه النقطة: ظلت الفتاتان بمفردهما في المنزل طوال أسبوع كامل من الصباح حتى المساء: عمَّ تحدثتا، ما الذي قالته جوديث بينما الفتاة تقف مرتدية ما تملكه مما يمكن تسميته الملابس الداخلية، وجهها جامد متجهم وخائف، تجيب وتبوح بما لم تحاول جوديث دفن رأسها في الرمل كي لا تعرفه، كل هذا ظلّ في علم الغيب). لم تذهب إلى الإسطبل أو ترسل كليتي لتفقد أبيها إلا بعد أن فوّت والدها موعد العشاء واكتشفت أن المهرة قد ولدت خلال الليل غير أن والدها لم يكن هناك. ولم تنجح إلا مع حلول العصر في العثور على فتى يافع كي ترسله إلى مخيم الصيد ليسأل ووش عن مكان ستبن، ودار الفتى حول الكوخ المهلهل وربما رأى المنجل أولاً، ربما الجثة أولاً ملقاة في الغابة قبل أن يقطعها ووش، ومع صرخته نظر للأعلى ورأى ووش أمام النافذة يراقبه. ألقوا القبض عليه بعد مرور أسبوع تقريباً، قالت القابلة إنها لم تعرف بوجود ووش نهائياً فجر ذلك اليوم وسمعت الحصان ثم صوت أقدام ستبن ثم دخل ووقف فوق فراش القش حيث كانت الفتاة والمولود وقال: بينلوب– («كان هذا اسم المهرة»)– أنجبت هذا الصباح. مهر جميل لعين. سيكون تماماً مثل أبيه عندما امتطيته وقصدت الشمال عام 1861. هل تذكرين؟› وقالت الزنجية العجوز إنها أجابت ‹نعم يا سيدي› وإنه هز سوط الجياد ووجهه نحو الفراش وقال ‹حسناً؟ اللعنة على ما تخفينه: هل هو مهر أم مهرة؟› وإنها أخبرته فوقف لدقيقة جامداً ولم يأت بأدنى حركة، فيما تدلى السوط إلى جوار ساقه وسقطت عليه خيوط أشعة الشمس المتسللة من الجدار المتصدّع، لتتخلل شعره ولحيته اللذين لم يغزوهما الشيب بشكل كامل بعد، وقالت إنها رأت عينيه ثم أسنانه وسط شعر لحيته وإنها رغبت بالهرب حينها لكنها لم تستطع، عجزت عن حثّ ساقيها على حملها والهرب: ثم نظر إلى الفتاة النائمة على الفراش وقال ‹حسناً يا ميلي؛ من المؤسف أنك لست مهرة أيضاً. لكنت وهبتك فراشاً أنيقاً من القش في الإسطبل› أدار ظهره وخرج. لم تستطع الإتيان بأي حركة، ولم تعرف بأن ووش كان في الخارج؛ سمعت ستبن يقول ‹ابتعد يا ووش. لا تلمسني›: ثم قال ووش بصوت واهن بالكاد استطاعت سماعه: ‹سألمسك يا كرنل›: وستبن مجدداً: ‹ابتعد يا ووش!› صار صوته حاداً،

ثم سمعت صوت السوط يهوي على وجه ووش إلا أنها لم تعرف إن كانت قد سمعت صوت المنجل لأنها اكتشفت أن بوسعها الحركة الآن، نهضت، خرجت من الكوخ راكضة نحو الغابة، ولاذت بالفرار—»

قال شريف: «مهلاً. مهلاً. أتقصد أنه رُزق أخيراً بالصبي الذي ينشده، إلا أنه على الرغم من ذلك —»

«– مشى ثلاثة أميال ذهاباً ثم مثلها إياباً قبل حلول منتصف الليل للقبض على الزنجي العجوز، ثم جلس على الشرفة المتهالكة إلى أن طلع النهار وتوقفت الحفيدة عن الصراخ داخل الكوخ ثم سمع صوت الطفل، انتظر مجيء ستبن. وقال الأب إن قلبه كان مطمئناً حينها أيضاً، على الرغم من معرفته بما سيقال في كل كوخ حول الأرض مع هبوط الليل، تماماً كما عرف بما يقال خلال الأشهر الأربع أو الخمس الأخيرة فيما من المحال لعين أن تُخطئ وضع حفيدته (الذي لم يحاول قط تخبئته): قاد ووش جونز ستبن العجوز إلى مصيره أخيراً. استغرق الأمر عشرين عاماً، لكنه نال من ستبن العجوز أخيراً ولا يمكن لستبن أن يسكب دمعاً أو ينتحب هذا ما قال أبي إنه فكر به أثناء فترة انتظاره على الشرفة حيث أرسله الزنجي العجوز، أمره بالخروج، وقف أمام الوتد الذي عُلّق عليه المنجل الصدئ لمدة عامين، بينما يصله صوت صراخ الحفيدة منتظماً كالساعة لكن قلبه كان مطمئناً، لم يطله القلق أو الذعر؛ وقال أبي إنه بينما وقف محتاراً يلوّح يديه بالهواء كيفما اتفق (كانت مبادؤه الأخلاقية شبيهة إلى حدٍّ بعيد بمبادئ ستبن، ولطالما شجعه وردّد أمامه أنه على حق في كل الأمور والأفكار والتصرفات وسواها) اختلطت حركة يديه كما جرت العادة بحركة الحوافر الراكضة حتى في أيام السلم الخوالي التي لا يتذكرها أحد، والتي كانت على مدار سنوات الحرب الأربع التي لم يشهد فيها جري الأحصنة كانت الأكثر شجاعة وفخاراً والأعمق وقعاً؛– قال الأب إنه لربما حصل على الإجابة التي ينشدها؛ وإنه لربما تحرّر وصار نقياً وسط الجري تحت سماء الفجر الصفراء صورة جميلة تنضح بالفخر للرجل على الصورة الجميلة التي تضجّ بالاعتزاز للحصان وأن حركة اليد العمياء صارت حرّة وواضحة أيضاً، لم يسع وراء تقديم مبررات أو شروح أو أعذار كما قال الأب، ولكنه كان مثل إله وحيد، واضح، فوق كل أوساخ وأدران البشر: هو أكبر من جميع البانكيين الذين قتلونا، الذين قتلوا زوجته ورمّلوا ابنته ونفوا ابنه، سرقوا زنوجه ودمروا أرضه؛ أكبر من المقاطعة كلها المقاطعة التي أحب ودفع أثماناً باهظة للاحتفاظ بمتجر صغير يؤمن له خبزه اليومي وطعامه؛ أكبر من الازدراء والإنكار اللذين تجرّعتهما شفتاه مثل الكأس المقدسة في الكتاب المقدس. وكيف لي أن أعيش معه عشرين عاماً دون أن أتأثر به ويغيرني؟ قد لا أكون بحجمه وربما لم أقد حصاناً بمهارته يوماً. لكنني ذهبت على الأقل إلى حيث ذهب. ولا زلنا أنا وهو على وئام وسنظل هكذا للأبد، وسيظل يخبرني ما

يرغب به وسأفعل ذلك من أجله؛ ظل واقفاً ممسكاً بحبل الحصان بعد دخول ستبن إلى الكوخ، كان ما يزال يسمع صوت جري الخيول، يراقب الصورة المليئة بالفخار تأتي وتعبر، تعدو الخيول عبر الصور المتراكمة على مدار السنين، عبر الوقت، لتصل إلى الذروة حيث تجري دون تعب أو إحراز أي تقدم، للأبد والأزل تحت السيف الملوّح والرايات التي مزقها الرصاص تمخر عباب السماء بلون كالرعد؛ تقف وتسمع ستبن يتحدث داخل المنزل قائلاً جملته اليتيمة في تحية ووداع الحفيدة، وقال الأب إن ووش لربما لم يشعر للحظات بالأرض التي يقف فوقها بينما انتظر خروج ستبن من المنزل، حاملاً السوط، يفكر بسرعة كما لو أنه في حلم: يستحيل أنني سمعت ما سمعت. أعرف أنني لا أستطيع سماع هذا فكّر بينه وبين نفسه هذا ما أيقظه. ذلك المهر. لم أكن أنا أو مهري. لم يكن مهره الذي أنهضه من السرير ربما لم يشعر بالأرض، فقد الثبات، ربما لم يسمع صوته عندما رأى ستبن وجهه (وجه الرجل الذي على مدى عشرين عاماً لم يعرف كيف يتصرف دون أوامر الرجل الذي يملك الحصان الذي يمتطيه) وتوقف: ‹قلت إنها لو كانت مهرة لأعطيتها فراشاً أنيقاً في الإسطبل›، ربما لم يسمع ستبن عندما قال بحدة وبشكل قاطع: ‹ابتعد. لا تلمسني› ربما سمع هذه الجملة فحسب لأنه قال: ‹سألمسك، يا كرنل› وقال ستبن ‹ابتعد يا ووش› مجدداً قبل أن تسمع المرأة العجوز صوت السوط. ضربه مرتين بالسوط؛ رأوا كدمات السوط على وجه ووش تلك الليلة. ربما أوقعته الضربتان أرضاً؛ ربما استغرق بعض الوقت قبل أن ينهض ويضع يده على المنجل–»

قال شريف: «مهلاً. حبّاً بالمسيح مهلاً. أتقصد أنه—»

«— جلس طوال النهار أمام النافذة الصغيرة حيث بوسعه مراقبة الطريق؛ ربما ألقى المنجل أرضاً وذهب مباشرة إلى المنزل حيث سألت الحفيدة النائمة على الفراش بريبة عما جرى وقد أجابها، ‹ماذا؟ أي ضوضاء يا حبيبتي؟› وربما حاول إقناعها كي تأكل أيضاً– تتناول اللحم الذي ربما أحضره إلى المنزل من المتجر ليلة السبت أو ربما بعض الحلوى، ربما حاول إغراءها ببعض الحلوى– الحلوى اللزجة العطنة التي أحضرها من الكيس المخطط، وقد يكون قد تناول بعض الطعام أيضاً ومن ثم جلس أمام النافذة حيث يستطيع مراقبة الجثة والمنجل في الغابة، ويراقب الطريق أيضاً. كان أمام النافذة عندما دار الفتى اليافع حول المنزل ورآه. وقال الأب إنه قطعاً أدرك حينها ما سيحدث بالتأكيد بعد حلول الظلام؛ إنه جلس أمام النافذة وشعر بما ينتظره، أحس بهم يجتمعون ومعهم الأحصنة والكلاب والبنادق– الفضوليون والحقودون– رجال من طينة ستبن نفسها، ممن اعتادوا على تناول الطعام على مائدته معه عندما كان (ووش) يقترب من المنزل أكثر من عريشة العنب– رجال رسموا الطريق، كان قدوة للآخرين في طريقة القتال في

المعارك، ومعهم ربما وثائق ممهورة بتوقيع الجنرالات تفيد بأنهم كانوا من الأوائل وفي طليعة الشجعان– ممن قادوا جيادهم أيضاً في الأيام الخوالي بتعجرف وافتخار على صهوات جيادهم الجميلة وجابوا أرجاء المزارع الفخمة– رمز الإعجاب والأمل أيضاً، آلات البأس والفاجعة؛ توقع أن يهرب من هؤلاء وبدا له أن ما يهرب منه لم يكن أقل عدداً مما يهرب إليه؛ وأنه إن هرب فسيهرب من مجموعة واحدة فقط من الظلال الشريرة المتبجحة ليصل إلى مجموعة أخرى، لأنهم (الرجال) كانوا من النوع الذي يعرفه جيداً في كل الأرض التي يعرفها، وكان هرماً، هرماً جداً وأعجز من أن يهرب بعيداً حتى لو ركض فلن يفرّ منهم، مهما ركض وابتعد؛ فإن رجلاً تخطى الستين لن يركض كل تلك المسافة، المسافة الكافية ليهرب خلف حدود الأرض التي يعيش عليها هؤلاء الرجال، رجال سنّوا قوانين العيش: وقال الأب إنه ربما بدأ للمرة الأولى في حياته يستوعب كيف استطاع اليانكيون أو أي جيش آخر هزيمتهم– الشجعان، الفخورون، البواسل؛ العارفون المصطفون من بينهم جميعاً ليتحلّوا بالشجاعة والشرف والفخر. ربما شعر باقترابهم من مكانه مع حلول الغروب؛ قال الأب إنه كان باستطاعته سماعهم: سماع كل الأصوات، همهمات الغد والغد والغد [48] التي تتخطى الغضب الآني: ووش جونز العجوز سقط أخيراً. ظن أن ستبن سيسانده، لكن ستبن خدعه. ظن أنه سيسانده، لكن ووش جونز العجوز خُدع ثم بدأت الأصوات تتعالى، وتصرخ كما قال الأب: ‹لكنني لم أتوقع ذلك قط يا كرنل! تعلم أنني لم أتوقع هذا أبداً!› إلى أن لاحظت الحفيدة ما يجري وسألته بريبة مجدداً إلا أنه هدّأ من روعها وعاد ليتحدث مع نفسه مجدداً ولكن بحذرٍ هذه المرة، بهدوء هذه المرة لأن ستبن كان قريباً ويستطيع سماعه بسهولة، دون صراخ: ‹تعلم أنني لم أتوقع هذا أبداً. تعلم أنني لم أنتظر شيئاً من أي كائن بشري ولم أطلب شيئاً كما انتظرت منك. ولم أطلب ذلك. لم أحسب أن عليّ أن أطلب: قلت لنفسي لا ضرورة لذلك. كيف لشخص مثل ووش جونز أن يشكك أو يرتاب بالرجل الذي وصفه الجنرال لي بنفسه في وثيقة مكتوبة بخط يده بأنه رجل شجاع؟ شجاع› (ربما قال الكلمة بصوتٍ عالٍ مجدداً، نسي نفسه مجدداً) ‹شجاع! كان من الأجدى ألا يعود أي رجل منهم من حرب العام 1865 فكر من الأجدى لو أن الرجال من طينته ومن طينتي لم يعيشوا يوماً على هذه الأرض. من الأجدى لو أن جميع من بقي منا نُسفوا عن وجه الأرض كي لا يرى رجل آخر غير ووش جونز حياته بأسرها تتشظى أمامه وتذوي مثل قشرة رُميت في النار ثم امتطوا أحصنتهم. ربما كان يسمع أصواتهم تقترب من الطريق، أصوات الكلاب والأحصنة أيضاً، ورأى المصابيح بعد أن سادت العتمة. نزل الرائد دي سباين الذي كان مأموراً حينها عن صهوة جواده، ورأى الجثة، على الرغم من أنه قال إنه لم ير ووش ولم يعرف بوجوده قبل أن ينادي ووش الجالس أمام النافذة باسمه بهدوء: ‹أهذا

أنت أيها الرائد؟› طلب منه دي سباين أن يقترب وقال إن صوته كان هادئاً تماماً عندما أجاب بأنه سيأتي خلال دقيقة؛ كان صوته هادئاً جداً، وديعاً للغاية؛ من الوداعة والهدوء لدرجة أن دي سباين قال إنه لم يدرك لوهلة بأنه كان هادئاً ووديعاً جداً: ‹سآتي بعد دقيقة. في أقرب وقت لأنني أعتني بحفيدتي›. قال دي سباين ‹سنعتني بها›. ‹اقترب›، قال ووش ‹حسناً أيها الرائد›. انتظروا أمام البيت المظلم، وفي اليوم التالي كما قال الأب كان هناك مئة ممن تذكروا سكين الجيب التي خبّأها وموسَى حاداً– الشيء الوحيد في حياته العبثية الذي كان فخوراً به ويوليه عناية فائقة– ولكن عندما تذكروا هذا كان الأوان قد فات. لم يعرفوا ما يضمره. سمعوه يتحرك داخل البيت المظلم، ثم سمعوا صوت الحفيدة: ‹لن نحتاج لأي ضوء يا حبيبتي، لن يستغرق ذلك سوى دقيقة› ثم أشهر دي سباين مسدسه وقال ‹أنت يا ووش! اخرج من البيت!› لكن ووش لم يجب، ظل يتمتم متحدثاً إلى حفيدته: ‹أين أنتِ؟› وقالت بعصبية ‹هنا. أين سأكون؟ ما هذا—› ثم قال دي سباين ‹جونز!› كان يتلمّس طريقه على الدرجات المكسورة عندما صرخت الحفيدة؛ وادعى جميع الرجال أنهم سمعوا صوت السكين تجز عظام عنقها من الوريد إلى الوريد، إلا أن دي سباين لم يسمع ذلك. قال إنه أدرك أن ووش خرج إلى الشرفة وأنه دخل عائداً قبل أن يدرك أنه لم يركض باتجاه ووش وإنما نحو الجهة الأخرى من الشرفة، حيث كانت الجثة، لكنه لم يفكر بالمنجل: ركض عائداً بضعة أقدام عندما رأى ووش يظهر مجدداً ويهمّ بالركض نحوه. ركض نحوهم جميعاً، قال دي سباين، إنه ركض نحو المصابيح فتمكنوا من رؤية المنجل مشهوراً فوق رأسه؛ استطاعوا رؤية وجهه، عينيه أيضاً، ركض والمنجل فوق رأسه، باتجاه المصابيح مباشرة وبرميل البارود، دون إصدار أي صوت، بلا صراخ بينما ركض دي سباين فاراً من أمامه، يصيح ‹جونز! توقف! توقف، وإلا قتلتك. جونز! جونز! جونز!»

قال شريف: «مهلاً. أتقصد أنه رُزق بالطفل الذي ينشده، بعد كل تلك المشاق، ومن ثم أدار ظهره و–»

«أجل. جلس في مكتب جدي عصر ذلك اليوم، رأسه للخلف نوعاً ما، يوضح للجد كما لو أنه يوضح لهنري علم الحساب عندما كان في الصف الرابع: ‹كما ترى، لم أطلب أكثر من أن يكون لديّ ابن. لا يبدو هذا الطلب بالنسبة لي، عندما أتمحص بوضعي الحالي، هدية سخيّة من الطبيعة أو الظروف–›»

قال شريف: «هلّا توقفت؟». «— حدث هذا بعد أن رُزق بالصبي الذي تكبّد من أجله كل تلك المشاق ليستلقي خلفه في الكوخ، كان عليه أن يستفز الحفيدة لتقتله أولاً ثم تقتل الطفل أيضاً؟»

قال كونتن: «— ماذا؟». «لم يكن المولود ذكراً. كان أنثى.»

قال شريف: «فهمت. — هيا بنا دعنا نخرج من هذا الصندوق الصقيعي ونأوي إلى الفراش.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–8–

لن يفتح النافذة لأخذ نفس عميق الليلة. ظلت النافذة موصدة فوق ساحة الحرم الجامعي المتجمدة والخالية فيما نوافذ المبنى المقابل معتمة كلها باستثناء نافذتين أو ثلاث نوافذ؛ ستدق الساعة بعد فترة وجيزة لتعلن منتصف الليل، نغماتها عذبة تبعث على السكينة، رقيقة وصافية تماماً مثل الزجاج المغطّى بالثلج. قال شريف: «أرسل العجوز إذاً الزنجي ليستدعي هنري». «ودخل هنري وقال العجوز ‹لا يمكن لهما أن يتزوجا لأنه أخاك› وقال هنري ‹أنت تكذب› قالها بسرعة: دون تردد، في أقل من ثانية، لم يستغرق قولها وقتاً أكثر مما يستغرقه كبس زر النور فيضيء المصباح. جلس العجوز، لم يأتِ بأية حركة ولم يصفعه ولهذا لم يكرر هنري جملته ‹أنت تكذب› لأنه صار مدركاً الآن بأنه يكذب بالفعل؛ اكتفى بقول ‹هذا غير صحيح›، لم يقل ‹لا أصدق هذا› وإنما ‹هذا غير صحيح› لأنه ربما استطاع رؤية وجه العجوز مجدداً وسواء كان شيطاناً أم لا فقد كانت ملامحه تبعث على الأسى والشفقة، شفقة على هنري وليس على نفسه، كان هنري يافعاً حينها وعرف العجوز بأنه يتفوق عليه شجاعة ودهاءً—»

وقف شريف بالقرب من النافذة، مقابل كونتن من جديد دون أن يجلس. أزرار المعطف مزرّرة بترتيب خاطئ وبدا المعطف فوق ثوب الحمام فضفاضاً وفوضوياً وبان شريف مثل دبّ شقي يحدق في كونتن (الجنوبيّ، الذي تجري في عروقه دماء تبرد بسرعة، لتعوض ربما عن التغيرات الحادة في درجة حرارة الجو) الجالس على الكرسي وظهره منحنٍ، يداه في جيبه كما لو أنه يحاول حضن نفسه ليتدفأ بجسده، بدا واهناً وشاحباً تحت ضوء المصباح ونوره الوردي الذي لم يعد يبعث على الدفء والحميمية، وتحولت أنفاسهما إلى بخار يتصاعد ببطء في الغرفة الباردة التي احتضنت أربعة منهم وليس كلاهما فقط، الشابان اللذان يتنفسان لم يكونا فردين وإنما أكثر من توأم وأقل من توأم في الوقت نفسه، قلب الشباب ودماؤه (كان شريف في التاسعة عشرة، يصغر كونتن بضعة أشهر. بدا في التاسعة عشرة بالضبط؛ كان أحد هؤلاء الذين يصعب تخمين عمرهم الحقيقي لأنهم يوحون بعمرهم الحقيقي بالضبط فتقول لنفسك بأنه من غير الوارد أن يكونوا في هذا العمر لأنه/لأنها يبدو/تبدو في هذا العمر تحديداً دون تبديل في مظهره/مظهرها: لا تصدق أبداً ضمنياً بأنه/أنها في ذلك العمر الذي يدّعونه أو يجارونك عندما تتوقعه أو يخمّنه أحدهم) تجري بقوة تكفي جسدين، ألفي جسد، أجساد جميع البشر. لم يكن كلاهما في غرفة الجلوس في جامعة نيو إنغلاند بل كان أحدهما في مكتبة الميسيسيبي قبل ستين عاماً، حيث غصّت المزهريات بنبات الهدال والبهشية، تحيط الفصول والزمن الصور المعلّقة على الجدران،

فيما أغصان العسلوج تزيّن الصورة التي تجمع الأم والطفلين الموضوعة على المكتب الذي كان الأب جالساً خلفه عندما دخل الابن؛ وفكر كلاهما– كونتن وشريف– كيف سيتذكر الابن، بعد أن حكى الأب ما عنده وقبل أن يزول أثر الصدمة التي أحدثها كلامه ليبدأ بتأمل ما قيل، لاحقاً كيف أنه رأى من خلال النافذة الموجودة خلف رأس الأب أخته والعاشق في الحديقة، يطوفان ويتهاديان، أحنت أخته رأسها مصغية له، فيما قرّب العاشق رأسه من رأسها، سارا بهدوء بإيقاع مضبوط على دقات القلب، ثم اختفيا خلف بعض الشجيرات التي عرَّشت عليها أزهار الياسمين والسبيريا والعسلية البيضاء، وآلاف أزهار الشيروكي عديمة الرائحة وغيرها من الزهور التي لم يسمع شريف باسمها ولم يرها من قبل على الرغم من أن الهواء عبره أولاً لينعشهما– شهدت الحديقة هذه الأحداث في الشتاء أيضاً لكن هذا غير مهم وليس من المهم أيضاً وجود الأزهار وأوراق الشجر هناك أيضاً إن كانت الحديقة مقفرة وما من أحد يتجول فيها، ووفق سير الأحداث، فقد كان الوقت ليلاً أيضاً في الحديقة. لا أهمية لذلك لأن كل هذا جرى منذ زمن بعيد. لم يعنيهما (كونتن وشريف) الأمر على أي حال، لم يكترثا للأب الذي استطاع دون أي حركة، إصدار الأوامر بإبطال ورفض الزواج، للابن الذي ينكر ويدحض، للعاشق الذي يذعن، والمعشوقة التي لم تنتحب، دون الحاجة إلى الانتقال الرتيب من المدفأة والحديقة (لنفترض أنهما في الحديقة) إلى السرج، وسماع صوت الدعسات فوق القنوات المتجمدة في تلك الليلة من شهر كانون الأول فجر عيد الميلاد، يوم السلام والبهجة، اليوم المقدس الذي تعمر فيه القلوب بالنوايا الطيبة؛ لم يكن كلاهما فقط هناك ولم يكن أي منهما هناك أيضاً وإنما كانوا أربعة أشخاص يقودون الحصانين ويشقون طريقهم في العتمة الحالكة دون أن يكون هناك أي أهمية لـ: من كانوا وما هي أسماؤهم سواء تلك التي أطلقوها على أنفسهم أو التي يطلقها الآخرون عليهم طالما تلك الدماء تجري في عروقهم– الدماء، الدماء المتجمدة الخالدة التي تفضّل الشرف على اللاندم الكسول والحب على العار المجلجل السهل.

قال شريف: «وبون لم يعرف بالأمر. لم يتحرك العجوز ولم يقل هنري هذه المرة ‹أنت تكذب›، وإنما قال ‹هذا غير صحيح› وقال العجوز ‹اسأله. اسأل تشارلز إذاً› ثم عرف هنري أن هذا ما قصده والده طوال الوقت وأن هذا ما قصده هو نفسه عندما قال لوالده بأنه يكذب، لم يقل العجوز فقط ‹إنه شقيقك› وإنما قال أيضاً ‹كان يعرف طوال الوقت أنه شقيقك وشقيق أختك›. لكن بون لم يكن يعرف. اصغ إليّ، ألا تتذكر كيف قال والدك هذا، كيف أن العجوز، الشيطان– لم يتساءل ولو للحظة كيف تمكنت الزوجة الأخرى من العثور عليه، تعقبته إلى أن عثرت عليه، لم يتساءل لثانية عمّا كانت تفعله كل هذا الوقت، كيف نجحت في تدبر أمورها، على مدار ثلاثين عاماً منذ ذلك

اليوم الذي دفع فيها فاتورته وحصل على الوصل، فكر، ورأى بأم عينيه بأن كل شيء تحطم (كما ظن)، انقلب رأساً على عقب وضاع في مهب الريح؛ لم يتساءل قط عن هذا وكل همّه أنها تدبرت أمورها، تعقبت أثره، هل هذا ما أرادته. لم تكن هي من أخبر بون إذاً. لم تفعل، ربما للسبب نفسه الذي عرفت أنه– الشيطان– سيظن أنها ستفعل. ربما لم تقتنع بفكرة إخباره. من المحتمل أنها لم تفكر بوجود شخص أقرب إليها من طفل وحيد خرج من رحمها لتخبره عمّا قاسته من ظلم وهجران. أو ربما أخبرته قبل أن يكبر بما يكفي لتعلم الكلمات وحين صار بوسعه فهم الكلمات كانت قد أسرّت له بكل شيء ولم يعد هناك أي معنى للحديث عن هذا الأمر بالنسبة إليها إما لأن الكلمات فُرّغت من معانيها ووصلت إلى المرحلة التي اختلطت عليها الأمور وحينما ظنت أنها تقول كل شيء ظلت صامتة، وعندما ظنت أنها صامتة طاف على السطح الكره والبغض والغضب والأرق وكل ما يتعذر نسيانه. أو ربما تقصدت إخفاء الأمر عنه حينها. من الأرجح أنها كانت تُعدّه لتلك الساعة واللحظة التي لم تستطع التنبؤ بها ولكنها عرفت بحتمية حدوثها لأنها ستأتي دون ريب وإلا ستدخل مثل الخالة روزا في حالة إنكار وكأنها لم تولد قط– اللحظة التي سيقف فيها إلى جوار (وليس وجهاً لوجه) والده ليتكفل القدر أو الحظ أو العدالة أو أي شيء قد يخطر على بالها بمسار الأحداث (وهذا ما حصل، حدث بمسار أفضل مما تخيلته أو تمنته أو حلمت به، وقال والدك إنها لم تتفاجأ لأنها امرأة)– هيّأته بنفسها، أمسكت بيده بنفسها، نظفته وأطعمته ووضعته في السرير بنفسها وقدمت له الحلوى والألعاب وكل التسالي الأخرى والإلهاءات وأمّنت له جميع المتطلبات التي يحتاجها الطفل بجرعات مدروسة كما لو أنها دواء: لا لأن هذا واجبٌ عليها، كان بوسعها توظيف العشرات أو شراء مئة خادم لفعل ذلك بالنيابة عنها مقابل المال، ورقة اللعب التي تخلّى عنها (الشيطان) طواعية، رماها بإرادته كي تتوازن حساباته الأخلاقية: ولكن على غرار المليونير الذي لديه مئة سائس ومدرّب ولكنه لا يملك سوى حصان واحد، خادمة واحدة، لحظة واحدة، ثانية واحدة اجتمع فيها القلب والعضلات والإرادة بمقدارٍ متساوٍ: بينما هو (المليونير) ينتظر بصبرٍ غارقاً في عرقه وثياب العمل ووحل الإسطبل، إلى أن تحلّ اللحظة التي قالت له فيها ‹إنه والدك. أنكرك وأنكرني ورفض منحك اسمه. افعل ما يلزم› ثم جلست وقالت لتكن مشيئة الله: مسدس أو سكين أو لوح خشبي؛ دمار أو حزن أو لوعة: تركت لله الاختيار وإدارة دفة السفينة. يا يسوع، أكاد أراه: صبي صغير يبدأ أولى خطوات التعلم، قبل أن يستطيع تذكر متى تعلم اسمه أو اسم البلدة التي عاش فيها أو تعلم نطق الاسمين، كان يُنتشل من اللعب وتثبته يداها المحبتان، أمام الركبتين الخشنتين الوحشيتين، الوجه الذي تذكره قبل وجود ما يُسمى التذكر وأثناء ملاحظته لسعادة الحيوانات وأحشائها وفمها وأعضائها، دفء الغبطة والأمان، تنقض عليه بجمود ناري: تقَبَّلَ انتشاله من

اللعب باستسلام، وكأنه أمر طبيعي وظاهرة طبيعية أخرى للوجود؛ الوجه يطفح بلا غفران غاضب لا يُحتمل مثل الحمى (دون مرارة أو قنوط: مجرد رغبة عارمة بالانتقام) مثل تجسيد آخر لحب الثدييات– ولم يكن لديه أدنى فكرة عمّا يدور حوله، كان أصغر من أن يحمل أي فكرة ناتجة عن الغضب والكراهية وسرعة السقوط؛ لم يفهم أو يكترث: ملأه الفضول وحسب، وكوّن بنفسه (دون مساعدة من أحد فمن هناك لمساعدته) فكرته الخاصة عن بورتوريكو أو هاييتي أو عن مكانهما وفهم بصورة مشوشة أنه جاء من المكان الذي يجيء منه الأطفال العاديون من السماء أو من الملفوف أو من أي مكان آخر، إلا أن الوضع هنا كان مختلفاً من حيث إنه من المفترض (لم تنو الأم ذلك على أي حال) ألا يعود قط إلى هناك (وقد تهلع عندما تصبح بعمرها نفسه وتجد بين أفكارك المكبوتة أي أثر أو رائحة لشيء قد يشبه الرغبة بالعودة إلى هناك)؛ ولم يكن من المفترض بك معرفة توقيت وسبب مغادرتك وتكفي معرفتك بأنك هربت بجلدك، وأن القوة التي جعلت من المكان مكاناً كريهاً بالنسبة لك هي نفسها القوة التي ساعدتك على الفرار منه لتكرهه من كل قلبك وللأبد بحيث يصبح من المحال أن تغفر ما حدث وتتغلغل هذه المشاعر في أعماقك ببطء وهدوء (لا يمكن القول بسلام)؛ وتشكر الله لعدم تذكرك أي شيء عنه ولكن على الرغم من ذلك، ربما لافتقارك الشجاعة الكافية، لا تنساه قط– من الأرجح أنه لم يعرف أصلاً أنه تقبّل دون تفكير أن جميع الأطفال بلا آباء مثله وأن انتشالك كل يوم تقريباً من السعي البريء غير المؤذي، على يد شخص ما لأن هذا الشخص أكبر منك، أقوى منك، وتعريضك لدقيقة أو خمس دقائق لمياه متدفقة من أنبوب وسط غضب غير مفهوم وحنق مجهول الأسباب ونوبة من الانفعال المتشفي الانتقامي الحاسد كل هذا جزء من الطفولة التي عاشتها كل الأمهات على يد أمهاتهن وأمهاتهن بدورهن عشنها في بورتوريكو أو هاييتي أو في أي مكان انحدرن منه ولكن لم نعش فيه: وعندما شبّ عوده وصار عنده أطفال طبّق عليهم الأمر ذاته (ولربما قرر بعد ذلك بأن الحياة مليئة بالمتاعب والمشقات وأنه لن ينجب أي أطفال أو يأمل ألا ينجب على أقل تقدير) ولأن ما من أحد من الأطفال له أب، أو يعرف أحداً في بورتوريكو أو هاييتي، تعنّف جميع الأمهات فلذات أكبادهن في تلك اللحظات المعدودة كتفريغ عن الإهانات والإذلال القديم الذي ذقن مرارته والذي لم يذقه الأطفال في الواقع وإنما ورثوه فحسب؛ كل الأطفال الذين يسيرون على أقدامهم ويتنفسون أنجبهم آباء غامضون يلفهم الظلام ولديهم أخوة يعيشون لسنين طويلة منتشرين في كل مكان تحت الشمس—»

حدقا ببعضهما البعض– أو بالأحرى حملقا– وتبخرت أنفاسهما المنتظمة بنعومة ورتابة في الهواء الذي صار خانقاً الآن كهواء القبور. شابت مسحة من الفضول نظراتهما، فضول وهدوء ونوايا مبيّتة، لا تشبه نظراتهما المتبادلة

النظرات التي يتبادلها الشبان عادة بين بعضهم البعض وإنما نظرات الشبان لصبية غنوج بتول– نظرات مشبعة ببحث سري عارٍ، كل نظرة مثقلة بهوس الشباب الأزلي بانسيابية الزمن وليس بثقل الوقت الذي يرزح كبار السن تحت وطأته: الكعب العالي البرّاق لجميع اللحظات الضائعة في سن الخامسة أو السادسة عشرة. «ثم تقدم به العمر وخرج من عباءتها رغماً عنها (هو أيضاً، أو كلاهما) ولم يكثرت لها حتى. تبيّن له أنها تسعى لأمر لا يعيره أي اهتمام، ولا يهمه حتى معرفة ماهية هذا الأمر؛ كبر وأدرك أنها تشكله وتُعدُّه ليكون أداة في يدها المعاندة، ووصل إلى قناعة (أو اكتشف) أنها خدعته كي يتقبل ذلك الشكل وتلك النزعة، ولم يكترث لكل هذا أيضاً لأنه تعلم بعد أن كبر بأنه يوجد ثلاثة أشياء لا غير: التنفس، المتعة والظلمة؛ ولا متعة دون المال، ومن دون المتعة لن يكون هناك تنفس وإنما مجرد شهيق بروتوبلازمي والانهيار والتحول إلى لا كائن أعمى غارق في ظلمة لا يمكن للضوء شقها أبداً. كان لديه المال لأنه عرف أنها عرفت أن المال هو الشيء الوحيد الذي يمكنها من خلاله ترويضه وإرغامه على طاعتها ليقف حيث تريد في سباق كنتاكي ديربي للخيول وامتلاكه للمال سيجردها من هذه القدرة على إخضاعه وكانت تعرف أنه يعرف خطتها: ربما ابتزها، اشتراها بتلك الطريقة: ‹تعطيني الورقة الرابحة عندما أطلبها ولن أسأل عن الأسباب أو الحيثيات›. ربما انهمكت في إعداده لدرجة أنستها التفكير بالمال، لم يتسنَّ لها أبداً الوقت الكافي لتذكر المال أو عدّه أو معرفة مقدار المال الذي تكنزه بين نوبات الكره والغضب، وما من أحد كان ليهتم بمحاسبته وتدقيق الأموال سوى المحامي وربما عرف بون أن أول شيء عليه فعله: أن يقصد والدته ويلوي عنق المحامي في كل مرة، مثل الحصان الذي يراهن عليه بالملايين ولا يُطلب منه سوى بذل القليل من الجهد الإضافي في إحدى السباقات، ليحصل في اليوم التالي على سائس جديد. بالتأكيد، هذه حاله: المحامي، المحامي وموكلته المجنونة المليونيرة، التي لم تكترث للمال بالقدر الكافي لتتحقق من الشيكات قبل إمضائها– إن المحامي الذي، كانت أم بون تتآمر ضده قبل زمن بعيد (حتى وإن كانت غير متعمّدة أو متعمّدة أو لا تكترث إطلاقاً) حتى يأتي ذلك اليوم الذي يمسي فيه فاحش الثراء وفاسقاً قذراً، المحامي كان يزرعه ويحرثه ويحصده هو وأمه كما لو أنه كان– ذلك المحامي الذي يعرف الدرج السري في الخزنة السرية حيث توجد الورقة السرية، ربما كان لديه المخطط والدبابيس التي يضع من خلالها العلامات كما يفعل الجنرالات أثناء التخطيط لحملاتهم العسكرية، ودوّن كل المعلومات باستخدام شيفرات خاصة: أنهى اليوم تجريد هندي ثمل من أرضه الخصبة التي تبلغ مساحتها مئة ميل، قيمتها 25,000 عند الساعة 2:31 اليوم خرج من المستنقع بعد أن صنع آخر لوح لبناء داره. قيمة الدار مع الأرض 40,000. الساعة 7:52 مساء اليوم تزوج. تهديد الزواج يكلفه أقل من الصفر ما لم نجد بسرعة مشترياً. من المستبعد حدوث ذلك. سيجتمع مع زوجته في

اليوم ذاته بلا شك. لنقل لمدة سنة وبعدها باليوم والساعة نفسها: يا بني. القيمة الفعلية المحتملة على الرغم من عدم ورود احتمال إرغامه على بيع الدار والأرض إضافة إلى قيمة المحاصيل ناقص حصة الطفل التي تبلغ الربع. القيمة الشعورية مضاعفة مئة مرة تساوي الصفر زائد قيمة المحاصيل. بعد 10 سنوات، طفل أو أكثر. القيمة الفعلية وبيع الدار بالإكراه والأرض التي أصبحت بحالٍ أفضل زائد الأصول سهلة البيع ناقص حصة الأطفال. القيمة الشعورية تتضاعف 100% سنوياً مع كل طفل زائد القيمة الفعلية زائد الأصول سهلة البيع زائد قيمة الائتمان وربما أورد التاريخ هنا أيضاً: الابنة وبوسعك أيضاً رؤية إشارات الاستفهام بعدها بل وحتى الكلمات التي أعقبتها: الابنة؟ الابنة؟ الابنة؟ بدأ يذوي ليس لأن التفكير أنهكه، على العكس كان تفكيره يتوقف عند تذكر الابنة، يتراجع قليلاً ويبدأ تفكيره بالتشتت كما لو أنك تضرب بالعصا قطرات من الماء، تنتشر وتتصاعد ببطء حوله وأينما أُتيح له إغلاق الباب على نفسه كان ينزوي ويجلس ساكناً ويطرح المال الذي ينفقه بون على عاهراته والشمبانيا من المال الذي تمتلكه والدته، ليخلص إلى مقدار ما سيتبقى من المال للغد والشهر المقبل والسنة القادمة أو إلى أن يستقيم أمر ستبن وينضج– كان يفكر بالمبالغ النقدية الكبيرة التي كان يهدرها بون على أحصنته وملابسه والشمبانيا والمقامرة والنساء (كان يعرف بأمر السيدة التي كان جدها الثامن من السود والزواج الذي خرج منه خالي الوفاض قبل زمن بعيد من معرفة الأم بأمره على الرغم من مدى سرية الموضوع؛ ربما وظف جاسوساً يقتحم حتى غرف النوم على غرار الجاسوس الذي كان يقتحم غرفة نوم ستبن؛ ربما هو من أرسل السيدة، هو من زرعها، قال لنفسه كما ترسل كلباً مثلاً: بدأ يهذي. يجب ردعه. وعدم الاكتفاء بالتضييق عليه: مجرد ردع خفيف، يحول دون تواريه وراء أي أسوار) وعليه دون غيره التحقق من الأمر ومتابعته، مع الانتباه لضرورة عدم التمادي كثيراً، لأنه عرف أيضاً أن بون لا يحتاج لأكثر من أن يشتكي لأمه وسيحظى حصان السباق بمعلفه الذهبي إن أراد، إن لم يكن السائس حذراً، سيعينون سائساً جديداً أيضاً– كان يعد النقود، يحسب الصافي الذي سيجنيه خلال السنوات القليلة القادمة، مقارنة بما سيتبقى منه حينها، ويفاضل بين مأزقيه: هل عليه أن ينفض يديه من أمر ستبن ويصفي حسابه ويلوذ بالفرار إلى تكساس: لكن كلما فكر بهذا كان المال الذي أنفقه بون حتى ذلك الوقت يقضّ مضجعه، لو أنه فرّ إلى تكساس قبل عشر أو خمس سنوات أو حتى في السنة الماضية: ربما في الليل أثناء انتظاره إطفاء الأنوار كان يفعل كما كانت الخالة روزا تقول إنها تفعل ويبدأ بإنكار حقيقة أنه يتنفس (أو ربما تمنى أن يتوقف عن التنفس) غير أنه انتظر لمدة تعادل نسبة المئتين بالمئة التي كانت تزداد فيها القيمة الفعلية في كل سنة؛– تتجمع المياه بعد أن تشتت بفعل العصا وترتفع وتنتشر حوله بِثبات وهدوء فيما هو جالس يلفه وِهج الاستبصار الأبيض (أو

النظرة الثانية أو الإيمان بشقاء الإنسان وحماقته أو بما شئت من المصائب) ليريه ما قد يحدث ليس هذا فحسب وإنما ما يحدث بالواقع ويقتنع بأن هذا حاصل لا محالة، ليس لأن هذا جاءه على شكل رؤية وإنما لأنه اشتمل على الحب والشرف والشجاعة والكبرياء؛ وآمن بأنه سيحصل، ليس لأنه منطقي وارد، وإنما لأنه سيكون الطامة الكبرى التي تجمع كل المصائب، وعلى الرغم من عدم قدرتك على أن تثبت له الرذيلة أو الفضيلة أو الشجاعة أو الجبن دون أن تريه البشر المتحركين ولا أن تثبت له وجود الموت دون أن تريه جثة، آمن بالشقاء بسبب التدريب الشاق الصارم الذي أخصاه وعلمه أن يترك الحظ الطيب والمتع لله كي يقررها، وكان يعزي كل حماقاته وبؤسه إلى قمل وبراغيث كوك وليتلتون [49]. وسابين [50] العجوز—»

حدّقا– حملقا– ببعضهما البعض، صوتهما (تولى شريف دفة الحديث)، وباستثناء الاختلاف الطفيف في درجات خطوط العرض المتداخلة (لم تكن اختلافات في نبرة الصوت ولا علوّه وإنما اختلافات في ترتيب العبارات واستخدام الكلمات)، بدا صوت أحدهما وصوت كلاهما بمعنى ما: فكر الاثنان وكأنهما شخص واحد، الصوت الذي شاءت الصدف أن يعبر عن الأفكار ما هو إلا الأفكار بعد أن اكتسبت القدرة على النطق، لتصير مسموعة؛ يخلق الاثنان في الحيِّز الفاصل بينهما، شخوصاً منبعثين من الحكايا والأحاديث القديمة الفوضوية، شخوص لا وجود لهم إطلاقاً ربما في أي مكان من العالم، ظلالهم ليست بظلال من لحم ودم عاشت وماتت وإنما ظلال هي بدورها (بالنسبة لأحدهما على الأقل، بالنسبة إلى شريف ظلال أيضاً) رخيمان هادئان تماماً مثل الغرغرة غير المرئية لأنفاسهما التي تخرج على شكل بخار. صدحت دقات الساعة معلنة انتصاف الليل، ودخلت من وراء النافذة المغلقة المكسوّة بالثلج نغمات بطيئة ناعمة. «–سابين العجوز، التي خوفاً على حياتها لم تبلغك أو تبلغ المحامي أو بون أو أي شخص آخر عمّا كانت ترغب به، تتوقعه، وتأمل حدوثه لأنها امرأة ولا حاجة لها بأن ترغب بأي شيء أو تأمل حدوث أي شيء أو تتوقعه، وكل ما عليها فعله هو أن تتمنى وتتوقع وتأمل (إضافة إلى ذلك، قال والدك إن امتلاء قلبك بالكراهية يغنيك عن الحاجة للأمل لأن الكراهية كافية لمدّك بالقوة)؛ – سابين العجوز (لم تصبح كهلة بعد، سمحت لنفسها بأن تتصرف على سجيتها أي بمعنى المحافظة على محركاتك نظيفة وممتلئة بالزيت وبأفضل فحم مخزَّن في المستودعات دون أن تكلّف نفسك عناء تنظيف سطح السفينة وفركه بالحجر كي يلمع؛ تركت نفسها على الحياد. لم تكن سمينة؛ كانت تحرق ما تأكله بسرعة كبيرة، تذيبه في المريء في المرحلة التي تلي البلع وقبل أن يصل إلى المعدة؛ تأكل دون أن تستمتع بالمضغ؛ مهمة المضغ بالنسبة لها كانت مجرد منغص آخر يُضاف إلى منغص اختيار الملابس؛ اهتراء الملابس القديمة وتوجب اختيار ملابس جديدة منغص

آخر: ولا متعة أيضاً في هيئته الرقيقة—» لم يفه أي منهما باسم ‹بون›— وسراويله الناعمة التي تلائم ساقه والمعاطف الجميلة التي تتناسب تماماً مع كتفيه ولا في حقيقة أن لديه الكثير من الساعات وأزرار أكمام القمصان وأفخر أنواع الكتان وأفضل الجياد والعربات الصفراء (ناهيك عن الصبايا) أكثر من معظم الآخرين، ولكن كل هذا مجرد منغص آخر لا مفرّ منه وعليه الفروغ منه قبل أن يتفرّغ لتلبية طلباتها كما عليه أن يفرغ من تكوين أسنانه الثابتة والشفاء من جدري الماء والتخلص من عظام الصبي البضة كي يصبح قادراً على تلبية طلباتها)– كانت سابين العجوز تتلقى تقارير المحامي المفبركة كما لو أنها تقارير تُرسل من جبهات القتال إلى المقرات العسكرية، وربما هناك زنجي لا مهمة له سوى الانتظار في مكتب المحامي ليحمل إليها التقارير مرة كل سنتين أو خمس مرات في يومين، بحسب الفترة التي تحتاجها لتبدأ بالإلحاح عليه لمعرفة أخبار جديدة– التقرير، البيان الرسمي الذي يؤكد أننا لسنا بعيدين عنه في تكساس أو ميسوري أو كاليفورنيا ربما (كاليفورنيا مناسبة، بعيدة جداً؛ تفي بالغرض، دليل قاطع يكتسب مصداقيته من المسافات المترامية، والحاجة للقبول والتصديق) وبتنا على مقربة منه فلا تقلقي. ولم تقلق، لم تقلق على الإطلاق: كانت تترجل من العربة وتقصد المحامي، متعثرة بثوبها الأسود الأشبه بجزء من أنبوب موقد أعرج دون ارتداء قبعة مكتفية برمي شال على رأسها، فلا ينقصها سوى الممسحة والسطل– تقتحم المكتب وتقول ‹إنه ميت. أعرف أنه ميت وكيف له أن يكون حياً، كيف له أن يعيش›، لم تعنِ ما عنته الخالة روزا عندما قالت: أين يجدون أو يخترعون الرصاصة التي تستطيع قتله وإنما كيف يُسمح له بالموت قبل إقراره بأنه على خطأ ويعاني ويندم على ما ارتكبه وخلال الثانيتين التاليتين يكونون على وشك الإمساك به (هو– المحامي– سيطلعها على الرسالة الحقيقة، المكتوبة بالإنجليزية التي لا تتقنها، الرسالة التي وصلت منذ فترة وجيزة، وقد أرسل للتو بطلب الزنجي لينقلها إليها عندما تأتي، وأتقن المحامي بعد التمرين كتابة التاريخ المناسب على الرسالة بينما يوليها ظهره، ولن يحتاج لأكثر من ثانيتين لإخراج الرسالة من الملف)– سنلقي القبض عليه– بتنا على مقربة جداً منه لينعم بالرضا الكافي بأنه على قيد الحياة؛ قريبون جداً بالفعل ليتمكن من إخراجها من المكتب قبل أن تجلس ويرافقها إلى العربة لتصعد إليها مجدداً وتعود إلى المنزل حيث، ستبدو وسط المرايا المصنوعة على الطراز الفلورنتيني والستائر الباريسية والقمصان المزركشة، من جديد أشبه بالخادمة التي دخلت لتنظف الأرضيات، بفستانها الأسود الذي لم يستطع الطاهي النظر إليه حتى عندما كان جديداً قبل خمس أو ست سنوات، ممسكة، بتشبث، بالرسالة التي لا تجيد لغتها (على الأرجح أن كلمة ستبن هي الكلمة الوحيدة التي تستطيع تمييزها) بإحدى يديها فيما ترد بيدها الأخرى خصلة شعر لونها كلون الصدأ دون أن تنظر إلى الرسالة كما لو أنها

تستطيع قراءتها حتى وإن لم يكن باستطاعتها ذلك، تنقض عليها، تحدق فيها كما لو أنها لا تملك سوى ثوانٍ قليلة لقراءتها، لحظات قليلة فقط متبقية وستتلف بمجرد أن تقع عينها عليها، قبل أن تلتهمها النيران ويتعذر الاطلاع عليها، لتبقى بعدها جالسة والرماد الكربوني الأسود في يدها. وهو–» (لم يقل أي منهما ‹بون›)»– راقبها، كبر بما يكفي ليدرك أن ما ظن أنه الطفولة لم يكن كذلك، أن الأطفال الآخرين أنجبهم آباء وأمهات وخُلق مجدداً عندما بدأ بالتذكر، جديد تماماً عندما وصل إلى المرحلة التي تخلى فيها جسده عن كونه طفلاً وأصبح فتى يافعاً، جديد مجدداً عندما توقف عن كونه فتى وأصبح رجلاً، بين امرأة حسب أنها تطعمه وتنظفه وتضعه في السرير لينام ولا تبخل عليه بدغدغة حنكه ليضحك لأنه هو نفسه، إلى أن بات كبيراً بما يكفي ليكتشف أنه لم يكن هو على الإطلاق من كانت تنظفه وتطعمه الحلوى وتسليه وإنما رجلٌ لم يصره بعد، رجل لم تقع عينها عليه بعد، سيكون شيئاً آخر إلى جانب ذلك الفتى الذي صار عليه مثل الديناميت الذي يحيل المنزل إلى ركام ويدمر العائلة بل والمنطقة بأكملها ولم يعد تلك الورقة القديمة المسالمة التي تفضل أن تطير على غير هدى وتذروها الرياح ونشارة الخشب السعيدة القديمة أو المواد الكيميائية الساكنة التي تفضل أن تظل ساكنة يلفها الظلام على الأرض الهادئة تماماً كما كانوا قبل أن يتطفل عليهم الرجل ذو النظارات السميكة ويلتقطهم ويعجنهم ويلفهم؛ – ترعرع بين هذه المرأة والمحامي الذي وظفته (المرأة التي كانت منذ زمن لا يتذكره وعلى ضوء ما أدركه الآن تزجه في خطة وتهيِّئه للحظة معينة ستأتي وتمر وبناءً عليه رأى أنه لم يعنِ لها سوى خراء عفن ثري؛ المحامي الذي كان منذ زمن لا يتذكره وعلى ضوء ما أدركه الآن يزرعه ويسقيه ويسمّده ويحصده كما لو أنه خراء فحسب):– راقبها، تتسكع بملابسها الجميلة ربما، تفوح منها رائحة البخور المقدس والذي يمكن تسميته القداسة الرخيصة، يراقبها تنظر إلى الرسالة، دون أن يخطر على باله إنني أنظر إلى أمي عارية إذ لو كانت الكراهية عرياً، فقد كانت ترتديها لمدة كافية لتجعل من الكراهية تفي بالغرض المطلوب من الملابس على غرار ما يقولونه إن التواضع أجمل ثوب، —

«ابتعد إذاً. ابتعد وقصد الجامعة وهو في الثامنة والعشرين. ولم يعرف أو يكترث لهذا أيضاً: أي منهما– الأم أم المحامي– قرر إرساله إلى الجامعة ولا لماذا، فقد كان يعرف طوال الوقت أن والدته تضمر شيئاً ما وأن المحامي يضمر بدوره شيئاً ما، ولم يكترث بما يكفي ليعرف ما يضمراه ولا حتى ليحاول ذلك، عرف أن المحامي عرف أن والدته تضمر شيئاً ما، وأن المحامي لا يمانع أن تحصل الأم على مبتغاها، طالما أنه (المحامي) يحصل على مبتغاه قبل لحظة واحدة أو على الأقل في اللحظة نفسها التي تحصل فيها على مبتغاها. رحل قاصداً الجامعة؛ قال ‹حسناً› وودع العشيقة التي أحد أجدادها

من السود وذهب إلى الجامعة، لم يخبره أحد على مدار سنواته الثماني والعشرين، ‹افعل كما يفعل الآخرون؛ أنجز المهمة في تمام التاسعة صباحاً غداً أو الجمعة أو الإثنين›؛ ربما كانت العشيقة أداة في أيديهم (أو في يد المحامي)– الرادع (وليس اللجام) الذي زرعه المحامي ليبعده عن التدخل في شيء قد يكتشف أن له أسواراً لاحقاً. ربما اكتشفت الأم أمر العشيقة والطفل وحفل الزفاف واكتشفت أموراً أكثر مما اكتشفه المحامي (أو مما قد يصدقه، المحامي الذي اعتبر بون مجرد دمية، وليس أحمق) وأرسلت بطلبه فلبّى النداء وجلس أمام الموقد مجدداً عارفاً ربما سبب استدعائه، ما حدث قبل أن تخبره، جلس وقد علت وجهه تعابير أقرب للابتسام لكنه لم يكن مبتسماً تعابير لا يمكنك التكهن بدلالتها، راقبته ممسكة بخصلة الشعر البنية التي بلون الصدأ دون أن تكلف نفسها عناء ردّها عن وجهها لأنها لم تكن تنظر إلى الرسالة الآن وسمّرت عينيها عليه، صوتها يحاول التحديق به أيضاً زاعقاً ينذر بالخوف والخطر، لكنها نجحت في إبقاء صوتها منخفضاً لأنها لا تستطيع التحدث عن الخيانة لأنها لم تخبره بعد، أما الآن، في هذه اللحظة، فلا تجرؤ على المجازفة بإخباره؛– كان ينظر إليها من خلف ابتسامة لم تكن في الحقيقة ابتسامة وإنما شيء من غير المسموح لك معرفة دلالاته، قائلاً، اعترف: ‹لِم لا؟ جميع الشبان يفعلون ذلك. حفل الزفاف أيضاً. لم أكن أنوي الإنجاب، أما الآن وبعد أن حدث هذا... ليس طفلاً سيئاً، أيضاً› راقبته، حدّقت فيه عاجزة عن البوح بما تود قوله لأنها أخفت عنه الأمر لزمن طويل ولم تستطع قول سوى بضع كلمات: ‹لكن أنت. هذا مختلف› وهو (لم تكن بحاجة لقول هذه الكلمات. كان ليعرفها لوحده بعد أن عرف سبب إرسالها في طلبه، حتى لو لم يكن يعرف أو لم يكن يكترث لما تخطط له قبل زمن أبعد من أن يتذكره، قبل أن يستطيع اتخاذ خليلة أو حبيبة): ‹لِم لا؟ من المقدّر على الرجال الزواج في يوم ما، عاجلاً أم آجلاً. وهي ليست شخصاً أعرفه، لم تتسبب لي بأي متاعب. أما عن الحفل، الذي يزعجك، انقضى وانتهى. من أجل مسألة تافهة تتعلق ببقعة من الدم الأسود–› لم يحتج لقول المزيد، ولا للشرح أكثر، لم يحتج لقول يبدو أن لديّ الكثير من الأخوة في هذا العالم بما يكفي لأغضب وأشعر بالخزي وأنا حيّ والعديد من الأحفاد لينالوا نصيبهم من الضرر والأذى الذي سألحقه بهم وأنا ميت؛ لم يحدث هذا، اكتفى بقول ‹مجرد بقعة من الدم الأسود–› ثم راقب الوجه، تفحص أمارات الذعر واليأس والترجي، وغادر بعد أن قبّلها ربما، قبّل يدها التي تلفها يده بل وحتى لمسها بشفتيه كما تفعل يدٌ ميتة جزعة من القشة الأخيرة؛ ربما قال لنفسه عندما غادر ستقصده (المحامي)؛ إن انتظرتُ خمس دقائق سأراها وقد ارتدت شالها. سأعرف هذه الليلة على الأرجح– إن كان يهمني أصلاً معرفة ما ينوبان فعله. ربما عرف بحلول المساء، أو قبل ذلك إن فلحوا في العثور عليه، وإبلاغه قرارهما، لأنها قصدت المحامي. وقبل أن تبدأ بإخباره خطرت على

باله فكرة جهنمية واشتعلت في ذهنه كما يشتعل الفتيل؛ وربما استطاع رؤية يده تكتب في الفراغ الابنة؟ الابنة؟ الابنة؟ لم يكتب الكلمات في الحقيقة ولم تظهر أبداً. قد يكون هذا ما يقلق المحامي ويؤرقه ويشغل باله طوال الوقت؛ منذ أرغمته على قطع عهد بعدم إخبار بون عمّن يكون والده، قد يصدق بون هذا أو لا يصدقه، لكن في الحالتين سيقصد والدته ويخبرها بأن المحامي أخبره وسينتهي حينها أمر المحامي، لا لأنه ألحق الأذى بموكلته فهو لا يستطيع ذلك، لأن إخبار بون لن يغيّر من مجريات الأمور، وإنما لأنه لم ينصع لرغبة موكلته المصابة بجنون الارتياب. ربما جلس في مكتبه يجمع ويطرح النقود ويضيف ما سيحصلون عليه من ستبن (لم يكترث قط لما قد يفعله بون عندما يكتشف الحقيقة؛ ومن المحتمل أنه فكر بطريقة إيجابية إزاء بون منذ فترة بعيدة وآمن بأنه حتى وإن كان غبياً أو بليداً جداً لتساوره الشكوك حول والده أو ليحاول اكتشاف من يكون بنفسه، لم يكن أحمق بما يكفي كي لا يستغل ذلك حالما يخبره أحدهم بما عليه فعله؛ لو خطرت الفكرة على باله يوماً بدافع الحب أو الشرف أو أي شيء سماوي أو تشريعي آخر، فإن بون لن يقدم على فعله، سيرفض، وسيختلق المحامي دليلاً على أنه توقف عن التنفس)– هذا ما أرّقه طوال الوقت ربما: كيف ندفع بون لمعرفة الحقيقة بنفسه، أو إلى النقطة التي سيتعين على أحدهما –الأب أو الأم– إخباره. لم يكن قد مضى على خروجها من المكتب سوى دقائق معدودة– أو على الأقل حالما تسنى له فتح الخزنة وفتح الدرج السرّي عرف أن هنري قصد جامعة الميسيسيبي– قبل أن تخط يده في الفراغ بثبات كلمة الابنة؟ الابنة؟ الابنة؟ التي لم تُكتب أبداً– مع التاريخ أيضاً: 1859. ولدان. لنقل في عام 1860، عشرون سنة. زيادة 200% على القيمة الفعلية سنوياً زائد الأصول سهلة البيع زائد مبلغ الائتمان. القيمة التقريبية 1860، 100,000. سؤال: التهديد بفضح أمر تعدد الزوجات، نعم أم لا. ربما لا. التهديد بفضح سفاح القربى: معقول نعم ثم تنكفئ اليد قبل أن تكتب النقطة، تتوقف عند كلمة معقول، وتخط سطراً تحتها.

«لم يكترث لهذا أيضاً؛ اكتفى بقول ‹حسناً›. لأنه عرف ربما بأن والدته لم تعرف ولن تعرف قط ما تريده، لم يستطع ضربها (ربما تعلم من عشيقته بأن المرء لا يستطيع ضرب امرأة على أي حال وإن كان حكيماً أو يحب أن ينأى بنفسه عن المتاعب والقلاقل فإنه لن يحاول ضربها حتى)، وعرف أن المال هو كل ما يسعى المحامي إلى الحصول عليه؛ ولهذا فإن لم يقترف خطأ الاعتقاد بأنه يستطيع الانتصار عليهم جميعاً، لو تذكر فقط أن يحافظ على هدوئه وحذره لكان حقق بعض النصر.– قال ‹حسناً› وترك لوالدته أمر حزم ملابسه الجميلة والكتان الفاخر في الحقائب والسراويل، وربما عرّج على مكتب المحامي وراقبه من خلف ذلك الشيء الذي قد يُسمّى ابتسامة بينما

أوعز المحامي بحركة من مرفقه بتجهيز الأحصنة ووضعها على متن العبّارة وشراء خادم شخصي إضافي له ورتّب الأمور المالية وكل شيء؛ راقبه من خلف الابتسامة بينما مثّل المحامي دور الأب، متحدثاً عن المنحة والثقافة واللغتين اللاتينية واليونانية اللتين ستعدانه وتصقلانه ليتولى المكانة التي سترافقه طيلة حياته وكيف يمكن للرجل أن يحظى بهذه المكانة في أي مكان، في مكتبته الخاصة ربما، الرجل صاحب الإرادة والعزيمة؛ ولكن ثمّة أمر مهم، درجة عليا من الثقافة التي لا يمكن الوصول إليها سوى من خلال الرتابة الرهبانية المتنسّكة لـ – لنقل جامعة منعزلة وصغيرة (لكنها رفيعة المستوى، راقية)؛– وهو—» (لم يقل أي منهما ‹لم يبدُ أن ثمّة أي خلط بينهما حول من كان يقصد شريف بـ ‹هو›) «أصغى بأدبٍ وهدوء من خلف التعابير التي كان من المفترض ألا تشفّ عن الماضي، وسأل أخيراً، مقاطعاً ربما، بأدبٍ وود– لا تشوبه أية سخرية، دون تهكم على الإطلاق– ‹ما اسم الجامعة الذي ذكرته للتو؟›: وتسارعت هنا حركة المرفق عندما انكبّ المحامي على الأوراق باحثاً عن الورقة التي دوّن عليها اسم الجامعة الذي كان يحاول حفظه منذ تحدث للمرة الأولى مع الأم: ‹جامعة الميسيسيبي، في›– أين قلت موقعها؟»

قال كونتن: «أكسفورد. تبعد قرابة أربعين ميلاً عن–»

«– ‹أكسفورد›. ثم هدأت الأوراق مجدداً لأنه بدأ بالكلام: عن جامعة صغيرة عمرها عشر سنوات فقط، كيف أنها بعيدة عن أي شيء يشتّت انتباهه ويلهيه عن دراسته (حيث، بمعنى ما، حتى الحكمة هناك عذراء أو غير مستعملة على الأقل) وكيف سيحظى بفرصة مراقبة جزء ريفي آخر من البلاد حيث كُتب قدره السامي (على فرض أن نتيجة هذه الحرب التي على الأبواب حتماً، الخلاصة الناجحة التي نأمل جميعاً في الوصول إليها، دون أدنى شك) بوصفه الرجل الذي ستجتمع في يده القوة الاقتصادية التي يمثلها بعد وفاة والدته؛ أصغى من خلف تعابير وجهه وقال ‹أنت لا توصي إذاً بأن أتخذ المحاماة كمهنة؟› توقف المحامي للحظة، لم تطل كثيراً؛ ربما لم تطل بما يكفي كي تشعر بها وتصفها بأنها توقف؛ ونظر إلى بون أيضاً: ‹لم يخطر على بالي بأن المحاماة تستهويك› وقال بون: ‹لم يكن التدرب على استخدام السيف ليستهويني أيضاً. ولكنني أتذكر بأنني لمرة واحدة على الأقل في حياتي سُعدت لأنني تمرنت على القتال بالسيف› ثم قال المحامي بجذالة وابتذال: ‹لتكن المحاماة إذاً. والدتك ستوافـ– ستُسعد بذلك›. قال ‹حسناً›، لم يقل ‹وداعاً›؛ لم يكترث؛ لم يماطل حتى، يداه الناعمتان البيضاوتان كبياض زهرة المغنوليا مرتاحتان على ركبتيه، ولـ (نقل) فوق ثلاثة أقدام ونصف عن الأصفاد الفولاذية الهشة تلك التعابير والقسمات التي لا ترقى لكونها ابتسامة وإنما مجرد شيء مصمت لا يمكنِ التكهن بدلالته. لا يمكن الانتصار عليهما: لا خيار

أمامك سوى الهرب (وشكراً لله أن بوسعك الهرب، تهرب من ذلك الاتحاد المهول الذي يشبه قطعة جبن مليئة باليرقات وتبلغ سماكتها خمسة أقدام تغطي الأرض، اتحاد يجري وفقه تصنيف الرجال والنساء ويُعاملون بسببه مثل كرات البولينغ؛ شكراً لكل أنواع الآلهة على هبة الوتد المستدق الرشيق المتوثب نحو ورك المرأة المشتعل الذي سرعان ما يتلقفه)؛– لم يودع أحداً: حسناً: وصعد في إحدى الليالي سلّم العبّارة المُنار بالمشاعل ومن المرجّح أنه لم يكن معه سوى المحامي الذي حضر لا ليتمنى له التوفيق وإنما ليتأكد من صعوده على متن العبّارة. وأفرغ الزنجي الجديد الإضافي الحقائب في الغرفة الفاخرة، ونشر الملابس الجميلة، وتجمّعت الصبايا في الصالون لتناول العشاء وتجمّع الشباب في الحانة، يستعدون للقادم أما هو؛ فقد كان لوحده، مستنداً على الدرابزين، حاملاً سيجاره، يراقب المدينة تنجرف وتومض وتتألق وتخفت ثم تتوقف حركة كل ما فيها، توقفت العبّارة عن مخر عباب البحر ولم تحرز النجوم أي تقدم وظلت مكانها بين خطي الدخان الخارجين من المدخنة. لا أحد يعرف ما الذي يجول في خاطره، ما هو ثقل الأفكار وكيف هو طعم التخفف منها، هو من عرف أن والدته تضمر شيئاً ما على الرغم من جهله التام لمخططها (ربما ظن أنه لن يعرف أبداً)؛ وأن المحامي يضمر شيئاً وعلى الرغم من أنه عرف أن المال هو كل ما يلهث وراءه، إلا أنه عرف أنه في أعماق (أعماق المحامي) الحدود الذكورية المعروفة قد تكون بخطورة الأوراق الكثيرة المجهولة التي بيد والدته؛ والآن هذه– المدرسة، الجامعة– والسنوات الثماني والعشرين. ليس هذا فحسب، وإنما هذه الجامعة تحديداً، التي لم يسمع عنها قط، ولم يكن لها أي وجود قبل عشر سنوات؛ وعرف أيضاً أن المحامي هو من اختارها له– بدا رصيناً، مثقلاً بالأفكار ويكاد يكون عابساً لماذا؟ لماذا؟ لماذا اختار هذه الجامعة تحديداً، هذه الجامعة دون غيرها؟– ربما استند على الدرابزين يلوذ بالعزلة التي يوفرها له الدخان والمحركات اللاهثة وكاد أن يلمس الإجابة، مدركاً اللغز والأحجية التي تشكلها الأرقام الصحيحة المتربصة، المترصدة، البعيدة عن متناول يده، المترابطة، المتداخلة حتى صار من الصعب التعرف عليها لتشكل نمطاً قد يتكشف أمامه دفعة واحدة، مثل ومضة، يتكشف له معنى حياته برمتها، الماضي– هاييتي، طفولته، المحامي، المرأة التي كانت أمه. وربما الرسالة نفسها كانت تحت قدميه، في العتمة تحت ظهر السفينة التي يقف عليها– الرسالة الموجهة إلى هنري ستبن، المبجل في السكن الجامعي لجامعة الميسيسيبي، قرب أكسفورد، الميسيسيبي، وليس إلى توماس ستبن في مزرعة ستبن: أطلعه هنري في أحد الأيام على الرسالة وكان وقعها عليه وقع الومضة وليس الوهج الناعم الوضاء، سطوع (هو من لا أب معروف له وإنما وجد نفسه، حتى في طفولته، محاطاً بعُصبة انكبّت على تعليمه أنه لم يكن له أي أب، وأن أمه ولدتِ من رحم مكان منسي مؤقت، من حالة فقدان الذاكرة المباركة التي

تلجأ إليها الحواس الهشة لتقي نفسها من القوى والعوامل المظلمة الخارجة عن سيطرة الآلهة والتي لا يطيق الجسد البشري احتمالها، لتستيقظ على حملها، تصرخ وتزعق وتتخبط، احتجاجاً على غضب أعضائها التناسلية المنتفخة، لا على العذاب المضني لآلام المخاض؛ صار أباً باستخدامها بطريقة غير اعتيادية باقتحام جسدها والخروج منه موظفاً الأداة الذكورية الأبدية الجهنمية التي تجمع الرهبة المطلقة والظلمة المطبقة) وقف متأملاً الوجه البريء للشاب واحتساء الشمبانيا في غرفة نوم العشيقة أو الويسكي على طاولة خشنة جديدة في صومعة راهب والشاب في الريف، وريث قروي لم يقض أكثر من بضع ليالٍ خارج منزله الأبوي (اللهم إلا للاستلقاء بكامل ملابسه بالقرب من النار في الغابة يستمع لأصوات الكلاب الضالّة) إلى أن التحق بالجامعة، حيث قلّد كل ما رآه فيما (الشاب) غير واعٍ لما يفعله، الشاب الذي قال بعد معركة خاضها في إحدى الليالي، قال كلاماً أخرق– كلا لم يكن كلاماً أخرق: اقترب وتلمّس بيديه أما هو (الشاب الكوزموبولتيني الأصغر بعشر سنوات منه ربما، يتبختر مرتدياً ثوباً من الحرير التي ظنّ الشاب أنه لم ير مثيلاً له من قبل واعتقد أن النساء وحدهن يرتدينه) راقب الشباب وقد احمرّت وجنتاه وانتفخت أوداجه، ولكنه ظل محدقاً به، لم يزحزح ناظره ونظر مباشرة إلى عينيه فيما الشاب يتلمّس ويتحسس الحرير وتخرج من فمه كلمات لا يدرك كهنها: ‹لو كان لي أخٌ، لا أود أن يكون أصغر مني› فيما قال الآخر: ‹حقاً؟› وقال الشاب: ‹كلا. ليته يكون أكبر مني› وقال الآخر ‹لا يرغب الابن المنحدر من أبٍ أصيل أخاً أكبر› وقال الشاب: ‹أجل. أنا أود ذلك›، حدقا أحدهما بالآخر سرى بينهما تفاهم حصري، وقف (الشباب) الآن، منتصباً، نحيلاً (لأنه كان شاباً)، وجهه قرمزي لكن رأسه مرفوع وعينيه ثابتتان: ‹أجل. وليته يكون مثلك تماماً› وقال الآخر: ‹حقاً؟ الويسكي إلى جوارك، اشرب أو ناولني الكأس.»

قال شريف: «والآن لنتحدث عن الحب». لم يكن هناك ضرورة لقول هذا، تماماً كما لم يكن هناك ضرورة لأن يحدد من قصد بـ «هو»، إذ لا شيء خطر على بال أي منهما سوى هذا الأمر؛ جميع أحداث الحكاية من الأهمية التي تجعل من الضروري قصها ومن غيرهما أجدر بروايتها، فمن الضروري وجود من يجرف أوراق الشجر قبل إشعال النار. من هنا لم يكترثا لنقطة من منهما سيقود دفة الحديث، فليس الكلام وحده من كوّن فكرتهما عما حدث، ومكّنهما من تصور الحكاية، وإنما هذا التمازج بين الكلام والسمع الذي يصفح أحدهما عن الآخر ويتغاضى عن عثراته وينساها قبل حتى أن يُطلب منه ذلك– عثرات تتمثل في هذا السرد (أو بالأحرى، السرد الذي خلقاه وخلقهما) وفي السمع والانتقاء والتخلص من الحكايات المزيفة والاحتفاظ بما يجدانه حقيقياً، أو ما يلائم تصوراتهما– كي يتحدثا عن الحب، قد تتضمن الحكاية تناقضات

ومطبات ولكنها تخلو من التزييف أو التزوير. «والآن. الحب. لا بدَّ أنه عرف عنها كل شيء قبل أن يراها– عرف هيئتها، كيف تمضي أوقاتها الحميمية في ذلك العالم النسائي الريفي الذي من المفترض ألا يعرفه حتى رجال العائلة؛ يبدو أنه عرفها دون الحاجة لطرح سؤال واحد. يا يسوع، لقد غرق في التفاصيل دون شك. مرّت ليالٍ وليالٍ تعلّم فيها منه كيف يتجول في غرفة النوم مرتدياً ثوب النوم وخفين مثل النساء، تفوح منه رائحة خفيفة لعطر نسائي حتماً، يدخن سيجاراً بالطريقة نفسها التي تدخن فيها النساء السيجار، ولكن على الرغم من ذلك يتصرف بثقة قاتلة وبليدة كتلك التي تذكر بالرجال الأكثر تهوراً فقط (دون أي نيّة بتعليمه وتدريبه، لعب دور المشرف– ومن ثم ربما بالفعل حدث أن أجرى هذه المقارنة؛ من بوسعه معرفة كم مرة نظر إلى وجه هنري وفكر، لم يفكر بـ لكن في الخميرة المتداخلة لذلك الدم الذي لا يجمعنا عُجن شكل رأسه تماماً مثل شكل رأسي، جبيني، تجاويف الوجه، شكل وزاوية الفكين والذقن وبعض أفكاري، يمكن له أن يلحظ تشابه وجهينا بدوره لو أنه عرف كيف ينظر إليّ كما أنظر إليه بل فكر بـ يصعب عليه الانتباه إلى هذا الأمر، لأن الدم الدخيل يشوشه غير أن هذا ضروري كي يكون له وجه الرجل الذي شكّل كلينا من تلك العتمة العمياء المشرّعة على الاحتمالات التي نسميها المستقبل؛ هناك– هناك– في أية لحظة، ثانية، سأقتحم ذلك الدم مدفوعاً برغبة جارفة ولحوحة وحاجة ماسة وأخلّصه من الدم الدخيل لكن ما سأراه لن يكون وجه أخي الذي لم أعرف بوجوده ولهذا لم أفتقده يوماً، وإنما وجه أبي، الطالع من ظل لم تشف روحي من وجع غيابه قط؛– في لحظة تأمل، راقب التوق الخالي من الخسة، التواضع المجرّد من الكبرياء– لم يكن التقليد اللاواعي لملابسه وطريقة كلامه وسلوكه أكثر من قشور تخفي داخلها خضوعه الروحي التام له– فكر ما الذي لا أستطيع فعله بهذا الدم واللحم الراضيين لو أردت فعل شيء؛ هذا اللحم والدم والروح الخارجة من المصدر نفسه الذي صنع لحمي ودمي وروحي، يجرون بسلام ورضا وسكينة تحت أشعة الشمس الرتيبة الثابتة، حيث جرى ما وهبني إياه ببغضٍ وغضب وحقد ونما في الظل– ما الذي بوسعي نحته من هذا الصلصال المرن الطيّع فيما عجز الأب نفسه عن نحته– ما الشكل المرضي الذي قد ينتج، ويجب أن ينتج، عن ذلك الدم وما من يد بارعة تتولى مهمة نحت الجزء الداخلي مني الذي يطابقه تماماً قبل فوات الأوان: أو متى قد يقول لنفسه إن هذا كله هراء، من المستحيل أن يكون حقيقة؛ إن مثل هذه المصادفات تحدث فقط في الكتب، فكر– الإنهاك، القدرية، القطة المرتبطة عضوياً بالعزلة– ذلك الوغد الريفي الأخرق. كيف أتخلص منه: ثم يأتي الصوت، الصوت الآخر: أنت لا تعني ما تقوله: وهو: كلا. لكنني أعني الوغد الريفي الأخرق) والأيام، وأوقات العصر، عندما يجولان على صهوة حصانهما (قلّده هنري هنا أيضاً، كان الفارس الأفضل بينهما، الذي يتحلّى بما يفتقره بون تماماً ألا وهو الأسلوب لِكن لهِ

النصيب الأكبر من ممارسة الفروسية، وركوب الخيل بالنسبة إليه أمراً لصيقاً به كالمشي، إذ إنه يعتلي صهوة أي شيء في أي مكان) راقبه بنفسه يغرق وينصهر في سيل حديث هنري المزيف الجذاب، مترجماً إلى (ثلاثتهم: هو وهنري والأخت التي لم يرها أبداً وقد لا يراها بل وحتى إنه غير راغب بلقائها) عالم أشبه بالقصص الخرافية لا أحد فيه غيرهم، يقود جواده إلى جوار هنري، يصغي، دون أن يطرح أي سؤال، أو يجد حاجة في الانتقال إلى حديث آخر بأي شكل من الأشكال ذلك الشاب الذي لم تساوره أي شكوك حول احتمال أن يكون شقيق الرجل الذي إلى جواره، الذي كان يقول مع كل نفس يعبر حباله الصوتية من الآن فصاعداً بيتي وبيت أختي سيكون بيتك وحياتي وحياة أختي هي حياتك، تساءل (بون)– أو ربما لم يتساءل إطلاقاً– حول إذا ما كان سيقول هذا لو أن الحالة عكسية وكان هنري هو الغريب وهو (بون) سليل الحسب والنسب المدرك لشكوكه؛ ثم وافق (بون) أخيراً، قال أخيراً، ‹حسناً. سأذهب معك إلى بيتك لقضاء فترة أعياد الميلاد›، وليس لرؤية المقيم الثالث في قصة هنري الخرافية، وليس لرؤية الأخت لأنها لم تخطر على باله ولو لمرة واحدة: بالكاد كان يصغي عندما يتحدث هنري عنها: لكنه فكر سأراه أخيراً على الأقل، سأرى من ترعرعت وكبرت دون توقع رؤيته، من لم أتعلم قط العيش بدونه، ربما فكر كيف سيدخل الدار الكبيرة ويرى الرجل الذي أنجبه ثم سيعرف؛ سأرى اللحم والدم، لحظة التعرف الحاسمة التي ستجمعهما وسيقطع فيها الشك باليقين وللأبد– فكر ربما هذا جلّ مرادي. لا ضرورة كي يعترف بي؛ سألمّح له بلمح البصر بأنه ليس مضطراً للاعتراف بي، إنني لا أنتظر منه فعل ذلك، لن يجرحني هذا، وبدوره سيفهم بلمح البصر أنني ابنه، فكر ربما، ربما من جديد وقد علت ملامحه تلك المسحة التي قد نسميها ابتسامة لكنها لم تكن كذلك، كانت شيئاً لا يتقصد حتى الوغد الريفي الأخرق أن يكتشف ما تخبئه وراءها: أنا ابن أمي، على الأقل: لا أبدو وكأنني أعرف ما أريده أيضاً. عرف تماماً ما أراد؛ لم يتبق سوى قوله– لمسة واحدة ولو بالسر، بالخفاء– اللمسة الحية لذلك اللحم الذي يدفئه الدم نفسه الذي يجري في عروقه قبل أن يولد ووهبه إياه كي يدفئ لحمه البض، كي يهبه بدوره جريان الدم الحار الهادر في أوردة وأطراف الجسد الغض ليفنى بعدها جسده. حلّ عيد الميلاد وقطع وهنري أربعين ميلاً قاصدين مزرعة ستبن، فيما هنري يواصل حديثه، محافظاً مع كل نفس يتنفسه على انتفاخ بالون قصته الخرافية التي تجمعهم وضوئها وألوانها القزحية، القصة التي يعيشون فيها، ويتحركون ربما، بأبعاد لا جسد لها– هو وصديقه والأخت التي لم يرها صديقه قط و(على الرغم من جهل هنري لهذه النقطة) لم يفكر فيها إطلاقاً واكتفى بالاستماع لما يرويه هنري عنها شارد الذهن سارحاً بأفكاره المحمومة، لم يلحظ هنري أنه كلما اقتربا من الدار قلّ كلام بون، وقلّ حديثه في أي موضوع كان، ومن المرجح أن إصغاءه حتى (ولن يعرف هنري هذا بالتأكيد) صار أقل.

دلفا الدار الكبيرة: ومن المحتمل أن كل من رآه سيلحظ في وجهه ملامح تشبه إلى حد كبير– مسحة التواضع التي لا تخلو من الكبرياء، تعابير الاستسلام التام– تلك التي تطفو على وجه هنري، ولربما قال لنفسه أنا لست جاهلاً فحسب لما أبتغيه بل ويبدو أنني أيضاً أصغر بكثير مما ظننت: ورأى وجهاً لوجه الرجل الذي قد يكون أبيه، ولم يحدث شيء– لم تحدث أي صدمة، ولا التواصل الجسدي الحميمي الذي تعجز الكلمات عن وصفه– لم يحدث أي شيء. وأمضى عشرة أيام هناك، لم يكن فقط المشرط الفولاذي النخبوي المترع بالمتع في الغمد الفسيفسائي الحريري الذي بدأ هنري بتقليده في الجامعة، وإنما موضوع فني، منحوتة ومرآة الشكل والطراز الذي قبلته السيدة ستبن على أساسه (كما يقول والدك) وأصرّت (ألم يقل والدك هذا؟) أن يكون كذلك (واشترته وكانت مستعدة لدفع جوديث مقابله، لعدم وجود أي مزايد آخر بينهم هم الأربعة– أوَلم يقل والدك هذا؟) والذي بقي عليه حتى اختفائه، آخذاً هنري معه، ولم تره بعدها قط وامتلأت أيامها بالحرب والمتاعب والأسى والطعام الفقير إلى أن توقفت ربما بعد فترة عن تذكر أنها نسيته. (والصبية، الأخت، العذراء– يا يسوع، من ليعرف ما رأته عصر ذلك اليوم عندما قادا جواديهما، ما الصلوات التي رددتها، ما الحلم البتول الطالع من الأرض الآسرة، ليس كأداة قاسية ملتهبة وإنما على هيئة الفارس لانسلوت المأساوي الرقيق في عمر الثلاثين، أكبر بعشر سنوات منها أنهكته الملذات والتجارب والمتع، التي لم يبخل هنري في وصفها برسائله إليها). وجاء يوم الرحيل ولم تظهر أية إشارة؛ قاد وهنري جواديهما ولم تظهر أية إشارة، لم يحمل الرحيل أية علامة تماماً كما كان الاستقبال خالياً من أية إشارات، لم تظهر على الوجه الذي كان يغني التشابه بينهما عن أية إشارة لمعرفة الحقيقة (كما اعتقد)، على الرغم من أنه ملتحٍ وقد يصعب التقاط الشبه؛ لا إشارة من العينين اللتين يمكنه من خلالهما رؤية وجهه تماماً لو كان غير ملتحٍ، كان ليرى الحقيقة لو أنها موجودة: لم ترمش العينين: وعرف أن الحقيقة في وجهه لأنه تأكد من أن الآخر رأى وجه الشبه تماماً كما عرف هنري في عيد الميلاد التالي في المكتبة أن والده لم يكن يكذب بخصوص حقيقة أن الأب لم يقل شيئاً، ولم يفعل شيئاً. ربما فكر أيضاً، تساءل حول إذا ما كانت اللحية، إن لم يختبئ الآخر وراءها حتى هذا اليوم، هي من حجبت التشابه، وإن كان الأمر كذلك، فلماذا؟ لماذا؟ فكر لكن لماذا؟ لماذا؟ لم يطلب الكثير، كان ليفهم لو أن الآخر أراد أن تكون الإشارة سرّية، كان وبكل سرور وترحاب ليبقيها سرّية حتى دون معرفة الأسباب، فكر في خضم كل هذا يا إلهي، أنا شاب، شاب، ولم أكن أعرف بهذا؛ لم يخبروني، أنني كنت شاباً، تملكه اليأس وسربله العار كما لو أنك تشاهد والدك يخسر في عراك جسدي، فكر لا بد وأنني فشلت في التقاط الإشارة، أنا، أنا، خطئي أنا وليس خطأهُ أنا الذي جاء من ذلك الدم الذي يجري في عروق كلينا قبل أن يفسده

ويدنّسه ذلك الأمر المتعلق بأمي والذي لم يستطع التغاضي عنه.– «مهلاً» صرخ شريف، على الرغم من أن كونتن كان صامتاً: كان هذا بسبب إحدى خصال كونتن، لغة جسد كونتن المحدب المتراخي الذي يوحي بفحوى ما سيقوله، لأن شريف قال مهلاً. مهلاً. قبل أن يبدأ كونتن حديثه. «لم ينظر إليها أبداً. أي نعم رآها، أتيحت له الكثير من الفرص ليراها؛ ولا خيار أمامه سوى أن يلتقيها لأن السيدة ستبن رتبت ذلك– عشرة أيام حافلة بالفرص المرتبة والمدبرة ليختليا ببعضهما البعض رسمت خطة تشبه حملات الجنرالات الموتى في الكتب، في المكتبات والصالات والنزهات المسائية على متن العربة– خططت لكل شيء قبل ثلاثة أشهر عندما قرأت السيدة ستبن أولى رسائل هنري التي ورد فيها ذكر بون، إلى أن بدأت جوديث تشعر بأنه توأم روحها: لم يتحدث إليها أصلاً، ما الحديث الذي قد يجريه مع فتاة ريفية لم تر قط رجلاً سواء كان شاباً أم كهلاً لم تفح منه عاجلاً أم آجلاً رائحة الروث؛ تحدث إليها كما يتحدث إلى العجوز الجالسة على كرسي ذهبي في غرفة الجلوس، باستثناء أنه في الحالة الأولى عليه أن يتولى دفة الحديث طوال الوقت بينما في الحالة الثانية فلن يتمكن من التملص إلى أن يأتي هنري وينقذه. ربما فكر فيها في ذلك الوقت؛ ربما عندما قال لنفسه لا يمكن أن يكون الأمر كذلك؛ ما كان له أن ينظر إليّ كل يوم دون أن تنم عنه أية إشارة لو كان الأمر كذلك حتى إنه قال لنفسه إنها سهلة كما لو أنك تركت كأس الشمبانيا على مائدة العشاء واتجهت نحو كأس الويسكي على الخوان لكنك صادفت على الطريق كأساً من عصير الليمون على الصينية فنظرت إلى العصير وقلت لنفسك، إنها سهلة المنال لمن يرغب بها. – أيرضيك هذا؟»

قال كونتن: «لكنه لم يكن حباً.»

«لِم لا؟ اسمع. ما الذي قالته لك السيدة العجوز، الخالة روزا عن الأمور اللعينة التي تحدث سواء كان من الضروري حدوثها أم لا، تحظى بالضوء أكثر من غيرها على الرغم من أنها قد لا تكون بكل تلك الأهمية ولكن من يكترث لذلك؟ هذا بيت القصيد. لكن الوقت لم يحن لذلك بعد بالنسبة إليه. يا يسوع، لا بد أنه عرف بما سيحدث. تماماً مثل ذلك المحامي الذي ظن بأنه ليس مغفلاً؛ المشكلة أنه لم يكن ذلك النوع من غير الحمقى الذي حسب أنه ينتمي إليهم. حتماً عرف إلى أين تسير الأمور. كما لو أنك تصادف العصير وتدرك أنك ستصل إلى الخوان والويسكي، ومع ذلك تعرف أنك في صباح الغد ستراودك الرغبة بهذا العصير، ثم تصل إلى الويسكي لكنك تشعر بأنك ترغب بالعصير؛ قد لا تقصد الخوان أبداً، قد تنظر إلى الشمبانيا التي تركتها على مائدة العشاء وسط الأطباق الخزفية المتسخة وغطاء المائدة الدمشقي المزخرف، ويتبين لك فجأة أنك لا ترغب بالعودة إلى هناك. المسألة لا تتعلق بالاختيار، وأن عليك الانتقاء بين الشمبانيا أو الويسكي والعصير، لكن بلحظة

واحدة (في فصل الربيع حينها في ذلك الريف الذي لم يسبق له وأن رأى الربيع فيه فتقول لنفسك إن شمال الميسيسيبي أقسى من لويزيانا، حيث زهر القرانيا والبنفسج والورود غير العطرية والليالي الأبرد قليلاً والبراعم اللزجة المتماسكة مثل حلمات الشابات على أشجار النغت وأشجار يهوذا [51] والزان والقيقب وحتى شجر الأرز الذي لم ير مثيلاً له من قبل) تكتشف أنك لم ترغب يوماً بشيء أكثر من ذلك العصير ولم ترغب بأي شيء آخر غير هذا العصير بل وأنك ترغب به بشدة منذ زمن بعيد– إلى جانب معرفتك بأن هذا العصير بانتظارك لتشربه. ليس بانتظار أي شخص آخر سواك، وتدرك بمجرد النظر إلى ذلك الكأس أنه أشبه بالزهرة التي، إن أمسك بها غيرك، فسيجدها محاطة بالأشواك إلا أنها أشواك لا تطال يديك؛ لم يكن معتاداً على هذا فكل الكؤوس التي كانت في متناول يديه لم تكن كؤوس عصائر وإنما كؤوس شمبانيا أو نبيذ منزلي الصنع. وفوق كل هذا. هناك معرفة أن ما يشك به قد يكون صحيحاً، أو غير متيقن من صحته. ومن ليجزم أن الأمر لا ينطوي على سفاح القربى، فالشخص الذي (بغض النظر إن كان سيمارس الجنس مع أخته [52]: لا أستطيع التحدث عن الآخرين) يقع في الحب دون أن يكتشف التلاشي السريع والعبثي للجنس؛ من لا يعرف أنك بعد الانتهاء من ممارسة الجنس خلال دقائق معدودة يتبدد الحب والمتعة، تلملم أشياءك ومخلفاتك– القبعات والسراويل والأحذية التي جبت بها العالم– وتنسحب لأن الآلهة تقبل الجنس وتمارسه والجماع الحالم الذي لا حدود لجماله الطافي بنعس فوق اللحظة الهاربة العابرة كالبرق، لم يحدث: يحدث: حدث: هو متعة إضافية فقط في عين الفيلة والحيتان: ولكن لو كان ثمّة خطيئة أيضاً لما سُمح لك بالهرب، فك الارتباط والعودة. – أليس هذا صحيحاً؟» توقف؛ كان له أن يقاطعه بسهولة هنا، إلا أن كونتن لم يقاطعه. ظل جالساً دون حراك، يداه في جيبي سرواله، انحنى كتفاه للأمام مقوساً ظهره، أخفض وجهه وبدا وجهه أصغر مما هو عليه على نحو مثير للفضول قياساً بطول وامتشاق قامته– رقة عظامه، التنافر بين فكه العلوي والسفلي، الذي ما يزال بادياً وهو في العشرين، طغى صدى ذلك، صدى المراهقة– مقارنة بالضخامة الطفولية الملائكية للشخص الآخر الجالس أمامه، الأصغر، الذي لا تضفي عليه ضخامته وثقل وزنه إلا المزيد من صغر السن، صبي مكتنز في العشرين يزيد وزنه عن أقرانه قرابة عشرين أو ثلاثين رطلاً ومع ذلك يبدو أصغر سناً من فتى في الرابعة عشرة كسب بعض الاكتناز ثم خسره، باعه (برضاه أم رغماً عنه) مقابل حالة العذرية التي لا تحمل أي صفات أنثوية أو ذكورية.

قال كونتن: «لا أعرف».

قال شريف: «حسناً. ربما أنا لا أعرف أيضاً. لكن، يا يسوع، من المقدّر لك أن تقع في الحب يوماً ما. لكنه لن يلقي بك أرضاً. سيكون كما لو أن الله خلق يسوع ومن ثم رأى أن لديه أدوات النجار غير أنه لم يهبه المواد كي يعمل بها. ألا تصدق ذلك؟»

قال كونتن: «لا أعرف». لم يتحرك. نظر شريف إليه. حتى في فترات الصمت تتبخر أنفاسهما برقة وعذوبة في الغرفة الخانقة. مر وقت طويل منذ أعلنت دقات الساعة انتصاف الليل.

«أتقصد أن الأمر لا يعنيك؟» لم يجب كونتن. «هذا صحيح. لا تقل ذلك. لأنني أعرف أنك تكذب.– حسناً إذاً. اسمعني. لأنه لم يكترث يوماً للحب وترك الأمور تجري على سجيّتها. ربما عرف بوجود القدر، لعنة حلّت عليه، مثل ما حدّثتك عنه الخالة روزا والأمور التي ينبغي أن تحدث بصرف النظر عما جرى، كي تتوازن الحسابات، اكتب مدفوع على الورقة القديمة كي يتسنى لمن يحتفظ بالأوراق تمزيقها من دفتر الحسابات وحرقها، والتخلص منها. ربما عرف حينها أنه مهما فعل الرجل العجوز، وبمعزل عن نيّته سواء كانت صافية أم خبيثة، فلن يكون العجوز هو من سيدفع الحساب؛ والآن وبعد إفلاس العجوز وتقهقره وكبر سنه، من سيدفع الحساب سوى ولديه، ذريّته، أوَليس هذا المتعارف عليه منذ قديم الزمان؟ إبراهيم الهرم وبعد أن أنهكه طول العمر وما عاد قادراً على إلحاق أي أذى الآن، ألقي القبض عليه وقال له القباطنة والمحصلون ‹أيها العجوز، لا نريدك أنت› وقال إبراهيم ‹ليتمجد اسم الرب، لقد أنجبتُ أبناءً كي ينوؤوا بعبء الآثام والاضطهاد عني؛ أجل، ربما كي يستعيدوا أغنامي وقطعاني من يد السارق: لأكحّل عيني برؤية أملاكي ومقتنياتي التي تتضاعف مئة مرة على مرّ الأجيال والأسلاف إلى أن تفيض روحي›. علم طوال الوقت أن الحب يتدبر أموره بنفسه. لهذا ربما لم يفكر فيها خلال الأشهر الثلاثة بين شهر أيلول وعيد الميلاد تلك السنة بينما كان هنري يحدّثه عنها، ويقول مع كل نفس يتنفسه: حياتها وحياتي مرتبطة بحياتك، لم يحتج لهدر أي لحظة على الحب بعد حدوثه، بعد ارتداد نيران الحب عليه، لماذا لم يكلف نفسه يوماً عناء مراسلتها (باستثناء الرسالة الأخيرة) التي أرادت الاحتفاظ بها، لماذا لم يتقدم لخطبتها ويقدم لها خاتم الزواج كي تتبجح به السيدة ستبن. لأن النصيب مقدّر عليها أيضاً: إبراهيم الهرم نفسه الذي كان طاعناً في السن وضعيفاً ولا أحد يريد أن يزجه في أي دين؛ ربما لم يتعين عليه حتى الانتظار حتى عيد الميلاد لرؤيتها ليعرف هذا؛ قد يكون هذا ما خرج به بعد الأشهر الثلاثة التي أمضاها هنري يتحدث طيلة الوقت فيما لم يكن هو مصغياً له: لا أسمع عن شابة صبيّة، بتول؛ أنا أسمع عن حقل مسيّج ضيق لم تمسسه يد إنسان لكنه تربة جاهزة للزرع وكل ما يتوجب عليّ فعله هو رمي بذوري فيها وتسويتها مجدداً، التقاها في عيد الميلاد وكان متيقناً مما سيفعله

ومن ثم نسي الأمر، عاد إلى الجامعة ولم يتذكر حتى أنه نسيها، فقد كان كثير الانشغال ووقته ضيقاً؛ ربما تذكر مرة واحدة في ذلك اليوم الربيعي الذي تحدثتَ عنه عندما توقف وقال، بهدوء تام: حسناً. أود أن أضاجع الفتاة التي قد تكون أختي. حسناً ومن ثم نسي هذا أيضاً. كان وقته ضيقاً. لم يكن يملك أي شيء سوى الوقت، لأن عليه الانتظار. ولكنه لم يكن ينتظرها. سوّيت كل الأمور. كان ينتظر الآخر. ربما انتظر البريد كل مرة متوقعاً أن يحمل له الزنجي رسالة من مزرعة ستبن فيما حسب هنري أنه ينتظر رسالة منها بينما ما كان يدور في ذهنه ربما سيكتبها. كل ما عليه كتابته ‹أنا والدك. احرق هذه الرسالة›. أو إن لم يكن هذا فحواها، فقصاصة من الورق مكتوب عليها كلمة واحدة ‹تشارلز› في يده، وسأفهم قصده ولن يتعين عليه أن يطلب مني إحراقها. أو خصلة من شعره أو أظافر مقصوصة من إصبعه وسأتعرّف عليها على الفور لأنني أعتقد أنني لطالما عرفت شكل أظافره وشعره، يمكنني تمييز تلك الخصلة وتلك الأظافر من بين الملايين منها. ولم ترد الرسالة، وكان يراسلها كل أسبوعين وترده رسالتها بالمقابل، وربما فكر لو أن أحد رسائلي لها تعاد إليّ غير مفتوحة. فقد تكون هذه إشارة. ولم يحدث هذا: ومن ثم بدأ هنري يتحدث عن مروره بمزرعة ستبن ليوم أو يومين في طريق عودته وكان موافقاً، وقال سيكون هنري من سيحصل على الرسالة، ستقول الرسالة إنه من غير اللائق أن أعرّج عليهم في ذلك الوقت؛ ولهذا من الواضح أنه لا ينوي الإقرار بأبوته والاعتراف بأنني ابنه، ولكن يتوجب عليّ على الأقل إرغامه على الاعتراف بذلك. ولم تصل هذه الرسالة أيضاً وحددوا موعد الزيارة وأُعلمت العائلة في مزرعة ستبن بالموعد ولم تصل تلك الرسالة أيضاً وفكر في هذه الحال؛ قد أكون مخطئاً بشأنه؛ ربما هذا ما ينتظره وربما تهلّل قلبه حينها وقال أجل. أجل. سأهجرها؛ سأتخلّى عن الحب وعن كل شيء؛ سيكون هذا رخيصاً، رخيصاً، على الرغم من أنه يقول لي ‹لا تنظر مجدداً إلى وجهي؛ تقبّل حبي واعترافي سرّاً، وارحل› سأفعل ذلك؛ لن أطلب حتى أن يخبرني ما الذي فعلته أمي ودفعه لفعل هذا بها وبي. وجاء اليوم الموعود وقطع وهنري أربعين ميلاً مجدداً، ووصلا إلى البوابات وولجا إلى المنزل. عرف ما الذي بانتظاره– السيدة التي رآها مرة واحدة واستشفّ الكثير من خلالها، الفتاة التي عرف عنها كل شيء قبل أن يراها، الرجل الذي يراه كل يوم، حاذر من حاجته الماسة المخيفة ولم يخترقه أبداً– الأم التي اختلت بهنري قبل أن يمضي على وجودهما في الدار الكبيرة ست ساعات خلال زيارة عيد الميلاد وأخبرته بأمر الخطوبة حتى قبل أن يتسنى للخطيب قرن اسم الابنة بوجهها: حدث هذا إذاً قبل أن يعودا إلى الجامعة، ودون علم منه بأنه فعل هذا، أخبر هنري بون بما يجول في خاطر أمه (التي أخبرت بون سلفاً ما يجول في خاطره)؛ كان هذا ربما قبل أن يبدأ بون زيارته الثانية– (لا بد أنه كان شهر حزيران وكيف يكون الطقس في الميسيسيبي في هذا الوقت من السنة؟ كيف وصفتَه؟ زهرة

المغنوليا في أوج إزهارها والطيور المقلّدة، وبعد خمسين سنة، بعد أن رحلوا وخاضوا الحرب وخسروها وعادوا، يوم الذكرى [53] والمحاربون القدامى ببزاتهم الرمادية الأنيقة النظيفة المكوية والميداليات البرونزية المزيفة التي لم تكن لتحمل أي معنى، والصبايا المختارات بعناية بفساتينهن الضيقة عند الخصر المحاط بزنانير قرمزية فيما الفرقة الموسيقية تعزف أغنية «ديكسي» وكل الرجال العجائز الخرفين يزعقون صارخين بقوة لم تكن لتتوقع أن في صدورهم الهواء الكافي لإصدارها، يجوبون البلدة ثم يجلسون على المنصة)– لا بدّ أنه شهر حزيران، المغنوليا والطيور المقلّدة تحت ضوء القمر ونسيم الصيف يعبث بالستائر والموسيقا، الكمنجات وآلة المثلث الموسيقية، داخل الأطواق الملتفة والمنحنية: كان هنري متوتراً بعض الشيء، يفكر بأن يقول له ‹أطلب منك أن تخبرني عن نواياك إزاء أختي› لكنه لم يقل ذلك، عوضاً عن هذا، ربما احمرّت وجنتاه مجدداً حتى تحت ضوء القمر، لكنه وقف منتصباً خجلاً لأنك عندما تكون واثقاً بما يكفي كي تكون متواضعاً لا تجد نفسك مضطراً للتملّق (هو من كان يقول مع كل نفس يتنفسه نحن وأنت واحد؛ افعل ما يحلو لك معنا)، قال ‹كنت أظن أنني سأكره الرجل الذي يتعين علي رؤيته كل يوم فيما كل إيماءة تصدر منه وكل حركة تنم عنه وكل كلمة ينطقها تقول لي، رأيت ولمست أجزاء في جسد أختك لن تراها أو تلمسها قط: وأعرف الآن أن عليّ أن أكرهه ولهذا أرغب أن تكون أنت هذا الرجل›، ولإدراكه بأن بون يعرف قصده، كان يحاول أن يقول، أخبره، فكر، قائلاً لنفسه (هنري): ليس فقط لأنه أكبر مني وعرف أكثر مما سأعرفه في حياتي كلها وتذكر الكثير من الأمور؛ ولكن وانطلاقاً من إرادتي الحرة، وسواء عرفت في الوقت المناسب أم لا، أهب حياتي وحياة جوديث له–»

قال كونتن: «هذا ليس حباً على الرغم من ذلك».

قال شريف: «حسناً. اسمعني. – قطعا الأربعين ميلاً وعبرا البوابات وولجا إلى الدار الكبيرة. إلا أن ستبن لم يكن هذه المرة هناك. وإلين لم تكن تعرف مكانه، ظنت ببرود وعدم اكتراث أنه ذهب إلى ممفيس أو ربما إلى سانت لويس لقضاء بعض الأعمال، ولم يأبه هنري ولا جوديث لهذا الأمر كثيراً، ولم يكترث أحد غيره، بون، لأمر معرفة مكانه، قال لنفسه بالطبع؛ لم يكن متأكداً؛ كان عليه الذهاب إلى هناك للتأكد، قال هذا لنفسه بصوتٍ عالٍ هذه المرة، بصوتٍ عالٍ وخاطف أيضاً كي لا يتمكن من سماع ما قاله، قال لكن لو أن الشكوك ساورته، لماذا لم يخبرني؟ كنت لأفعل هذا، أقصده أولاً، أنا الذي تجري في عروقي الدماء التي دُنست بذلك الشيء المتعلق بأمي؛ بصوت عالٍ وخاطف، قال لنفسه هذا هو الأمر إذاً؛ ربما سبقني وينتظرني؛ لم يترك أية رسالة لي هنا كي لا يثير شكوك الآخرين وعرف أنني سأعرف على الفور مكانه عندما أعلم بغيابه، فكر فيهما، المرأة الانتقامية الكئيبة التي كانت أمه

والرجل المتجهم المتحجر الذي نظر إليه كل يوم على مدار عشرة أيام دون أن تتغير ملامحه أو يصدر عنه أي تعبير على الإطلاق، وجهاً لوجه أمام بعضهما البعض وكأنهما في هدنة ثقيلة بعد قرابة ثلاثين عاماً في الغرفة الفخمة الباروكية في المنزل الذي كان يسميه بيته لأن على الجميع أن يكون لهم مكان يسمونه بيتهم، الرجل الذي يشك بأنه أبوه لم يكن متواضعاً الآن أيضاً (وكان، بون، فخوراً بهذا)، لم يقل كنت مخطئاً وأعترف بخطئي– يا يسوع، فكر في قلبه حينها، خلال هذين اليومين، والسيدة العجوز ترمي جوديث في وجهه كل لحظة لأنها نشرت خبر الخطوبة بسرية في طول البلاد وعرضها منذ عيد الميلاد– ألم يعلمك والدك كيف أخذت جوديث إلى ممفيس في الربيع لشراء جهاز العرس؟ – وجوديث لم تتخذ أي موقف لا بالانسياق ولا بالمقاومة واكتفت، بمجرد الوجود والتنفس على غرار هنري الذي استيقظ ربما في صباح أحد تلك الأيام الربيعية وظل مستلقياً في السرير يفكر بالممتلكات، يضيف الأعداد ويجري الحسابات ويقول لنفسه، حسناً. أحاول أن أكون كما يريدني أن أكون؛ يمكنه فعل ما يحلو له بي؛ عليه فقط أن يأمرني وسأطيعه؛ حتى لو بدا طلبه مخزياً بالنسبة لي، سأفعله على الرغم من ذلك، جوديث وحدها، لأنها أنثى وبالتالي فهي أكثر حكمة منه، لن تنظر للطلب على أنه مخزٍ: ستكتفي بالقول، حسناً، سأفعل كل ما يأمرني به ولهذا لن يطلب مني فعلً أي شيء قد يبدو مخزياً بالنسبة لي: هكذا إذاً (ربما قبّلها في تلك الزيارة، أول قبلة لها في حياتها كلها ربما وكانت أبرأ من أن تتظاهر بالخفر أو العفة أو حتى أنه يماطلها، ربما نظرت إليه بعد القُبلة بشيء من الدهشة الوادعة الهاجعة الخالية من أي معنى التي تشعر بها عندما يقبّلك من تحب للمرة الأولى لكنها قبلة أخوية– مع الأخذ بعين الاعتبار طبعاً أن أخاك قد يفكر قبل أن، يُقبِل على، تقبيلك على ثغرك)– بعد انقضاء اليومين ورحيله مجدداً أنّبتها إلين ‹ماذا؟ لا خطوبة، لا عهود، لا خاتم؟› صُعقت لدرجة لم تقو على الكذب لأنها حينها فقط أدركت أنه لم يتقدم لخطبتها.– فكّر بقلبه في ذلك الوقت، يمتطي جواده متجهاً نحو النهر، ومن ثم يستقل العبّارة نفسها يصعد إلى سطحها، يستشعر من خلال خشب الأرضية المحركات التي تقرّبه من اليوم والليلة واللحظة التي سيتعين عليه أن يدرك فيها كم انتظر طويلاً ليشتد عوده وينضج ويستوعب. بالطبع توجب عليه من حين لآخر أن يقول ذلك بسرعة وبصوت عالٍ، هذا كل ما هنالك. عليه أن يتأكد أولاً ثم يأتي الصوت الآخر لكن لِمَ عليه أن يقوم بذلك بهذه الطريقة؟ لِمَ لا يعود إلى هناك؟ يعلم أنني لن أطالب بحصتي من ممتلكاته، التي حصدها بعد الكثير من التضحيات والصبر وتحمل صعاب (أخبروني عن ذلك، لم أسمع هذا منه: بل منهم) لا يعرف مرارتها غيره؛ يعلم هذا جيداً لهذا لن يخطر على باله تماماً كما لن يخطر على بالي بأن هذه قد تكون أسبابه، هو الكريم متحجر القلب، الذي تخلّى عن كل شيء يمتلكه هو وأمي وقدمه لها ولي كمقابل لهجرها، ليس

لأن هذه الطريقة ألحقت الأذى به، وضعته محط سخرية وشك لفترة أطول مما ينبغي، لأنه لم يأبه؛ لم يكترث للمضايقات أو حتى للصلب: ما أرّقه أنه سيظل هناك دائماً ما يذكره بأنه ما كان ليفعل ذلك بهذه الطريقة لو كان مكانه، ومع ذلك تجري في عروقه الدماء التي لوثها ذلك الأمر الذي يخص والدته أو الذي ارتكبته والدته.– أقرب وأقرب، إلى أن انصهر الشك والارتياب والحيرة والتسرّع في بوتقة واحدة من التسامي والاستسلام السلبي فلم يجد ما يقوله سوى حسناً. حسناً. وإن كانت بهذه الطريقة. حتى لو أراد أن يفعلها بهذه الطريقة. أعد بألا أراها مجدداً. ألا أراها مجدداً قط. ثم وصل إلى المنزل. ولم يعرف أبداً إن كان ستبن قد جاء إلى المنزل أم لا. لم يعرف أبداً. اعتقد أنه جاء، لكنه لم يعرف قط– والدته ما تزال تلك المرأة الكئيبة المتجهمة العنيدة المصابة بجنون الارتياب التي تركها في أيلول، التي لم يستطع أن يتحصل منها على أية معلومات ولم يجرؤ على سؤالها– الغريب أنه وجد في طريقة المحامي المحنّكة في طرح الأسئلة (مثل إن كان قد أحب الجامعة وأهل تلك المنطقة وإن كوّن ربما– أو لم يكوّن ربما؟– صداقات هناك مع عائلات المنطقة) دليلاً إضافياً حينها يؤكد أن ستبن لم يأتِ إلى هنا، أو أن المحامي على الأقل لم يعلم بقدومه، بما أنه ظن أنه قد كشف ألاعيب المحامي وما يرمي إليه من إرساله إلى تلك الجامعة تحديداً، لم يستشف من الأسئلة ما يشير إلى أن المحامي كان يعرف أي معلومات جديدة. (أو ما الذي كان ليعرفه من تلك المقابلة مع المحامي، المقابلة السريعة؛ كانت ثاني أقصر مقابلة بينهما على الإطلاق وأقصر من أن يرشح عنها أي شيء، الأقصر بين كل اللقاءات التي تلت اللقاء الأخير بالطبع، اللقاء الذي سيتم في الصيف التالي، عندما يكون بصحبة هنري). لم يجرؤ المحامي على المخاطرة وسؤاله بشكلٍ مباشر، تماماً كما لم يجرؤ بون على سؤال أمه بشكلٍ مباشر. على الرغم من أن المحامي اعتقد أنه مغفل أكثر منه بليداً أو ثقيل الفهم، ولكن مع ذلك لم يحسب (المحامي) ولو للحظة أنه حتى بون سيكون من ذلك النوع من المغفلين الذي هو عليه. لهذا لم يقل للمحامي شيئاً والمحامي بدوره لم يقل له شيئاً، وانقضى الصيف وحلّ شهر أيلول ولم يسأله المحامي (ولا أمه) ولو لمرة واحدة إن كان يرغب بالعودة إلى الجامعة. ولهذا تعيّن عليه أخيراً أن يقولها بنفسه، أن يقول بأنه ينوي العودة؛ وربما عرف أنه خسر تلك الورقة لأن وجه المحامي لم يشي بأي شيء سوى بملامح الإذعان للزبون. عاد إلى الجامعة إذاً، وكان هنري ينتظره (نعم؛ ينتظره)، لم يقل حتى ‹لم تجب على رسائلي. لم تراسل حتى جوديث› هو من قال سابقاً ممتلكاتي وممتلكات أختي هي ممتلكاتك أيضاً لكنه ربما بعث رسالة إلى جوديث، وأرسلها مع أول زنجي التقاه ليوصلها إلى مزرعة ستبن، متحدثاً فيها عن مدى رتابة الصيف الذي أمضاه ولهذا فلا يوجد ما يحدثها عنه، وربما كتب اسم تشارلز بون غير المعترف به بوضوح على الظرف قائلاً لنفسه لا بد وأن يرى هذا. ربما سيعيد

الرسالة فكر ربما إن عادت الرسالة لن يمنعني شيء حينها وسأعرف ما يتوجب عليّ فعله في ذلك الحين. لكن الرسالة لم تعد. والرسائل الأخرى لم تعد. ومر الخريف وجاء عيد الميلاد وقادا حصانيهما مجدداً إلى مزرعة ستبن ولم يكن هناك هذه المرة أيضاً، كان في الحقل، ذهب إلى البلدة، ذهب للصيد– شيء من هذا القبيل؛ لم يكن ستبن هناك وعرف بون أنه لا يتوقع رؤيته، قائلاً لنفسه الآن. الآن. الآن. سيحدث هذا الآن. سيحدث هذه المرة، وأنا شاب، شاب، ولا أعرف كيف أتصرف. ربما ما كان يفعله في غسق ذلك اليوم (لأنه علم بعودة ستبن، كان في الدار الكبيرة الآن؛ شعر بشيء أشبه بالرياح، شيء مظلم وبارد، أنفاس قريبة منه فتوقف، شحب لونه، جمد، تنبه، فكر ما هذا؟ ما هذا؟ ثم عرف؛ شعر بدخول الآخر إلى الدار الكبيرة، زفر الأنفاس التي قطعها بهدوء، زفير عميق مكتوم، ضربات قلبه التي حصدها بعد الكثير من التضحيات والصبر وتحمل صعاب (أخبروني عن ذلك، لم أسمع هذا منه: بل منهم) لا يعرف مرارتها غيره؛ يعلم هذا جيداً لهذا لن يخطر على باله تماماً كما لن يخطر على بالي بأن هذه قد تكون أسبابه، هو الكريم متحجر القلب، الذي تخلّى عن كل شيء يمتلكه هو وأمي وقدمه لها ولي كمقابل لهجرها، ليس لأن هذه الطريقة ألحقت الأذى به، وضعته محط سخرية وشك لفترة أطول مما ينبغي، لأنه لم يأبه؛ لم يكترث للمضايقات أو حتى للصلب: ما أرّقه أنه سيظل هناك دائماً ما يذكره بأنه ما كان ليفعل ذلك بهذه الطريقة لو كان مكانه، ومع ذلك تجري في عروقه الدماء التي لوثها ذلك الأمر الذي يخص والدته أو الذي ارتكبته والدته.– أقرب وأقرب، إلى أن انصهر الشك والارتياب والحيرة والتسرّع في بوتقة واحدة من التسامي والاستسلام السلبي فلم يجد ما يقوله سوى حسناً. حسناً. وإن كانت بهذه الطريقة. حتى لو أراد أن يفعلها بهذه الطريقة. أعد بألا أراها مجدداً. ألا أراها مجدداً قط. ثم وصل إلى المنزل. ولم يعرف أبداً إن كان ستبن قد جاء إلى المنزل أم لا. لم يعرف أبداً. اعتقد أنه جاء، لكنه لم يعرف قط– والدته ما تزال تلك المرأة الكئيبة المتجهمة العنيدة المصابة بجنون الارتياب التي تركها في أيلول، التي لم يستطع أن يتحصل منها على أية معلومات ولم يجرؤ على سؤالها– الغريب أنه وجد في طريقة المحامي المحنّكة في طرح الأسئلة (مثل إن كان قد أحب الجامعة وأهل تلك المنطقة وإن كوّن ربما– أو لم يكوّن ربما؟– صداقات هناك مع عائلات المنطقة) دليلاً إضافياً حينها يؤكد أن ستبن لم يأتِ إلى هنا، أو أن المحامي على الأقل لم يعلم بقدومه، بما أنه ظن أنه قد كشف ألاعيب المحامي وما يرمي إليه من إرساله إلى تلك الجامعة تحديداً، لم يستشف من الأسئلة ما يشير إلى أن المحامي كان يعرف أي معلومات جديدة. (أو ما الذي كان ليعرفه من تلك المقابلة مع المحامي، المقابلة السريعة؛ كانت ثاني أقصر مقابلة بينهما على الإطلاق وأقصر من أن يرشح عنها أي شيء، الأقصر بين كل اللقاءات التي تلت اللقاء الأخير بالطبع، اللقاء الذي سيتم في الصيف

التالي، عندما يكون بصحبة هنري). لم يجرؤ المحامي على المخاطرة وسؤاله بشكلٍ مباشر، تماماً كما لم يجرؤ بون على سؤال أمه بشكلٍ مباشر. على الرغم من أن المحامي اعتقد أنه مغفل أكثر منه بليداً أو ثقيل الفهم، ولكن مع ذلك لم يحسب (المحامي) ولو للحظة أنه حتى بون سيكون من ذلك النوع من المغفلين الذي هو عليه. لهذا لم يقل للمحامي شيئاً والمحامي بدوره لم يقل له شيئاً، وانقضى الصيف وحلّ شهر أيلول ولم يسأله المحامي (ولا أمه) ولو لمرة واحدة إن كان يرغب بالعودة إلى الجامعة. ولهذا تعيّن عليه أخيراً أن يقولها بنفسه، أن يقول بأنه ينوي العودة؛ وربما عرف أنه خسر تلك الورقة لأن وجه المحامي لم يشي بأي شيء سوى بملامح الإذعان للزبون. عاد إلى الجامعة إذاً، وكان هنري ينتظره (نعم؛ ينتظره)، لم يقل حتى ‹لم تجب على رسائلي. لم تراسل حتى جوديث› هو من قال سابقاً ممتلكاتي وممتلكات أختي هي ممتلكاتك أيضاً لكنه ربما بعث رسالة إلى جوديث، وأرسلها مع أول زنجي التقاه ليوصلها إلى مزرعة ستبن، متحدثاً فيها عن مدى رتابة الصيف الذي أمضاه ولهذا فلا يوجد ما يحدثها عنه، وربما كتب اسم تشارلز بون غير المعترف به بوضوح على الظرف قائلاً لنفسه لا بد وأن يرى هذا. ربما سيعيد الرسالة فكر ربما إن عادت الرسالة لن يمنعني شيء حينها وسأعرف ما يتوجب عليّ فعله في ذلك الحين. لكن الرسالة لم تعد. والرسائل الأخرى لم تعد. ومر الخريف وجاء عيد الميلاد وقادا حصانيهما مجدداً إلى مزرعة ستبن ولم يكن هناك هذه المرة أيضاً، كان في الحقل، ذهب إلى البلدة، ذهب للصيد– شيء من هذا القبيل؛ لم يكن ستبن هناك وعرف بون أنه لا يتوقع رؤيته، قائلاً لنفسه الآن. الآن. الآن. سيحدث هذا الآن. سيحدث هذه المرة، وأنا شاب، شاب، ولا أعرف كيف أتصرف. ربما ما كان يفعله في غسق ذلك اليوم (لأنه علم بعودة ستبن، كان في الدار الكبيرة الآن؛ شعر بشيء أشبه بالرياح، شيء مظلم وبارد، أنفاس قريبة منه فتوقف، شحب لونه، جمد، تنبه، فكر ما هذا؟ ما هذا؟ ثم عرف؛ شعر بدخول الآخر إلى الدار الكبيرة، زفر الأنفاس التي قطعها بهدوء، زفير عميق مكتوم، ضربات قلبه انتظمت مجدداً) في الحديقة عندما كان يتنزه بصحبة جوديث متحدثاً إليها بنبل ورفعة وعفوية (وتنظر جوديث إلى كل هذا كما نظرت إلى القبلة الأولى في الصيف الماضي: هكذا هو إذاً. هكذا يكون الحب، خيبة ثانية ولكنها لم تُكسر رغم ذلك)؛ – ربما لم يفعل شيئاً حينها سوى الانتظار، قائلاً لنفسه ربما سيرسل في طلبي رغم كل شيء. سيبوح لي على الأقل مع أنه يعرف تماماً: إنه في المكتبة الآن، أرسل الزنجي ليطلب من هنري موافاته إلى المكتبة، يدخل هنري الغرفة الآن: توقف حينها ربما وصار أمامها وجهاً لوجه، ارتسمت ظلال ابتسامة على وجهه الآن، أمسكها من مرفقها وأدارها برفق وحنو، ليصبح وجهها نحو الدار، وقال ‹اذهبي. أود أن أظل لوحدي لأفكر بالحب› وذهبت منصاعة تماماً كما انصاعتِ للقبلة في ذلك اليوم، ربما شعرت برقة يده على ظهرها. وقف

مواجهاً الدار إلى أن خرج هنري، وتبادلا النظرات لثوانٍ معدودة دون نطق كلمة واحدة ومن ثم استدارا وسارا معاً في الحديقة، عبرا قطعة الأرض الصغيرة ودخلا إلى الإسطبل، حيث وجدا ربما زنجياً فأسرجا حصانيهما بأنفسهما وانتظرا إلى أن يأتي زنجي الدار بأكياس السرجين بعد تعبئتهما بالمؤن. ربما لم يقل حينها ‹لكنه لم يراسلني؟›»

توقف شريف، هذا هو، كل شيء بالنسبة لهما، شريف وكونتن، عرفا أنه توقف، لأنهما عرفا أنه لم يبدأ قط، فلا أهمية (وربما لم يكن يدري أي منهما الفرق) لمن يتولى دفة الحديث. لم يكونا شخصين من امتطيا الحصانين وإنما هم الأربعة شقوا طريقهم وسط العتمة عابرين الأخاديد التي جمّدها صقيع شهر كانون الأول عشية عيد الميلاد: هم الأربعة ومن ثم فقط اثنان منهم– تشارلز– شريف وكونتن– هنري، اعتقد اثنان منهم أن هنري كان يفكر هو (يقصد والده) دمّر كل شيء، لم يفكر للحظة واحدة بـ هو (يقصد بون) عرف حتماً أو على الأقل راودته شكوك طوال الوقت؛ ولهذا تصرف على هذا النحو، لِم لم يرد على رسائلي الصيف الفائت ولم يراسل جوديث، لِم لم يتقدم لخطبتها؛ اعتقد بأن هذا ما خطر على بال هنري، خلال تلك اللحظة بعد خروج هنري من الدار وتبادل النظرات مع بون دون نطق كلمة واحدة ومن ثم سارا إلى الإسطبل وسرجا حصانيهما، وهنري تعامل برويّة مع الأمر لأنه لم يكن قد صدق بعد على الرغم من معرفته بصحته، لا بد وأنه فهم الآن بقنوط تام السر الكامن وراء تصرفاته مع بون منذ اللحظة الغريزية الأولى التي رآه فيها قبل سنة وربع؛ عرف، لكنه مع ذلك لم يصدق، كان عليه أن يرفض التصديق. امتطى أربعتهم إذاً الحصانين تلك الليلة إلى أن طلع نهار عيد الميلاد في جنوب الميسيسيبي، كما لو أنه منبوذ يعبر منازل المزرعة مدفوعاً بقوة مقدسة يطرق الأبواب ونبات الهدال يتدلى من الثريات وشراب البيض مع الحليب في الأطباق ومشروب التودية [54] على الموائد في القاعات ودخان الخشب معلّق فوق المداخن المجصصة في أكواخ العبيد، متجهين نحو النهر والعبّارة. ثمّة احتفالات بعيد الميلاد على متن العبّارة أيضاً: الأجواء نفسها ونبات الهدال أيضاً، الشراب والمشروب نفسهما؛ ربما، بلا شك، عشاء الميلاد وحفلة راقصة، لكن ليس لهما: الاثنان تلفهما العتمة والبرد يستندان على الدرابزين فوق المياه المعتمة دون نطق حرف واحد فما من شيء لقوله، الاثنان (أربعتهم) معلّقان في تلك المرحلة الحساسة، الاختبارية، المترعة بشكوك هنري الذي عرف ورفض التصديق، الذي عقد العزم معتمداً على النظر في الأمر ليثبت لنفسه شيئاً، حسب اعتقاد شريف وهنري، سيكون لمعرفة حقيقته طعم الموت بالنسبة إليه. ترجل أربعتهم عن العبّارة في نيو أورلينز، التي لم يزرها هنري من قبل (الذي اقتصرت تجربته الكوزموبولتينية، باستثناء إقامته في الجامعة، على رحلة أو رحلتين إلى ممفيس برفقة والده

لشراء البضائع أو العبيد) ولا وقت لاستكشاف المكان الآن– هنري الذي عرف لكنه رفض التصديق، وبون الذي وصفه السيد كمبسن بالمسلّم بالقضاء والقدر ولكنه، حسب شريف وكونتن، لم يقاوم أمر هنري ومخططه لأنه لم يعرف به ولم يكترث لنوايا هنري أو مقاصده لأنه أدرك منذ زمن بعيد بجهله التام لما سوف يقوم هو نفسه بفعله؛– الأربعة الذين جلسوا في غرفة الرسم الباروكية والأبهة العفنة التي اخترعها شريف والتي كان محقاً بأمرها، بينما الابنة التي ولدت في هاييتي لمزارع قطن فرنسي والسيدة التي قال حمو ستبن من زواجه الأول بأنها إسبانية (السيدة رثة الملابس ذات الشعر الأشعث المجعد الرمادي كريش الغراب الذي تربطه كذيل الحصان، وبشرتها الأشبه بورق المخطوطات وعيناها السوداوان الغائرتان العنيدتان اللتان لا تشفان عن أي عمر لأنهما لا تعرفان النسيان، التي اختلقها شريف وكونتن على حدٍّ سواء والتي كانت حقيقية ربما) لم تخبرهما أي شيء فهي لم تحتج لذلك لأنها قالت كل شيء من قبل، لم تقل ‹ابني مغرم بأختك؟› وإنما ‹وقعت في غرامه إذاً› ثم جلست تقهقه بفظاظة محدقة في وجه هنري الذي لم يستطع الكذب عليها حتى لو أراد ذلك، والذي لم يضطر على الإطلاق للإجابة بـ نعم أو كلا. – أربعتهم، في تلك الغرفة في نيو أورلينز عام 1860، وساد شعور بأن أربعتهم هنا في هذه الغرفة الخانقة في ماساتشوستس عام 1910. وربما أخذ بون، ربما فعل، هنري لزيارة العشيقة والطفل، كما قال السيد كمبسن، على الرغم من أن شريف وهنري لم يصدقا أن الزيارة أثرت على هنري كما حسب السيد كمبسن. في الواقع، كونتن لم يخبر شريف أصلاً بما قاله له والده عن هذه الزيارة. ربما كونتن لم يصغِ عندما روى السيد كمبسن (اختلق؟) القصة في تلك السهرة في الدار؛ ربما في تلك اللحظة في الرواق في غسق أيلول أخذ كونتن الأمر بروية دون الحاجة لسماع القصة تماماً كما فعل شريف، لأنه هو وشريف حسبا– وربما كانا على حق في هذا أيضاً– أن العشيقة والطفل مجرد أمر جديد يعرفه عن بون، لم يحسده لكنه تقبّل الأمر إن كان هذا ممكناً، إن توفر الوقت والسلام للتأقلم– سلام يعقد ليس بين الرجال من العرق نفسه والوطن نفسه وإنما سلام بين روحين شابتين محاصرتين والحقيقة التي لا تقبل الجدال التي تحاصرهما، لأن هنري وبون، على غرار كونتن وشريف، كانا أول شابين يؤمنان (أو على الأقل يتظاهران) بأن الحروب تُشن أحياناً فقط من أجل حل المشاكل الخاصة التي تواجه الشباب وتهدئة سخطهم.

«سألت السيدة العجوز إذاً هنري ذلك السؤال ثم جلست تقهقه هازئة منه، عرف حينها، كلاهما عرف حينها. وحدث ذلك اللقاء السريع، هذه المرة مع المحامي، أقصر لقاء على الإطلاق. كان المحامي يراقبه؛ ربما وردت رسالة أثناء ذاك الخريف الثاني بينما كان المحامي ينتظر لكن شيئاً لم يحدث (ربما

كان المحامي هو السبب وراء عدم رد بون قط على رسائل هنري وجوديث خلال الصيف: فهو لم يستلمها أبداً)– رسالة، مكوّنة من صفحتين أو ربما ثلاث صفحات الكلمات المتوددة الرقيقة... إلخ التي تختصر تسع كلمات أعرف أنك مغفل، ولكن أي نوع من المغفلين أنت؟ وكان بون لحسن الحظ ليس مغفلاً لدرجة ألا يفهم قصده. – نعم، راقبه، دون قلق، بانزعاج واضح، أعطى بون متسعاً من الوقت كي يأتي إليه، أعطاه أسبوعاً كاملاً ربما (بعد أن رسم – المحامي– مخططاً للسيطرة على هنري ومعرفة ما يدور في ذهن هنري دون أن يشعر هنري به) قبل أن ينتقل لرسم المخطط الخاص ببون أيضاً، وكان من البراعة لدرجة أن حتى بون لم يدرك على الفور ما يرمي إليه. كان لقاءً قصيراً. لم تعد هناك أي أسرار بينهما الآن؛ كل شيء بات مكشوفاً دون الحاجة لقول أي شيء: جلس المحامي خلف مكتبه (وضع دفتر الحسابات في الدرج السرّي بعد أن أضاف فوائد السنة الأخيرة التي تجمع القيمة الفعلية والحب والكبرياء بنسبة مئتين بالمئة.)– المحامي متضايق، منزعج، لكنه غير قلق بعد ليس لأنه واثق من سيطرته على الأمور، وإنما لأنه لم يصدق بعد أن بون كان من ذلك النوع من المغفلين، على الرغم من أنه كان على وشك أن يعدل عن رأيه نوعاً ما بشأن بلادته، أو على الأقل بشأن تخلّفه؛– راقبه المحامي وقال، ببساطة ودهاء، كل الأوراق على الطاولة الآن، أدرك أن بون يعرف كل ما يريد معرفته أو ما يحتاج معرفته ليوجه ضربته القاصمة: ‹هل تعلم أنك رجل محظوظ جداً؟ الأكثر حظاً بيننا، حتى عندما يحالفنا الحظ وتجري الرياح بما تشتهي سفننا كي ننتقم، حتى حينها يتعين علينا دفع الثمن، ودفعه بالدولارات أحياناً. إلا أنك في وضع يسمح لك بالانتقام، ليس هذا فحسب، بل واسترجاع سمعة أمك أيضاً، وتقديم البلسم الذي سيلأم جراحها ويوفر لها قيمة إضافية يمكن ترجمتها إلى أشياء تلبي احتياجات الشباب، أشياء مستحقة، سواءً أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا، يحظى بها مقابل بضعة دولارات–› لم يقل بون ماذا تقصد؟ ولم يتزحزح؛ ولهذا لم يدرك المحامي أنه بدأ بالتحرك ليوجه ضربته، واصل المحامي حديثه بسلاسة وسهولة: ‹وإضافة إلى الانتقام، كعلاوة، باقة أزهار عصر يوم ما، الزهرة البرية التي لا رائحة لها ولن يفتقدها أحد وتزهر في طية سترتك وفي طية أي كان؛ هذه– ماذا تسمونها أنتم الشبان؟– الفتاة الصغيرة اللطيفة–› ثم لاحظ ردة فعل بون، ربما عينيه، ربما لم يتسنَّ له سوى سماع صوت خطواته متقدماً نحوه. ثم رأى المسدس (مسدس واسع الفوهة، أو مسدس طويل، أو مسدس دوار، لا يهم) وحدث ما حدث، جثا على ركبتيه ملتصقاً بالحائط خلف الكرسي المقلوب، وزمجر قائلاً ‹تراجع! توقف!› ثم صرخ ‹النجدة! النجدة! إنه–!› صرخ فحسب، وسمع صوت عظامه تتحرك لتضغط على الزناد قبل أن يرفع أصابعه عن المسدس، وسمع صوت عظام رقبته أيضاً عندما صفعه بون براحة يده على خده ومن ثم صفعه بظهر كفه على الخد الآخر؛ ربما سمع بون أيضاً يقول

‹توقف. تمهل. لن أؤذيك› أو ربما المحامي داخله قال كلمة تمهل التي انصاع لها، وأعاده للجلوس على الكرسي مجدداً؛ استند المحامي على المكتب؛ المحامي النائم داخله الذي حذره بألا يقول ستدفع ثمن قولك هذا ولكن عوضاً عن الاستناد على المكتب، لافاً يده المصابة بمنديل بينما وقف بون فوقه محدقاً إليه، ممسكاً بالمسدس من فوهته، قال له ‹إنْ كنت تشعر بأنك تحتاج إلى الرضا، بالطبع أنت تعرف–› وبدأ المحامي الذي استوى في جلسته الآن، بتمرير المنديل على خده: ‹لقد أخطأتُ. أسأت فهم مشاعرك إزاء المسألة. أستميحك عذراً› وبون: ‹اعتذارك مقبول. كما تشاء. سأقبل اعتذارك أو رصاصة في رأسك، أيهما تفضل› والمحامي (بدأ احمرار وجهه بالاختفاء تدريجياً، لكن صوته وعينيه على حالهما): ‹أرى أنك ستستثمر سوء الفهم المشؤوم إلى أقصى حدّ– بل وتهزأ مني أيضاً. حتى لو شعرت بأنني على صواب (إلا أنني لا أشعر بذلك) عليّ أن أرفض عرضك. لن أكون على قدم المساواة معك وأنت تشهر المسدس في وجهي› وقال بون: ‹ولا إن كنت أشهر السكاكين أو السيوف؟› والمحامي، بتودد وبساطة: ‹ولا وأنت تشهر السكاكين والسيوف أيضاً›. لم يحتج المحامي لقول ستدفع ثمن هذا غالياً لأن بون سيبادر لقول هذا له، واقفاً بعد أن أنزل المسدس، فكر أستطيع ذلك بالاستعانة بالسكاكين والمسدسات والسيوف. لا أستطيع هزيمته إذاً. كان بوسعي إطلاق النار عليه. أرديه قتيلاً دون ندم وكأنني أقتل ثعباناً أو ديوثاً ضايقني. لكن مع ذلك بوسعه هزيمتي. فكر نعم. لقد هزمني بينما هو– هو– «اصغ إليّ»، قال شريف، صارخاً. «سيحدث هذا بينما هو مستلقٍ في غرفة النوم في ذلك المنزل الخاص في كورنث عقب إنزال بيتسبرغ وقد تعافى كتفه بعد مرور سنتين والرسالة من العشيقة (أو ربما الرسالة التي بعثتها مرفقة مع صورتها وصورة الطفل) التي وجدت طريقها إليه أخيراً، تستجدي المال وتخبره أن المحامي غادر إلى تكساس أو المكسيك أو أي مكان أخيراً وأنها لم تستطع الوصول إلى أمه أيضاً وهذا يعني أن المحامي قتلها بالتأكيد قبل أن يسرق النقود، فإما هربا سوية أو قُتلا تاركينها دون معيل.»)– نعم، إنهما يعرفان الآن. يا يسوع، فكر به، يا بون، من أراد أن يعرف، من لديه كل الأسباب كي يعرف، من على حدِّ علمه ليس له أب وإنما جاء بطريقة ما ووجد نفسه بين فكّي كماشة بين تلك المرأة التي لا تسمح له باللعب مع الأطفال الآخرين، وذلك المحامي الذي كان يُملي على تلك المرأة ما عليها فعله وهل عليها أن تشتري له قطعة من اللحم أم رغيفاً من الخبز أمٌّ لم تحضر– شخصان لم يعثر في أي منهما على البهجة أو الشغف ولم يكن إضجاره ليزعجهما– لو أن أياً منهما أخبره الحقيقة، لما وقعت أياً من تلك الحوادث؛ بينما هناك هنري الذي لديه أب وينعم بالأمان والرضا وبكل شيء، لكن مع ذلك كلاهما أخبراه الحقيقة فيما هو (بون) لم يخبره أي منهما عن الحقيقة. وفكر بهنري، الذي قال أولاً بأنها كذبة ومن ثم عندما عرف بأنها ليست كذبة

ظل يقول ‹أنا لا أصدق ذلك›، الذي وجد حتى في‹أنا لا أصدق ذلك› القوة الكافية التي تعينه على التخلي عن الدار الكبيرة وعن دمه كي يكون بطل موقفه، وأثبت من خلال بطولته رفضه القاطع لأن يكون الشخص المزيف وصار أكثر من أي وقت مضى ممانعاً للعودة إلى الدار؛ يا يسوع، فكّر بالحمل الثقيل الذي أثقل ظهره، ابن أب وأم ميثوديين (أو ابن سلالة طويلة غير مرئية من الميثوديين) وترعرع في مقاطعة جنوب الميسيسيبي، واجه سفاح القربى، سفاح قربى كل الأشياء التي تخصّه، تعين عليه التمرد ضد كل ما ورثه وتدرب عليه، ووجد نفسه في موقف يعلم جيداً أن لا سفاح القربى ولا التدريب سينتشلانه منه. حينها ربما غادرا وجابا الطرقات تلك الليلة ثم قال بون أخيراً ‹حسناً؟ ماذا الآن؟› قال هنري ‹مهلاً. مهلاً. دعني أعتَد على الأمر›. مرّ يومان أو ثلاثة أيام ربما ثم قال هنري ‹عليك ألا تعتاد عليه. لن تعتاد عليه› ثم كان بون من قال ‹مهلاً. أنا أخوك الأكبر: أتأمرني وتقول لي لا تفعل؟› ربما مرّ أسبوع، ربما بون أخذ هنري لرؤية العشيقة ونظر إليها هنري وقال ‹ألا يكفيك هذا؟› وقال بون ‹أتريد أن يكون هذا كافياً؟› وقال هنري ‹رويدك، رويدك. أحتاج بعض الوقت لأعتاد على الأمر. عليك أن تمهلني بعض الوقت›. يا يسوع، فكر بهنري وكيف كان يتحدث في ذلك الشتاء ثم في الربيع بعد انتخاب لنكولن واتفاقية انفصال ألاباما وبدء خروج الجنوب من الاتحاد، ومن ثم تعاقب رئيسين على حكم الولايات المتحدة وحمل التلغراف الأخبار عن تشارلستون واستدعاء لنكولن لجيشه ونهاية كل شيء، بشكل قاطع لا رجعة عنه، وقرر هنري وبون الرحيل دون استشارة بعضهما البعض، وكانا ليرحلان بكل الأحوال حتى وإن لم يلتقيا ولكن حتماً الآن، لأنك في نهاية المطاف لا تخوض حرباً هباءً؛– فكر بطريقة تحدثهما مع بعضهما البعض، كيف سيقول هنري ‹لكن أعليك أن تتزوجها؟ هل يتوجب عليك ذلك؟› وبون سيقول ‹كان عليه أن يخبرني. كان عليه أن يخبرني، يخبرني أنا، أنا. كنت منصفاً وصادقاً معه. انتظرت. تعرف الآن سبب انتظاري. منحته كل الفرص التي يحتاجها ليخبرني بنفسه. لكنه لم يفعل. لو أنه أخبرني، لكنت قد وافقت ووعدته بألا أراها أو أراك أو أراه مجدداً. لكنه لم يخبرني. ظننت في بادئ الأمر بأنه لم يفعل لأنه لم يكن يعرف. ثم عرفت أنه كان يعلم، ومع ذلك انتظرته. لكنه لم يخبرني. أخبرك أنت فقط، أرسل لي رسالة كما ترسل أمراً إلى زنجي خادم أو إلى شحاذ أو قوّاد بإخلاء المكان. ألا ترى ذلك؟› ثم قال هنري ‹لكن جوديث. أختنا. فكر فيها› وبون: ‹حسناً. فكر فيها. ثم ماذا؟› عرف كلاهما بما ستفعله جوديث عندما تعرف بالأمر لأن كلاهما يعرفان أن الكبرياء والشرف فوق كل شيء بالنسبة للنساء إلا في الحب، وقال هنري ‹نعم. أفهم. أنا أفهم. لكن عليك أن تمنحني الوقت لأعتاد عليه. أنت أخي الأكبر؛ يمكنك أن تفعل هذا كرمى لي›. فكر فيهما: بون الذي كان محتاراً إزاء ما يتعين عليه فعله أو قوله، وتظاهر بأنه يعرف؛ وهنري الذي عرفِ بما عليه فعله وكان عليه أن

يقول بأنه لا يعرف. ثم جاء عيد الميلاد مجدداً، ثم حلّ عام 1861، ولم يستلما أي رسالة من جوديث لأن جوديث لم تكن متأكدة من مكانهما لأن هنري منع بون من مراسلتها؛ ثم عرفا بأمر السريّة العسكرية، سريّة الجامعيين الرماديين، التي أنشئت في أكسفورد وكانا بانتظارها ربما. استقلا العبّارة واتجها شمالاً مجدداً، فاضت أجواء العبّارة بالمرح والتسلية أكثر من فترة أعياد الميلاد، كما لو أن الأمور تسير على هذا النحو عندما تُشنّ الحروب، قبل أن تبدد رداءة الطعام والجنود المصابون والأرامل واليتامى كل هذا، لم ينخرطا في هذا الصخب واكتفيا بالوقوف على الدرابزين مجدداً فوق المياه المتموّجة، ومرّ يومان أو ثلاثة أيام، ثم قال هنري فجأة، صرخ فجأة: ‹لكن الملوك فعلوا ذلك! حتى الدوقات! ذلك الدوق من لوريان اسمه جون تزوج أخته. طرده البابا من الكنيسة إلا أن هذا لم يلحق به أي أذى! لم يطله أي شر! ظلا زوجاً وزوجة. ظلا على قيد الحياة. بقيا عاشقين!› ثم مجدداً، قال بصوت عالٍ وخاطف: ‹لكن عليك الانتظار! عليك أن تمنحني بعض الوقت! ربما ستسوي الحرب المسألة ولن نحتاج لفعل أي شيء!› وهذه نقطة ربما كان رجلك العجوز محقاً فيها: وقادا حصانهما إلى أن وصلا إلى أكسفورد دون المرور على مزرعة ستبن ووقّعا على قائمة أسماء السريّة العسكرية ثم تواريا عن الأنظار وانتظرا، وسمح هنري لبون بكتابة رسالة واحدة فقط إلى جوديث؛ أرسلاها باليد، عبر زنجي سيتسلل عبر الأكواخ ليلاً ليوصلها إلى خادمة جوديث، وجوديث أرسلت الصورة في الإطار المعدني وظلّا منتظرين إلى أن أنهت السريّة صنع الرايات وجالت الولايات ليودع الجنود أحبّاءهم ومن ثم التحقا بجبهة القتال.

«يا يسوع، فكر فيهما. لأن بون عرف ما يرمي إليه هنري، تماماً كما كان يعرف طوال الوقت بما يفكر فيه هنري منذ التقيا للمرة الأولى. ربما كان يعرف حق المعرفة ما يرمي إليه هنري لأنه لم يعرف ما ينوي هو نفسه فعله، وأنه لن يعرف إلى أن يصير كل شيء واضحاً وضوح الشمس فجأة وسيعرف حينها أنه كان يعرف طوال الوقت أن هذا سيحدث، لهذا لم يتعب نفسه بسبر غور أفكاره واكتفى بمراقبة هنري وهو يحاول التوفيق بين ما عرف (هنري) بأنه سيفعله وبين أصوات كل ما ورثه وتدرب عليه والتي كانت تقول جميعها كلا. كلا. لا يمكنك فعل هذا. عليك ألا تفعل هذا. لا تفعل هذا ربما كانا في مرمى النيران الآن، والقذائف تنهمر عليهما من كل حدب وصوب فيما يقبعان بانتظار الأوامر ثم صرخ هنري مجدداً ‹لكن ذلك الدوق من لوريان فعلها! لا بد وأن هناك كثيرين في الأرض فعلوا ذلك ولكننا لم نسمع عنهم، ربما عانوا من هذا وتألموا وماتوا وهم الآن يحترقون في نار جهنم. لكنهم فعلوا ذلك ولا أهمية لذلك الآن، حتى هؤلاء الذين لا نعرفهم هم مجرد أسماء بالنسبة إلينا الآن ولا أهمية لهذا الآن› راقبه بون وأصغى لما يقوله وفكر لأنني أنا نفسي لا

أعرف ما الذي عليّ فعله وهو مدرك لحيرتي دون أن يعلم بأنه مدرك لذلك. ربما إن أخبرته الآن بما سأفعله، سيتخذ قراره ويحسم أمره ويقول لي، عليك ألا تفعل ذلك. ولعلّ رجلك العجوز كان محقاً هذه المرة ولم يظنا أن الحرب ستسوي الأمر بالنيابة عنهما، أو ربما هنري أمل على الأقل بأن تفعل الحرب ذلك لأن الرجل العجوز كان محقاً هنا أيضاً وبون لم يكترث لكل هذا؛ لأن الشخصين اللذين من المفترض أن يمنحاه أباً خذلاه، لا أهمية لأي شيء الآن، لا الانتقام ولا الحب ولا أي شيء آخر، لأنه عرف أن الانتقام لن يعوضه ولا الحب سيخفف من عذاباته. ربما لم يكن هنري هو من سمح له بمراسلة جوديث ولكن بون نفسه لم يكن يعرف بعد بما سيفعله. ثم حلّت السنة التالية وصار بون ضابطاً الآن وكانا على وشك خوض معركة شيلوه دون علم منهما بذلك، تحدثا أثناء اقتراب دور أسمائهما، اسم الضابط بعد اسم المجنّد وقال هنري مجدداً، بنبرة ملحة ويائسة: ‹ألم تعرف بعد ما الذي عليك فعله؟› بينما نظر إليه بون للحظة وقد ارتسمت على وجهه تلك الملامح التي قد تشبه الابتسامة: «لنفرض أنني أخبرتك بأنني لا أنوي العودة إليها؟» مشى هنري بقربه، حاملاً حقيبته وبندقيته التي يبلغ طولها ثمانية أقدام، وبدأ يلهث ويلهث ويلهث بينما بون يراقبه. ‹سأتقدمك لمسافة بعيدة هذه الفترة؛ سأخوض المعركة، أصدر الأوامر، سأتقدمك وأكون بعيداً عنك–› وقال هنري لاهثاً ‹توقف! توقف!› وبون راقبه وقد لاح ظلُّ ابتسامة عند الفم والعينين: ‹– ومن سيعرف؟ لن تعرف أنت نفسك حق المعرفة، قد تصيبني رصاصة اليانكيين في اللحظة نفسها التي تضغط أنت فيها على الزناد، أو حتى قبلها–› وهنري يلهث وينظر إلى السماء محدقاً فيها، بانت أسنانه والعرق يتصبب على وجهه ومفاصل يده البيضاء تقبض على البندقية، قال لاهثاً ‹توقف! توقف! توقف! توقف!› ثم وقعت معركة شيلوه، اليوم الذي بعده وخسارة المعركة وتقهقر الفرقة بعد إنزال بيتسبرغ– واسمع›› قال شريف؛ «رويدك، الآن، رويدك!» (حدّق في كونتن، كان يلهث بدوره، وكأن عليه أن يزود ظله بالتعليمات وبالأوكسجين أيضاً كي يطيعه): «لأن رجلك العجوز كان مخطئاً هنا، أيضاً! قال إن بون هو من جُرح، لكن هذا غير صحيح. من أخبره ذلك؟ من أخبر ستبن، أو جدك، من منهما أُصيب؟ لم يعرف ستبن لأنه لم يكن هناك، وجدك لم يكن هناك أيضاً لأنه أُصيب بدوره، خسر يده في هذه المعركة. من أخبرهم إذاً؟ ليس هنري من أخبرهم، لأن والده لم ير هنري سوى مرة واحدة وربما لم يتسنَّ لهما التحدث لبعضهما البعض عن الجروح والإصابات وإضافة إلى ذلك فإن التحدث عن الإصابات في الجيش الكونفدرالي عام 1865 كان أشبه بحديث عمّال مناجم الفحم عن السخام؛ ولم يكن بون هو من أخبره، لأن ستبن لم يره إطلاقاً لأنه كان ميتاً؛ – لم يكن بون إذاً، بل هنري؛ بون من عثر على هنري أخيراً وانحنى لحمله وهنري من رفض، أبى، وقال ‹ليكن ذلك! دعني أموت! لن أعرف بِمِا سيحدِث إن مت› وقال بون ‹تريد مني إذاً أن أعود

إليها› استلقى هنري متألماً ولاهثاً، يتصبب العرق من وجهه وقد غطت الدماء أسنانه التي عضّ بها على شفته، وقال بون ‹قل إنك تود مني أن أعود إليها. ربما حينها لن أفعل ذلك. قل ذلك› استلقى هنري يئن ويتألم، وبقع الدم الطازج تغطي قميصه وأسنانه ظاهرة والعرق يغطي وجهه إلى أن أمسك بون بيديه ورفعه ومدّده على ظهره»

أولاً، هما الاثنان، ثم هم الأربعة؛ والآن هما الاثنان مجدداً. كان جو الغرفة خانقاً بالفعل: الهواء فاسد وساكن وجامد أكثر منه بارد ومنعش. ولكنهما ظلا داخل الغرفة على الرغم من ذلك، ومع أن السرير على بعد ثلاثين قدماً حيث الدفء ينتظرهما. لم يرتدِ كونتن معطفه، المرمي على الأرض بعد أن وقع عن ذراع الكرسي عندما وضعه شريف عليها. لم يهربا من البرد. احتملاه كما لو أنهما يجلدان نفسيهما عمداً متماهيين بسمو من خلال ألمهما الجسدي مع المشاق التي ذاقتها روحا الشابين قبل خمسين عاماً، أو بالأحرى ثمانية وأربعين عاماً، أو سبعة وأربعين وستة وأربعين، أي عام 1864 ومن ثم عام 1865 والفلول المتضوّرة جوعاً والمتشرذمة والمشرّدة للجيش المتقهقر عبر ألاباما وجورجيا وصولاً إلى كاليفورنيا، الذي لم يجتَحْه جيش منتصر وإنما المد الصاعد لأسماء المعارك الخاسرة من كلا الجانبين– معركة تشيكاماوجا ومعركة فرانلكن وفيكسبيرغ وكورنثوس وأتلانتا– معارك خاسرة ليس بسبب التفوق العددي ونقص الإمدادات وشحّ الذخيرة، وإنما بسبب الجنرالات الذين لا يستحقون أن يسمّوا جنرالات، جنرالات لم يحصلوا على هذه المراتب العسكرية لكفاءتهم أو حنكتهم العسكرية أو تدريبهم الصارم وإنما لأنهم يملكون حقاً مقدساً منحهم إياه نظام طبقي مطلق خوّلهم إصدار الأوامر والقول ‹اذهبوا إلى هناك›؛ أو لأن الجنرالات لم يكتب لهم العيش لعمرٍ يتيح لهم تعلم خوض المعارك بحذرٍ ودهاء، لأنهم تمتعوا بسلطة مطلقة مثل ريتشارد أو رولاند أو دو جيسكلين، الذين ارتدوا العباءات المبطّنة والريش في الثامنة والعشرين أو الثلاثين أو الثانية والثلاثين وسيطروا على السفن الحربية من خلال كتيبة الفرسان لكن جيشهم يئنّ تحت عوز الحبوب واللحم والرصاص، يوجهون سياطهم إلى ثلاثة جيوش لعدة أيام ومن ثم يحطمون أسوارهم بأيديهم ليطهوا اللحم المسروق من بيوتهم، اليوم يضرمون النيران بشجاعة في حامية قيمتها مليون دولار مليئة بمؤن العدو ثم يُضبطون في الليلة التالية في السرير مع زوجة عدوه فيُردون قتلى؛– اثنان، أربعة، ومن ثم اثنان مجدداً، حسب كونتن وشريف، الاثنان الأربعة الاثنان ما يزالان يتحدثان– الشخص الذي لم يعرف بعد ما الذي سيفعله، الآخر الذي عرف ما الذي عليه أن يفعله لكنه لم يتصالح مع نفسه– هنري يضفي بنفسه الشرعية على سفاح القربى، يستشهد بالدوق جون من لوريان كما لو أنه يأمل إحياء طيفه الملعون المحروم كنسياً ليخبره بنفسه بأن هذا ليس خطأ، تماماً كما يحاول

الناس الاستشهاد بالله أو بالشيطان لتبرير تصرفاتهم؛– الاثنان الأربعة الاثنان بمواجهة بعضهما البعض في غرفة خانقة: شريف، الكندي، ابن العواصف الثلجية والبرد متدثراً برداء الحمام وفوقه معطفه، وقد رفع ياقة المعطف لتغطي أذنيه؛ كونتن، الجنوبي، سليل الكآبة والمطر والحرارة والرطوبة مرتدياً ثياباً رقيقة مناسبة اشتراها من الميسيسيبي؛ معطفه (الرقيق مثل بدلته) مرمياً على الأرض دون أن يكلّف نفسه عناء وضعه على الكرسي:

(– إنه شتاء العام 1864، انسحب الجيش وعبر ألاباما، ووصل إلى جورجيا؛ وصارت كاليفورنيا الآن خلفهم تماماً وبون، الضابط، فكر ‹إما سنؤسر ونعدم أو سيهبّ جو العجوز لنجدتنا وسنتواصل مع لي أمام ريتشموند ليتسنى لنا الاستسلام بشرف على الأقل›: ثم فجأة في أحد الأيام فكر بالأمر، تذكر، فكر بفوج جفرسون الذي يتولى والده منصب الجنرال فيه وهو جزء من فيلق لونج ستريت، ولعله منذ تلك اللحظة بدا أن هدف الانسحاب اقتصر بالنسبة إليه على تقصير المسافات بينه وبين والده، لإعطاء والده فرصة أخيرة. بدا وكأنه عرف أخيراً سبب عجزه عن اتخاذ قرار بشأن ما يرغب بفعله. ربما فكر للحظة، ‹يا إلهي، ما زلت يافعاً؛ حتى بعد مرور هذه السنوات الأربع ما زلت شاباً› عبرت الفكرة للحظة واحدة في ذهنه، لأنه في اللحظة ذاتها قال ‹حسناً. أنا شاب ويافع. ولكنني ما زلت أتحلّى بالإيمان، على الرغم من أن ما أؤمن به هو أن الحرب، والمعاناة، هذه السنوات الأربع التي جاهد فيها لإبقاء رجاله على قيد الحياة كي يقايض لحمهم ودمهم بأكبر مساحة من الأرض ، غيّرته (لكنني أظن أن هذه السنوات لم تغيّره) لدرجة أنه لن يقول لي: سامحني: وإنما: أنت ابني الأكبر. احم أختك؛ لا تلتق بنا مجدداً:‹ثم جاء العام 1865 وخارت قوى الجيش الغربي ولم يعد قادراً سوى على التقهقر ببطء وعناد وتحمّل رصاص البنادق والقصف؛ ربما لم ينتبهوا لخسارة أحذيتهم ومعاطفهم وطعامهم ولهذا استطاع الكتابة عن طلاء المواقد الذي استولوا عليه في رسالته إلى جوديث عندما أدرك أخيراً بما عليه فعله وأخبر هنري وقال هنري ‹حمداً لله. حمداً لله›، لم يحمد الله على سفاح القربى بالطبع وإنما لأنهما سيفعلان شيئاً ما أخيراً، بإمكانه أخيراً أن يكون شيئاً ما حتى وإن عنى هذا الشيء قطيعة أبدية مع إرثه القديم وتدريبه وقبول اللعنة الأزلية. من المحتمل أنه توقف عن التحدث حول دوق لوريان، لأن بوسعه القول الآن، ‹ليس جهنمك أو جهنمه أو جهنم البابا الذي سنذهب إليه جميعاً: إنه جهنم أمي وأمها وأبيها وجهنم أمهاتهم وآبائهم، لست أنت من سيذهب إلى هناك، إنما نحن، ثلاثتنا– كلا: أربعتنا. وسنكون حينها على الأقل معاً في المكان الذي ننتمي إليه، فإن ذهب إلى الجحيم لوحده علينا نحن أيضاً أن نكون هناك لأن ثلاثتنا مجرد وهم خلقه، وأوهامك جزء منك مثل عظامك ولحمك وذاكرتك. وسنكون معاً جميعاً في عذابٍ أليم سينسينا الحب والزنا، عذاب سينسيك

ربما حتى سبب وجودك هناك. وسيخفف نسيان كل هذا من عذابنا›. ثم وصلوا إلى كاليفورنيا، في كانون الثاني وشباط من العام 1865 وواصلت فلولهم التقهقر قرابة عام كامل وقصرت المسافة التي تفصلهم عن ريتشموند وصارت أقصر من المسافة التي قطعوها للوصول إلى هناك؛ فيما المسافة التي تفصلهم عن النهاية أقصر بكثير. لكن لم تكن المسافة التي تفصلهم عن الهزيمة هي ما يهتمّ لها بون، وإنما المسافة التي تفصله عن الفيلق الآخر، المسافة التي تفصله عن الساعة، اللحظة: ‹لن يكن هناك ضرورة لأن يطلب مني ذلك؛ سألمسه وسأتعهد له بذلك: لا تقلق؛ هي لن ترى وجهي ثانية›. ثم حلّ شهر آذار وكانوا في كاليفورنيا وما يزال الانسحاب بطيئاً وعنيداً ولم تعد أي أخبار تصلهم إلا من الجبهة الشمالية لأن جميع الجبهات الأخرى استسلمت الآن، ولم يتوقعوا سماع إلا خبر اندحار الجبهة الشمالية. ثم في أحد الأيام (كان ضابطاً؛ كان ليعرف، يسمع، بأن لي فصل بعض القوات وأرسلها لمؤازرتهم؛ ربما عرف أيضاً أسماء وأرقام الفيالق قبل وصولها) رأى ستبن. ربما كانت هذه المرة الأولى التي لم يره فيها ستبن بالفعل، ربما المرة الأولى التي قال فيها لنفسه ‹هذا هو السبب إذاً؛ لم يرني›، وكان عليه أن يرمي نفسه في طريق ستبن، يختلق الفرصة والموقف. وللمرة الثانية نظر إلى الوجه الحجري الخالي من أي تعابير، إلى العينين الباردتين المضجرتين اللتين لم يرف لهما جفن، لا ردة فعل على الإطلاق، الوجه الذي رأى فيه ملامحه وتقاسيمه، الذي رأى فيه الاعتراف، لا شيء غير هذا. لا شيء غير هذا، ليس هناك أكثر من ذلك الآن؛ ربما تنفس لمرة واحدة بهدوء، على وجهه تلك التعابير التي قد توحي بابتسامة ما وفكر ‹يمكنني إرغامه. بوسعي الذهاب إليه وإرغامه›، كان على يقين بأنه لن يفعل لأن كل شيء انتهى الآن، انتهى كل شيء أخيراً. في تلك الليلة أو ربما بعد أسبوع من ذلك وبينما كانوا متوقفين (حتى شيرمان يضطر للتوقف ليلاً) وقد أشعلوا النار ليتدفؤوا بها لأن التدفئة رخيصة على الأقل، قال بون ‹هنري› وقال ‹لم يتبق الكثير من الوقت ولن يتبقى الكثير؛ لم يتبق لنا حتى ما نفعله، ولا حتى شرف الانسحاب ببطء لسبب وجيه، من أجل الشرف وما تبقى من كبرياء. ليس الله؛ من الواضح أننا تدبّرنا أمورنا دونه لأربع سنوات، لم يعرنا أي انتباه؛ ولا حتى أحذية وملابس ولا حتى أي ضرورة للملابس والأحذية، وها نحن ذا، خسرنا الأرض وأي سبيل للحصول على الطعام، لكن لا حاجة لنا بالطعام لأننا تعلمنا العيش بدون طعام أيضاً؛ وبدون رب ولا حاجة للطعام والملابس والمأوى، ما من مكان للشرف والكبرياء للاختباء خلفه والصمود والبقاء. وبدون شرف وكبرياء، يفقد كل شيء أهميته. إلا أن هناك شيئاً داخلك لا يكترث للشرف والكبرياء حتى بعد انتهاء كل شيء ولا يهمه سوى البقاء على قيد الحياة، يتقهقر لمدة سنة كاملة فقط في سبيل أن يعيش؛ يحدث هذا ربما حتى بعد انتهاء كل شيء وتصير حتى الهزيمة بعيدة المنال، يتراجع ليجلس في الشمس ويموت، لكنه سيلجأ

إلى الغابة، يتحرك باحثاً عن مكان لا يمكن للصبر والإرادة أن تطاله، ينقب عن أي شيء يؤكل– اللحم القديم الذي خسر الحلم والوعي ولم يعد يفرّق بين اليأس والنصر، هنري›. ثم يمكن لهنري أن يقول ‹حمداً لله. حمداً لله› يلهث ويقول ‹حمداً لله›، يقول ‹لا تحاول شرح الأمر. افعله فحسب› وبون: ‹أتمنحني الشرعية؟› بوصفك أخيها هل تأذن لي؟› وهنري: ‹أخوها؟ أخوها؟ أنت أخوها الأكبر: لماذا تسألني؟› وبون: ‹كلا. لم يتعرف عليّ قط. حذرني فقط. أنت الأخ والابن. هل تأذن لي يا هنري؟› وهنري: ‹اكتب. اكتب. اكتب›. كتب بون الرسالة، بعد أربع سنوات، وقرأها هنري وأرسلها إليها. لكنهم لم يستسلموا حينها ويتتبعون الرسالة. ظلوا يتقهقرون، ببطء وعناد، يستمعون إلى أخبار الجبهة الشمالية وينتظرون استسلامها لأن عليك أن تتحلّى بصفات كثيرة كي تستسلم عندما تكون خاسراً، وكانوا يتقهقرون ببطء على مدى عام بأكمله ولم تكن الإرادة الصلبة ما يحملهم على عدم الاستسلام وإنما القدرة على الصبر، اعتياد تحمّل ما لا يُحتمل. ثم توقفوا مجدداً في إحدى الليالي لأن شيرمان توقف أيضاً، وجاء شخص يعمل في المشافي الميدانية وقطع الخطوط الفاصلة المؤقتة ووجد هنري أخيراً وقال له ‹ستبن، الكولونيل يطلب حضورك إلى خيمته›)

«أنت إذاً والسيدة العجوز، الخالة روزا، خرجتما تلك الليلة وحاولت كليتي الزنجية العجوز إيقافكما، إيقافها؛ أمسكت بذراعك وقالت، ‹لا تدعها تذهب إلى هناك، يا سيدي الشاب› لكنك لم توقفها بدورك لأنها قوية مشحونة بثلاثة وأربعين عاماً من الكراهية كما لو أنها قطعة من اللحم النيئ التي عمرها ثلاثة وأربعين عاماً فيما لا تملك كليتي سوى خمسة وأربعين عاماً من اليأس والانتظار؛ وأنت، أنت لم ترغب أصلاً بالذهاب. لم تستطع إيقافها أيضاً ومن ثم رأيت أن مشكلة كليتي لا تكمن في الغضب ولا بقلة الثقة؛ بل في الرعب والخوف. ولم تبادلك سوى بضع كلمات لأنها ما تزال مسكونة بذلك السر وتأبى البوح به كرمى للرجل الذي كان والدها أيضاً وكرمى للعائلة التي لم تعد موجودة، التي انتهكت وتنتهك الضريح العفن الذي ما تزال تحرسه:– لم تخبرك في بضع كلمات أكثر مما أخبرتك به بكلمات عديدة عن وجودها في الغرفة في ذلك اليوم وعندما أحضروا جثمان بون وأخرجت جوديث من جيبه الإطار المعدني الذي أعطته إياه وداخله صورتها؛ لم تخبرك، خرجت الكلمات من الخوف والرعب بعد أن حررت ذراعك وأمسكت ذراع الخالة روزا واستدارت الخالة روزا وضربت يدها وأبعدتها وتابعت صعود الدرج وركضت كليتي نحوها مجدداً فتوقفت الخالة روزا هذه المرة واستدارت عند الدرجة التالية وضربت كليتي بقبضة يدها بقوة كما لو أنها قبضة رجل واستدارت وأكملت صعود الدرج: جلست كليتي على الأرض، عمرها أكثر من ثمانين عاماً وطولها لا يزيد عن خمسة أقدام وتبدو مثل كومة من الخرق النظيفة

فاقتربتَ منها وأمسكت بذراعها وساعدتها على النهوض وبدا ملمس ذراعها كما لو أنها عصا، خفيفة وجافة وهشة كعصا: نظرت إليك ورأيت أن عينيها ليستا مليئتين بالغضب وإنما بالذعر، ليس ذعر الزنوج المعروف لأن الأمر لا يتعلق بها وإنما بما يوجد في الغرفة أعلى الدرج، ظلت تخفيه هناك قرابة أربع سنوات؛ ولم تخبرك بكلمات معبّرة لأنها كتمت السر حتى في أقصى حالات خوفها؛ لكنها على الرغم ولا حتى شرف الانسحاب ببطء لسببٍ وجيه، من أجل الشرف وما تبقى من كبرياء. ليس الله؛ من الواضح أننا تدبّرنا أمورنا دونه لأربع سنوات، لم يعرنا أي انتباه؛ ولا حتى أحذية وملابس ولا حتى أي ضرورة للملابس والأحذية، وها نحن ذا، خسرنا الأرض وأي سبيل للحصول على الطعام، لكن لا حاجة لنا بالطعام لأننا تعلمنا العيش بدون طعام أيضاً؛ وبدون رب ولا حاجة للطعام والملابس والمأوى، ما من مكان للشرف والكبرياء للاختباء خلفه والصمود والبقاء. وبدون شرف وكبرياء، يفقد كل شيء أهميته. إلا أن هناك شيئاً داخلك لا يكترث للشرف والكبرياء حتى بعد انتهاء كل شيء ولا يهمه سوى البقاء على قيد الحياة، يتقهقر لمدة سنة كاملة فقط في سبيل أن يعيش؛ يحدث هذا ربما حتى بعد انتهاء كل شيء وتصير حتى الهزيمة بعيدة المنال، يتراجع ليجلس في الشمس ويموت، لكنه سيلجأ إلى الغابة، يتحرك باحثاً عن مكان لا يمكن للصبر والإرادة أن تطاله، ينقب عن أي شيء يؤكل– اللحم القديم الذي خسر الحلم والوعي ولم يعد يفرّق بين اليأس والنصر، هنري›. ثم يمكن لهنري أن يقول ‹حمداً لله. حمداً لله› يلهث ويقول ‹حمداً لله›، يقول ‹لا تحاول شرح الأمر. افعله فحسب› وبون: ‹أتمنحني الشرعية؟› بوصفك أخيها هل تأذن لي؟› وهنري: ‹أخوها؟ أخوها؟ أنت أخوها الأكبر: لماذا تسألني؟› وبون: ‹كلا. لم يتعرف عليّ قط. حذرني فقط. أنت الأخ والابن. هل تأذن لي يا هنري؟› وهنري: ‹اكتب. اكتب. اكتب›. كتب بون الرسالة، بعد أربع سنوات، وقرأها هنري وأرسلها إليها. لكنهم لم يستسلموا حينها ويتتبعون الرسالة. ظلوا يتقهقرون، ببطء وعناد، يستمعون إلى أخبار الجبهة الشمالية وينتظرون استسلامها لأن عليك أن تتحلّى بصفات كثيرة كي تستسلم عندما تكون خاسراً، وكانوا يتقهقرون ببطء على مدى عام بأكمله ولم تكن الإرادة الصلبة ما يحملهم على عدم الاستسلام وإنما القدرة على الصبر، اعتياد تحمّل ما لا يُحتمل. ثم توقفوا مجدداً في إحدى الليالي لأن شيرمان توقف أيضاً، وجاء شخص يعمل في المشافي الميدانية وقطع الخطوط الفاصلة المؤقتة ووجد هنري أخيراً وقال له ‹ستبن، الكولونيل يطلب حضورك إلى خيمته›)

«أنت إذاً والسيدة العجوز، الخالة روزا، خرجتما تلك الليلة وحاولت كليتي الزنجية العجوز إيقافكما، إيقافها؛ أمسكت بذراعك وقالت، ‹لا تدعها تذهب إلى هناك، يا سيدي الشاب› لكنك لم توقفها بدورك لأنها قوية مشحونة بثلاثة

وأربعين عاماً من الكراهية كما لو أنها قطعة من اللحم النيئ التي عمرها ثلاثة وأربعين عاماً فيما لا تملك كليتي سوى خمسة وأربعين عاماً من اليأس والانتظار؛ وأنت، أنت لم ترغب أصلاً بالذهاب. لم تستطع إيقافها أيضاً ومن ثم رأيت أن مشكلة كليتي لا تكمن في الغضب ولا بقلة الثقة؛ بل في الرعب والخوف. ولم تبادلك سوى بضع كلمات لأنها ما تزال مسكونة بذلك السر وتأبى البوح به كرمى للرجل الذي كان والدها أيضاً وكرمى للعائلة التي لم تعد موجودة، التي انتهكت وتنتهك الضريح العفن الذي ما تزال تحرسه:– لم تخبرك في بضع كلمات أكثر مما أخبرتك به بكلمات عديدة عن وجودها في الغرفة في ذلك اليوم وعندما أحضروا جثمان بون وأخرجت جوديث من جيبه الإطار المعدني الذي أعطته إياه وداخله صورتها؛ لم تخبرك، خرجت الكلمات من الخوف والرعب بعد أن حررت ذراعك وأمسكت ذراع الخالة روزا واستدارت الخالة روزا وضربت يدها وأبعدتها وتابعت صعود الدرج وركضت كليتي نحوها مجدداً فتوقفت الخالة روزا هذه المرة واستدارت عند الدرجة التالية وضربت كليتي بقبضة يدها بقوة كما لو أنها قبضة رجل واستدارت وأكملت صعود الدرج: جلست كليتي على الأرض، عمرها أكثر من ثمانين عاماً وطولها لا يزيد عن خمسة أقدام وتبدو مثل كومة من الخرق النظيفة فاقتربتَ منها وأمسكت بذراعها وساعدتها على النهوض وبدا ملمس ذراعها كما لو أنها عصا، خفيفة وجافة وهشة كعصا: نظرت إليك ورأيت أن عينيها ليستا مليئتين بالغضب وإنما بالذعر، ليس ذعر الزنوج المعروف لأن الأمر لا يتعلق بها وإنما بما يوجد في الغرفة أعلى الدرج، ظلت تخفيه هناك قرابة أربع سنوات؛ ولم تخبرك بكلمات معبّرة لأنها كتمت السر حتى في أقصى حالات خوفها؛ لكنها على الرغم من ذلك أخبرتك، أو أنك عرفت فجأة على الأقل—»

توقف مجدداً. لا أهمية لذلك، فما من أحد يستمع إليه. ربما كان مدركاً لذلك. ثم فجأة لم يكن هناك راوٍ أيضاً، مع أنه ربما لم يكن يدرك ذلك. ما عاد أي منهما هناك الآن. كان كلاهما في كاليفورنيا والوقت هو قبل ستة وأربعين عاماً، ولم يكونا أربعة بل أكثر من أربعة مجتمعين في الوقت ذاته، كلاهما الآن هنري ستبن وكلاهما بون، متحدين مع كليهما أو منفصلين عن كليهما، يستنشقان الدخان الذي ملأ الهواء قبل ستة وأربعين عاماً قادماً من الحرائق المشتعلة في غابة الصنوبر، حولهما رجال خشنون هزيلون جالسون على الأرض، لم يتحدثوا عن الحرب إلا أن جلّ همهم سماع أخبار الجنوب (أو ربما لم يكن الأمر يعنيهم على الإطلاق) حتى خطوط الفصل رنت إلى الجنوب، تراقب ما يجري، يمكن رؤية لهيب النيران الفيدرالية من كل حدب وصوب تكاد تغطي نصف الأفق وثمّة عشرة حرائق مشتعلة في كل ولاية كونفيدرالية، وخرج اليانكيون في كل منها (نيران اليانكيين والمتمردين) يراقبون العتمة أيضاً، خطا الفصل قريبان لدرجة يمكن سماع ما يقوله

الضباط على الجهة الأخرى أثناء مرورهم من نقطة إلى نقطة ثم تلاشي أصواتهم: وبعد رحيلهم، تصلهم أصوات، غير مرئية، حذرة، خفيضة لكنها تحمل الكلمات:

– مرحباً، يا سيد.

– نعم.

– أين ذهب رفاقك؟

– إلى ريتشموند

– ونحن أيضاً ذاهبون إلى هناك. لِم لا تنتظروننا؟

– إننا ننتظركم.

لم يسمع الرجال المتحلقون حول النار هذا الحديث، مع أن بإمكانهم سماع العامل في المستشفى الميداني بوضوح لدى مروره من نار إلى أخرى، يسأل عن ستبن وينتقل من مكان إلى آخر إلى أن وصل إلى النار أخيراً، إلى جذع الشجرة المشتعل، مكرراً جملته الرتيبة: ‹ستبن؟ أنا أبحث عن ستبن› إلى أن استوى هنري في جلسته وقال ‹هنا›. كان هزيلاً وخشناً وغير حليق؛ بسبب السنوات الأربع الأخيرة ولأنه لم يكن طوله قد اكتمل بعد قبل أربع سنوات، إنه أقصر بمقدار بوصتين عن الطول الذي أراده، وأخف وزناً بمقدار ثلاثين رطلاً عن الوزن الذي سيكون عليه بعد بضع سنوات من انتهاء الحرب، إن كُتبت له النجاة.

– هنا، قال. – ماذا هناك؟

– الكولونيل أرسل في طلبك.

لم يعد العامل معه. سار لوحده قاطعاً العتمة والطريق المحفر، طريق محفر ومتقطع حفرت فيه البنادق خطوطاً عند مرورها فوقه عصر ذلك اليوم، ووصل إلى الخيمة أخيراً، إحدى الخيم القليلة، جدار الخيمة القماشي مضاء بنور الشمعة الخافت، فيما ارتسم عليه ظل الحارس الواقف أمام الخيمة الذي اعترضه.

– ستبن، قال هنري. – أرسل الكولونيل في طلبي.

أومأ الحارس برأسه ليدخل إلى الخيمة. دخل بخطوات واسعة، صار جدار الخيمة القماشي خلفه عندما نهض الشاغل الوحيد للخيمة من على كرسي التخييم خلف طاولة وضع عليها الشمعة، ظله طويل ويغطي جدار الخيمة بأكمله. دخل هنري وحيّا الكولونيل الذي غطت جديلته كم السترة الرمادي،

رأى أحد جانبي خده الملتحي، أنفه البارز، خصلة شعر متدلية– وجه لم يتعرّف عليه هنري، ليس لأنه لم يره منذ أربع سنوات ولا يتوقع رؤيته هنا والآن، وإنما لأنه لم يكن ينظر إليه. حيّا الكم المغطى بالجديلة ووقف باستعداد إلى أن قال الآخر،

– هنري.

إلى الآن لم يكن هنري قد بدأ. وقف جامداً، وقف الاثنان جامدين، ينظران إلى بعضهما البعض. كان العجوز هو من تحرك أولاً، والتقيا في منتصف الخيمة، حيث تعانقا وتبادلا القبل قبل أن يدرك هنري بأن الآخر قد تحرك من مكانه، كان سيقترب منه، مدفوعاً بصلة الدم التي تقاطع وتصالح في لحظة واحدة حتى وإن لم تغفر (وقد لا تغفر قط)، ظل واقفاً بينما أمسك والده بوجهه بين يديه، متمعناً فيه.

– هنري، قال ستبن. – ولدي.

جلسا، أحدهما على طرف الطاولة، على الكرسي المخصص للضباط، الطاولة (وهناك خريطة مفتوحة عليها) والشمعة بينهما.

– لقد أُصبت في سيلوه، أخبرني الكولونيل ويلو، قال ستبن.

– نعم يا سيدي، قال هنري.

كان على وشك أن يقول إن تشارلز أنقذني إلا أنه أحجم عن ذلك، لأنه يعرف ما الذي سيدور من حوار. لم يكن متأكداً حتى من أن جوديث لم تخبره عن تلك الرسالة أو أن كليتي من أخبره بطريقة ما أن تشارلز كتب لها رسالة. لم يكن يفكر في هذا. كان من المنطقي والطبيعي بالنسبة إليه الآن أن يعرف والدهم بقراره وقرار بون: أن صلة الدم التي تجمع بون هي من قررت أن يكتب لها، ومن قررت أن يوافق هو على الرسالة وأن يعرف والدهم بأمرها في اللحظة نفسها، بعد مرور أربع سنوات، من بين كل السنين. لم تسر الأمور كما توقع بالضبط:

– لقد رأيت تشارلز بون يا هنري.

لم ينبس هنري ببنت شفة. سيقول ما يريد الآن. لم يقل شيئاً، ظل محدقاً بأبيه– الرجلان يرتديان بزات عسكرية رمادية باهتة، شمعة يتيمة، خيمة حقيرة تصدّ عنهما العتمة حيث تواجه صفوف الفصل بعضها البعض وينام رجال منهكون دون سقف يأويهم، ينتظرون حلول الفجر وبدء إطلاق النار، الرجال المنهكون ينسحبون مجدداً: وفي لحظة اختفت الخيمة والشمعة وكل شيء وصارا في غرفة المكتبة في مزرعة ستبن خلال فترة عيد الميلاد قبل أربع سنوات والطاولة ليست طاولة مخيم مناسبة لمد الخريطة وإنما طاولة

ثقيلة من خشب الورد المحفور وعليها مجموعة من الصور له ولوالدته وأخته، أبوه وراء الطاولة وخلف والده النافذة المطلة على الحديقة حيث تتنزه جوديث وبون ويتهاديان برقة تتناغم خطوات القدمين مع دقات القلب ولا ترى العينان سوى الآخر.

– ستسمح له بالزواج من جوديث يا هنري.

ظلّ هنري متمسكاً بحبال الصمت. سبق لكل شيء أن قيل، وها قد مرت أربع سنوات مليئة بالصراع المرير، هل سينتصر أم سيهزم، وكانت الهزيمة ما جناه، جناه على الأقل وهو ينعم بالسلام الآن، حتى ولو كان السلام طافحاً باليأس.

– لا يمكن له أن يتزوجها يا هنري.

بدأ هنري بالكلام.

– لقد قلتَ هذا من قبل. أقول لك الآن. والآن، الآن لن يطل الأمر أكثر ولن يتبق له أي شيء: لا الشرف ولا الكبرياء ولا الله لأن الله تخلى عنا قبل أربع سنوات ولم يزعج نفسه حتى لإخبارنا بذلك؛ لا أحذية لا ملابس ولا الضرورة أصلاً لوجودها؛ لا أرض لنستخرج منها الطعام ولا حاجة للطعام عندما تخسر الله والشرف والكبرياء، لا يبقى هناك أي أهمية لشيء سوى ذلك اللحم القديم غير الواعي الذي لا يأبه للنصر أو للهزيمة، اللحم الذي لن يموت، سيخرج إلى الغابة والحقول، ينبش كل ما يؤكل من جذور وعشب.– نعم. لقد اتخذت قراري. سواء كان أخي أم لم يكن، لقد اتخذت قراري. سأسمح له. سأسمح له.

– يجب ألا يتزوجها يا هنري.

– نعم. لقد قلت نعم منذ البداية، ولكنني لم أكن قد اتخذت قراري بعد. لم أسمح له. لكن كان هناك أمامي أربع سنوات لأقرر. سأسمح له. سأسمح له بذلك.

– يجب ألا يتزوجها يا هنري. والد أمه أخبرني أن جدته لأمه كانت إسبانية. لقد صدقته؛ لم أعرف إلا بعد ولادته أن أمه كانت نصف زنجية.

لم يقل هنري أنه لا يتذكر كيف خرج من الخيمة. إنه يتذكر ذلك تماماً. يتذكر وقوفه أمام مدخل الخيمة مجدداً ومروره بالحارس؛ تذكر قطعه من جديد للطريق المحفر المعفر، متعثراً بالعتمة وسط جذوع الشجر على جانبي الطريق بعد خمود النار، وبالكاد قادر على رؤية الرجال الذين يفترشون الأرض حوله. لا بد أن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، قال لنفسه. وسنقطع ثمانية أميال أخرى غداً. كل هذا من أجل هذه البنادق اللعينة. لماذا لا

يعطيها جو العجوز إلى شيرمان. سنتمكن حينها من قطع عشرين ميلاً في اليوم. يمكننا حينها الانضمام إلى لي. على الأقل لي يتوقف أحياناً ويقاتل. إنه يتذكر ذلك. يتذكر كيف أنه لم يعد إلى ناره وإنما توقف في مكان معزول واستند على شجرة صنوبر، بهدوء ورويّة، رأسه للخلف واستطاع رؤية الأغصان المتداخلة الجرداء كما لو أنها قضبان من الحديد الجامد المنتشر تحت النجوم الباردة المتلألئة في مطلع الربيع، قال لنفسه آمل أن يكون قد تذكر شكر الكولونيل ويلو لسماحه لنا باستخدام خيمته، لم يفكر بما سيفعله وإنما بما سيفعله بون، بما سيرغمه على فعله، لأنه عرف بما سيفعله. يجب عليّ أن أذهب إليه، فكر، فكر، الآن أفضل من الساعة الثانية سيحلّ الفجر قريباً.

حلّ الفجر، أو كاد، وكان الجو بارداً: برودة تعبر الملابس الرقيقة المهترئة المرقعة، والإنهاك ونقص التغذية؛ القدرة السلبية، وليس الإرادة الاختيارية، للتحمل؛ ثمّة ضوء في مكان ما، يكفيه ليميز وجه بون النائم عن وجوه الآخرين ملتفاً ببطانياته، تحت ردائه الممدود؛ ضوء يكفيه لإيقاظ بون ويكفي بون ليميز وجهه (أو ربما ميّز يد هنري) لأن بون لم يتحدث، ولم يطلب معرفة هوية من يوقظه: نهض ولف رداءه حول كتفه واقترب من النار الخامدة وبدأ بركل رمادها عندما بدأ هنري حديثه:

– مهلاً.

توقف بون ونظر إلى هنري؛ يمكنه الآن رؤية وجه هنري. قال،

– ستبرد. إنك بردان الآن. لم تنم، أليس كذلك؟ خذ هذا.

خلع الرداء وأعطاه إياه.

– كلا، قال هنري.

– بلى. خذه. سأحضر بطانيتي.

لفّ بون الرداء على هنري وأخذ بطانيته المهلهلة ورماها على كتفه، ابتعدا وجلسا على جذع شجرة. لقد بزغ الفجر. الشرق رمادي؛ سيصبح أصفر ومن ثم أحمر مع بدء القصف وبعدها سيبدأ الانسحاب مجدداً، الابتعاد عن الإبادة، الاقتراب من الهزيمة، التي لم تصبح تامة بعد. ما يزال أمامهما بعض الوقت ليجلسا على الجذع مع بزوغ أولى خيوط الفجر، أحدهما يلف الرداء على جسده، والآخر يلف البطانية؛ لم يكن صوتهما أعلى من صوت الفجر الصامت:

– إنه عدم الاعتراف إذاً، وليس سفاح القربى، الذي لا تستطيع احتماله. لم يجب هنري.

– ولم يرسل لي أي كلمة؟ لم يطلب منك أن ترسلني إليه؟ ما من كلمة لي، لا كلمة على الإطلاق؟ هذا كل ما عليه فعله، الآن، اليوم؛ بعد أربع سنوات أو في أي ساعة خلال السنوات الأربع. هذا كل شيء. لم يكن هناك أي ضرورة ليطلب ذلك مني. كنت لأقدم له ذلك دون أن يطلب. كنت لأقول له، بأنني لن أراها مجدداً إن لم يسمح لي بذلك. لم يكن عليه أن يفعل ذلك يا هنري. لم يكن يحتاج أن يقول لك إنني زنجي لإيقافي. كان بإمكانه إيقافي دون الحاجة إلى فعل ذلك يا هنري.

– كلا، صرخ هنري. – كلا! كلا! سـ– سـ –

توقف؛ وجهه يرتعش؛ كان بوسع بون رؤية أسنانه ظاهرة بين لحيته الناعمة التي تغطي خديه الغائرين، وبياض عيني هنري على الرغم من أن بؤبؤ عينيه كان ليطفر من محجريهما، كما كان لأنفاسه أن تطفر من رئتيه– اللهاث الذي توقف، حبس أنفاسه، عيناه تنظران إليه وهو جالس على الجذع، صوته ليس أكثر من مجرد زفير خافت خارج من صدره:

– قلتَ، بإمكاني إيقافك. ماذا تقصد؟

بون هو من لم يجب هذه المرة، جلس على الجذع ناظراً إلى الوجه المنحني فوقه. قال هنري، بصوت ليس أعلى من صوت شهيق وزفير:

جديد للطريق المحفر المعفر، متعثراً بالعتمة وسط جذوع الشجر على جانبي الطريق بعد خمود النار، وبالكاد قادر على رؤية الرجال الذين يفترشون الأرض حوله. لا بد أن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، قال لنفسه. وسنقطع ثمانية أميال أخرى غداً. كل هذا من أجل هذه البنادق اللعينة. لماذا لا يعطيها جو العجوز إلى شيرمان. سنتمكن حينها من قطع عشرين ميلاً في اليوم. يمكننا حينها الانضمام إلى لي. على الأقل لي يتوقف أحياناً ويقاتل. إنه يتذكر ذلك. يتذكر كيف أنه لم يعد إلى ناره وإنما توقف في مكان معزول واستند على شجرة صنوبر، بهدوء ورويّة، رأسه للخلف واستطاع رؤية الأغصان المتداخلة الجرداء كما لو أنها قضبان من الحديد الجامد المنتشر تحت النجوم الباردة المتلألئة في مطلع الربيع، قال لنفسه آمل أن يكون قد تذكر شكر الكولونيل ويلو لسماحه لنا باستخدام خيمته، لم يفكر بما سيفعله وإنما بما سيفعله بون، بما سيرغمه على فعله، لأنه عرف بما سيفعله. يجب عليّ أن أذهب إليه، فكر، فكر، الآن أفضل من الساعة الثانية سيحلّ الفجر قريباً.

حلّ الفجر، أو كاد، وكان الجو بارداً: برودة تعبر الملابس الرقيقة المهترئة المرقعة، والإنهاك ونقص التغذية؛ القدرة السلبية، وليس الإرادة الاختيارية، للتحمل؛ ثمّة ضوء في مكان ما، يكفيه ليميز وجه بون النائم عن وجوه

الآخرين ملتفاً ببطانياته، تحت ردائه الممدود؛ ضوء يكفيه لإيقاظ بون ويكفي بون ليميز وجهه (أو ربما ميّز يد هنري) لأن بون لم يتحدث، ولم يطلب معرفة هوية من يوقظه: نهض ولف رداءه حول كتفه واقترب من النار الخامدة وبدأ بركل رمادها عندما بدأ هنري حديثه: – ستبرد. إنك بردان الآن. لم تنم، أليس كذلك؟ خذ هذا. – بلى. خذه. سأحضر بطانيتي. – ولم يرسل لي أي كلمة؟ لم يطلب منك أن ترسلني إليه؟ ما من كلمة لي، لا كلمة على الإطلاق؟ هذا كل ما عليه فعله، الآن، اليوم؛ بعد أربع سنوات أو في أي ساعة خلال السنوات الأربع. هذا كل شيء. لم يكن هناك أي ضرورة ليطلب ذلك مني. كنت لأقدم له ذلك دون أن يطلب. كنت لأقول له، بأنني لن أراها مجدداً إن لم يسمح لي بذلك. لم يكن عليه أن يفعل ذلك يا هنري. لم يكن يحتاج أن يقول لك إنني زنجي لإيقافي. كان بإمكانه إيقافي دون الحاجة إلى فعل ذلك يا هنري. – قلتَ، بإمكاني إيقافك. ماذا تقصد؟

بون هو من لم يجب هذه المرة، جلس على الجذع ناظراً إلى الوجه المنحني فوقه. قال هنري، بصوت ليس أعلى من صوت شهيق وزفير:

– لكن الآن؟ تقصد أنك–

– نعم. ما الذي بوسعي فعله غير ذلك الآن؟ لقد جعلته يختار. أعطيته كل الخيارات على مدى أربع سنوات.

– فكر فيها. لا تفكر بي: فكر فيها.

– فكرت. لأربع سنوات. فكرت فيك وفيها. أنا أفكر الآن بنفسي.

– كلا، قال هنري. – كلا. كلا.

– لا أستطيع؟

– من سيوقفني يا هنري؟

– كلا، قال هنري. – كلا. كلا. كلا.

كان بون من يراقب هنري الآن؛ يمكنه رؤية بياض عيني هنري من جديد بينما جلس يراقب هنري وقد ارتسمت على وجهه تلك التعابير التي قد توحي بأنه يبتسم. اختفت يده تحت البطانية ثم وضعها فوقها، أمسك بمسدسه من فوهته، عقب المسدس مصوب نحو هنري.

– قال: افعلها الآن.

نظر هنري إلى المسدس؛ لم يكن يلهث فحسب، بل كان يرتعش؛ عندما بدأ بالكلام كان صوته أخفض من الزفير حتى، كان صوت أنفاس مخنوقة

ومكبوتة:

– أنت أخي.

– كلا لستُ أخاك. أنا الزنجي الذي سيضاجع أختك. ما لم تمنعني يا هنري.

فجأة أمسك هنري بالمسدس، حرّره من يد بون ووقف جامداً، المسدس في يده، يلهث ويلهث؛ استطاع بون مجدداً رؤية بياض عينيه المضطربتين بينما جلس على الجذع وراقب هنري وقد ارتسم طيف ما يمكن أن يكون ابتسامة حول عينيه وفمه.

– قال له: هيا يا هنري.

شعر هنري بالدوار؛ خلّص هنري المسدس بالطريقة نفسها وانحنى فوقه، أمسك بون من كلا كتفيه، لاهثاً.

– عليك ألا تفعل هذا! قال. – عليك ألا تفعل هذا! هل تسمعني؟

لم يتحرك بون ليخلّص نفسه من اليدين اللتين أمسكتا بكتفه؛ جلس دون حراك، علت وجهه تكشيرة خفيفة؛ صوته أرق من أول نفحة تصدر عن أغصان الصنوبر عندما تتمايل:

– عليك أن تمنعني يا هنري. قال شريف «لم يتملص منه». «كان بوسعه التملص منه، لكنه لم يحاول قط. يا يسوع، ربما ذهب إلى هنري وقال له ‹سأتزوجها يا هنري› وربما غادرا معاً وقادا جواديهما جنباً إلى جنب مراوغين دوريات اليانكيين على طول الطريق إلى أن وصلا إلى الميسيسيبي واقتربا من البوابة؛ جنباً إلى جنب إلى أن وصلا إلى البوابة حينها فقط بدأ أحدهما بالتخلّف عن الآخر أو التقدم عليه ثم سار هنري أمامه وأدار حصانه ليواجه بون وأشهر مسدسه؛ وسمعت جوديث وكليتي إطلاق النار، ربما كان ووش جونز قريباً في الفناء الخلفي وكان هناك وساعد كليتي وجوديث على حمله وإدخاله إلى المنزل ووضعه على السرير، وقصد ووش البلدة لإخبار الخالة روزا والخالة روزا جاءت من فورها عصر ذلك اليوم ووجدت جوديث واقفة دون أن تذرف دمعة واحدة أمام الباب الموصد، تحمل الإطار المعدني الذي أعطته إياه وصورتها داخله ولكنها لم تجد صورتها هناك وإنما صورة العشيقة والطفل: ولم يعرف رجلك العجوز بهذا الأمر أيضاً: لماذا يتخلى ابن العاهرة الأسود عن صورتها ويضع مكانها صورة العشيقة، لقد اختلق سبباً لقتله. لكنني أعرف. وأنت تعرف أيضاً. أليس كذلك؟ أليس هذا صحيحاً؟» حدق في كونتن، انحنى فوق الطاولة، نظر بتمعن وثبات مثل دب ملفوف بالأقمشة. «ألا تعرف؟ قتل لأنه قال لنفسه ‹إن لم يكن هنري يعني ما قاله، سيكون كل شيء على ما يرام؛ سأخرج الصورة وأهدم كل شيء. ولكن إن لم يكن يقصد

ما يقوله، فإن الطريقة الوحيدة ستكون بأن أقول لها لم أكن مخلصاً؛ لا تحزني علي›. أليس هذا صحيحاً؟ أليس كذلك؟ حبّاً بالله، ألست محقاً؟»

– لكن الآن؟ تقصد أنك– – فكرت. لأربع سنوات. فكرت فيك وفيها. أنا أفكر الآن بنفسي. – من سيوقفني يا هنري؟ – قال: افعلها الآن. – كلا لستُ أخاك. أنا الزنجي الذي سيضاجع أختك. ما لم تمنعني يا هنري. شعر هنري بالدوار؛ خلّص هنري المسدس بالطريقة نفسها وانحنى فوقه، أمسك بون من كلا كتفيه، لاهثاً. – عليك أن تمنعني يا هنري. قال شريف «لم يتملص منه». «كان بوسعه التملص منه، لكنه لم يحاول قط. يا يسوع، ربما ذهب إلى هنري وقال له ‹سأتزوجها يا هنري› وربما غادرا معاً وقادا جواديهما جنباً إلى جنب مراوغين دوريات اليانكيين على طول الطريق إلى أن وصلا إلى الميسيسيبي واقتربا من البوابة؛ جنباً إلى جنب إلى أن وصلا إلى البوابة حينها فقط بدأ أحدهما بالتخلّف عن الآخر أو التقدم عليه ثم سار هنري أمامه وأدار حصانه ليواجه بون وأشهر مسدسه؛ وسمعت جوديث وكليتي إطلاق النار، ربما كان ووش جونز قريباً في الفناء الخلفي وكان هناك وساعد كليتي وجوديث على حمله وإدخاله إلى المنزل ووضعه على السرير، وقصد ووش البلدة لإخبار الخالة روزا والخالة روزا جاءت من فورها عصر ذلك اليوم ووجدت جوديث واقفة دون أن تذرف دمعة واحدة أمام الباب الموصد، تحمل الإطار المعدني الذي أعطته إياه وصورتها داخله ولكنها لم تجد صورتها هناك وإنما صورة العشيقة والطفل: ولم يعرف رجلك العجوز بهذا الأمر أيضاً: لماذا يتخلى ابن العاهرة الأسود عن صورتها ويضع مكانها صورة العشيقة، لقد اختلق سبباً لقتله. لكنني أعرف. وأنت تعرف أيضاً. أليس كذلك؟ أليس هذا صحيحاً؟» حدق في كونتن، انحنى فوق الطاولة، نظر بتمعن وثبات مثل دب ملفوف بالأقمشة. «ألا تعرف؟ قتل لأنه قال لنفسه ‹إن لم يكن هنري يعني ما قاله، سيكون كل شيء على ما يرام؛ سأخرج الصورة وأهدم كل شيء. ولكن إن لم يكن يقصد ما يقوله، فإن الطريقة الوحيدة ستكون بأن أقول لها لم أكن مخلصاً؛ لا تحزني علي›. أليس هذا صحيحاً؟ أليس كذلك؟ حبّاً بالله، ألست محقاً؟»

قال كونتن: «أجل».

قال شريف: «هيا بنا، دعنا نخرج من هذه الثلاجة ونخلد للنوم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

–9–

بدا البرد قارساً في بادئ الأمر، في العتمة، كما لو أن المصباح الوحيد في الغرفة كان يبعث على قليل من الدفء قبل أن يطفئه شريف وأصبحت العتمة المحصّنة الحالكة إحدى ملاءات السرير الصقيعية القاسية المفروشة كيفما اتفق. ثم بدا وكأن العتمة بدأت تتنفس، تتجول في الغرفة جيئة وذهاباً؛ أصبحت النافذة التي فتحها شريف مرئية مقارنة ببياض الثلج الطاغي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ووثبت الدماء في العروق مدفوعة بثقل العتمة وصارت أدفأ، وأدفأ. «جامعة الميسيسيبي» شقّ صوت شريف العتمة ليصل إلى كونتن الذي على يمينه. «بيارد (*) يقطع أربعين ميلاً (كانت أربعين ميلاً، أليس كذلك؟)؛ اجتاز البراري مغموراً بمعاني الكبرياء والشرف التي تعلّمها في الجامعة.» قال شريف: «يا يسوع، هل تشعر بالبرد إلى هذه الدرجة؟ هل أغطيك بالمعطف؟» «لا أعرف. لا أستطيع السيطرة على هذا الارتعاش. أنا بخير». «أيتوجب عليّ ذلك؟» لم يجب كونتن. «هل تفهم الأمر؟» قال كونتن: «الآنسة روزا».

«حسناً. لا تعرفها أيضاً. لا تعرف سوى أنها رفضت أن تكون شبحاً في نهاية المطاف. حدث هذا بعد مرور خمسين عاماً وبعد فشلها في تقبّل تركه كي يرقد بسلام. حتى بعد مرور خمسين عاماً استطاعت النهوض والخروج وإنهاء ما اكتشفت أنها لم تكمله تماماً، ليس هذا فحسب، بل وعثرت على من يرافقها ويقتحم المنزل الموصد لأن حدسها أخبرها بأن الأمر لم ينته بعد. أليس هذا صحيحاً؟»

«كلا»، قال كونتن بهدوء. كان بوسعه تذوق الغبار. إلى الآن، فيما هواء نيو إنغلاند البارد يصفع وجهه، استطاع تذوق ولمس غبار تلك الليلة الخانقة من شهر أيلول في الميسيسيبي. استطاع أيضاً شم رائحة السيدة العجوز الجالسة إلى جواره في العربة، رائحة الشال العطن المشبع بالكافور وحتى رائحة المظلة السوداء القطنية التي (لم يكتشف وجودها إلى أن وصلا إلى الدار) خبّأت فيها فأساً ومصباحاً يدوياً. استطاع شمّ رائحة الحصان؛ سماع صوت عجلات العربة الخفيفة تشقّ الغبار الذي يملأ الهواء وبدا أنه يشعر بالغبار نفسه يتحرك بكسلٍ على جلده المتعرّق وسمع تنهيدة عميقة تتصاعد من لوعة الأرض الظمأى لتصل النجوم القصيّة الوحيدة. بادرت بالكلام، لأول مرة منذ غادرا جفرسون، منذ صعدت العربة بتوقٍ مشتت ومضطرب ومرتجف (حسِب أن مردّه الرعب والحيطة والحذر، إلى أن اكتشف كم كان مخطئاً في ذلك) قبل أن يمدّ يده لمساعدتها على الصعود، لتجلس في الجانب الأقصى من المقعد، بدت ضئيلة، تلف شالها المهترئ وتتشبث بالمظلة، حانية ظهرها إلى الأمام كما لو أن هذا سيسرّع من وصولها، تصل بعد الحصان مباشرة وقبل

كونتن، قبل أن تبلغ بصيرة رغبتها وحاجتها أوجها. قالت: «الآن، صرنا في مجاله. على أرضه، أرضه وأرض إلين وسلالتها. جرّدوهم الأرض، أعرف ذلك. لكنها ما تزال أرضه، أرض إلين وذرّيتها». كان كونتن يعرف ذلك. قبل أن تتحدث حدّث نفسه ‹الآن. الآن› و(خلال فترة العصر القائظة التي امتدت لساعات طويلة داخل المنزل الحار الرطب الصغير) بدا له أنه سيسمع صوت الحوافر المهرولة إن أوقف العربة وأصاخ السمع؛ ويمكن أن يرى في أية لحظة الحصان الأسود وفارسه يعدو أمامهما– الفارس الذي كان يملك كل شيء تقع عليه عيناه، دون استثناء، الأرض وكل ما عليها من أقدام وحوافر كي يتذكر (على فرض أنه نسي) أنه أكبر شيء على مدّ النظر وفي نظر نفسه أيضاً؛ من التحق بالحرب ليحمي أرضه وخسر الحرب ليعود إلى دياره ويدرك أن ما خسره كان أكبر من الحرب بكثير، على الرغم من أنه لم يخسر كل شيء تماماً؛ قال لنفسه على الأقل ما يزال العمر أمامي لكن هذا لم يحدث ولم يكن أمامه سوى الشيخوخة والتنفس والرعب والازدراء والخوف والنقمة: ولم يبق أحد لم ينظر إليه باحترام عميق سوى الفتاة التي كانت طفلة عندما رآها آخر مرة، والتي اعتادت حتماً مراقبته من النافذة أو الباب دون علمه أثناء مروره من أمامها ونظرت إليه كما تنظر إلى إلهٍ ربما، إذ إن كل شيء تقع عليه عيناها ملكه أيضاً. ربما عرّج على الكوخ وطلب ماءً فحملت الدلو وسارت مسافة ميلٍ جيئة وذهاباً لتصل إلى النبع لإحضار الماء البارد له، لم تفكر قط في إخباره بأن «الدلو فارغ» كما لن تفكر قط في إخبار الله بهذا:– لم ينته كل شيء بعد، طالما هناك نفسٌ في صدري.

عاود كونتن التنفس بصعوبة مجدداً، انتظم تنفسه لوهلة في السرير الدافئ، تنفس بصعوبة وسط الظلمة المطبقة المسكرة. لم تدعه (الآنسة كولدفيلد) يعبر البوابة. قالت فجأة «توقف»؛ شعر بيدها ترتعش فوق ذراعه وقال لنفسه ‹لماذا، إنها خائفة›. استطاع سماع صوت لهاثها، كان صوتها أشبه بنحيب عزيمة مختلفة وحديدية: «لا أعرف ما الذي عليّ فعله. لا أعرف ما الذي عليّ فعله». (‹أنا أعرف› قال لنفسه. ‹عودي إلى البلدة واذهبي للنوم›). لكنه لم يقل ذلك. نظر إلى عمودي البوابة الكبيرة الصدئة، اللذين تتأرجح البوابة تحتهما، تساءل عن الجهة التي قدِم منها بون وهنري في ذلك اليوم، تساءل عن شكل الظلّ الذي لم يعبره بون حيّاً؛ أهو ظل شجرة ما تزال تغيّر أوراقها كل موسم أم ظل شجرة ميتة، أُحرقت كي يتدفؤوا بحطبها ويطهوا الطعام قبل سنوات طويلة أو ربما ماتت من تلقاء نفسها؛ أم كان ظل العمودين نفسيهما، فكر، متمنياً أن يكون هنري هناك الآن لمنع الآنسة كولدفيلد من الدخول وليطلب منهما أن يعودا أدراجهما، قائلاً لنفسه إنه لو كان هنري هناك الآن، فلن يتردد في الأرجاء صوت طلقٍ ناري. همست الآنسة كولدفيلد «ستحاول منعي من الدخول». «أعرف ذلك. نحن بعيدان جداً عن البلدة

ولوحدنا في منتصف الليل، ربما ستطلب من الزنجي أن – لم تحضري المسدس، أليس كذلك؟»

قال كونتن: «ما الذي خبّأته هناك؟ ماذا تراه يكون؟ وما أهميته؟ دعينا نعود من حيث أتينا يا آنسة روزا».

لم تجب على هذا قط. قالت «هذا ما يتعين عليّ معرفته»، انحنت للأمام فوق المقعد، بدأت ترتجف ونظرت نحو الدار المتآكلة والدرب الذي انحنت الأشجار فوقه مشكلة أقواساً متلاحقة. همست بنبرة مثيرة للشفقة: «عليّ الآن معرفة ذلك». تحركت فجأة، همست «تعال»، وهمّت بالترجل من العربة.

قال كونتن: «انتظري. لندخل على متن العربة. إن الدار تبعد قرابة نصف ميل».

همست: «كلا، كلا»، بدت هسهسة الكلمات متوترة ومليئة بعزيمة متوجسة لكنها لا تلين رغم ذلك، كما لو أنها ليست من يتوجب عليه الدخول ومعرفة ما يجري وإنما مجرد مأجور يائس عيّنه أحدهم لاكتشاف الأمر. «اربط الحصان هنا. بسرعة» خرجت من العربة، ترجلت بتعثر مضحك، قبل أن يتمكن من مساعدتها، أمسك المظلة. خُيّل إليه أنه يسمع لهاثها المتشنج حيث وقفت تنتظر بالقرب من أحد عمودي البوابة بينما قاد المهرة وربطها على جانب الطريق إلى جوار قناة المياه المغطاة بالأعشاب. لم يستطع رؤيتها إطلاقاً، كانت ملتصقة بعمود البوابة: ثم ابتعدت ووقفت إلى جواره بعد أن استدار وعبر البوابة، كانت ما تزال تلهث بتشنج، قطعا الدرب الذي انحنت فوقه الأشجار. كانت العتمة مطبقة؛ تعثرت؛ أمسك بها. تمسّكت بذراعه، تعلّقت قبضتها القاسية الميتة بذراعه كما لو أن أصابعها ويدها تحولت إلى كتلة صغيرة من الأسلاك. همست باضطراب: «أحتاج لذراعك». قالت: «لم تحضر معك المسدس– انتظر». توقفت. استدار؛ لم يستطع رؤيتها لكنه سمع صوت أنفاسها المتسارعة ثم حفيف ملابسها. ثم دفعت شيئاً ما نحوه، همست له «خذ». «خذه». كان فأساً؛ عرف ذلك من ملمسه– فأس ذو مقبض ثقيلٍ متآكل ونصلٍ متشقق وثقيل وصدئ.

قال: «ماذا؟»

همست: «خذه! لم تحضر مسدساً. قد نحتاجها».

قال «هنا. انتظري».

همست: «تعال. عليك أن تسمح لي بالاتكاء على ذراعك، إنني أرتعش بقوة». استأنفا مسيرهما، تعلّقت بإحدى ذراعيه، أمسك الفأس بيده الثانية. قالت: «علينا على الأرجح الدخول إلى الدار، على أي حال»، مشت بتعثر وكانت تجرّه

خلفها تقريباً. همست «أعرف أنها تراقبنا من مكانٍ ما. أشعر بها. لكن إن وصلنا إلى الدار، ودخلناها–» بدا الدرب وكأنه لا ينتهي. عرف المكان. مشى من البوابة إلى الدار كالطفل، كصبي، فيما بدت المسافات بعيدة جداً (بالنسبة إلى رجل ناضج قطع أميالاً لا تُعد في شبابه كانت مجرد رمية حجر) ومع ذلك بدا له أن الدار لن تصبح في مرمى النظر قط: وجد نفسه يكرر كلماتها: ‹إن وصلنا إلى الدار، ودخلناها› قال لنفسه، وأكمل بنفس واحد: ‹لست خائفاً. أود فقط ألا أكون هنا. لا أرغب بمعرفة ما تخبئه هناك›. لكنهما وصلا أخيراً. بدت الدار غامضة ومربعة وضخمة، مداخنها متعددة وثلمة ونصف مهدّمة، سقفها متداعٍ ومتهالك يكاد يهوي؛ لوهلة سريعة أثناء سيرهما السريع، لمح كونتن جزءاً من السماء من خلال السقف وثلاث نجوم كما لو أن الدار أحد أبعاد لوحة مرسومة على قماش وثمّة دمعة أيضاً؛ الآن، تحته تماماً، بدا الهواء الآسن الذي تحركا فيه مثقلاً بعنفٍ بطيء مصان تفوح منه رائحة الدمار والخراب كما لو أن الخشب الذي صُنعت منه الدار ما هو إلا لحم بشري. صارت تهرول الآن، يدها ترتعش فوق ذراعه دون أن تخفف قبضتها وقوتها؛ لم تنطق، لم تقل ولو كلمة واحدة، ومع ذلك كانت تصدر حشرجة متشنجة وأنيناً مخنوقاً متواتراً. بدا أنها لم تعد تستطيع رؤية أي شيء الآن، وتوجب عليه توجيهها نحو الدرج ثم استوقفها، همس، مقلداً دون أن يدري طريقتها السريعة في الكلام: «مهلاً. صوت طلقٍ ناري. همست الآنسة كولدفيلد «ستحاول منعي من الدخول». «أعرف ذلك. نحن بعيدان جداً عن البلدة ولوحدنا في منتصف الليل، ربما ستطلب من الزنجي أن – لم تحضري المسدس، أليس كذلك؟»

قال كونتن: «ما الذي خبّأته هناك؟ ماذا تراه يكون؟ وما أهميته؟ دعينا نعود من حيث أتينا يا آنسة روزا». همست: «كلا، كلا»، بدت هسهسة الكلمات متوترة ومليئة بعزيمة متوجسة لكنها لا تلين رغم ذلك، كما لو أنها ليست من يتوجب عليه الدخول ومعرفة ما يجري وإنما مجرد مأجور يائس عيّنه أحدهم لاكتشاف الأمر. «اربط الحصان هنا. بسرعة» خرجت من العربة، ترجلت بتعثر مضحك، قبل أن يتمكن من مساعدتها، أمسك المظلة. خُيّل إليه أنه يسمع لهاثها المتشنج حيث وقفت تنتظر بالقرب من أحد عمودي البوابة بينما قاد المهرة وربطها على جانب الطريق إلى جوار قناة المياه المغطاة بالأعشاب. لم يستطع رؤيتها إطلاقاً، كانت ملتصقة بعمود البوابة: ثم ابتعدت ووقفت إلى جواره بعد أن استدار وعبر البوابة، كانت ما تزال تلهث بتشنج، قطعا الدرب الذي انحنت فوقه الأشجار. كانت العتمة مطبقة؛ تعثرت؛ أمسك بها. تمسّكت بذراعه، تعلّقت قبضتها القاسية الميتة بذراعه كما لو أن أصابعها ويدها تحولت إلى كتلة صغيرة من الأسلاك. همست باضطراب: «أحتاج لذراعك». قالت: «لم تحضر معك المسدس– انتظر». توقفت. استدار؛ لم يستطع رؤيتها لكنه سمع صوت أنفاسها المتسارعة ثم حفيف ملابسها. ثم دفعت شيئاً ما نحوه،

همست له «خذ». «خذه». كان فأساً؛ عرف ذلك من ملمسه– فأس ذو مقبض ثقيلٍ متآكل ونصلٍ متشقق وثقيل وصدئ. قال «هنا. انتظري».

همست: «تعال. عليك أن تسمح لي بالاتكاء على ذراعك، إنني أرتعش بقوة». استأنفا مسيرهما، تعلّقت بإحدى ذراعيه، أمسك الفأس بيده الثانية. قالت: «علينا على الأرجح الدخول إلى الدار، على أي حال»، مشت بتعثر وكانت تجرّه خلفها تقريباً. همست «أعرف أنها تراقبنا من مكانٍ ما. أشعر بها. لكن إن وصلنا إلى الدار، ودخلناها–» بدا الدرب وكأنه لا ينتهي. عرف المكان. مشى من البوابة إلى الدار كالطفل، كصبي، فيما بدت المسافات بعيدة جداً (بالنسبة إلى رجل ناضج قطع أميالاً لا تُعد في شبابه كانت مجرد رمية حجر) ومع ذلك بدا له أن الدار لن تصبح في مرمى النظر قط: وجد نفسه يكرر كلماتها: ‹إن وصلنا إلى الدار، ودخلناها› قال لنفسه، وأكمل بنفس واحد: ‹لست خائفاً. أود فقط ألا أكون هنا. لا أرغب بمعرفة ما تخبئه هناك›. لكنهما وصلا أخيراً. بدت الدار غامضة ومربعة وضخمة، مداخنها متعددة وثلمة ونصف مهدّمة، سقفها متداعٍ ومتهالك يكاد يهوي؛ لوهلة سريعة أثناء سيرهما السريع، لمح كونتن جزءاً من السماء من خلال السقف وثلاث نجوم كما لو أن الدار أحد أبعاد لوحة مرسومة على قماش وثمّة دمعة أيضاً؛ الآن، تحته تماماً، بدا الهواء الآسن الذي تحركا فيه مثقلاً بعنفٍ بطيء مصان تفوح منه رائحة الدمار والخراب كما لو أن الخشب الذي صُنعت منه الدار ما هو إلا لحم بشري. صارت تهرول الآن، يدها ترتعش فوق ذراعه دون أن تخفف قبضتها وقوتها؛ لم تنطق، لم تقل ولو كلمة واحدة، ومع ذلك كانت تصدر حشرجة متشنجة وأنيناً مخنوقاً متواتراً. بدا أنها لم تعد تستطيع رؤية أي شيء الآن، وتوجب عليه توجيهها نحو الدرج ثم استوقفها، همس، مقلداً دون أن يدري طريقتها السريعة في الكلام: «مهلاً. من هنا. احترسي، الآن. إنها متهالكة». حملها تقريباً على الدرج، أسندها من الخلف من المرفقين كما لو أنها طفل؛ أحسّ بشيء قوي ومتصلّب ينزل من الذراعين النحيلتين القاسيتين ويدخل في راحتي يديه وفي ذراعيه؛ مستلقياً في سريره في ماساتشوستس تذكر بما فكر به حينها، عرف، قال لنفسه ‹لماذا، ليست خائفة على الإطلاق. إنه شيء مريب. لكنها ليست خائفة›، شعر بيدها تتحرر من ذراعه، سمع صوت خطواتها في الردهة، سار إلى حيث تقف الآن بالقرب من الباب الأمامي غير المرئي، لاهثة. همس: «ماذا نفعل الآن؟».

همست: «اكسره. سيكون مقفلاً، اكسره. معك الفأس. اكسره».

بدأ «لكن–»

قالت: «اكسره. إنه ملك إلين. أنا أختها، وريثتها الحيّة الوحيدة. اكسره. بسرعة». اندفع نحو الباب. لم يتأثر الباب تحت وقع ضرباته. كانت تلهث إلى جواره. قالت: «بسرعة. اكسره».

قال: «رويدك يا آنسة روزا. رويدك».

«أعطني الفأس».

قال: «انتظري. هل تودين فعلاً الدخول؟».

همست: «سأدخل. أعطني الفأس».

قال: «مهلاً. مشى عبر الردهة، بمحاذاة الجدار، تحرك باحتراس لأنه لا يعرف أماكن تداعي الأرضية أو الحفرات حتى، إلى أن وصل إلى النافذة. كانت الستائر مسدلة ولا يمكن تحريكها على ما يبدو، إلا أنها وقعت بضربة واحدة من الفأس، دون أن تحدث جلبة كبيرة– ثمّة متاريس واهية ومتسخة أقامها شخص مسن وضعيف– امرأة– أو رجل قليل الحيلة؛ أدخل نصل الفأس تحت الملبن فاكتشف أن النافذة بلا زجاج، كل ما عليه فعله أن يدخل من خلال الإطار الفارغ. ثم توقف للحظة، حثّ نفسه على الدخول، مردداً على نفسه بأنه ليس خائفاً، لم يرغب بمعرفة ما الذي في الداخل. «ماذا إذاً؟» همست الآنسة كولدفيلد الواقفة عند الباب. «هل فتحته؟»

قال: «نعم». لم يهمس، إلا أنه لم يتحدث بصوتٍ عالٍ؛ ردّدت الغرفة المظلمة التي فتح بابها صدى صوته، كما لو أنها غرفة بلا أثاث. «انتظري حيث أنت. سأرى إن كان بوسعي فتح الباب». – ‹عليّ الآن الدخول› قال لنفسه، اجتاز العتبة. كان يعلم أن الغرفة فارغة؛ صدى صوته أخبره بذلك، إلا أنه تحرك ببطء وحذر بالطريقة نفسها التي دخل فيها إلى الردهة، متحسساً الحائط بيده، مشى بمحاذاة الجدار، وعندما انعطف، وجد الباب وعبره. لا بدّ أنه في الحجرة الآن؛ ظن أن بوسعه سماع أنفاس الآنسة كولدفيلد خلف الجدار تماماً. كانت مظلمة تماماً؛ لم يستطع رؤية أي شيء، عرف أنه لن يتمكن من الرؤية، ومع ذلك شعر أن عضلات أجفانه تؤلمه جرّاء التوتر فيما ظهرت بقع حمراء على شبكية عينه ثم اختفت. تابع سيره؛ شعر بالباب تحت يده أخيراً واستطاع سماع حشرجات الآنسة كولدفيلد خلفه ثم حرّر القفل. بدا صوت إشعال عود الثقاب وكأنه دوي انفجار، مسدس؛ حتى قبل أن يظهر الضوء الشحيح أعضاء جسد مشعل عود الكبريت المقرف؛ عجز عن الحراك للحظة على الرغم من أن شيئاً جنونياً هدر داخل رأسه: ‹كل شيء على ما يرام! لو كان الأمر خطراً، لما أشعل عود الثقاب!› ثم استطاع التحرك، واستدار ليرى المخلوق الهزيل الخرافي مغطى الرأس مرتدياً تنورة واسعة، وجه متعب أسمر يحدق به، أمسكت عود الثقاب بيدها السمراء النحيلة كالدمية ورفعته فوق رأسها. توقف عن مراقبتها وراقب عود الثقاب وهو يشتعل بالكامل إلى أن طال أصابعها؛ راقبها بهدوء عندما تحركت أخيراً وأشعلت عوداً ثانياً من عود الثقاب الأول واستدارت؛ رأى قطعة خشبية مربعة إلى جوار الجدار وعليها المصباح ثم رفعت الموقد وقرّبت عود الثقاب من الفتيل. تذكر ما جرى، وهو مستلقٍ في

سريره في ماساتشوستس وصار يتنفس بسرعة الآن، وهرب منه ذلك السلام والسكينة. تذكر أنها لم تقل له كلمة واحدة، لم تسأله من أنت؟ أو ما الذي تفعله هنا؟ أحضرت رزمة من المفاتيح الحديدية القديمة، كما لو أنها عرفت طوال الوقت بحتمية هذه اللحظة وأن حدوثها لا مفرّ منه، وفتحت الباب وابتعدت قليلاً لتدخل الآنسة كولدفيلد. تذكر كيف أنها (كليتي) والآنسة كولدفيلد لم تتبادلا كلمة واحدة، كما لو أن كليتي ألقت نظرة واحدة على السيدة وعرفت أن الكلام لن يجدي نفعاً؛ ثم استدارت نحوه، نحو كونتن، وضعت يدها على ذراعه وقالت، «لا تدعها تصعد إلى هناك أيها السيد الشاب». وكيف نظرت إليه وعرفت أن هذا لن يجدي نفعاً أيضاً، لأنها استدارت وأمسكت بيد الآنسة كولدفيلد وقالت «لا تصعدي إلى هناك يا روزي» أبعدت الآنسة كولدفيلد يدها عنها بقوة واتجهت نحو الدرج (لاحظ الآن أنها تحمل مصباحاً يدوياً؛ تذكر كيف فكر حينها ‹لا بد أنه كان في المظلة أيضاً مع الفأس›) وقالت كليتي «روزي» وركضت خلفها مجدداً، إلا أن الآنسة كولدفيلد استدارت وضربت كليتي وأوقعتها أرضاً بضربة قوية واحدة وكأنها يد رجل، واستدارت مجدداً واستأنفت صعودها. استلقت كليتي على الأرض الجرداء للحجرة الفارغة وبدت كخرقة نظيفة لا شكل لها. عندما وصل إليها رأى أنها واعية تماماً، عيناها مفتوحتان على اتساعهما وكانت هادئة؛ وقف فوقها، وقال لنفسه ‹نعم، إنها شخص مذعور وهلع›. عندما ساعدها على النهوض كان الأمر أشبه بحمل حزمة من العصي الملفوفة في خرقة بالية، كانت بخفة ريشة. لم تستطع النهوض؛ كان عليه أن يحملها، شعر بحركة خفيفة في أطرافها وأدرك أنها تحاول الجلوس على الدرجة السفلى. انحنى فوقها. قالت له: «من أنت؟».

أجابها: «أنا كونتن كمبسن».

«نعم. أذكر جدك. اصعد وأرغمها على النزول. أبعدها من هنا. مهما كان الذي فعله، لقد دفعتُ وجوديث وهو الثمن. اذهب وأنزلها. أبعدها عن هذا المكان». صعد الدرج، الدرجات الجرداء المتهالكة، الجدار المتشقق المقشر على إحدى جهتيه، والدرابزين المتآكل على الجهة الأخرى. تذكر كيف نظر إلى الوراء ووجدها ما تزال جالسة حيث تركها، ووجد (دون أن يشعر بدخوله) شاباً زنجياً واقفاً هناك مرتدياً سروال عمل وقميصاً، يداه مسدلتان، وجهه الأحمق خالٍ من أي تعابير وشفتاه متراخيتان. تذكر كيف قال لنفسه ‹السليل، الوريث، على ما يبدو (على الرغم من أن هذا لم يكن واضحاً)› وكيف سمع صوت خطوات الآنسة كولدفيلد ورأى ضوء المصباح يقترب على طول الحجرة العلوية وكيف دخلت وعبرته، كيف تعثرت بعض الشيء وتمالكت نفسها ونظرت بتمعن فيه كما لو أنها لم تره من قبل– العينان واسعتان لكنهما لا تريان شيئاً كما لو أنها تسير في نومها، الوجه الأبيض صار شاحباً إلى حدٍّ لا يحتمل– وفكر ‹ماذا؟ ماذا الآن؟ لست شاحبة بسبب الصدمة. ولم تكوني يوماً

خائفة. هل هذه ملامح النصر؟‹وكيف عبرته ومضت قدماً. سمع كليتي تقول للرجل «اصطحبها إلى البوابة، إلى العربة» ووقف هناك قائلاً لنفسه ‹عليّ الذهاب معها› ومن ثم ‹لكن يجب أن أرى أيضاً. عليّ ذلك. ربما سأندم غداً، لكن عليّ أن أرى›. وعندما هبط الدرج (تذكر كيف قال لنفسه ‹ربما وجهي يبدو مثل وجهها، لكن هذه ليست ملامح النصر›) كانت كليتي بمفردها في الحجرة، جالسة على الدرجة السفلى، ساكنة دون حراك كما تركها تماماً. لم تنظر إليه عندما عبرها. ولم ينظر نحو الآنسة كولدفيلد والزنجي أيضاً. كانت الظلمة على أشدها، لكنه سمعهما يمشيان أمامه. لم تضئ نور المصباح اليدوي، تذكر كيف قال لنفسه ‹طبعاً ليست خائفة من إشعال المصباح الآن›. لكنها لم تشعله وتساءل إن كانت تمسك بذراع الزنجي الآن؛ ظل هذا السؤال معلقاً في رأسه إلى أن سمع صوت الزنجي، صوت بلا نبرة، لم يضغط على الحروف ولم يبدِ أي اهتمام: «من الأفضل أن نذهب» ولم تجب، مع أنه كان قريباً بما يكفي ليسمع (أو يحسب أنه سمع) أنفاسها المتشنجة المتحشرجة. ثم سمع صوتاً آخر وعرف أنها تعثرت ووقعت أرضاً؛ تخيل وجه الزنجي الضخم يقف في طريقه، ينظر نحو مصدر صوت السقوط، انتظر، دون اهتمام أو تشوق، وأسرع (كونتن) في سيره، مقترباً من الأصوات:

«أنت أيها الزنجي، ما اسمك؟»

«يدعونني جيم بوند».

«ساعدني! لستَ مثل ستبن! لا ينبغي أن تتركني أتخبط بالطين!»

عندما أوقف العربة أمام بوابة منزلها لم تطلب أن تترجل بمفردها هذه المرة. ظلت جالسة إلى أن ترجل واقترب منها؛ ظلت جالسة دون أن تؤتي بأدنى حركة، تمسك بالمظلة بإحدى يديها والفأس باليد الأخرى، إلى أن ناداها باسمها. ثم جفلت؛ ساعدها، أنزلها؛ كانت بخفة وزن كليتي؛ عندما تحركت بدت مثل دمية آلية، أسندها وسار معها إلى البوابة ثم إلى المنزل الصغير الأشبه بمنزل الدمى وأضاء النور ونظر إلى الوجه المسرنم، العينين الداكنتين الواسعتين، وقفت ممسكة بالمظلة والفأس، تلطخ الشال والفستان بالطين عندما وقعت، فيما مالت القلنسوة إلى الأمام. قال لها: «هل أنت بخير الآن؟».

قالت: «نعم. نعم أنا بخير. تصبح على خير»– قال لنفسه ‹دون كلمة شكر. فقط تصبح على خير›، خرج من المنزل، تنفس بعمق وبسرعة ثم استدار نحو العربة، ووجد نفسه يركض، يفكر بهدوء ‹يا يسوع، يا يسوع. يا يسوع›، تنفس بسرعة وصعوبة كما لو أن الهواء من حوله صار خانقاً وكأنه في قبر، هواء ليلة تناثرت فيها النجوم وحيدة وغاضبة. كان بيته غارقاً في الظلام؛ كان ما يزال يستخدم السوط عندما دخل إلى الممر الضيق ثم إلى الإسطبل. حرّر المهرة من العربة، رفع السرج ثم أدخلها إلى غرفة السروج دون التوقف لتعليق

السرج، كان يتعرق، يتنفس بسرعة وصعوبة؛ ثم استدار أخيراً نحو المنزل وبدأ يركض. لم يستطع منع نفسه. كان في العشرين؛ لم يكن خائفاً، لأن ما شاهده هناك لم يبث الذعر في قلبه، ومع ذلك بدأ بالركض؛ واصل جريه حتى داخل البيت الذي يألفه، حذاؤه في يده، ظل يركض، صعد الدرج ودخل الغرفة وبدأ بخلع ثيابه، بسرعة، متعرقاً، يتنفس بسرعة. فكر ‹عليّ أن أستحم›: ثم استلقى على السرير، عارياً، مسح جسده بثبات بقميصه، ظل العرق يتفصد من جسده، بدأ باللهاث: عندها، بدأت عضلات عينيه تؤلمانه وتحملقان بتوتر في العتمة فيما قميصه نصف المبلل في يده، قال ‹لقد كنت نائماً› كل شيء متشابه، لا اختلاف: نزل من تلك الحجرة العلوية في يقظته أو في نومه وسار بين الجدران المتشققة وتحت السقف المتصدع، نحو الضوء الخافت القادم من آخر باب وتوقف هناك، قال ‹كلا. كلا› ثم ‹لكن عليّ أن أرى. يجب أن أرى› وتابع سيره، دخل الغرفة الجرداء العفنة التي ما تزال ستائرها مسدلة أيضاً، حيث هناك مصباح ثانٍ منار على الطاولة؛ سواء يمشي في يقظته أم في نومه لا فرق: السرير، الملاءات الصفراء والوسادة، الوجه المصفر المنهك والأجفان المغلقة على الوسادة، اليدان المتعبتان على الصدر كما لو أنه جثة هامدة؛ سواء يمشي في يقظته أم في نومه لا فرق وسيظل الأمر على هذا النحو طالما حيي:

ومن أنت–؟

هنري ستبن.

وكم مضى على وجودك هنا–؟

أربع سنوات.

ولماذا عدت إلى الدار–؟

لأموت. نعم.

لتموت؟

نعم. لأموت.

وكم مضى على وجودك هنا–؟ هنري ستبن.

صارت الغرفة باردة جداً؛ قد تدق الساعة في أية لحظة الآن لمرة واحدة؛ للبرودة طبيعة مكثفة ومتكتلة، كما لو أنها تستعد للحظة موتها مع بزوغ أولى خيوط الفجر. قال شريف: «انتظرتْ ثلاثة أشهر قبل أن تعود لإحضاره». «لِم فعلتْ ذلك؟» لم يجب كونتن. استلقى دون حراك على ظهره يلسعه برد نيو إنغلاند على وجهه فيما الدفء يسري في جذعه وأطرافه، تنفس ببطء

وصعوبة، عيناه مفتوحتان على اتساعهما تحدقان في النافذة، قال لنفسه ‹لا سلام بعد الآن. لا سلام بعد الآن. ليس بعد الآن. ليس بعد الآن. ليس بعد عندما أوقف العربة أمام بوابة منزلها لم تطلب أن تترجل بمفردها هذه المرة. ظلت جالسة إلى أن ترجل واقترب منها؛ ظلت جالسة دون أن تؤتي بأدنى حركة، تمسك بالمظلة بإحدى يديها والفأس باليد الأخرى، إلى أن ناداها باسمها. ثم جفلت؛ ساعدها، أنزلها؛ كانت بخفة وزن كليتي؛ عندما تحركت بدت مثل دمية آلية، أسندها وسار معها إلى البوابة ثم إلى المنزل الصغير الأشبه بمنزل الدمى وأضاء النور ونظر إلى الوجه المسرنم، العينين الداكنتين الواسعتين، وقفت ممسكة بالمظلة والفأس، تلطخ الشال والفستان بالطين عندما وقعت، فيما مالت القلنسوة إلى الأمام. قال لها: «هل أنت بخير الآن؟».

قالت: «نعم. نعم أنا بخير. تصبح على خير»– قال لنفسه ‹دون كلمة شكر. فقط تصبح على خير›، خرج من المنزل، تنفس بعمق وبسرعة ثم استدار نحو العربة، ووجد نفسه يركض، يفكر بهدوء ‹يا يسوع، يا يسوع. يا يسوع›، تنفس بسرعة وصعوبة كما لو أن الهواء من حوله صار خانقاً وكأنه في قبر، هواء ليلة تناثرت فيها النجوم وحيدة وغاضبة. كان بيته غارقاً في الظلام؛ كان ما يزال يستخدم السوط عندما دخل إلى الممر الضيق ثم إلى الإسطبل. حرّر المهرة من العربة، رفع السرج ثم أدخلها إلى غرفة السروج دون التوقف لتعليق السرج، كان يتعرق، يتنفس بسرعة وصعوبة؛ ثم استدار أخيراً نحو المنزل وبدأ يركض. لم يستطع منع نفسه. كان في العشرين؛ لم يكن خائفاً، لأن ما شاهده هناك لم يبث الذعر في قلبه، ومع ذلك بدأ بالركض؛ واصل جريه حتى داخل البيت الذي يألفه، حذاؤه في يده، ظل يركض، صعد الدرج ودخل الغرفة وبدأ بخلع ثيابه، بسرعة، متعرقاً، يتنفس بسرعة. فكر ‹عليّ أن أستحم›: ثم استلقى على السرير، عارياً، مسح جسده بثبات بقميصه، ظل العرق يتفصد من جسده، بدأ باللهاث: عندها، بدأت عضلات عينيه تؤلمانه وتحملقان بتوتر في العتمة فيما قميصه نصف المبلل في يده، قال ‹لقد كنت نائماً› كل شيء متشابه، لا اختلاف: نزل من تلك الحجرة العلوية في يقظته أو في نومه وسار بين الجدران المتشققة وتحت السقف المتصدع، نحو الضوء الخافت القادم من آخر باب وتوقف هناك، قال ‹كلا. كلا› ثم ‹لكن عليّ أن أرى. يجب أن أرى› وتابع سيره، دخل الغرفة الجرداء العفنة التي ما تزال ستائرها مسدلة أيضاً، حيث هناك مصباح ثانٍ منار على الطاولة؛ سواء يمشي في يقظته أم في نومه لا فرق: السرير، الملاءات الصفراء والوسادة، الوجه المصفر المنهك والأجفان المغلقة على الوسادة، اليدان المتعبتان على الصدر كما لو أنه جثة هامدة؛ سواء يمشي في يقظته أم في نومه لا فرق وسيظل الأمر على هذا النحو طالما حيي: وكم مضى على وجودك هنا–؟ لأموت. نعم. وكم مضى على وجودك هنا–؟ هنري ستبن.

صارت الغرفة باردة جداً؛ قد تدق الساعة في أية لحظة الآن لمرة واحدة؛ للبرودة طبيعة مكثفة ومتكتلة، كما لو أنها تستعد للحظة موتها مع بزوغ أولى خيوط الفجر. قال شريف: «انتظرتْ ثلاثة أشهر قبل أن تعود لإحضاره». «لِم فعلتْ ذلك؟» لم يجب كونتن. استلقى دون حراك على ظهره يلسعه برد نيو إنغلاند على وجهه فيما الدفء يسري في جذعه وأطرافه، تنفس ببطء وصعوبة، عيناه مفتوحتان على اتساعهما تحدقان في النافذة، قال لنفسه ‹لا سلام بعد الآن. لا سلام بعد الآن. ليس بعد الآن. ليس بعد الآن. ليس بعد الآن ليس بعد الآن›[55]. «هل تلمّح إلى أنها لم تعد إليه لأنها عرفت بما سيحدث عندما تروي ما جرى، وتتخذ أية خطوة، وسينتهي كل شيء، ستكون الخاتمة، وأن تلك الكراهية أشبه بالمياه أو بالمخدر الذي أدمنته لفترة طويلة ولم تعد تجرؤ على المخاطرة بقطع إمدادات الكراهية، تدمير المنبع، جذر الخشخاش ومصدره؟» ظل كونتن متمسكاً بحبال الصمت. «لكنها على الأقل تصالحت معه أخيراً، كرمى له، لإنقاذه، لإحضاره إلى البلدة كي يتسنى للأطباء إنقاذه، وروت ما جرى حينها، أحضرت الإسعاف والرجال وخرجت. ربما اكتفت العجوز كليتي بمراقبة ما يحدث من وراء النافذة العلوية على مدار ثلاثة أشهر: وربما كان رجلك العجوز مصيباً هذه المرة وعندما رأت رجال الإسعاف يعبرون البوابة ظنت أنها العربة السوداء نفسها التي طلبت من الصبي الزنجي مراقبتها إن اقتربت منذ ثلاثة أشهر، جاءت لأخذ هنري إلى البلدة كي يشنقه البيض لقتله تشارلز بون. وأظن أنه هو من أبقى الخزانة تحت الدرج مليئة بالمواد الحارقة طوال ذلك الوقت، طلبتْ منه ذلك، ربما لم يلجأ إليها حينها ولكنه أبقاها ممتلئة كما طلبت منه، الكيروسين وما شابه، لمدة ثلاثة أشهر، إلى أن حلّت الساعة وبدأ بالعويل–» دقت الساعة الآن معلنة الواحدة تماماً. توقف شريف، كما لو أنه كان ينتظر دقات الساعة كي يتوقف أو ربما كان يسمع الدقة فحسب. ما يزال كونتن مستلقياً أيضاً، كما لو أنه يصغي للدقة بدوره، إلا أنه لم يكن كذلك؛ سمع الدقات دون الاستماع إليها كما كان يسمع شريف دون أن يسمعه أو يجيبه، إلى أن توقفا، خبت وتبخرت في الهواء الصقيعي برقة وكأنها أصوات طرق على الزجاج. واستطاع كونتن ملاحظة ذلك أيضاً، على الرغم من شروده– الإسعاف والآنسة كولدفيلد تتوسط السائق والرجل الثاني، ربما كان نائب المأمور، ترتدي الشال بالطبع وربما تحمل المظلة أيضاً، قد لا يكون الفأس معها ولا المصباح اليدوي هذه المرة، دخلوا البوابة وشقوا طريقهم على طول الدرب المتجمد المحفر (ذاب بعض الثلج عنه الآن)؛ ثم جاء العويل ربما كان نائب المأمور أو السائق أو ربما هي من صرخ أولاً: «إنها تحترق!» مع أنها لن تصرخ بذلك على الأرجح؛ كانت لتقول «أسرع. أسرع»، منحنية نحو الأمام على هذا المقعد أيضاً– السيدة الضئيلة الحاقدة المتجهمة العنيدة التي لا يزيد حجمها عن حجم طفل. لكن الإسعاف لم يستطع الإسراع أكثر على ذلك الدرب؛ كليتي عرفت هذا دون ريب، عدت الدقائق، ستحتاج إلى ثلاث دقائق

كي تصل إلى الدار، تسلل دخان القوقعة العطنة الجافة سريعة الاشتعال عبر الشقوق المتعرّجة كما لو أنه مصنوع من الشاش دخانٌ مشبع بالهدير والصراخ والزمجرة، هدير بشري لأن الزمجرة موجودة في كلام البشر، على الرغم من أنها قد تكون مجهولة السبب. ترجّل نائب المأمور والسائق وتعثرت الآنسة كولدفيلد ثم تبعتهما، ركضت بدورها، دخلت إلى الردهة، حيث تبعهم المخلوق الذي كان يزمجر، مثل شبح أو طيف، نظر إليهم عبر الدخان، ثم استدار النائب وركض نحوه، فتراجع، هرب، إلا أن الزمجرة لم تتوقف ولم تستمر في الوقت نفسه. دخلوا إلى الردهة أيضاً، وسط الدخان المتسرّب، صرخت الآنسة كولدفيلد بقوة، «النافذة! النافذة!» مخاطبة الرجل الثاني الواقف عند الباب. لكن الباب لم يكن موصداً؛ كان مائلاً للداخل؛ لسعتهم حرارة اللهب. كان الدرج بأكمله يحترق. وكان عليهم حملها؛ استطاع كونتن رؤية ما جرى: المخلوق النحيل الغاضب الخفيف لم يصدر أي صوت على الإطلاق، ناضل بصمت وبغضب مرير، خدش وخمش وعضّ الرجلين اللذين حملاه، اللذين جرّاها وأنزلاها الدرج فيما بدا تيار الهواء القادم من الباب المفتوح مثل البارود الذي قد ينفجر وسط اللهب بينما احترقت الحجرة السفلية بأكملها. كان بوسع كونتن رؤية ذلك كله، استطاع رؤية النائب يحملها بينما جهّز السائق الإسعاف واستدار، الأوجه الثلاثة الآن مسعورة ولا بدّ أنهم صدقوها الآن؛ – حدق ثلاثتهم، سمّروا أعينهم على الدار الملعونة: ثم ربما ظهرت كليتي للحظة أمام تلك النافذة التي راقبت منها البوابات باستمرار ليلاً ونهاراً لمدة ثلاثة أشهر– الوجه المأساوي الخرافي تحت غطاء الرأس النظيف، خلفها نيران اللهب الحمراء، شوهدت للحظة بين عمودين من الدخان، تنظر إليهم، لم تكن نظرة ظفر ولا نظرة يأس ربما نظرة سكينة من فوق الألواح المحترقة وأعمدة الدخان المتصاعد.– وجيم بوند، الوريث، آخر سليل في عرقه، ينظر إليهم الآن ويزعق لأسبابه الخاصة حيث إنه حتى في هذه اللحظات ظلت لديه أسبابه ليزعق. لكنهم لم يستطيعوا إلقاء القبض عليه. استطاعوا سماعه؛ لم يبدُ أنه أتى بأي حركة أو حاول الابتعاد عنهم فيما لم يستطيعوا بدورهم الاقتراب منه وربما لوهلة عجزوا عن تحديد مصدر الزعيق المسعور. هما– السائق والنائب– أمسكا الآنسة كولدفيلد عندما حاولت المقاومة: استطاع كونتن رؤيتها، رؤيتهم؛ لم يكن هناك لكن كان بوسعه رؤيتها، تقاوم وتقاتل مثل دمية تتخبط في كابوس، دون صوت، ثمّة زبد على الفم، مسحة من الانعكاس القرمزي على وجهها بينما الدار تتهاوى وتتلاشى مع الهدير والصراخ، ولم يتبق لها أي أثر سوى زعيق زنجي أحمق.

شريف: «كانت الخالة روزا إذاً من عاد إلى البلدة على متن عربة الإسعاف». لم يجب كونتن؛ لم يقل حتى الآنسة روزا. استلقى محدقاً في النافذة دون أن يرمش، يتنفس العتمة الباردة المطبقة. «ذهبت للنوم لأن كل شيء قد انتهى

الآن، لم يبق شيء لتفعله، لا شيء سوى ذلك الصبي الأحمق يتسكع بين الرماد والمداخن الأربعة المدمرة ويزعق إلى أن يأتي شخص ما ويبعده. لم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه ولم يستطع أحد إبعاده، توقف عن العويل للحظة. ثم استطاعوا سماعه مجدداً بعد فترة. وماتت». لم يجب كونتن، حدّق في النافذة؛ ثم لم يستطع التمييز بين النافذة الحقيقية أو مثلث النافذة الشاحب المرتسم فوق جفونه، على الرغم من أن الصورة بدأت تتلاشى بعد لحظة. بدأت تأخذ شكلاً يشبه هيئتها الخفيفة المشوقة– الملاءة نصف المطوية وصيف الميسيسيبي وزهرة الوستاريا، رائحة السيجار، طيران اليراعات العشوائي. قال شريف: «الجنوب. الجنوب. يا يسوع. لا عجب أن تطول أعماركم أيها القوم لسنوات وسنوات وسنوات». بدا كل شيء واضحاً وجليّاً؛ سيتمكن من فك شيفرة الكلمات عمّا قريب، في غضون لحظات؛ أو ربما الآن، الآن، الآن.

قال كونتن: «أنا أكبر عمراً وأنا في العشرين من موتى عديدين». قال شريف: «وأناس كثيرون ماتوا قبل أن يصبحوا في العشرين». استطاع كونتن الآن قراءة الرسالة وإنهائها– اليد المتقلبة الساخرة في ثلج الميسيسيبي الصلب:

— ربما يهدهد هذا الألم. بالتأكيد لن يضير أحد الاعتقاد بأنها لم تُحرم على الإطلاق من امتياز الغضب والذهول وعدم الغفران وإنما على النقيض وصلت إلى ذلك المكان أو الحدود حيث لم يعد من تصبّ عليهم جام غضبها أو عطفها أشباحاً وإنما أشخاصاً حقيقيين ليكونوا متلقين حقيقيين للكراهية والشفقة. لن يضير الأمل أحد– أتلاحظ أنني كتبت الأمل، وليس التفكير. فليكن الأمل إذاً.— ستبن لا يستطيع الفكاك من الازدراء الذي يستحقه بالتأكيد، وروزا لا تحتاج بعد الآن إلى المواساة التي نأمل (طالما أننا نتعلّق بحبال الأمل) أنهم تاقوا إليها، لسبب وحيد وهو أنهم على وشك تلقي العطف سواء رغبوا بذلك أم لا. الطقس كان جميلاً وبارداً بعض الشيء وكان عليهم استخدام المعاول لكسر الأرض لحفر القبر وفي أحد كتل الطين العميقة استطعت رؤية دودة حمراء حيّة وعندما رموها عصر ذلك اليوم كانت قد تجمدت مجدداً.

«تعين على تشارلز بون وأمه التخلص من توم العجوز، وتعيّن على تشارلز بون والعشيقة التخلص من جوديث، وتعيّن على تشارلز بون وكليتي التخلص من هنري؛ وعلى أم تشارلز بون وجدة تشارلز بون التخلص من تشارلز بون. وتطلب التخلص من ستبن زنجيين، أليس كذلك؟» لم يجب كونتن؛ من الواضح أن شريف لم يكن ينتظر جواباً؛ تابع دون توقف تقريباً: «كان هذا جيداً، جيداً؛ يصفي كل الحسابات، يمكنك تمزيق كل الصفحات وإحراقها، باستثناء أمر واحد. أتعرف ما هو؟» ربما كان ينتظر جواباً هذه المرة. «تبَقى زنجي واحد. زنجي واحد تركه ستبن. لا يمكنك بالطبع الإمساك به أو رؤيته إلا لماماً ولن

تتمكن قط من استخدامه. لكنه موجود هناك. ما تزال تسمعه يزعق طوال الليل أحياناً. أليس هذا صحيحاً؟»

قال كونتن: «نعم».

«أتعرف بماذا أفكر؟» لم يتوقع جواباً هذه المرة، لكن كان لديه ما يجيب به الآن:

قال كونتن: «كلا».

«أتود أن تعرف بماذا أفكر؟»

قال كونتن: «كلا».

«سأخبرك إذاً. أعتقد أنه في وقت ما سيحتل رجال جيم بوند (الجيمس بونديين) النصف الغربي من الكرة الأرضية. لن يحدث هذا في زماننا بالطبع وبالتأكيد أثناء زحفهم نحو القطبين سيتحول لون بشرتهم إلى الأبيض مثل الأرانب والطيور، فلا يتنافر لون بشرتهم مع بياض الثلج. ولكنهم سيظلون جيم بوند؛ وخلال بضع آلاف من السنين ستتلاشى الفوارق في لون البشرة، أنا أحسب أنك انحدرت أيضاً من أسود الملوك الأفريقيين. أود منك الآن أن تخبرني أمراً أخيراً. لماذا تكره الجنوب؟»

قال كونتن بسرعة خاطفة: «أنا لا أكرهه»؛ قال «أنا لا أكرهه». قال لنفسه أنا لا أكرهه، تعالى لهاثه في الهواء البارد، وعتمة نيو إنغلاند الحالكة: أنا لا أكرهه. لا أكرهه! أنا لا أكرهه! أنا لا أكرهه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
–1–
–2–
–3–
–4–
–5–
–6–
–7–
–8–
–9–
الفهرس..

Notes

[←1] – في إشارة إلى الآية في سفر التكوين (1: 3) «وقال الله ليكن نور فكان نور». (المترجمة).

[2←] – في إشارة إلى العبودية والحرب الأهلية الأمريكية (1861–1865). (المترجمة).

[←3]

– ابنة تانتالوس ملك فريجيا وزوجة أمفيون الطيبي، وكان لديها سبعة أبناء وسبع بنات، وكانت تفخر بجمالهم، وسخرت من ليتو لأن لديها ابناً واحداً هو أبولو وابنة واحدة هي آرتميس، فاستفزهم هذا وانتقموا من نيوبي بأن قتلوا أبناءها (قتل أبولو الأبناء وقتلت أرتميس البنات) وظلت جثثهم غير مدفونة لتسعة أيام ثم دفنتهم الآلهة، وعادت نيوبي إلى وطنها وظلت تبكي حتى تحوّلت إلى حجر حيث تبكي على خسارتها للأبد. (المترجمة).

[←4]

– في إشارة إلى كاسندرا، حسب الأساطير الإغريقية، هي ابنة بريام ملك طروادة وهيكوبا. وقع إله الشمس والموسيقى والنبوءة أبولو في حبها وأعطاها موهبة التبصر كي تستجيب لحبه، لكن ما إن حصلت على الموهبة حتى سخرت من أبولو، فلعنها بأن جعل كل من يسمعها لا يصدقها. فوكنر يشير إلى روزا على أنها كاسندرا في أكثر من مكان في الرواية. (المترجمة).

[←5]

– سراويل ضيِّقة تُرتدى تحت التنانير. (المترجمة).

[←6]
– إحدى طرق سير الأحصنة حيث تسير خبباً، فتمس القدم الخلفية الأرض مساً خفيفاً قبل القدم الأمامية المعاكسة. (المترجمة).

[←7] – شعوب هندية من عرق موسكوغي، يعيشون الآن في غرب أوكلاهوما. (المترجمة).

[←8]

– إحدى حكايات الكاتب الفرنسي شارل بيرّو، وتروي قصة ملك تزوج سبع نساء وقتلهن، لأن العرّاف تنبأ له بأنه سيلقى مصرعه على يد ابنه. (المترجمة).

[←9]
– وفق الأساطير اليونانية، قتلت كليتيمنيسترا زوجها أغاممنون، لأنه قتل ابنتها إفجينيا بعد عودته من حرب طروادة. (المترجمة).

[10←]
– نهر في العالم السفلي حسب الأسطورة الإغريقية. (المترجمة).

[←11]

– حصن بحري يقع في تشارلستون، في كارولينا الجنوبية. وهو أول حصن اتحاديّ يستولي عليه الحلفاء خلال الحرب الأهلية الأمريكية. في نيسان عام 1861 طالب بيير بيورغار، وهو جنرال اتحادي، باستسلام الحصن، إلا أن الرائد روبرت أندرسن (1805–1871)، الذي كان يتولى قيادة الدفاع عن ميناء تشارلستون، رفض ذلك الطلب. وكان القصف المدفعي العنيف، الذي تلا ذلك الرفض، هو بداية الحرب الأهلية. (المترجمة).

[←12]

– أسلاف الهون والمغول، يبجلون الخيول ويستخدمونها كوسيلة لشنّ الحروب، وحكم السكوثيون أو السيثيون منطقة هائلة من السهوب الأوراسية بين شمال الصين والبحر الأسود، بين القرنين التاسع والثاني قبل الميلاد. (المترجمة).

[←13]
– وليام بلاكستون (1723–1780) قاض إنجليزي مُنح لقب «سير»، مؤلف وأستاذ متخصص في القانون، من أهم المؤثرين في تاريخ القانون الإنجليزي. (المترجمة).

[←14]
– إدوارد كوك (1552–1634)، محامٍ وقاضٍ إنجليزي مُنح لقب «سير» يعتبر من أعظم قضاة الفترة الإليزابثية واليعقوبية. (المترجمة).

[←15]
– إشارة إلى شخصية زير النساء لوثاريو في رواية دون كيشوت الشهيرة للكاتب الإسباني ميغيل دي سرفانتس. (المترجمة).

[←16]
– عدم وجود أي نقطة في آخر الفقرة دلالة على وقوع حدث قطع تسلسل الأفكار. يتكرر هذا مرات عدّة في الرواية. (المترجمة).

[←17]

– إشارة إلى قوانين «جيم كرو» التي سنّت في أواخر القرن التاسع عشر واستمرت حتى عام 1965، وحُظر بموجبها على الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية وخاصة في الجنوب حق الحصول على العمل وكذلك الدخول إلى الأماكن العامة، مثل المطاعم والفنادق وغيرها. وبموجب قانون «قطرة دم واحدة»، فإن الشخص يُحتسب زنجياً حتى لو كانت جذور قطرة دم واحدة في عروقه تعود إلى السود، بغية إدراج أكبر قدر ممكن من الناس ضمن فئة السود لاستعبادهم كرقيق. (المترجمة).

[18←] – «أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ» (إنجيل متى 29:10) (المترجمة).

[←19]

– معركة بول ران الأولى (First Battle of Bull Run) وقعت في 21 تموز 1861 وجمعت بين قوات الاتحاد وقوات الكونفدرالية، وسُميت على اسم جدول في شمال ولاية فرجينيا حيث دارت رحاها، وكانت هذه أول معركة كبيرة في الحرب الأهلية الأمريكية. (المترجمة).

[←20]
– إله الخصوبة عند اليونان، ومعروف بقضيبه الكبير المنتصب دائماً. ومن اسمه اشتقت كلمة Priapism أي مرض الانتصاب الدائم أو القساح. (المترجمة).

[21←] – موطن الأرواح التي تُحرم من دخول الجنة لأنها لم تُعمَّد قبل وفاتها. (المترجمة).

[←22]
– معركة جرت عام 1862 وتعتبر المعركة الرئيسية الأولى في الحرب الأهلية، حيث إنها أنهت سيطرة الكونفيدرالية على ولاية تينيسي. (المترجمة).

[←23]

– خط فاصل بين ولايتي بنسلفانيا ومريلاند، اعتمده الفلكيان تشارلز ماسون وجرميا ديكسون في القرن الثامن عشر على إثر خلاف بين الولايتين، ويرمز إلى الخط الفاصل بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة. ويمثّل في الواقع الحدود الشرقية الغربية التي تفصل بين الولايتين، وجزءاً من فرجينيا الغربية، والحدود الشمالية الجنوبية بين مريلاند وديلاوير. وقبل الحرب الأهلية الأمريكية، كانت الحدود الجنوبية لبنسلفانيا تُعتبر الخط الفاصل بين الولايات التي تبيح الرق وتلك التي تحظره. (المترجمة).

[←24]
– (1820–1891) جندي ورجل أعمال وكاتب أميركي، تقلّد رتبة فريق أول خلال الحرب الأهلية الأمريكية، وكان معروفاً ببطشه، واتباعه لسياسة الأرض المحروقة. (المترجمة).

[←25]
– حسب الأساطير الإغريقية، كلب الجحيم له ثلاثة رؤوس ومخالب أسد وذيل أفعى. (المترجمة).

[←26]
– إله كنعاني، عُرف بنهمه للقرابين وخاصة من الأطفال، حيث كان الأطفال يُحرقون أمام مذبحه لإرضائه. (المترجمة).

[←27]
– مخلوق خرافي في الأساطير اليونانية له رأس أسد وجسد ماعز وذيل أفعى، ويدل على السراب أو الحلم غير القابل للتحقق. (المترجمة).

[←28]

– نسبة إلى مهام هرقل البطولية الاثنتي عشرة. (المترجمة).

[←29]

– قلعة كاميلوت البريطانية الأسطورية، مقر الملك آرثر الذي انهارت مملكته بسبب خيانة زوجته غوينيفير له مع لانسلوت، أحد فرسان المائدة المستديرة، وأهم أتباع الملك آرثر المخلصين، أحب غوينيفير زوجة الملك آرثر، لكن قصة حبهما انتهت نهاية مأساوية. (المترجمة).

[←30]
– إشارة إلى منظمة كو كلوكس كلان العنصرية المتطرفة برزت عام 1985 وآمن أتباعها بتفوق البيض ونفذت هجمات دامية ضد السود والمتعاطفين معهم. (المترجمة).

[←31]
– إشارة إلى رفضه الانتساب إلى منظمة كو كلوكس كلان. (المترجمة).

[←32]

– تتمة الرسالة في الصفحة 327. (المترجمة).

[←33]
– بيير تيريل، لورد بيارد، فارس فرنسي اشتُهر في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وارتبط اسمه في الجنوب بالبطولة والفروسية. (المترجمة).

– زوجة الملك آرثر. (المترجمة).

[←34]

[←35]
– أحد أسماء الإله بعل، أي إله الذباب، ذكر في الإنجيل على أنه أمير الشياطين، وفي ملحمة «الفردوس المفقود»، للشاعر الإنجليزي جون ميلتون، على أنه بديل الشيطان. (المترجمة).

[←36]

– علامة تجارية معروفة أسسها خوسيه ويدجوود (1730–1795) لصنع الأواني والبورسلين وليس الكراسي، من الواضح أن شريف يخلط بين المنتجين للتهكم. (المترجمة).

[←37]

– بعد الحرب الأهلية، رسم الجنرال شيرمان خطة لتقسيم الأراضي الكبيرة في الجنوب وتوزيعها على العبيد الذين شاركوا في الحرب، لكن الرئيس الأمريكي أندرو جونسون الذي حكم من عام 1965 إلى 1969 ألغى الخطة. (المترجمة).

[←38]
– استخدم فوكنر كلمة chimaeras، كميرا مخلوق خرافي ينفث النار، ويشير إلى السراب أو الحلم. (المترجمة).

[←39]

– الآية في إنجيل لوقا: ‘Suffer little children to come unto Me’، «دَعُوا الأطفالَ يأْتُونَ إليَّ ولا تَمنَعوهُم»، كلمة suffer في الإنجيل ترد بمعنى «دعوا» لكن فوكنر يستخدم الفعل suffer بمعنى «يعاني»، في دلالة على العذاب الذي ذاقه تشارلز وتمزقه بين جوديث وكليتي. (المترجمة)

[40←]
– البستان الذي كان يقصده يسوع المسيح مع تلامذته للصلاة، وشهد أحداثاً مهمة عشية صلب المسيح. (المترجمة).

[41←]
– كتبها لو والاس عام 1899، وهي النسخة المسرحية من رواية «بن هر: حكاية المسيح» التي كتبها والاس عام 1880. (المترجمة).

[←42]

– المحكمة الجنائية الرئيسية في لندن، كانت ترسل المطلق سراحهم إلى فرجينيا، وكانت جيمستاون أول مستعمرة بريطانية في أمريكا، تأسست عام 1607. (المترجمة).

[←43]

– إشارة إلى ثورة العبيد في هايتي ضد المستعمرين الفرنسيين (1791–1804)، التي أنهت العبودية وأثرت على الأمريكيتين. (المترجمة).

[←44]
– اسم يُطلق على أفراد الطبقة العليا، وهي طبقة الكهنوت أو رجال الدين، عند الهندوس. (المترجمة).

[45←]

– ملائكة مذكورة في الأديان الإبراهيمية. (المترجمة).

[←46]

– ثيوفيلوس (الذي دفن بون). (المترجمة).

[47←]
– استبدل الأمريكيون خلال الحرب الأهلية القهوة بمشروبات مصنوعة من الهندباء والبندق والجوز وغيرها. (المترجمة).

[48←]
– جملة استوحاها فوكنر من ماكبث، ويكررها في معظم أعماله ومنها «الصخب والعنف». (المترجمة).

[←49]
– السير توماس دي ليتلتون (1407–1481) محام وقاض بريطاني عُرف بكتابة مبادئ ملكية الأراضي في القانون البريطاني. (المترجمة).

[←50]

– والدة بون. بحسب الأساطير الرومانية، قطن سكان سابين المنطقة الوسطى في إيطاليا القديمة، غير أن نساء سابين تعرضن للاغتصاب، وأنجبن من سيصبحون لاحقاً مؤسسي روما والعرق الجديد للرومان. (المترجمة).

[←51]
– شجر يزهر في الربيع، ويقال إن يهوذا شنق نفسه على هذا النوع من الأشجار. (المترجمة).

[←52]
– تتقاطع مع هجوم كونتن في «الصخب والعنف» على جيرالد بلاند عند تبجحه حول فحولته وجملته «هل مارست الجنس يوماً مع أختك؟ في هذا المقطع يلمّح شريف لعلاقة كونتن مع أخته كاندس. (المترجمة).

[←53]
– بدأ الاحتفال بيوم الذكرى في 30 أيار 1868 لتكريم ذكرى الأمريكيين الذين قضوا في الحرب من خلال تزيين قبورهم. (المترجمة).

[54←]
- التودية: مشروب كحولي مثل الفودكا، ويترجم مثل الفودكا، كما يُلفظ. (المترجمة).

[←55]
– حصان أسطوري ورد في القصائد الملحمية الفرنسية، معروف بقدرته الخارقة على تغيير حجمه ليناسب حجم من يمتطيه. (المترجمة).